الحرس الفتى

الجزء الثانى

ترجمة الدكتور سامى عماره

Александр Фадеев
МОЛОДАЯ ГВАРДИЯ
КНИГА II
На арабском языке

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وأبديتم لها ملاحظاتكم حول موضوع الكتاب وترجمته ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧
موسكو ، الاتحاد السوفييتى

© الترجمة الى اللغة العربية – دار التقدم ، ١٩٨١
طبع فى الاتحاد السوفييتى

Ф 70302—492 / 014(01)—81 532—81

4702010200

الفصل السادس والثلاثون

– انا ، اوليج كوشيفوى ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة ، وأمام شعبنا كله ، اقسم فى مهابة . . ان انفذ دون اعتراض أية مهام توكلها الى المنظمة ، وان احافظ على كل ما يتعلق بعملى فى الحرس الفتى سرا مكنونا . اقسم ان انتقم بلا رحمة للمدن والقرى التى خربوها واحرقوها ، ولدماء ابناء شعبنا ولموت الشهداء ابطال المناجم . واذا ما تطلب هذا الانتقام التضحية بحياتى فسوف اقدمها فداء ودون اى تردد . ولئن حنثت بهذا القسم المقدس تحت وقع التعذيب او الجبن ، فلتحل اللعنة باسمى وباهلى الى ابد الآبدين ، ولتنل منى يد رفاقى الصارمة . ان الدم بالدم والموت بالموت !

– انا ، اوليانا جروموفا . اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة ، وأمام شعبنا كله اقسم فى مهابة . .

– انا ، ايفان توركينيتش ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا المعذبة وأمام شعبنا كله اقسم فى مهابة . .

– انا ، ايفان زيمنوخوف ، اقسم فى مهابة . . .

– انا سيرجى تيولينين ، اقسم فى مهابة . .

– انا ليوبوف شيفتسوفا ، اقسم فى مهابة . .

. . . . . .

. . . . . .

من المؤكد ان هذا السيرجى ليفاشوف لم يكن قد فهمها

تماما حين جاءها آنذاك وللمرة الأولى يدق نافذتها ، فتهرع اليه ليتبادلا الحديث فى الهزيع الأخير من الليل – ومن ذا الذى كان يمكنه أن يعرف ما فى مكنون نفسه !

وعلى أى حال فان أولى المصاعب التى واجهتها فى تلك الرحلة ، كانت قد نجمت هنا فى ذلك المكان مع سيرجى ليفاشوف . اذ كانا ، وبطبيعة الحال رفيقين قديمين ، ومما جعل ليوبكا غير قادرة على الرحيل دون اخطاره . وكان سيرجى ليفاشوف قد التحق بالعمل فى جراج الادارة كسائق لاحدى سيارات اللورى وفقا لنصيحة العم اندريه يوم كان لا يزال طليق السراح . ولذا فقد ارسلت ليوبكا اليه احد الصبية الصغار الذين كانوا يلعبون بالشارع ، وتربطهم بها صلة صداقة بحكم تشابه طباعها مع طباعهم .

وفى وقت متأخر وصل سيرجى بعد انتهائه من العمل مباشرة ، وفى نفس الزى الخاص الذى عاد به من ستالينو . ولم يكن الألمان يصرفون الملابس الخاصة حتى لعمال المناجم . وكان متجهم الوجه ، نال منه التعب كثيرا وعلته القاذورات .

ولم يكن من عادته الاثقال عليها بالأسئلة حول مقصدها وسبب رحيلها ، غير ان ذلك وعلى ما يبدو كان قد شغله طوال تلك الأمسية . وقد التزم سيرجى الصمت المطبق مما اثار ليوبكا ، لتفقد فى النهاية قدرتها على التحمل ولتنفجر فيه متسائلة حول العلاقة التى تربطهما . . . عما اذا كانت حبا متبادلا ، أم علاقة زوجية ؟ انها غير قادرة على الاستكانة لمشاعر الحب حيث أن الحياة ما زالت تحمل فى طياتها الكثير الذى ينتظرها . فاى شىء يراود مخيلته اذن حتى يمضى فى تعذيبها ؟ انهما رفيقان وحسب ، وبذا تكون غير ملزمة بالافصاح عن شؤونها . انها راحلة الى حيث يلزم ذلك ، ولقضاء شؤون عائلية .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كانت تشعر بانه لا يعير اهتماما كبيرا لجدوى نشاطها ، تراوده مشاعر الغيرة بشانها مما جعلها سعيدة الى حد ما .

وقد كان من الضرورى أن تتمتع بقسط جيد من النوم ، بينما لبث سيرجى يلتزم مكانه دون ان يفكر فى الرحيل . وكان

يتسم فى سلوكه بالاصرار ، على النحو الذى يقدر معه على البقاء مكانه طوال الليل غير راغب فى الرحيل ، وحتى تقوم ليوبكا بطرده . وعلى اى حال فقد كانت تشعر بالشفقة حياله ، اذا ما استولت عليه مشاعر الكآبة ، ولذا فقد رافقته الى الحديقة حتى وصل بوابتها فتابطت ذراعه ، ثم دنت منه بجسدها قريبا قريبا ومضة من الزمن ، ثم تركته مهرولة الى داخل البيت حيث خلعت ملابسها على الفور وخلدت الى فراش أمها .

ولم يكن الأمر هينا كذلك ، وبطبيعة الحال مع امها . فقد كانت ليوبكا تدرك مدى صعوبة موقف الأم حين تبقى وحيدة فى مواجهة نكبات الحياة لا حول لها ولا قوة . غير أنه كان من السهل جدا خداعها ، ولذا فقد احتضنتها ليوبكا وراحت تسر اليها بكل ما اخذته الأم على محمل الجد ، وحتى غلبها النعاس فى مكانها الى جوار أمها .

واستيقظت ليوبكا عند مطلع الفجور وراحت تجمع حاجياتها للرحيل فيما تترنم بلحن اغنية . وقررت ان تبتسط فى ثيابها ، وحتى تحتفظ بافضل فساتينها ، الا انه كان من الواجب عليها ، ان ترتدى انصع الثياب حتى تلفت اليها الأنظار . اما افضل وافخم فساتينها الأزرق الناصع وحذاءها الأزرق وملابسها الداخلية المطرزة بالدنتلا وجواربها الحريرية فقد وضعتها فى حقيبتها . وراحت تصفف شعرها امام مرآتين صغيرتين بسيطتين تدور فيما بينهما تكاد تتبين فيهما صورتها ، فى ملابسها الداخلية ، تميل برأسها تارة هنا واخرى هناك وقد اتكئت بقدمها البضة العارية القوية ذات الأصابع الصغيرة والقوية كذلك ، فيما تترنم باغنية فى محاولة منها للقضاء على التوتر الذى اصابها . ثم قامت بارتداء حزامها الخاص بشد جوربها الذى كان من لون يميل الى لون بشرتها ، بعد ان دعكت براحتيها اخمصى قدميها ، وانتعلت حذاءها البيج ، والقت على كاهلها ثوبها الخفيف ذا النقاط الكرزية والوان اخرى ليس ثمة من يدرى كنهها .

هذا وكانت فى نفس الآن تمضغ شيئا ما ، دون ان تكف عن ترنمها .

كان تعيش بعض الاضطراب الذى لم يكن يساعدها على ارتخاء

اعصابها وحسب بل وعلى تنشيط أوصالها . وقد انتابتها فى نهاية الأمر مشاعر السعادة حيث حانت لحظة العمل ، ولن يقدر لهـا فيما بعد استنفاد قواها فيما لا يعنى شيئا .

فمنذ يومين ، توقفت صباحا أمام منزل آل شيفتسوف عربة نقل صغيرة خضراء ذات صندوق مستطيل من تلك التى كانت تنقل المواد الغذائية من فوروشيلوفجراد لضباط الادارة الألمانيـة . وهمس جندى الشرطة الذى كان يجلس الى عجلة القيادة الى الجندى الجالس الى جواره مسلحا بالرشاش ، بشىء ما جعله يقفز مـن العربة ليدلف الى البيت . وهرعت ليوبكا تستقبله حين كان قد وصل الى غرفة الطعام يجول فيما حوله بناظريه . والقى بنظرة سريعة على ليوبكا ، وقبل أن يتمكن من التفوه بكلمة واحدة ، استطاعت استنادا الى بعض قسمات وجهه وسلوكه معرفة هويته الروسية . وكان ذلك حقا ، حيث قال بروسية فصيحة :

– هل يمكن أن أجد لديكم ماء نصبه فى راديـاتير العربة ؟

روسى فى زى الشرطة الألمانية . . ياله من أمر ! انه لا يعرف أى بيت قصده سعيا وراء ذلك الماء ! واجابته ليوبكا وهى تتمعن النظر اليه بعينيها الزرقاوين :

– فلتذهب الى الشيطان ليعطيك ماء ! هل فهمت ؟

لقد وجدت وعلى الفور ، دون أدنى تفكير ما تنطقه شفتاها ازاء ذلك الروسى فى زيه الألمانى . كما وكانت تفكر فى انها ، اذا ما راودته الرغبة فى النيل منها ، قادرة على الهرولة مولولـة الى الشارع ، تجمع كل أهل الحى تخبرهم بانها لم تقل لذلك الجندى سوى أنه يمكنه التوجه للحصول على الماء من مكان آخر ، بينما راح يوسعها ضربا . بيد أن هذا السائق – الجندى الغريب لم يفعل شيئا سوى أن ابتسم قائلا :

– ان عملك لا يتسم بالرقة . وذلك أمر يمكن أن يعود عليك بالضرر .

ثم التفت فيما حوله حتى يتأكد انه ليس ثمة من يسترق السمع ، ليقول فى لهجة سريعة :

– لقد طلبت فارفارا نعومونا أن أبلغك بأنها مشتاقة اليك كثيرا .

واعترى الشحوب وجه ليوبكا لتخطو نحوه دونما وعى . غير انه سبقها محذرا حين وضع أصابعه السمراء الرقيقة الى شفتيه .

وخرج الجندى فى اثر ليوبكا التى حملت على صدرها دلو الماء تحتضنه بيديها وهى تحدق النظر فى عينيه . غير انه لم يبادلها النظر وتناول دلو الماء ، وخرج الى الشارع .

ولم تتبعه ليوبكا عن عمد ، بل راحت تراقبه من فتحة الباب الذى لم يحكم اغلاقه ، يحدوها أمل أن تعرف منه شيئا حين يعود اليها بالدلو الفارغ . غير أن السائق قام بعد أن سكب المياه فى راديـاتير السيارة ، بالقاء الدلو بحديقة المنزل ، ليأخذ مكانه خلف عجلة القيادة فى سرعة ويصفق باب العربة التى انطلقت تغادر المكان .

وهكذا تطلبت الأمور رحيل ليوبكا الى فوروشيلوفجراد . غير انها كانت وبطبيعة الحال مرتبطة بما يقتضيه نظام «الحرس الفتى» ، وذلك أمر جعلها غير قادرة على الرحيل دون ابلاغ أوليج بذلك . وللحقيقة نقول انها اعتبرت فيما سبق انه يمكنها التلميح لـه بوجود معارف لها فى فوروشيلوفجراد يمكن أن يقدموا المعونة اليهم ، وها هى اليوم تبلغه بأن الظروف قد غدت موائمة للرحيل الى هناك . بيد أن أوليج لم يسمح لها على الفور بذلك طالبا منها الانتظار بعض الوقت .

وكم كانت دهشة ليوبكا ازاء انه لم ينقض أكثر من ساعة أو ساعتين منذ لحظة حديثهما بالشقـة ، حتى جاءت اليها نينـا ايفانتسوفا تبلغها بصدور التصريح لها بالرحيل . علاوة على أنها أضافت قائلة :

– لقد طلب منى الكبار ابلاغك بضرورة اخطارهم هناك ، الى حيث أنت راحلة ، باستشهاد رفاقنا ، وبألقابهم وكيف دفنوهم بالحديقة أحياء . كما وينبغى عليك ابلاغهم بأن الأمور تسير نحو الأحسن ، وكذلك بأنباء الحرس الفتى .

ولم تمسك ليوبكا نفسها عن السؤال :

– كيف استطاع كاشوك معرفة مـا اذا كان من الممكـن ابلاغهم هناك بكل ذلك ؟

ولم تجب بشىء نينا التى تتسم بحرصها الذى اكتسبته منذ أيام

العمل السرى فى ستالينو ، سوى ان هزت كتفيها . الا انها وحين توارد الى مخيلتها احتمال ان تحجم ليوبكا عن ابلاغ كل ذلك ، ذكرت بصوت ينم عن لامبالاة :

– أعتقد أن الكبار يعرفون أولئك الذين تقصدينهم .

ودهشت ليوبكا ازاء كونها لم تعر هذه الفكرة البسيطة اهتماما .

ولم تكن ليوبكا شيفتسوفا شأن اعضاء «الحرس الفتى» الآخرين عدا فولوديا اوسموخين ، تعرف ، او تحاول ان تعرف أولئك الذين يتصل بهم اوليج كوشيفوى . غير ان فيليب بيتروفيتش كان يعرف جيدا سبب استبقاء ليوبكا فى كراسنودون ، وأسماء أولئك الموجودين على صلة بها فى فوروشيلوفجراد .

كان الجو باردا ، بينما تمرق السحب منخفضة فوق البرارى . وقد وقفت ليوبكا على طريق فوروشيلوفجراد تمسك بحقيبة ملابسها الصغيرة فى احدى يديها ، وبمعطف صيفى خفيف فى اليد الأخرى ، دون أن تشعر بتلك الرياح الباردة التى حملت الحمرة الى وجنتيها وأطاحت بذيل ثوبها الزاهى .

وكان الجنود والعرفاء الألمان الذين يمرون بجوارها على متن عربات النقل المارقة بمحركاتها الهادرة ، تنهب الطريق ، يدعونها ، فيما يضحكون عاليا ويشيرون اليها فى بعض الأحيان ، بما ينم عن مجونهم . غير انها لم تكن تعيرهم أدنى اهتمام . ووقع نظرها فيما بعد على عربة ركوب طويلة فاتحة اللون يجلس بها ضابط الى جوار السائق ، لترفع يدها مشيرة اليها فى استهتار .

والتفت الضابط الى داخل كابينة السيارة لتظهر سترة عسكرية شاحبة اللون ، من المؤكد انها كانت لضابط سامى الرتبة ، يتخذ مكانه على المقعد الخلفى للسيارة .

– هيا سريعا . . اجلسى !

قالها الضابط بالألمانية وهو يفتح باب السيارة فيما ترتسم على شفتيه ابتسامة باهتة . وصفق باب السيارة الأمامى ، ليتحول بيده بغية فتح بابها الخلفى .

واذ حنت ليوبكا هامتها ممسكة فى يدها بحقيبتها الصغيرة ومعطفها

وولجت الى داخل السيارة فى رشاقة لتصفق الباب من خلفها .

وانطلقت السيارة تنهب الطريق .

وجلست ليوبكا الى جوار عقيد نحيف أصابه الضمور ، حليق الوجه على نحو جيد ، ذى بشرة لا تتسم بالنضارة متهدل الوجنتين تعلو رأسه قبعة عسكرية باهتة اللون . وراح العقيد الألمانى وليوبكا يتبادلان النظرات على نحو يتسم بالجسارة المتباينة ، مما يعنى أن نظرات العقيد كانت تتسم بجسارة من يملك زمام السلطة ، بينما تتسم نظرات ليوبكا بجسارة من لا يملك شيئا يفقده . أما الضابط الشاب الذى كان يحتل مقعده الى جوار السائق فقد التفت بدوره الى الخلف ينظر الى ليوبكا .

وتساءل بالألمانية ذلك العقيد حليق الوجه وقد ندت عنه ابتسامة أشبه بتلك التى ترتسم على شفاه الندل :

– الى اين تأمرين بنقلك ؟

ودمدمت ليوبكا :

– لست افهم حرفا . فلتتحدث بالروسية او تلتزم الصمت !

وذكر العقيد بالروسية وهو يشيح بيده :

– الى اين . . الى اين . .

وذكرت ليوبكا :

– لقد نطق اخيرا . . الى اين . . الى اين . حمدا لك يا الهى ! الى فوروشيلوفجراد او لوجانسك . . هل فهمت ؟

ولقد فارقت الرهبة ليوبكا بمجرد أن بدأت حديثها ، لتبدو طبيعية سلسة التعامل مما يجعل كل امرئ ، بما فى ذلك العقيد الألمانى ، يتقبل كل ما تقوله أو تفعله بوصفه أمرا عاديا .

– قل لى . . كم الساعة . . الساعة ايها الأحمق !

تساءلت ليوبكا وهى تدق معصمها باصبعها .

ومد العقيد يده الطويلة الى الأمام حتى يستطيع تشمير كمه ، ثم قام بثنى مرفقه حيث دنا من وجه ليوبكا بساعته المربعة المشدودة على معصم يده التى كان يعلوها بعض الشعر الخفيف .

وفى نهاية الأمر ، يمكن للمرء اذا ما اراد فهم الآخر أن يبلغ ذلك ، دون أن يستلزم ذلك الأمر معرفة لغة أجنبية .

من تكون هذه الفتاة ؟ انها فنانة . كلا انها لا تمثل فى

المسارح ، بل ترقص وتغنى . ان لديها بطبيعة الحال فى فوروشيلوفجراد كثيرا من المعارف الذين يمكنها الاقامة لديهم ، وحيث يعرفها الكثيرون من ذوى المكانة هناك : اذ انها ابنة أحد المشاهير من رجال الصناعة ، وصاحب مناجم فى جورلوفكا ، الذى جردته السلطة السوفييتية للاسف ، من كافة ممتلكاته ليلقى حتفه بائسا فى سيبيريا ، ويترك زوجة واربع بنات يتمتعن جميعا بقدر بالغ من الجمال . نعم ، هى اصغرهن . كلا ، انها لا تستطيع الاستفادة من كرم ضيافته ، حيث ان ذلك يمكن ان يلوث سمعتها فى حين أنها ليست من تلك الفتيات . عنوانها ؟ انها يمكن ان تتركه بالتاكيد ، الا انها لا تعرف بعد مكانا لاقامتها : واذا ما سمح العقيد فيمكن أن تتفق مع الملازم المرافق له حول امكانية اللقاء .

– يبدو انك أكثر حظا منى يارودلف !

– اذا ما كان ذلك صحيحا ، فسوف أحاول من اجلك ياهر أوبرست !

هل خط الجبهة بعيد ؟ ان الأمور على الجبهة على نحو يجعل مثل تلك الفتاة الحسناء فى غنى عن الاهتمام بها . وعلى أى حال يمكنها أن تنام قريرة البال . فسوف نستولى بعد أيام على ستالينجراد . ولقد اقتحمنا القوقاز . . او يرضيها ذلك ؟ . . من الذى ذكر لها أن الجبهة عند أعالى الدون ليست بعيدة عن هذا المكان ؟ يا لأولئك الضباط الألمان ! هذا يعنى أنه ليس الثرثار الوحيد . يقال أن كل الفتيات الروسيات الجميلات يعملن بالجاسوسية . هل ذلك صحيح ؟ حسنا . . لقد حدث ذلك لأنه يعمل مجريون فى هذا القطاع من الجبهة ، وهم أفضل بطبيعة الحال من الرومانيين والايطاليين آكلى المكرونة ، نتنى الرائحة ، الا انه يستحيل الاعتماد عليهم جميعا . لقد امتد خط الجبهة طويلا الى الحد الذى لا يطاق ، فى حين تقضى ستالينجراد على الكثيرين . فهل ثمة من يستطيع امداد كل تلك المناطق بما فيه الكفاية ؟ دعينى أريك ذلك على خطوط راحتك . هاتى يدك الصغيرة . هذا الخط الكبير – الى ستالينجراد ، وهذا الخط المتقطع الى موزدوك . . . ان طابعك لا يتسم بالاستقرار ! . . والآن عليك مضاعفة كل ذلك مليون

مرة حتى يمكنك ادراك ضرورة أن يتسم المسؤول عن امدادات الجيش الألمانى باعصاب حديدية . كلا . . ينبغى الا ينحصر تفكيرها داخل اطار كونه لا يعنى بشىء سوى سراويل الجنود . ان لديه ما يمكن ان يغدو قيم المنفعة لفتاة حسناء ، أشياء جيدة . . تصلح لقدميها . انها لم تكن تفهم عمّ يتحدث . لعله يسألها عما اذا كانت تريد قطعة من الشيكولاته . لقد كانت تراوده رغبة فى تناول جرعة من النبيذ : حيث الغبار يلف الطريق . انه من الطبيعى الا تتناول الفتاة الخمر : ولكن ما رأيها فى النبيذ الفرنسى ! أوقف السيارة يا رودلف . . .

وتوقفت العربة على مسافة حوالى مائتى متر من النجع الكبير الذى انبسطت مساكنه على جانبى الطريق . وترك الجميع امكنتهم بالسيارة ، حيث توقفوا الى جوار طريق فرعى ترابى امتد عند طرف الوهدة ، العامرة باشجار الصفصاف والغارقة فى الأعشاب التى اصابها الجفاف عند منحدرها البعيد عن مواجهة الرياح . وأشار الملازم الى السائق بالانعطاف الى الطريق الفرعى نحو الوهدة . وتلاعبت الرياح بفستان ليوبكا ، التى أمسكت بذيله وراحت تتقدم الضابطين مهرولة خلف العربة وهى تغوص بحذائها فى اتربة الطريق التى سرعان ما ملأته .

وكان الملازم الذى لم تكن ليوبكا قد شاهدت وجهه تقريبا ، حيث جلس لا يبدو منه سوى ظهره الذى كسته سترته الباهتة ، والجندى السائق قد تناولا من السيارة حقيبة جلدية وسلة رفيعة الجدائل عامرة بالماكولات .

واتخذت المجموعة أماكنها على الأعشاب التى نبتت كثيفة وأصابها الجفاف على المنحدر البعيد عن مواجهة الرياح . غير أن المفرش كان عامرا بكل ما لذ وطاب ، مما كان رفضه يعد من ضروب الغباء وخاصة لكونها فتاة وابنة لأحد كبار الصناعيين ، ولذا فقد تناولته ما شاءت من طعام .

وكان التراب الذى تسلل الى حذائها يضايقها كثيرا ، وانخرطت فى التفكير فى عما اذا كانت من اللائق كابنة أحد كبار الصناعيين أن تخلع حذاءها لنفض ما علق به من أتربة ، لينتهى بها الأمر أن تخلعه ، ولتمسح براحتها اخمصى قدميها اللتين

استقرتا فى جوربها ذى اللون الفاتح ، ولتظل على هذا الحال ريثما هى جالسة . ولربما كان ذلك صحيحا ، حيث وعلى أى حال تقبله الألمان كامر من قبيل العادة .

وقد كانت على الرغم من كل ذلك تواقة لان تعرف عما اذا كان هناك الكثير من الفرق على ذلك القطاع من الجبهة القريب من كراسنودون والممتد بمحاذاة الجزء الشمالى من مقاطعة روستوف . اذ كانت ليوبكا قد عرفت من الضباط الألمان الذين اقاموا لديهم بعض الوقت أن جزءا من مقاطعة روستوف ما يزال تحت امرة القوات السوفيتية . وراحت طوال الوقت تعرب عن تخوفاتها ازاء احتمال اختراق الجبهة فى هذا القطاع لتقع من جديد فى هوة العبودية البلشفية ، ذلك الأمر الذى جعل العقيد الألمانى الذى تصور أنه سوف يقضى وقتا شاعريا ، يعيش مشاعر السخط والتبرم .

كما وقد أثارت تشككاتها بصدد فعالية السلاح الألمانى ضجر العقيد الذى اضطر فى نهاية الأمر الى ارضاء فضولها .

وريثما كانوا يتناولون الطعام والشراب ، تعالى الى اسماعهم من اتجاه النجع دبيب أقدام تقطع الطريق ، على نحو لا يتسم بالرتابة ، لم يعيروه اهتماما فى البداية . غير أن ذلك الدبيب ترامى من بعيد ، ليتنامى عاليا ، يملأ كل ارجاء الفضاء فيما حولهم ، وكأنما يسير قول بشرى طويل لا نهاية له . وقد تراءى لهم حتى من مكانهم عند منحدر الوهدة الغبار الذى حملته الرياح الى جانبى واعلى الطريق . وتناهت الى اسماعهم اصوات وصرخات السائرين ، خشنة عند الرجال ، تتسم بالتأوهات والشكوى عند النسوة ، وكأنما ينتحبن حدادا على وفاة .

وهب العقيد الألمانى والملازم وليوبكا ، يمدون رؤوسهم من مكانهم بالوهدة ، لتقع أنظارهم على قول كبير من الأسرى العسكريين السوفييت يمتد بمحاذاة الطريق الممتد من النجع ، يتولى حراسته الجنود والضباط الرومانيون . وكانت النساء القوزاقيات من مختلف الأعمار يهرولن بمحاذاة القول ، يتجاوزن فى بعض الاحيان الحرس الرومانى ، يلقين كسرات الخبز والطماطم ، والبيض واحيانا الأرغفة الكاملة أو حتى صرة ما الى الأيادى التى امتدت من القول سمراء نحيفة ، فيما ينتحبن ويولولن .

كان الأسرى يسيرون نصف عراة ، لا تكسو اجسادهم سوى بقايا سراويل وسترات عسكرية ممزقة علتها السمرة والغبار ، ما بين حفاة ومنتعلين لبقايا أحذية مهترئة ، وقد طالت لحاهم . واصابهم الضمور حتى يخيل للناظر اليهم وكأن ملابسهم علقت على هياكل عظمية . وكان من الرهيب أن يشاهدهم المرء وقد علت شفاههم ظلال ابتسامات موجهة الى النسوة اللاتى رحن يهرولن بمحاذاة القول ويبكين ، بينما كان الجنود يطردونهن بعيدا يدفعونهن بقبضات أياديهم وكعوب أسلحتهم .

ولم تنقض سوى لحظة واحدة منذ تطلعت ليوبكا من مكانها بالوهدة الى القول السائر ، حيث كانت فى اللحظة التالية ، ودون أن تذكر متى وكيف تناولت من على المفرش رغيفا أبيض وطعاما آخر ، قد راحت تهرول فى جوربها النسائى الخفيف ، حافية القدمين تقطع ذلك الطريق الفرعى غير الممهد حتى اعتلت الطريق الواسع واقتحمت القول تناول الخبز والطعام الأسرى الذين امتدت أياديهم السمراء هنا وهناك . وحاول ضابط الصف الرومانى الامساك بها الا أنها تملصت منه ، ليهوى عليها بقبضتيه ، بينما حنت رأسها تدافع عن نفسها بمرفقيها ، الأيسر تارة ، والأيمن تارة أخرى وهى تصرخ :

– لك أن تضربنى أيها الكلب الحقير . . اضرب ، لكن حذار رأسى !

واجتذبتها الأيادى القوية من داخل القول ، لتجد نفسها فى عرض الطريق ، تشاهد الملازم الألمانى يصفع ضابط الصف الرومانى بقوة ، بينما وقف معتدل القامة ضابط جيش الاحتلال الرومانى فى زيه الأخضر الفاتح ازاء العقيد الهائج شديد الشبه بالكلب الضامر ، يتمتم ببعض كلمات بلغة الروميين القدماء فى غير ترابط .

غير أنها عادت الى وعيها تماما حين وجدت حذاءها البيج قد استقر فى قدميها ، داخل سيارة الضابطين الألمانيين التى أخذت تنهب الطريق فى اتجاه فوروشيلوفجراد . وكان أكثر مما يثير الدهشة هو ان الضابطين لم يجدا فى تصرف ليوبكا أى غرابة .

وتجاوزت العربة نقطة المراقبة الألمانية دون أدنى عقبات ، لتدخل الى المدينة .

والتفت الملازم الى ليوبكا يسالها عن مقصدها . واشارت له ليوبكا التى هدأ روعها تماما الى الشارع بما يعنى الاستمرار فى السير ، وحتى ظهر منزل بدا لها مناسبا لابنة أحد أصحاب المناجم ، لتشير اليه بالتوقف عنده .

ودلفت ليوبكا الى مدخل ذلك البيت المجهول تحمل على يدها معطفها ، يتبعها الملازم الذى حمل حقيبة ملابسها . وهنا ترددت بعض الشىء ، فى حيرة من أمرها . هل لها ان تحاول التخلص من الملازم أم تطرق فى حضرته باب أول شقة تصادفها ؟ ورنت اليه بناظريها فى وداعة ليسىٔ فهم تلك النظرة ويروح يضمها اليه بيده الخالية . وفى تلك اللحظة ودون أن يراودها الغضب لطمته فى قوة على خده وهرولت ترتقى الدرج . وتقبل الملازم تلك الصفعة بوصفها أمرا طبيعيا ودون ان تتلاشى تلك الابتسامة التى كانوا يسمونها فى الروايات القديمة بالمصطنعة ، ليصعد السلم فى اثرها حاملا حقيبتها فى اذعان .

وتوقفت عند الطابق الثانى أمام شقة طرقت بابها بقبضتها فى حسم ، وكأنما هى عائدة الى بيتها بعد غيبة طويلة . وفتحت الباب سيدة فارعة القامة ، نحيفة ، تنم عن غضب وهيبة قسمات وجهها الذى ظل يحمل مسحة من جمال الماضى ، أو اعتنائها الشديد بنفسها فيما قبل . لقد وقف الحظ فى هذه المرة الى جانب ليوبكا ، وبكل تاكيد .

– دانك شين هر ليفتنانت * .

نطقتها ليوبكا بالمانية ركيكة وبجهد جهيد حيث حاولت استعراض كل ما تعرفه من كلمات تلك اللغة ، ومدت يدها تتناول حقيبتها .

وراحت السيدة التى فتحت الباب تنظر الى الملازم الألمانى والى تلك الألمانية ذات الرداء زاهى الألوان ، تكسو وجهها امارات الرعب الذى لم تستطع اخفاءه .

– لحظة !

ندت عن الملازم الذى وضع الحقيبة وتناول بسرعة من حقيبته

* شكرا ايها السيد الملازم . بالالمانية . **الناشر** .

الميدانية المعلقة الى كتفه مفكرة سجل فيها بقلم رصاص سميك بعض الكلمات ثم انتزع منها تلك الورقة لينا ولها الى ليوبكا .

وكانت الورقة تحمل عنوانه . ولم يسعف الوقت ليوبكا لا للاطلاع على ذلك العنوان ، ولا للتفكير فيما كان يمكن أن تسلكه ابنة صاحب المناجم اذا ما كانت فى مثل وضعها الحالى . ودست الورقة بسرعة فى صدرها ، واومأت فى لامبالاة الى الملازم الذى ادى التحية العسكرية لها ، ودلفت الى الردهة . وترامى الى سمع ليوبكا كيف أوصدت السيدة من خلفها الباب بمختلف اقفاله وسلاسله .

وتساءلت الفتاة الصغيرة من مكانها داخل الغرفة :

– ماما ! من الذى كان فى زيارتنا ؟

واجابتها الأم :

– اخفضى صوتك . سوف اشرح لك الآن !

وولجت ليوبكا الى الغرفة تحمل الحقيبة باحدى يديها ، بينما القت بمعطفها على يدها الأخرى .

– لقد وجهونى للسكنى معكم فى هذه الشقة . الن اضايقكم ؟

تساءلت ليوبكا وهى تنظر الى الفتاة الصغيرة فى مودة ، وتجول بناظريها فى الشقة الكبيرة ، جيدة التاثيث ، وان كانت تبدو كما المهجورة . قد تكون مسكنا لطبيب أو مهندس أو بروفيسور ، الا انه كان يبدو أن الشخص الذى جرى تاثيث الشقة على هذا النحو من أجله ، يغيب عنها اليوم .

وسالت الفتاة الصغيرة بنبرة تتسم ببعض الدهشة :

– طريف أن نعرف من الذى وجهك الينا ؟ الألمان ، أم من ؟

كان من الواضح ان الفتاة الصغيرة قد عادت على التو من الخارج ، اذ كانت رياح الشارع قد ضرّجت وجنتيها حمرة ، كما وانها لم تكن قد خلعت بعد البيريه ، بنى اللون الذى كان يعلو راسها . وكان عمرها يناهز الرابعة عشرة ، تتسم بالبدانة ، قواما ورقبة ووجنتين ، قوية البنية ، ذات عينين كستنائيتين .

وذكرت الأم فى صرامة :

– تاموتشكا ! ان هذا الأمر لا يعنينا على الاطلاق .

– كيف لا يعنينا ، اذا كانت سوف تقيم فى شقتنا .

وسالتَ السيدة فى ارتباك :

– معذرة . هل أنت المانية ؟

واجابت ليوبكا فى تردد :

كلاّ ، اننى روسية . اننى فنانة !

وخيّمت برهة من الصمت ، تمالكت فيها الفتاة الصغيرة روعها تماما ، وليبدو كل شىء واضحا فيما يخص ليوبكا .

– لقد هاجرت كل الفنانات الروسيات !

واستشاطت الفتاة غضبا لتترك الغرفة على التو .

وهكذا تحتم على ليوبكا احتساء كاس المرارة حتى الثمالة ، والتى تقض مضاجع كل غاز فى الأراضى المحتلة . لكنها كانت تدرك أنه من الأفضل لها ان تتشبث بهذه الشقة ، وبنفس الهوية التى تقبلها بها أصحاب المسكن .

وذكرت ليوبكا :

– اننى لن اقضى بينكما فترة طويلة ، حيث سوف ابحث لنفسى عن مقر دائم للاقامة .

وقد كانت تواقة لأن تلقى معاملة طيبة فى هذا المسكن ، ومضت تقول :

– اقسم اننى سوف أجد لنفسى وبسرعة مكانا للاقامة ! اين لى ان اغيّر ملابسى ؟

وبعد نصف ساعة خرجت الفنانة الروسية فى فستانها الأزرق وحذاء من نفس اللون ، وقد القت على ذراعها بمعطفها ، تتخذ طريقها نحو مزلقان السكة الحديدية ، عند المنخفض الذى يشطر المدينة الى جزئين . وقطعت طريقا ترابيا ارتقى بها الى التل حيث شارع كامينى برود . لقد وصلت الى تلك المدينة لتقديم بعض العروض الفنية ، وتقوم اليوم بالبحث عن مقر دائم لسكناها .

الفصل السابع والثلاثون

فضّل ايفان فيدوروفيتش كانسان يتسم بالحرص ، عدم اللجوء بقدر الامكان الى شقق اللقاءات التى أفردت له بما فيها الموجودة فى فوروشيلوفجراد . بيد أنه كان غاية فى الضرورة ان يتوجه ايفان

فيدوروفيتش الى فوروشيلوفجراد ، ولا سيما بعد استشهاد ياكوفينكو أول السكرتيرين الاقليميين . ولما كان رجلا يتميز بالجسارة والجراة فقد غامر باللجوء الى عون معارفه القدامى ، أى بالذهاب الى صديقة زوجته ، وهى امراة وحيدة هادئة لم يسعدها الحظ على الصعيد الشخصى ، تدعى ماشا شوبينا . وكانت تعمل رسامة هندسية فى مصنع بناء قاطرات السكك الحديدية . ولم تكن قد نزحت ضمن المهجّرين من المصنع لا مع الدفعة الأولى ولا مع الثانية ، نظرا لحبها للمدينة ، واذ كانت رغما عن كل شىء على ثقة من أنها لن تسقط ، ومن ثم يمكن ان تكون ذات جدوى .

وقرر ايفان فيدوروفيتش التوجه الى ماشا شوبينا ، وفقا لنصيحة زوجته ، وبعد ان تشاورا فى الامر خلال تلك الليلة التى قضياها فى قبو مارفا كورنينكو .

ولم يكن ايفان فيدوروفيتش ليستطيع اصطحاب زوجته ، حيث كان كلاهما قد عمل فترة طويلة فى فوروشيلوفجراد ، مما قد يجعلهما موضع انظار الجميع هناك . كما وكان من الأفضل لمصالح العمل ان تبقى يكاتيرينا بافلوفنا كى تكون على صلة بمجموعات الفدائيين ومنظمات العمل السرى فى المنطقة . ولذا كانا ليلة مبيتهما فى القبو قد اتفقا حول انه الافضل ان تبقى يكاتيرينا بافلوفنا فى ضيافة مارفا متذرعة بصلة القرابة ، لتعيش معها ، واذا ما تيسر الأمر يمكن أن تعمل كمدرسة باحدى القرى المجاورة .

وحين اتخذا هذا القرار ، توارد الى خاطريهما انهما يفترقان لأول مرة منذ بدء حياتهما الزوجية ، وفى مثل تلك الظروف التى يمكن ان تفرقهما الى الأبد .

وظلا طويلا لا ينطقان حرفا يعانق كل منهما الآخر . وفجاة راودتهما مشاعر السعادة والارتياح ازاء كونهما يجلسان متعانقين هكذا فى مثل ذلك القبو الرطب المظلم .

ولم يكونا فى حاجة الى الافصاح عن مشاعرهما ، شان كثير من العائلات القائمة منذ زمن بعيد وعلى نحو وطيد بفضل وحدة وجهات النظر ، وعمل الزوج والزوجة ، وكذلك الأطفال . وكانت المشاعر تتاجج فى اعماقهما مثل النار تحت الرماد ، تعلن عن نفسها فجاة لحظة المحن والمصاعب ، وفى السراء والضراء . وكم اجتاحتهما آنذاك

ذكريات لقاءاتهما الأولى فى حديقة لوجانسك ، وتلك الرائحة المنبعثة من أشجار الأقاصيا تغمر أرجاء المدينة ، والسماء المرصعة بالنجوم التى انبسطت فوق صباهما وأحلامهما اللامحدودة ، والسعادة بمولد الطفل الأول وأوائل الخلافات الناجمة عن تباين طباعهما ! ويالها من خلافات فانت ! اذ ليس هناك سوى النفوس الضعيفة هى التى تتهاوى ازاء مواجهة مثل هذه الخلافات ، امّا القوية فهى تلك التى تلتئم وتتلاحم الى أبد الآبدين .

ان الحب يتطلب مواجهة المحن العصيبة ، وكذلك الذكريات الحية للحظات بدايته . ذلك لأن المحن تدعم أواصر العلاقات البشرية بينما تقف الذكريات حاجزا دون تقدم السن . كم هى عظيمة قوة كلمتى «هل تذكر ؟ . .» فى معرض الطريق المشترك ، اذا ما كانت تؤرق المرء مشاعر الذكريات . ان هاتين الكلمتين لا تعبران عن الذكريات ، بقدر ما تعنيان ضوء الشباب الخالد ، والدعوة الى مواصلة الطريق نحو المستقبل . ويالله من انسان سعيد ذلك المرء الذى استطاع التمسك بهما !

وقد عاش تلك المشاعر ايفان فيدوروفيتش وكاتيا حين كانا يجلسان فى قبو مارفا كورنينكو المظلم .

لقد كانا يجلسان فى صمت ، بينما تتردد فى أعماقهما . . «هل تذكر ؟ . .» كانا يذكران على نحو خاص ذلك اليوم الذى افصح كل منهما فيه عن حقيقة مشاعره . ظلا يلتقيان على مدى شهور عديدة ، مما جعلها تعرف كل شىء تقريبا عن حقيقة تلك المشاعر من تصرفاته وأحاديثه . غير أنها لم تكن تسمح له أبدا بالافصاح صراحة عنها ، علاوة على أنها لم تكن تعده بشىء .

كان قد اقنعها بالمرور عليه فى اليوم التالى ، فى فناء مسكن الطلبة الذى كان يعيش فيه أيام كان يدرس بالمدرسة الحزبية . واعتبر موافقتها انتصارا باهرا حققه ، حيث أنها تعنى كونها لا تخجل من أن يراها رفاقه الطلبة الذين كان يغص بهم الفناء فى مثل تلك الساعة التى تنتهى فيها دراستهم .

ودلفت الى فناء المسكن المزدحم بالطلبة . وكان يتوسط الفناء بعض الطلبة الذين راحوا يمارسون لعبتهم المفضلة ، حيث شاهدته ضمنهم يرتدى قميصا أوكرانيا مفتوح الصدر ، مفعما بالمرح

والنشاط . وهرول يستقبلها آنذاك قائلا «انتظرى ، سوف نفرغ من اللعب حالا . .» وتوجه الطلبة نحوهما بأنظارهم ، ثم افسحوا لها مكانا لتجلس تشاهد اللاعبين ، الذين لم يكن هناك سواه استأثر بانتباهها .

وقد كانت تشعر دائما بالاستياء بعض الشىء ازاء كونه قصير القامة ، الا أنها وكأنما للمرة الأولى شاهدته قويا ماهرا لعوبا . وأدركت أنه يمعن الاجادة فى اللعب والاستعراض ، لكونها جالسة تشاهده كما وظل طوال الوقت يسخر من خصومه .

وآنذاك كانت قد أنتهت عملية تغطية شارع لينين بالأسفلت لأول مرة . وكان الجو حارا ، لدرجة ان اسفلت الشارع انصهر تحت أشعة الشمس ، فى حين كانا يسيران مفعمين بالسعادة . وقد سار الى جوارها فى قميصه الأوكرانى الذى أغلق صدره ، فيما استقر شعره الأشقر موجات على رأسه . وعرج الى أحد الاكشاك حيث ابتاع منه فى سرعة بعض البلح المجفف الذى حمله فى جريدة استقرت على يديه . وكان البلح ساخنا ، حلوا راحت تتناوله وحدها ، حيث انغمس هو فى حديث لا ينقطع . وكان أكثر مما علق بذاكرتها هو عدم وجود سلة للقمامة فى ذلك الشارع النظيف المغطى بالاسفلت ، مما جعلها تبقى نوى البلح فى فمها على أمل التخلص منه فى أول شارع يصادفهما يكون أسوأ حالا .

وفجأة توقف عن الحديث ، وصار يتأملها بعينيه وحتى تملكتها الحيرة ؛ ثم ذكر :

— اننى سوف اقبلك الآن ، وعلى مرأى من الجميع !

وهنا استيقظت فى أعماقها مشاعر التمرد والجموح ، لتنظر اليه شزرا من تحت أهدابها قائلة :

— اياك أن تحاول . . . والا سوف أبصق فى وجهك بكل النوى !

وسألها فى جدية :

— وهل هو كثير ؟

— حوالى اثنتى عشرة نواة !

— هيا بنا الى الحديقة ! ركضا !

وامسك بيدها ليهرولا سويا ودون ان يتيح لها فرصة

التفكير ، يقصدان الحديقة ، ضاحكين دون ان يعيرا اهتمامـــا الى البشر المحيط بهما .

هل تذكر ؟ . . هل تذكرى اية ليلة كانت آنذاك فى الحديقة؟ . .

واليوم وفى ذلك القبو المظلم مثلما كان الحال فى حديقـــة لوجانسك تحت اضواء النجوم ، دفنت كاتيا وجهها الدافئ على نحو يوحى بالثقة ، فيما بين رقبة زوجها وخـــده الذى نبت به بعض الشعر الخفيف ، وكتفه القوية . ولبثا يجلسان هكذا حتى مطلع الفجر دون أن يغمض لهما جفن . ثم قام ايفان فيدوروفيتش يضم زوجته اليه على نحو اكثر قوة ثم دفعها فى رقة قائلا :

– لقد حان الوقت ياعزيزتى . . هيا بنا يا حبيبتى !

بيد أنها لم ترفع راسها ، وظلا يجلسان على نفس النحو وحتى سيطر الضوء على كل ارجاء المكان .

وبعث ايفان فيدوروفيتش بالعجوز كورنى تيخونوفيتش وحفيده الى قاعدة ميتياكين لمعرفة مدى خسائر الفصيل . وظل ايفان يشرح للعجوز فى اسهاب كيفية العمل فى مجموعات صغيرة ، وطريقة تشكيل المجموعات الفدائية الجديدة من الفلاحين والقوزاق والعسكريين القدامى الذين استقروا بالقرى .

وريثما كانت مارفا تقدم لضيوفها الطعام استطاع احد الكهـــول من أقاربها البعيدين تجاوز خط حراسة الصبية ، والوصـــول الى المائدة فى اللحظة المناسبة . وقد تشبث ايفان فيدوروفيتش المحب للاستطلاع بالجد رغبة منه فى معرفة رأيه فى الوضع القائم . وقد كان الكهل هو ذلك الحوذى المحنـــك الذى تولى نقـــل كوشيفوى وأقاربه ، والذى صادر الجنود الألمان الذين صادفوهم ، حصانه فاتح اللون مما دفعه للعودة الى اقاربه بالقرية . وادرك الكهل على الفور أنه ازاء شخص غير عادى ، ولذا فقد راح يتلاعب فى اجاباته بالأوكرانية :

– لك أن تتصور مجمل الأمور . هاك قواتهم تزحف علينا لليوم الرابع على التوالى . ويالها من قوات هائلة ! ان الحمر لن يستطيعوا على ما يبدو العودة من جديد . وماذا يمكن قوله ، حيث المعارك تدور فيما وراء الفولجا وبالقرب من كويبيشيف ، علاوة على حصار

موسكو وسقوط لينينغراد ! ولقد ذكر هتلر أنه سوف يستولى على موسكو بعد أن يضنيها الجوع .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فيما تومض عيناه بقوة :

– أو تظننى أصدق أنك تثق فى هذه الأكاذيب ! فلتسمـــع ياصديقى المحنك ! لعل قوام كل منا لا يختلف عن الآخر ، ولذا فلتعطنى ملابسك وحذاءك ، على أن أترك لك ملابسى .

واذ ادرك الكهل جوهر الأمر نطق بالروسية يقول :

– آه . . هكذا الحال ! فلتنتظر لحظة أعود لك بعدهـــا بالملابس .

وفى غرفة ماشا شوبينـــا بشارع كامينى برود ارتمى ايفان فيدوروفيتش يرتدى ملابس ذلك الكهل ، يحمـــل على كتفه كيس ملابسه ، قصير القامة ، جعلته لحيته الكثة أشبه بالعجوز على الرغم من أنه لم يكن كذلك .

وراودته المشاعر الغريبة لحظة كان يرتدى ذلـــك القناع غير المألوف ، يذرع شوارع مدينته الحبيبة .

لقد ولد ايفان فيدوروفيتش فى تلك المدينة ، وعمل بهـــا سنوات عديدة . كما وحضر وساهم بشكل فعال فى بنـــاء كثير من المؤسسات والهيئات والنوادى والمبانى السكنية . وتذكر على سبيل المثال كيف أقر اجتماع هيئة رئاسة مجلس المدينة زراعـــة هذه الحديقة ، وكيف تولى بنفسه عملية تخطيطهـــا وغرس الشجيرات فيها . وكم من الجهود التى بذلها شخصيا لتحسين أحوال مدينته الحبيبة ، ومع ذلك كان يتعرض للوم فى اللجنة الحزبية للمدينة بسبب عدم نظافة افنية المنازل والشوارع ، حيث كان ذلك الأمر حقيقة واقعة .

وها هو اليوم يرى المبانى وقد تهاوى وتداعى بعضها نتيجة القصف الجوى ، ولم يكن يبدو واضحا للعيان كثيرا ، وفى خضم الدفاع عنها كون ذلك قد شوه منظر المدينة . غير أن الأمر لم يكن فى ذلك وحسب . فقد أقفرت المدينة على مدى بضعـــة اسابيع ، لدرجة يصعب معها أن يكون سكانها الجدد يصدقون أنهم استقروا بها الى الأبد . فلم يكن ثمة من يكنس أو يرش شوارعها ، وذبلت الخضرة والزهور فى الحديقة ، ونمت الأعشاب الطفيلية فى ارجائها

وتطايرت القمامة واعقاب السجائر مختلطة بالغبار الأحمر الكثيف .

هكذا كانت احدى عواصم منطقة مناجم الفحم ، التى كانت تحظى بقدر من البضائع أكبر من ذلك الذى تحظى به كثير من المناطق الأخرى بالبلاد ، وحيث كانت شوارعها تغص بالمارة بملابسهم الأنيقة متباينة الألوان . وكانت هذه المدينة الواقعة فى جنوب البلاد ذات طقس دافئ ، كثيرة الفواكه والزهور والحمام . اما اليوم فقد ندر من يذرع شوارعها ، بينما بدا أولئك الذين يشاهدهم المرء بها كالحى الوجوه وكأنما عن عمد ، فى ملابس متشابهة النمط والألوان انتقيت فى لامبالاة . أما المنظر العام للشارع فكان يشكله جنود وضباط الاعداء بستراتهم العسكرية وعلامات اكتافهم وشاراتهم ، والذين كانوا فى غالبيتهم من الألمان والايطاليين وكذلك الرومانيين والمجريين ، تترامى الى الأسماع أصواتهم وهدير محركات وأبواق سياراتهم التى تنهب الشوارع تثير الزوابع الترابية . ولم يحدث أبدا أن شعر ايفان فيدوروفيتش طيلة حياته بمثل هذا الأسى والشفقة والحب تجاه مدينته وأهلها .

لقد اجتاحته مشاعر أشبه بتلك التى يعيشها المرء حين يطردونه من بيته ، ليتسلل خلسة عائدا اليه ، وليجد أن الاصحاب الجدد ينهبون كل ما فيه ، يستولون بأياديهم القذرة على كل ما هو عزيز لديه ، يهينون ذويه ، فيما لا يستطيع شيئا سوى النظر اليهم ، عاجزا عن التصدى لكل ذلك .

وقد تركت هذه الهموم والكآبة بصماتها على صديقة زوجته فى ردائها الأسود البالى ، والتى عقدت شعرها الأصفر فوق راسها فى غير مبالاة ، تنتعل شبشبا فى قدميها اللتين لم تمسهما المياه منذ زمن بعيد . وكان باديا انها تنام هكذا غير نظيفة القدمين .

ولم يتمالك ايفان فيدوروفيتش نفسه ليصيح :

– ماشا ! هل يمكن التدنى الى هذا الحد !

وتطلعت الى نفسها فى فتور ثم قالت :

– أحقا تقولون ؟ اننى لم ألحظ فى ذلك شيئا غريبا . وعلى أى حال فان ذلك افضل ، حيث ليس ثمة من أسترعى انتباهه على هذا النحو . علاوة على أن المياه مقطوعة عن المدينة .

وصمتت ، ليتاملها ايفان فيدوروفيتش وليجد انها قد غدت نحيفة تعيش فى غرفة ليس بها ما يدعو الى الراحة ؛ وظنها تكون قد واجهت بالتاكيد الجوع الذى ارغمها على بيع كل ما تملكها .

وشرع يقول فى ارتباك وقد استقر الى جوار كيس حاجياته :

– هيا بنا نتناول طعامنا . لقد أعدت لى احدى السيدات الطيبات الذكيات ما يمكن أن يكفينا شر الجوع .

ودفنت وجهها بين راحتيها قائلة :

– يا الهى . . هل تظن أن هذا السبب ؟ فلتأخذونى معكم الى كاتيا ، اننى على استعداد لخدمتكم جميعا ، وتقديم كل ما فى وسعى ! اننى مستعدة للقيام باعباء خادمة ، حتى اتخلص من تلك المهانة اليومية ، ومن ذلك الموت البطىء بلا عمل أو هدف فى هذه الحياة !

لقد كانت تخاطبه كعادتها بصيغة الاحترام ، على الرغم من انها كانت تعرفه منذ تزوج كاتيا ، صديقتها منذ سنى الطفولة . وقد كان يعرف فيما سبق انها لا تستطيع مخاطبته بصيغة المفرد ، حيث هى عاجزة عن التخلص من تلك المسافة التى تفصل فيما بينها هى الرسامة الهندسية وهو الشخصية القيادية المرموقة .

وكست تجعيدة عميقة طويلة جبهة ايفان فيدوروفيتش الذى اتسمت عيناه الزرقاوان بأمارات قلق مشوب بالصرامة ، وصار يقول دون ان ينظر اليها :

– اننى سوف اتحدث معك بصراحة ، وربما فى خشونة . ماشا ! لوكان الأمر يخصك ويخصنى وحدنا ، لاستطعت ان آخذك معى الى كاتيا لاخفاء كليكما ، والاختفاء بنفسى .

ثم ضحك فى مرارة ، ليمضى قائلا :

– نعم ، اننى خادم الدولة وأود أن تقومى أنت كذلك بخدمة دولتنا . اننى لن آخذك معى وحسب ، بل وارغب فى القائك الى أتون الجحيم . فلتجيبى صراحة . . هل أنت موافقة ؟ هل ستجدين فى نفسك القوة الكافية لمواجهة ذلك ؟

وأجابته :

– اننى موافقة على كل شىء ، وكى لا اعيش مثل هذه الحياة التى أعيشها .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فى صرامة :

– كلا . . ان هذه ليست اجابة – اننى لا اقترح عليك حلا للتخفيف عن همومك . اننى اسألك عما كنت على استعداد لخدمة الشعب والدولة .

واجابت فى هدوء :

– اننى موافقة !

ومال بسرعة تجاهها ليمسك بيدها فيما يجلسان حول المائدة .

– ينبغى الاتصال برجالنا فى المدينة ، بيد أن بعض الشقق قد سقطت ، ولذا فلست على يقين بعد على أية من الشقق يمكن الاعتماد . يجب أن تجدى فى نفسك الجسارة والدهاء ، وعلى نحو يفضل الشيطان نفسه . ينبغى التأكد من الشقق التى سوف اعطيك عناوينها . هل تستطيعين ذلك ؟

– نعم ، استطيع .

– ان اكتشفوا امرك فسوف يعذبونك على نار هادئة . الن تشى بنا ؟

ولزمت الصمت بعض الوقت وكانما تراجع روحها ، ثم قالت :

– لن اشى بكم .

– اذن فلتسمعينى . . .

وعلى ضوء مصباح الزيت الخافت للغاية ، مال قريبا منها بحيث استطاعت أن تلحظ آثار ذلك الندب الحديث على فوده الصليع ، ليهمس اليها بعنوان احدى الشقق فى نفس منطقة كامينى برود ، والتى تصورها اكثر أمانا من غيرها . وكانت هذه الشقة تشكل اهمية خاصة بالنسبة له حيث كان يستطيع عن طريقها الاتصال بقيادة فدائيى أوكرانيا ، ومعرفة كل ما يدور ليس فى المقاطعة وحدها ، بل وفى الأراضى السوفييتية ، وفى العالم أجمع .

وأعلنت ماشا عن استعدادها للذهاب توا الى هناك : ومست شغاف قلب ايفان فيدوروفيتش تلك التضحية الساذجة المشوبة بعدم الخبرة . ووميضت عيناه فى دهاء ، ليقول معاتبا فى مرح وطيبة :

– وهل يعقل هذا ! ان ذلك عمل يتطلب دقة متناهية كما

فى بيوت الأزياء . انك سوف تذهبين فى حرية وفى وضح النهار ، وسوف اعلمك كيف وماذا . . اننى ملزم بحمايتك ! من صاحب ذلك البيت ؟

كانت ماشا تستأجر احدى غرف ذلك المنزل الصغير الذى يئول الى أحد العمال القدامى بمصنع بناء قاطرات السكك الحديدية ، والمشيد من الأحجار ، يشطره قسمين دهليز ذو مدخلين ، يفضى احدهما الى الشارع ، والآخر الى الفناء الذى يحيط به جدار حجرى منخفض . وكان أحد هذين القسمين مكونا من غرفة ومطبخ ، أما القسم الآخر ، فمن غرفتين صغيرتين كانت ماشا تستأجر احداهما . وكان للكهل صاحب المنزل أولاد كثيرون فارقوه جميعا ، انخرط احدهم فى صفوف الجيش ، بينما هاجر الآخر ، وتزوجت بناته ورحلن الى مدن اخرى . وذكرت ماشا ان صاحب المنزل كان متيسر الحال بعض الشىء ، منطويا على نفسه ، يهوى القراءة ويتسم بالأمانة والشرف .

– اننى سوف اقدمكم بوصفكم خالى ، شقيق امى الأوكرانية القادم من القرية ، بعد أن كتبت لكم للحضور ، حيث تصعب على الحياة وحدى .

وذكر ايفان فيدوروفيتش ساخرا :

– حسنا ، فلتعرفى خالك على صاحب البيت ، ولننظر الى مدى انطوائه !

– أى عمل يمكن القيام به ؟ عن أى عمل تتحدث ؟

دمدم ذلك «المنطوى» على نفسه ، فيما يحدق بناظريه الكبيرين فى لحية ايفان فيدوروفيتش والندب الذى علا فوده الأيمن ، ثم مضى يقول :

– لقد قمنا باخلاء المصنع من آلاته مرتين ، بينما قصفه الألمان عدة مرات . كنا نصنع قاطرات السكك الحديدية ، والدبابات والمدافع ، أما اليوم فنقوم بتصليح وابورات الجاز و«الولاعات» . غير انه وبطبيعة الحال بقيت بعض المعدات ، واذا ما بذل الانسان جهده جيدا يمكن أن يجد كثيرا من الآلات هنا وهناك ، وذلك أمر يتطلب رب عمل جاد . أما ارباب العمل الحاليون – واشاح بقبضة قوية ليده الصغيرة المعروقة – فهم قوم غير جادين ! انهم لصوص

صغار ! هل تصدق أنه قد جرى تقسيم المصنع فيما بين ثلاثة من الملاك : كروب – الذى اشترى اسهم هارتمان الذى كان من قبل يملك المصنع ، وادارة السكك الحديدية ، وشركة الكهرباء التى آلت اليها محطة الكهرباء الحرارية ، وان كان رجالنا قد فجروها قبل الرحيل . وقد راح هؤلاء الملاك يذرعون المصنع ذهابا وايابا ، ثم اتفقوا فيما بينهم على تقسيم المصنع الى ثلاثة اقسام . وشر البلية ما يضحك . لقد راحوا يقسمون ذلك المصنع الذى تداعت جدرانه بوضع الشواهد كحال الفلاحين ايام القيصر حين كانوا يحددون مساحات اراضيهم ، كما وبلغ بهم الأمر أن فعلوا ذلك حتى عبر الطرق التى تربط اجزاء المصنع ، وحفروا فيه الحفر مثل الخنازير . هكذا جرى تقسيم المصنع ! وراح كل منهم ينقل معدات الجزء الخاص به الى ألمانيا ، أما المعدات البسيطة غير ذات القيمة فقد راحوا يتجرون بها هنا وهناك كالمضاربين فى الأسواق ، فى حين راح عمالنا يسخرون منهم قائلين : «لقد أنعم الله على الملاك الجدد !» . انك تعلم اية احجام من العمل تعودنا عليها فى السنوات الأخيرة ، ولذا يصعب علينا ليس فقط الوقوف امام مثل هذه المعدات ، بل والنظر اليها ايضا . وهكذا يصبح الأمر حقيقة . . شر البلية ما يضحك !

لقد تجمع حول مصباح الزيت الخافت ايفان فيدوروفيتش بلحيته الطويلة ، وماشا التى التزمت الصمت المأساة كامراة عجوز ، وذلك الرجل «المنطوى» ، فيما راحت ظلالهم تتلاقى لتفترق وتضيع على جدران الغرفة وسقفها . وبدا جميع الجالسين وكأنما هم من اهل الكهف . كان «المنطوى» يبلغ من العمر حوالى السبعين ، قصير القامة ، نحيف البنية ، ضخم الراس يصعب على بنيانه تحملها ، تتسم نبراته بالرتابة والكآبة لتبدو كل كلماته متشابكة غير واضحة . أما ايفان فيدوروفيتش فقد كان يرتاح لسماع حديث العجوز ، حيث كان يتسم بالذكاء والاخلاص ، وكذلك لأنه راق له أن يجد عاملا يتحدث هكذا فى اسهاب ، ويشرح بالتفصيل كافة الشؤون الصناعية فى ظل الألمان لانسان قابله بمحض الصدفة .

ورغما عن ذلك فلم يطق ايفان فيدوروفيتش صبرا ، ليدلى بوجهة نظره :

– اننا فى القرية نتصور ان الألمان ليسوا فى حاجة الى تطوير الصناعة هنا فى أوكرانيا ، حيث يهمهم تطويرها هناك فى ألمانيا . انهم لا يحتاجون منا سوى الحبوب والفحم ، يتصورون أوكرانيا مستعمرة لهم ، أما نحن فنوع من العبيد .

وتصور ايفان فيدوروفيتش أن «المنطوى» ينظر اليه فى دهشة ، لتند عن شفتيه ابتسامة سافرة ثم مضى يقول :

– ليس ثمة ما يدعو الى الدهشة ازاء تفكير شعبنا على هذا النمط . فلقد نمى وعيه كثيرا .

وذكر الرجل دون أن تند عنه أية من امارات الدهشة ازاء احكام ايفان فيدوروفيتش :

– هذه هى القضية . حسنا . . فلنفترض أنها مستعمرة ، فهل هذا يعنى أنهم اهتموا بتطوير اقتصاديات القرية ؟

وضحك ايفان فيدوروفيتش ليقول فى هدوء :

– اننا نقوم بأنفسنا ببذر البذور وحراثة الأرض دون الاستعانة بمعدات أو جرارات ، وانت تدرك أن هذا من يعود بالكثير .

ولم تعتر الدهشة «المنطوى» ازاء ذلك أيضا ليقول فى هدوء :

– هذه هى القضية كذلك . انهم لا يجيدون الادارة . لقد تعودوا قطف ثمار عمل الآخرين كقطاع الطرق . هكذا يعيشون فيما يظنون أنهم قادرون على اخضاع العالم بمثل هذه الثقافة . يا لهم من أغبياء !

وفكر ايفان فيدوروفيتش فيما بين نفسه بارتياح :

«اه ، منك يا عجوز ! كم انت اكثر قوة ومهارة منى انا الفلاح !»

وتساءل الرجل دون أن تتغير نبرته :

– هل رآك احد حين جئت الى ابنة شقيقتك ؟

– ليس هناك من رآنى ، كما انه ليس ثمة ما أخافه . اننى أحمل الوثائق المطلوبة .

وذكر الرجل فى دهاء :

– اننى أفهم هذا . بيد أن النظام يحتم ابلاغ الشرطة بوجودك ، الا أنه اذا ما كنت لا تنوى الاقامة طويلا ، فمن الأفضل الا نفعل ذلك . ولذا أقول لك صراحة يا ايفان فيدوروفيتش اننى عرفتك على التو ، حيث كنت قد زرت مصنعنا مرارا ، واخشى ان يراك احد ضعاف النفوس .

كلا . . لقد أصابت زوجته حين ذكرت أنه محظوظ منذ الولادة !

وفى وقت مبكر من صباح اليوم التالى ذهبت ماشا الى العنوان المطلوب لتعود الى ايفان فيدوروفيتش بمجهول القى بالتحية على صاحب البيت وكأنما هما صاحبان قديمان مما اذهل ايفان فيدوروفيتش وماشا . وقد عرف ايفان فيدوروفيتش من ذلك الشخص أن صاحب البيت «المنطوى» احد اولئك الذين استبقيوا للعمل السرى .

كما وعلم ايفان فيدوروفيتش من هذا الشخص ولأول مرة بمدى توغل الألمان فى أعماق بلادنا ، اذ كانت قد بدأت آنذاك معركة ستالينجراد العظمى . وقضى ايفان فيدوروفيتش الأيام التالية فى مراجعة الأمور ، وبعث الاتصالات فى المدينة وكافة أرجاء المقاطعة .

وجاء نفس الشخص الذى استطاع ايفان فيدوروفيتش الاتصال عن طريقه بمنظمة العمل السرى بالمدينة ، بليوبكا – الفنانة حين كان منكبا على تصريف أمور العمل .

واذا استمع ايفان فيدوروفيتش الى كل ما استطاعت ليوبكا ان تقصه عليه بشأن استشهاد المعتقلين فى سجن كراسنودون ، جلس مكتئبا بعض الوقت غير قادر على ان يلفظ حرفا . لقد كان حزينا ، وحزينا للغاية بسبب استشهاد ماتفى كوستيفيتش وفالكو . وراح يفكر : «كم كانا فوزاقيين يتميزان بالطيبة» . ثم تواردت الى خاطره فجأة فكرة بشأن ما قد يحدث لزوجته التى بقيت وحدها هناك . ثم قال :

– حقا . . يا لصعوبة العمل السرى ! ان العالم لم يشهد قط أمرا على هذا القدر من الصعوبة .

وراح يذرع الغرفة ويتحدث مع ليوبكا وكأنما يتحدث مع نفسه :

– ان ثمة من يقارن عملنا السرى بمثيله ايام فترة التدخل الأجنبى وتسلط البيض أبان ثورة أكتوبر . . فهل هناك وجه للمقارنة ؟ ان قوة ارهاب هؤلاء الأوغاد تبلغ حدا يجعل البيض الى جوارهم اطفالا . انهم يقتلون البشر بالملايين ! غير اننا نملك عنصر تفوق لم يكن موجودا آنذاك ، ذلك ان رجالنا للعمل السرى ، وفدائيينا يعتمدون على كل قدرات حزبنا ودولتنا ، وقوة جيشنا الأحمر . كما ويملك فدائيونا وعيا أسمى ، وقدرة تنظيمية أفضل ومعدات واسلحة وسبل اتصال أكثر حداثة . وينبغى علينا أن نوضح للشعب كل ذلك . ان أعداءنا يتسمون بنقطة ضعف لا توجد عند أى امرئ آخر . انهم اغبياء لا يتصرفون الا وفقا للتعليمات وحسب جدول واطار محددين ، يعيشون بين أبناء شعبنا فى ظلمة تامة ، لا يدركون شيئا . وتلك أمور يجب علينا استغلالها .

ثم توقف ايفان فيدوروفيتش قبالة ليوبكا برهة ، مضى بعدها ثانية يذرع الغرفة من اقصاها الى اقصاها قائلا :

– ينبغى شرح كل ذلك للشعب ، حتى لا يخشاهم وكى يتعلم خداعهم ينبغى تنظيم الشعب ، وسوف يجد بنفسه فى نفسه القوة اللازمة . يجب تشكيل مجموعات العمل السرى الصغيرة فى كل مكان ، والتى يمكن أن تعمل فى المناجم والقرى . يجب على الناس الا تتخذ الغابات مخبأ لهم . . اننا ويا للشيطان ، نعيش فى أراضى الدونباس ! يجب علينا أن نقصد المناجم ، والقرى بل والمؤسسات الألمانية نفسها . . مكتب العمل ، ومكاتب الادارة والمديريات ، ومجالس الحكم فى الأرياف ، والشرطة ، بل والجستابو نفسه . يجب أن ننشر الأرهاب وأن نقوم بالأعمال التخريبية فى الداخل ، ودون أدنى شفقة ! ينبغى تشكيل المجموعات الصغيرة من السكان المحليين ، من العمال والقرويين والشباب ، جماعات تتكون فى حدود خمسة أفراد ، لكن فى كل مكان ، وكل زمان . اليس ذلك صحيحا ؟

ثم مضى يقول فيما تجتاحه مشاعر تنم عن رغبته الجارفة فى الانتقام والثأر ، انتقلت تلقائيا الى ليوبكا حتى ضاق صدرها :

– سوف تصطك اسنان هذا العدو رعبا !

وهنا تذكر ايفان فيدوروفيتش ما أبلغته به ليوبكا بناء على «تكليف من الكبار» :

– هذا يعنى أن الأمور لديكم تسير نحو الأفضل ؟ انها تسير فى المواقع الأخرى كذلك . وليس ثمة عمل كهذا يمكن أن يتم دونما تضحيات . ما اسمك ؟ آه . . هكذا الحال . كلا . . لا يمكن أن تكونى قد بلغت من النضج هذه الدرجـــة ، ومع ذلك يدللونك بليوبكا . انك ليوبا ! – وهنا ومضت عيناه على نحو يوحى بالمرح . ثم مضى قائلا : فلتقصى ما لديك من اخبار أخرى !

وعلى نحو بالغ النصاعة تخيلت ليوبكا نفسها وقد وقفوا هم السبعة صفا واحدا فى تلك الغرفة ، بينما كانت السحب الواطئـــة تسبح فى السماء فيما وراء النافذة . كان الشحوب يعلو وجه كل من يتقدم ذلك الصف ، بينما كان صوته يعلو مرددا القسم فى نبرات رنانة ، تخفى تلك الرجفة المبجلة . وفجأة انفصل ذلك القسم الذى وضع كلماته أوليج وفانيا زيمنوخوف واقره جميعهم ، ليحوم فوق رؤوسهم ، يفوق القانون قوة وصرامة . وتذكرت ليوبكا كل ذلك ، ليمتقع وجهها اضطرابا ، وتبدو عيناها الزرقاوان الطفوليتان أكثر تعبيرا ، ثم قالت :

– نحن فى حاجة الى العون والمشورة .

– من هم نحن ؟

– نحن «الحرس الفتى» . ان قائدنا هو ايفان توركينيتش ، ملازم الجيش الأحمر ، وقع فى الحصار لاصابته بجراح . أمـــا القوميسار – المسؤول السياسى – فهو أوليج كوشيفوى من تلاميذ مدرسة جوركى . ويبلغ عددنا اليوم ثلاثين تقريبا ، اقسموا يمين الاخلاص . وقد جرى تقسيمنا فى مجموعات كل منها خمسة افراد ، كما ذكرتم . وكان أوليج هو الذى اقترح ذلك .

– ربما يكون الكبار هم الذين أشاروا بذلك .

وهنا استدرك ايفان فيدوروفيتش الأمر ليقول :

– ان أوليج انسان جيد على كل حال !

واعترت ايفان فيدوروفيتش دفقة من النشاط غير عادية ليجلس قبالة ليوبكا التى اجلسها امامه يطلب منها أن تذكر أسماء كل اعضاء القيادة ورأيها فى كل منهم .

وحين بلغت ليوبكا اسم ستاخوفيتش ، زرّ ايفان فيدوروفيتش عينيه ، ولمس يدها متسائلا :

– انتظرى . . ما اسمه ؟

– يفجينى .

– هل كان معكم طوال الوقت ، أم جاء اليكم من مكان ما ؟

وقصت ليوبكا عليه كيف ظهر ستاخوفيتش فى كراسنودون ، وماذا ذكر عن نفسه .

– عليكم أن تأخذوا حذركم من هذا الفتى ، وأن تضعـــوه فى اطار مراقبتكم .

وحدّث ايفان فيدوروفيتش ليوبكـــــا عن ظروف اختفـــاء ستاخوفيتش من فصيل الفدائيين ، ثم ذكر على الفور :

– لربما يكون قد وقع فى قبضة الألمان .

وارتسمت امارات القلق على وجه ليوبكا ، ولا سيما لأنها لم تكن تحب ستاخوفيتش . ورنت بنظرها بعض الوقت فى صمت الى ايفان فيدوروفيتش ، ثم انشرح وجهها وومضت عيناها لتقول فى هدوء :

– كلا ، ان ذلك مستحيل . لعله جبن ولاذ بالفرار .

– لماذا تظنين الأمر هكذا ؟

– ان الشباب يعرفونه منذ زمن بعيد كعضو فى الكومسومول ، وهو فتى ذو كرامة ، ولن يقبل مثل ذلك السلوك . كما وانه من اسرة جيدة . أبوه عامل مناجم قديم ، اشقاؤه أعضـــاء فى الحزب يقاتلون فى صفوف الجيش .

وأذهلت ايفان فيدوروفيتش نصاعة وبراءة تفكيرها .

وذكر وامارات حزن مبهم ترتسم على عينيه :

– انك فتاة طيبة ! لقد كنا نفكر مثلك ذات يوم .

ثم مضى يقول فى بساطة وكأنما يخاطب طفلا :

– فلتسمعينى ! ما زالت الأرض عامرة بالكثيرين من ضعاف النفوس الذين يتصورون الافكار مثل الملابس ، وربما الأقنعة . كما وتربى الفاشية الملايين من أمثال أولئك فى أرجاء الارض قاطبة . هذا علاوة على أنه يوجد الضعفاء الذين يمكن قهر ارادتهم .

واجابت ليوبكا ، وهى تقصد ستاخوفيتش :

– كلا . . ان ذلك مستحيل .

– أرجو هذا من الله ! عموما . . اذا كان قد جبن مرة ، فانه قد يجبن بعد ذلك مرات .

وذكرت ليوبكا فى اقتضاب :

– سوف أذكر ذلك لأوليج .

– هل فهمت كل ما قلته ؟

وأومأت ليوبكا براسها .

– هكذا يجب أن تعملون . هل أنت على اتصال فى المدينة بذلك الشخص الذى رافقك الى هنا ؟ فلتداومى الاتصال به .

وذكرت ليوبكا وهى تتأمله بناظريها الناصعين :

– شكرا .

ونهض كلاهما من مكانه .

– فلتبلغى الرفاق أعضاء الحرس الفتى تحياتنا البلشفية الكفاحية الحارة .

وأمسك بيديه الصغيرتين دقيقتى الحركة ، راسها ثم قبل عينيها على التوالى ، ودفعها خفيفا ، وهو يقول :

– فلتذهبى .

الفصل الثامن والثلاثون

ظلت ليوبكا طوال تلك الايام القليلة التى قضتها فى فوروشيلوفجراد تحت امرة ذلك الشخص الذى عرّفها بايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك الشخص مهتما الى درجة كبيرة بكون ليوبكا قد اقامت مثل تلك العلاقات مع العقيد مسئول الامدادات الالمانية ومساعده ، واستقرت بشقة حيث يتصورها اصحابها على غير حقيقتها .

ولم تتحتم عليها دراسة الشفرة ، حيث ظلت كما كانت قبيل انصرافها عن دراستها اللاسلكية ، بيد انه يجب عليها اليوم ان تأخذ جهاز الارسال ، لصعوبة استخدامه المتناهية فى فوروشيلوفجراد .

وقد درّبها ذلك الشخص على طريقة تغيير اماكن الارسال حتى لا يكتشفون مواقع وجودها . كما وينبغى الاّ تظل مقيمة لفترات طويلة فى كراسنودون ، اذ يجب ان تقوم بالترحال الى فوروشيلوفجراد وغيرها من المراكز . علاوة على توطيد صلات مع معارف جدد بين الضباط الالمان والرومانيين والايطاليين والمجريين وعدم الاكتفاء بمعارفها الحاليين .

هذا وقد استطاعت ليوبكا الاتفاق مع صاحبتى الشقة التى كانت تقيم فيها حول انها سوف تقيم عندهما عندما تزور فوروشيلوفجراد حيث لم تعجبها تلك الشقق التى عرضوها عليها. وظلت تلك الفتاة الصغيرة ابنة صاحبة الشقة تعامل ليوبكا فى احتقار شديد ، غير ان امها كانت تدرك ان اقامة ليوبكا ورغما عن كل شىء اهون كثيرا مما لو كان قد حلّ محلها ضباط المان .

لم يكن ثمة مفر امام ليوبكا سوى الرحيل على متن عربة المانية . غير انها اليوم لم تكن راغبة فى ان تستقل عربة ركوب ، بل وعلى العكس ، كانت تفضل عربة نقل غاصة بالجنود . فقد كان الجنود يعتبرون اكثر طيبة واقل فطنة ، وحيث كانت تحمل فى حقيبتها جهاز الارسال .

وفى نهاية الامر ، استطاعت ركوب عربة اسعاف ، استقر بصالونها الكبير علاوة على خمسة او ستة من الجنود الممرضين ضابط ، رئيس الخدمات الطبية برفقة بعض الضباط الصغار . غير انهم كانوا جميعا سكارى ، فيما كانت ليوبكا قد غدت على يقين ومنذ زمن بعيد من انه يسهل عليها كثيرا خداع الضباط السكارى ، عن اتيان ذلك مع امثالهم غير المخمورين .

واتضح انهم ينقلون فى تلك العربة زجاجات عريضة مملوءة بالسبرتو ، مما جعل ليوبكا تفكر فجاة فى ضرورة الحصول على كمية كبيرة منه ، حيث ان السبرتو يفتح كل الابواب المغلقة ويمهد كافة الطرق ، ويمكن مقايضته باى شىء كان .

وقد انتهى كل ذلك بان اقنعت رئيس الخدمات الطبية بعدم جدوى السفر بتلك العربة الضخمة تحت جنح الظلام ، وبالبقاء لقضاء الليل عند احدى معارفها الجيدات فى كراسنودون ، التى

– كلا . . ان ذلك مستحيل .

– أرجو هذا من الله ! عموما . . اذا كان قد جبن مرة ، فانه قد يجبن بعد ذلك مرات .

وذكرت ليوبكا فى اقتضاب :

– سوف أذكر ذلك لأوليج .

– هل فهمت كل ما قلته ؟

وأومأت ليوبكا برأسها .

– هكذا يجب أن تعملون . هل أنت على اتصال فى المدينة بذلك الشخص الذى رافقك الى هنا ؟ فلتداومى الاتصال به .

وذكرت ليوبكا وهى تتأمله بناظريها الناصعين :

– شكرا .

ونهض كلاهما من مكانه .

– فلتبلغى الرفاق أعضاء الحرس الفتى تحياتنا البلشفية الكفاحية الحارة .

وأمسك بيديه الصغيرتين دقيقتى الحركة ، رأسها ثم قبل عينيها على التوالى ، ودفعها خفيفا ، وهو يقول :

– فلتذهبى .

الفصل الثامن والثلاثون

ظلت ليوبكا طوال تلك الايام القليلة التى قضتها فى فوروشيلوفجراد تحت امرة ذلك الشخص الذى عرّفها بايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك الشخص مهتما الى درجة كبيرة بكون ليوبكا قد اقامت مثل تلك العلاقات مع العقيد مسئول الامدادات الالمانية ومساعده ، واستقرت بشقة حيث يتصورها اصحابها على غير حقيقتها .

ولم تتحتم عليها دراسة الشفرة ، حيث ظلت كما كانت قبيل انصرافها عن دراستها اللاسلكية ، بيد انه يجب عليها اليوم ان تأخذ جهاز الارسال ، لصعوبة استخدامه المتناهية فى فوروشيلوفجراد .

وقد درّبها ذلك الشخص على طريقة تغيير اماكن الارسال حتى لا يكتشفون مواقع وجودها . كما وينبغى الاّ تظل مقيمة لفترات طويلة فى كراسنودون ، اذ يجب ان تقوم بالترحال الى فوروشيلوفجراد وغيرها من المراكز . علاوة على توطيد صلات مع معارف جدد بين الضباط الالمان والرومانيين والايطاليين والمجريين وعدم الاكتفاء بمعارفها الحاليين .

هذا وقد استطاعت ليوبكا الاتفاق مع صاحبتى الشقة التى كانت تقيم فيها حول انها سوف تقيم عندهما عندما تزور فوروشيلوفجراد حيث لم تعجبها تلك الشقق التى عرضوها عليها. وظلت تلك الفتاة الصغيرة ابنة صاحبة الشقة تعامل ليوبكا فى احتقار شديد ، غير ان امها كانت تدرك ان اقامة ليوبكا ورغما عن كل شىء اهون كثيرا ممّا لو كان قد حلّ محلها ضباط المان .

لم يكن ثمة مفر امام ليوبكا سوى الرحيل على متن عربة المانية . غير انها اليوم لم تكن راغبة فى ان تستقل عربة ركوب ، بل وعلى العكس ، كانت تفضل عربة نقل غاصة بالجنود . فقد كان الجنود يعتبرون اكثر طيبة واقل فطنة ، وحيث كانت تحمل فى حقيبتها جهاز الارسال .

وفى نهاية الامر ، استطاعت ركوب عربة اسعاف ، استقر بصالونها الكبير علاوة على خمسة او ستة من الجنود الممرضين ضابط ، رئيس الخدمات الطبية برفقة بعض الضباط الصغار . غير انهم كانوا جميعا سكارى ، فيما كانت ليوبكا قد غدت على يقين ومنذ زمن بعيد من انه يسهل عليها كثيرا خداع الضباط السكارى ، عن اتيان ذلك مع امثالهم غير المخمورين .

واتضح انهم ينقلون فى تلك العربة زجاجات عريضة مملوءة بالسبرتو ، مما جعل ليوبكا تفكر فجأة فى ضرورة الحصول على كمية كبيرة منه ، حيث ان السبرتو يفتح كل الابواب المغلقة ويمهد كافة الطرق ، ويمكن مقايضته باى شىء كان .

وقد انتهى كل ذلك بان اقنعت رئيس الخدمات الطبية بعدم جدوى السفر بتلك العربة الضخمة تحت جنح الظلام ، وبالبقاء لقضاء الليل عند احدى معارفها الجيدات فى كراسنودون ، التى

تقصدها ليوبكا لتقديم بعض عروضها الفنية . وقد ارهبت امها كثيرا حيث دعت الى شقتهما ذلك العدد الكبير من الضبـــاط والجنود الالمان المخمورين .

وراح الالمان يعاقرون الشراب طوال الليل ، واضطرت ليوبكا الى الرقص امامهم حيث كانت قد زعمت انها فنانة . لقد كانت تلعب بالنار ، ومع ذلك استطاعت خداعهم ، حيث راحت تداعب الضباط ومن يقلون عنهم رتبة فى آن واحد . وصار صغـــار العسكريين يوحى من مشاعر الغيرة يضايقون الضبـــاط الذين راحوا يترددون الى ليوبكا ، مما دعا رئيس الخدمات الطبية لان يركل احد الجنود بحذائه فى بطنه .

وبينما كان الجميع غارقين فى لهوهم ، تناهى الى سمع ليوبكا صوت صفارة رجل شرطة راح يطلقها فى قوة وبشكل مستمر ، من مكانه على مقربة من نادى جوركى .

ولم تدرك ليوبكا على الفور ان هذه الصفارة كانت اشـــارة تحذير ، الا ان صوتها تنامى عاليا مقتربا من البيت . وتعالى فيما خلف النافذة فجاة ، دبيب اقدام سرعان ما اختفى . لقد كان ثمة من راح يقطع الشارع عدوا تجاه مساكن شانغهاى الصغيرة التى اصطفت بمحاذاة الوهدة . وبعد برهة تناهى الى اسماعها وقع الخطوات الثقيلة للشرطى الذى صار يصفر بكل قوة .

وهرولت ليوبكا ومن استطاع الحركة من الالمان المخمورين الى مدخل المنزل لاستطلاع الامر . وكانت ليلة هادئة دافئـــة اطبقت فيها الظلمة على المكان . وحدد الصفير الثاقب المتباعد وضوء المصباح الكهربائى طريق الشرطى الذى راح يعدو نحو نهاية الشارع . وتعالت ، وكانما ترد عليه ، صفارات رجـــال الشرطة القائمين بانحراسة عند السوق وفيما خلف الارض المقفرة والوهدة ، بل وعند مزلقان السكة الحديدية الثانى الذى كان يقع على مسافة نائية من ذلك المكان .

ولبث الممرضون العسكريون الالمان يقفون عند المدخل برهة من الوقت يلفهم الصمت المطبـــق ، وقد اذابت الخمر محاور ارتكازهم ، ليروحوا يترنحون . وبعث اكبر الضباط رتبة احد الممرضين لاحضار مصباح كهربائى تناوله منه ليوجه اشعته الى

الحديقة ذات احواض الزهور المهجورة وشجيرات الليلاك التى داستها الاقدام واطلال السور المتداعى ، ثم الى عربة الاسعاف فى الفناء ليعود الجميع ادراجهم الى الغرفة .

وفى تلك الحين شاهـــد اوليج الذى كان قد تقـــدم كثيرا مطارده ، اشعة مصابيح رجال الشرطة الذين هرولوا فى استقباله من ناحية مركز الشرطة ، تضئ الارض الخلاء فيما وراء الوهدة . وادرك على الفور انه لن يستطيع الاختفاء فى مساكن شانغهـــاى الصغيرة ، حيث الكلاب التى لا وجود لها بالمدينة سوى فى هذه المنطقة التى عزف الالمان عن الاقامة فى مساكنها الطينية ، ولانها سوف تكشف عن وجوده بنباحها . وفى نفس اللحظة انعطف اوليج الى اليمين تجاه فوسميدوميكى ، والتصـــق بجدار اقرب منزل نموذجى صادفه . ولم تمر سوى دقيقة او دقيقتين حتى هرول رجل الشرطة الى جواره . وقد تجاوزه سريعا وعلى مسافة قريبة ، حتى صم الصفير اذنى اوليج .

وانتظر اوليج بعض الوقت ، ثم عاد ادراجه عبر نفس الشارع الذى اتخذه طريق الذهاب ، نحو التلال التى بدا من عندها خط سيره ، فى محاولة منه للتمويه .

وحلت مشاعر القلق محل الاضطراب المشـــوب بالمرح اللامحدود الذى انتابه حين وقع نظره على رجل الشرطة يظهر عند مدخل النادى ثم يعدو الشارع . وسمع اوليج الصفارات تتعالى عند السوق ومركز الشرطة والمزلقان الثانى ، ليدرك ان هفوته لم تضعه وحده فى موقف حرج عصيب ، بل سيريوجـــا وفاليا ، وستيوبا سافونوف وتوسيا ماشينكو كذلك .

وكانت تلك اولى طلعاتهم بالمنشورات التى كتبهـــا اوليج وفانيا زيمنوخوف ، والعملية الاولى التى كان من المفروض ان تعلن السكان بمولد «الحرس الفتى» .

وكم من الجهود تطلب بذلها حتى يرفض الجميـــع اقتراح ستاخوفيتش الذى كان يظن امكانية لصق المنشورات فى كل ارجاء المدينة خلال ليلة واحدة مما يمكن ان يترك تاثيرا فعالا . ولم يكن اوليج يشك فى اخلاص ستاخوفيتش بعد ان عرفه عن كثب ؛ غير انه كان مندهشـــا ازاء كونه لا يدرك انه كلمـــا زاد عدد

المشتركين فى العملية ، كلما كان الفشل اكثر احتمالا . وكان من المحزن ان يميل سيريوجا تيولينين وكعادته دائما ، الى الاجراءات المتطرفة .

بيد ان توركينيتش وفانيا زيمنوخوف ايدا اقتراح اوليج الذى يقضى بلصق المنشورات فى حى واحد ، ثم وبعد بضعة ايام فى حى آخر ، ثم فى حى ثالث ، وحتى تفقد الشرطة الاثر الصحيح .

واقترح اوليج ان يسير الصبية والفتيات ازواجا ، كل فتى ترافقه فتاة ، يتولى احدهما تناول المنشور ليقوم الآخر بصب العسل عليه ، وريثما يفرغ الاول من لصق المنشور يكون الثانى قد اخفى الزجاجة . واذا ما قبض الشرطى عليهما ، يمكنهما تفسير نزهتهما فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل باسباب غرامية .

وكانوا قد قرروا استخدام العسل اللزج بدلا من النشاء ، الذى كان ينبغى تجهيزه فى مكان ما ، ذلك الامر الذى كان يمكن ان يهدى الشرطة الى مكانهم ، علاوة على تلك الآثار التى يمكن ان يتركها على الملابس . كما وكان النشاء يتطلب الحصول على فرش واوان يصعب حملها . اما العسل فقد كان يسهل نقله فى زجاجة ذات سدادة ، تيسر سكب القليل منه على وجه المنشور الآخر .

وعلاوة على لصق المنشورات ليلا ، اعد اوليج خطة لاتتسم بالتعقيد لتوزيع المنشورات فى وضح النهار فى اماكن تجمع السكان ، مثل السينما والسوق ومكتب العمل .

وللعملية الليلية الاولى جرى اختيار منطقة المنجم رقم ١ ، وحى «فوسميدوميكى» المجاور له والسوق . وتولى سيريوجا وفاليا منطقة السوق ، وستيوبا سافونوف وتوسيا حى «فوسميدوميكى» ، اما منطقة المنجم رقم ١ فقد اخذها اوليج على عاتقه .

وقد كان يود بطبيعة الحال مرافقة نينا فى هذه العملية ، الا انه قال انه سوف يذهب مع مارينا ، زوجة خاله الجميلة .

وكان من المقرر ان يلزم توركينيتش المنزل ، حتى يتمكن كل زوج من اخطاره بكل ما حدث عقب انتهاء عمله ، نظرا لانها كانت العملية الاولى ، وحيث لم تكن قد توفرت بعد ادنى خبرة لاى واحد منهم .

غير ان اوليج غرق فى التفكير بعد انصراف الجميع حول انه لا يملك اى حق فى توريط ام طفل عمره ثلاثة اعوام فى مثل هذه العملية الخطيرة ، ودون التشاور مع خاله كوليا ، واب ذلك الطفل .

ولم يكن طيبا بطبيعة الحال تجاوز ذلك النظام الذى وضعه بنفسه ، الا انه انساق وراء حماس الصبا ، ليقرر الذهاب وحده .

وعند حلول المساء وحين كانت المدينة ما تزال عامرة بالحركة دس بعض المنشورات فى جيب سترته الداخلى ، اما زجاجة العسل فوضعها فى جيب سرواله ثم غادر المنزل . واذ عبر ذلك الشارع الذى كان يقطنه اوسموخين وزيمنوخوف بلغ الوهدة عند الطريق المفضى الى المنجم رقم ٥ . وقد كانت تلك الوهدة هى نفسها التى انبسط امتدادها الايمن فيما بين «فوسميدوميكى» والارض القفرة حيث مركز الشرطة . كما وكانت مهجورة تماما ، انعطف اليها اوليج ، وقبل ان يصل مساكن شانغهاى الصغيرة ، راح يرتقى التلال التى امتدت سلسلة انبسط فوقها طريق فوروشيلوفجراد واشرفت على كل تلك المنطقة من المدينة .

واذ اتخذ اوليج التلال ستارا ، وصل حتى ملتقى طريق فوروشيلوفجراد بالطريق الممتد من وسط المدينة والذى يفضى حتى «بيرفومايكا» ، وحيث انبطح ارضا فى انتظار ان تسدل الظلمة ستائرها . وكان يرى جيدا من مكانه وعبر الحشائش الطفيلية تقاطع الطرق ، وضاحية «بيرفومايكا» على الجانب الآخر من الطريق ، والمنجم رقم ١ الذى جرى تفجيره ، ونادى جوركى بالشارع الذى كانت تقطنه ليوبا شيفتسوفا ، وحى «فوسميدوميكى» والفضاء المقفر حيث مدرسة فوروشيلوف ومقر الشرطة .

وكانت نقطة الشرطة التى تهدد اوليج بشكل مباشر تقع عند مفترق الطرق ، ويتمركز بها شرطيان ، لزم احدهما مكانه عند مفترق الناحية لا يبارحها الا للسير لحظات يقضى فيها على مهله ، وغير بعيد عن طريق فوروشيلوفجراد . اما الثانى فراح يذرع المسافة بين التقاطع والمنجم رقم ١ ، ونادى جوركى على طول هذا الشارع

الذى تقطنه ليوبا شيفتسوفا وحتى مساكن شانغهاى الصغيرة .

اما نقطة الشرطة المجاورة فكانت تقع فى منطقة السوق ويشرف عليها ايضا شرطيان ، يتواجد احدهما بصورة دائمة فى ارض السوق ، بينما يتولى الآخر الحراسة من موقع السوق وحتى تلك النقطة التى تلتقى عندها مساكن شنغهاى الصغيرة بشنغهاى الكبيرة .

وجاءت الليلة بظلمة حالكة ، يخيم عليها هدوء بالغ يتعالى فيه ادنى حفيف ، وحيث غدا واجبا على اوليج الاعتماد فقط على حاسة سمعه .

كان ينبغى عليه لصق بعض المنشورات عند مدخل المنجم رقم ١ ، وعلى جدران نادى جوركى . (وكانوا قد قرروا عدم لصق المنشورات على جدران المبانى السكنية حتى لا يعرضوا ساكنيها للخطر) . وهبط اوليج التلال خلسة ، قاصدا ذلك البيت النموذجى الكائن عند ناحية الشارع الذى تقطنه ليوبا شيفتسوفا . وكان الكشك القائم عند مدخل المنجم رقم ١ يقع مباشرة قبالة اوليج على الجانب الآخر من الميدان .

وترامى الى سمعه حديث رجل الشرطة وزميله الواقف هناك ، بل واستطاع تمييز وجهيهما حين انحنيا يشعلان سيجارتيهما . ولقد كان من المفروض عليه ان ينتظر حتى يبتعد رجل الشرطة ، الذى كان يمكنه ان يطبق عليه فى ارض الميدان . غير ان رجلى الشرطة ظلا فى مكانهما فترة طويلة يتبادلان الحديث همسا .

واخيرا ، انصرف الشرطى فيما يضيئ طريقه بمصباحه الكهربائى من آن لآخر . ولبث اوليج مكانه خلف المنزل يعير سمعه خطواته . وما كاد يشعر بانه غدا على مسافة بعيدة منه ، حتى خرج الى الشارع ، وحيث ظلت تترامى الى سمعه خطواته الثقيلة . وكان رجل الشرطة ما يزال يضيئ طريقه بمصباحه ، مما جعل اوليج قادرا على رؤيته وقد تجاوز نادى جوركى . واختفى الشرطى فى نهاية الامر ، حيث احتواه ذلك المنحدر الذى اتخذ بدايته من عند منزل آل شيفتسوف فى اتجاه الوهدة . ولم تكن هناك سوى انعكاسات بعض الاضواء تعلن عن ان الشرطى يواصل اضاءة طريقه بمصباحه من آن لآخر .

كان المنجم رقم ١ شان كافة المناجم الكبيرة التى جرى تفجيرها اثناء الانسحاب ، معطلا عن العمل . غير انه وتنفيذا لامر الملازم شفيديه جرى تشكيل مجلس للادارة من افراد كتيبة المناجم الالمانية . وكان بعض العمال من اولئك الذين لم يسعفهم الوقت للرحيل يأتون صباح كل يوم للعمل فى «اعادة البناء» — هكذا كانوا يسمون فى الوثائق الرسمية عملية تنظيف الفناء المكدس بالقمامة ، وحيث كانت بضع عشرات من العمال تتسكع فى الفناء ، تنقل القمامة والخردة على عربات اليد الخشبية .

وها هو المكان يسوده اليوم الهدوء والكآبة .

ولصق اوليج المنشورات على الجدار الحجرى المجاور لفناء المنجم ، ثم على الكشك القائم عند المدخل وعلى لوحة الاعلانات فوق كافة الاوامر والتعليمات المعلقة . وقد كان يستحيل عليه البقاء طويلا فى مكانه ، وليس خوفا من ان يلحظه الحارس ، حيث كان يغط فى نوم عميق ، بل خشية ان يراه الشرطى فى طريق العودة حين يمر الى جوار المنجم ويضيئ الكشك بمصباحه . غير انه لم يكن يسمع دبيب خطوات الشرطى الثقيلة ، او يشاهد اضواء مصباحه ، مما كان يعنى انه هناك قريبا من مساكن شنغهاى الصغيرة .

وعبر اوليج الميدان وهبط نحو مبنى النادى الذى كان اكثر مبانى المدينة سعة وبرودة ، لا يوحى بالراحة ولا يصلح للسكنى، ولذا فقد كان آنذاك مقفرا . كانت واجهته تطل على الشارع الذى يذرعه الناس منذ الصباح الباكر فى اتجاه السوق قادمين من «فوسميدوميكى» و«بيرفومايكا» ، والنجوع المجاورة ، ويعتبر الشريان الرئيسى الذى يفضى الى مدينتى فوروشيلوفجراد وكامينسك .

وصار اوليج يلصق المنشورات على واجهة النادى ، ليترامى الى سمعه فجاة وقع اقدام الشرطى قادما من اتجاه الوهدة . والتف حول المبنى ليختفى وراء جهته المقابلة . وتعالى دبيب اقدام الشرطى شيئا فشيئا . غير انه وما ان اخذ يذرع الشارع الى جوار المبنى حتى ابتلع الهدوء وقع خطواته . وجمد اوليج مكانه فى

انتظار ان يتجاوز الشرطى المبنى ، دقيقة ثم اخرى ، ثم خمس دقائق ، دون ان يسمع وقع خطواته .

او ربما يكون الشرطى قد وجه اشعة مصباحه الى واجهة النادى ، ليلحظ وجود المنشور ، فيتوقف لقراءته ؟ نعم . . . انه سوف يشرع توا فى انتزاعه ليجد انه قد لصق منذ لحظات . وعندئذ يمكن ان يدور حول المبنى حاملا مصباحه ، اذ ان الشخص الذى قام بلصق هذا المنشور منذ لحظات لم يكن ليستطيع الاختفاء الاّ خلف المبنى .

واصاخ اوليج السمع حابسا انفاسه ، الاّ انه لم يسمع سوى نبضات قلبه . وقد راوده هاجس قوى يدفعه للانفصال عن ذلك الجدار والفرار بعيدا ، غير انه كان يعرف ان ذلك لا يمكن ان يعود عليه الاّ بالضرر . كلاّ . . . ان الحل الوحيد يكمن فى ضرورة التأكد من مكان اختفاء ذلك الشرطى !

ومدّ اوليج راسه من وراء الجدار ، ليكتشف عدم وجود ثمة شىء يثير الشك . واذ تشبث بالجدار راح يتحرك فى صمت بالغ ، يرفع اخمص قدمه عاليا ليهوى بها فى هدوء وهكذا ، قاصدا نحو الشارع . وكان قد توقف عدة مرات يصيخ السمع ، الاّ ان الصمت كان مخيما على كل ما حوله . وهكذا ظلّ يتقدم حتى وصل نهاية المبنى . وهناك امسك بزاوية الجدار باحدى يديه ، بينما تشبثت به يده الاخرى . وفجأة هوت تحت يده قطعة من بياض الجدار الذى اذابته الامطار لترتطم بالارض محدثة ضجة هائلة كما تصور اوليج . وفى نفس اللحظة شاهد اوليج ضوء سيجارة عند اسفل درجات سلم المدخل ليدرك ان الشرطى جلس طلبا للراحة والتدخين ليس الاّ . وارتفع ضوء السيجارة على النور ، وحدثت ثمة ضجة عند السلم ، فى حين انفصل اوليج عن زاوية الجدار ليفر عدوا يقطع الشارع فى اتجاه الوهدة . ودوّت صفارة حادة ، ووقع اوليج لجزء من اللحظة فى حيز ضوء مصباح الشرطى ، غير انه ببضع وثبات خرج منه على الفور .

وللحق نقول ان اوليج وحتى لحظة نجوم ذلك الخطر المباشر لم تشب تصرفاته هفوة واحدة . لقد كان قادرا على تضليل الشرطى وخلال دقيقة واحدة بالاختباء عند ليوبكا او آل ايفانتسوف فى حى

«فوسميدوميكى» ، الاّ انه لم يكن يملك حق التعريض بهم . كما وكان قادرا على التظاهر بانه يجرى نحو السوق ، ليعرج فى حقيقة الامر الى شنغهاى ، حيث لم يكن الشيطان نفسه ليستطيع ان يجد اثره . لكنه قد يعرض بذلك سيريوجكا وفاليا للخطر . ولذا فقد لاذ بالفرار الى مساكن شنغهاى الصغيرة .

وها هو فى تلك اللحظة وحين اضطرته الظروف رغما عن كل شىء العروج على حى «فوسميدوميكى» ، لم يتوغل هناك بعيدا حتى لا يسىء الى وضع ستيوبا سافونوف وتوسيا . لقد عاد ادراجه الى التلال ، نحو تقاطع الطريق ، وحيث يمكن لرجل الشرطة الامساك به .

كان يضنيه القلق على رفاقه ، واحتمال فشل كل العملية . ومع ذلك فقد اجتاحته من جديد مشاعر الشقاوة الصبيانية ، حين ترامى الى سمعه نباح الكلاب المستمر فى منطقة مساكن شنغهاى الصغيرة . ذلك لانه تخيل الشرطى الذى راح يتعقبه وقد التقى برجال الشرطة الآخرين ، ليقفوا يناقشون امر اختفاء ذلك المجهول ، فيما يفتشون المنطقة بمصابيحهم .

انقطع الصفير الذى تعالى من عند السوق . وشاهد اوليج من فوق قمة التل الذى اعتلاه من جديد اضواء مصابيح رجال الشرطة الذين كانوا يطاردونه ، ليدرك انهم عائدين ادراجهم الى مركز الشرطة عبر الارض القفرة ، بينما لبث مطارده الشرطى واقفا مكانه فى نهاية الشارع يوجه اشعة مصباحه الى احد المنازل .

فهل لاحظ الشرطى وجود المنشورات التى لصقت على مبنى النادى ؟ كلا . . بطبيعة الحال ، والاّ ما كان يستطيع الجلوس على الدرج للتدخين ؛ ولكان رجال الشرطة قد قلبوا «فوسميدوميكى» راسا على عقب بحثا عنه ، اى عن اوليج .

وعاوده الهدوء من جديد .

لم يكن الفجر قد لاح بعد حين طرق ضلفة نافذة ايفان توركينيتش ثلاث مرات بهدوء متناه حسبما كان متفقا حوله . وفى هدوء ايضا فتح توركينيتش باب المسكن قليلا ليدخل اوليج ، ويتسللا سويا فى خفة عبر المطبخ وغرفة كان بها عدد من النائمين ، الى الغرفة التى كان ينام فيها ايفان وحده . كان

مصباح الزيت يرسل ضوءه من فوق صوان صغير ، مما يعنى ان فانيا لم يكن قد خلد الى النوم بعد . ولم تند عنه اية امارة تعبر عن سعادة لرؤية اوليج ، فيما كان وجهه ممتقعا يتسم بالصرامة .

وتاتا اوليج متسائلا وقد علا الشحوب وجهه :

– هل سقط احدما فى قبضتهم ؟

واجاب توركينيتش متحاشيا النظر اليه :

– كلا . . انهم جميعا الآن فى سلام . اجلس . واشار الى مقعد خشبى صغير ، بينما استقر هو على فراشه . وكان يبدو انه ظل طوال الليل يذرع الغرفة تارة ، ويجلس على ذلك الفراش تارة اخرى .

وسال اوليج :

– هيه . . هل نجحت عمليتنا ؟

واجابه توركينيتش دون ان ينظر اليه :

– نعم . لقد توافد الجميع الى هنا . . سيريوجا وفاليـــا وستيوبا وتوسيا . هذا يعنى انك ذهبت وحدك ؟

ورفع توركينيتش عينيه ينظر اليه ثم خفضهما ثانية .

وتساءل اوليج بنبرة تحمل يعنى الاعتراف بالذنب على نحو صبيانى :

– وكيف عرفت ذلك ؟

وذكر فانيا مراوغا :

– لقد راودنا القلق بسببك ، ولم اتحمل كثيرا مما جعلنى اذهب الى خالك نيكولاى نيكولايفيتش حيث وجدت مارينا هناك . وكان الجميع يودون انتظارك هنا ، لكننى اقنعتهـــم بالذهاب ، قائلا انه اذا كان قد سقط فى قبضتهم فان الامر ســـوف يكون اسوا اذا ما جاؤوا ووجدونا هنا جماعة واحدة . هذا بالاضافة الى ان الصبية ينتظرهم غد عصيب وانت تعرف تلك . . فســـوف ينطلقون من جديد الى السوق ومكتب العمل .

وراح اوليج يقص فى اقتضاب كيف تعجل الذهاب من عند المنجم الى النادى ، وماذا حدث هناك ، فيما يتزايد عنده الشعور بالذنب الذى لم يكن يعيه تماما . ومع ذلك فقد اعترته دفقة من نشاط حين صار يتذكر كل ما حدث .

– وحين انقضى كل شىء على ما يرام ، تشاقيت وللاسف ، قليلا ، حيث قمت فى طريق العودة بلصق منشورين على مبنى مدرسة فوروشيلوف .

وتامل اوليج توركينيتش وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة .

ونهض توركينيتش الذى كان يصغى الى اوليج فى صمت ، ثم دس يديه فى جيبيه وراح يحدق النظر فيه بعض الوقت ثم قال بصوته الهادئ :

– فلتسمع ما اقوله لك شريطة الا تغضب . ان هذه هى المرة الاولى والاخيرة التى تذهب فيها الى مثل ذلك العمل . هل فهمت ؟

واجاب اوليج :

– كلا . . لم افهم ! لقد انتهى الامر على ما يرام ، وليس ثمة امر دون متاعب . ان ذلك ليس نزهة ما ، بل كفاح ونضال ضد عدو موجود .

وذكر توركينيتش :

– ان الامر ليس فى وجود العدو . يستحيل عليك ان تكون صبيا صغيرا ، كما ويستحيل ذلك بالنسبة لى . نعم ، اننى وان كنت اكبرك سنا فاننى اطبق ذلك على نفسى . اننى احترمك وانت تعرف ذلك ، ولذا اتحدث معك حول هذا الموضوع . انك فتى جيد قوى تملك من المعارف ما هو اكثر من معارفى على ما اعتقد ، ومع ذلك فانت ما زلت طفلا ! لقد استطعت بالكاد اقناع الصبية حتى لا يهرعوا لتقديم العون اليك . رحت اقنعهم بذلك بينما كدت اذهب بنفسى . او تظن ان القلق راودنا نحن الخمســـة بسببك فقط ؟ كلا . . لقد كنا قلقين بسبب القضية باسرها . لقد حان الوقت يا صاح كى تفكر فى انك لست ملكا لنفسك ، كما اننى ايضا لا املك حق التصرف فى نفسى . لقد رحت طوال الليل اعانى الندم لاننى قمت بارسالك . هل نملك حق التضحية بانفسنا دونما داع ولقاء تفاهات ؟ كلا . . ياصاح . اننا لا نملك مثل هذا الحق . ومعذرة ان استصـــدرت امرا من القيـــادة بذلك ؛ بمعنى حظر

اشتراكك واشتراكى فى العمليات بدون تعليمات خاصة تنص على ذلك .

وظل اوليج يرنو اليه فى صمت طفولى وجدية ، يخفف توركينيتش من لهجته قائلا بنبرة تنم عن بعض الشعور بالذنب :

– لا تعتقد يا صديقى اننى اخطأت حين قلت انك ربما تكون متمتعا بقدر من المعارف يفوق ما اتمتع به . ان ذلك امر يتوقف على التربية . لقد قضيت طفولتى ارتع فى الشوارع حافى القدمين ، شأن سيريوجكا . وعلى الرغم من اننى انخرطت فى الدراسة فاننى لم احظ بالمعارف الا عندما صرت كبيرا . ان امك رغما عن كل شىء مدرسة ، بينما كان زوجها شخصا عالى الثقافة السياسية ، اما والدىّ . . فانت تعرفهما . – وهنا اشار توركينيتش الى الغرفة على نحو ينم عن طيبة ، ثم مضى يقول : لقد آن اوان الاستفادة من معارفك وثقافتك اليوم . هل فهمت ؟ اما موضوع اثارة رجال الشرطة فذلك من عداد الامور التافهة . ان الصبية لا ينتظرون منك هذا . واذا ما رحنا نتحدث بشىء اكثر جدية ، اقول لك ان هؤلاء الناس يعلقون عليك امالا كبرى . – واشار بسبابته عاليا الى ما وراء ظهره بما يعنى الكثير .

وذكر اوليج فى دهشة ، وهو ينظر اليه فى مرح :

– انك فتى طيب يا فانيا ! كما انك محق . . ومحق جدا . – ثم هز رأسه مضيفا :

– ويمكنك ان تستصدر من القيادة ما شئت من اوامر ، ما دام الامر لذلك .

وانفجرا ضاحكين ، بينما مد توركينيتش اليه يده قائلا :

– ومع ذلك يجب ان اهنئك بالتوفيق ، فلقد نسيت هذا .

وصل اوليج منزله مع مطلع الفجر ، وفى اللحظة التى كانت تقوم فيها ليوبكا باخراج الالمان معتزمة الذهاب اليه . ولم تكن قد نامت طوال الليل ، ومع ذلك فلم تكن لتستطيع الامساك عن الضحك وهى تنظر الى عربة الاسعاف التى غصت بالالمان المخمورين وسائقها الذى راح يقودها مخمورا فى خط متعرج .

وراحت الام تؤنب ليوبكا ، الاّ ان الابنة جاءت اليها باربع زجاجات كبيرة مليئة بالسبرتو استطاعت سرقتها ليلا من العربة .

وادركت الام على الرغم من بساطتها الشديدة ان ليوبكا كانت تتصرف على اساس تصور مسبق لديها .

الفصل التاسع والثلاثون

«يا أبناء مدينتنا ! يا سكان كراسنودون ! يا عمال المناجم ! يا أيها المزارعين !

ان الألمان يكذبون ! لقد كانت موسكو وسوف تظل عاصمتنا السوفييتية ! ان هتلر يكذب حين يقول أن الحرب قد انتهت . انها ما تزال فى بدايتها ، وسوف يعود الجيش الأحمر ثانية الى الدونباس .

ان هتلر يسوقنا الى المانيا للعمل بمصانعه وكى نصبح قتلة الآباء والأزواج والأبناء والبنات .

لا تسافروا الى المانيا ، اذا ما كنتم تريدون أن تلتقوا فى القريب العاجل بأراضيكم وفى بيوتكم بالزوج والابن والأخ !

ان الألمان يعذبوننا ويقتلون افضل اولادنا حتى يدخلوا الرعب الى قلوبنا وكى نجثو مذلة ومهانة .

فلتناضلوا ضد المحتلين الأوغاد . ان الموت فى ساحة النضال افضل من الحياة فى اسار العبودية .

ان الوطن فى خطر ؛ غير أنه يملك القوى الكافية لسحق العدو . وسوف يقوم «الحرس الفتى» فى منشوراته بنقل الحقيقة كلها ، ومهما كانت مرارتها بالنسبة لروسيا . وسوف تعلو الحقيقة !

فلتقرأوا منشوراتنا ، ولتقوموا باخفائها ونقل مضمونها من بيت لآخر ، ومن قرية لأخرى .

الموت للمحتلين الألمان !

«الحرس الفتى»

ترى من أين ظهرت تلك الورقة الصغيرة التى انتزعت من كراسة مدرسية ، عند أطراف ميدان السوق الذى يغص دائما بالناس ، على لوحة الاعلانات حيث كانت تعلق فيما قبل جريدة «الوطن الاشتراكى» المحلية ، بينما يعلق الألمان اليوم عليها اعلاناتهم ذات اللونين الأصفر والأسود ؟

كان الناس يتوافدون منذ مطلع فجر الأحد الى السوق حاملين سلالهم واكياسهم . فهناك المرأة التى جاءت تحمل دجاجة لفتها فى قطعة من القماش ، والآخر الذى توافد للاتجار فى خضروات فاضت عن حاجته ، او بقايا حبوب من محصول العام الماضى على متن عربة يد صغيرة . فلم تكن هناك ثيران حيث أن الألمان قد صادروا كل الحيوانات ، فضلا عن الجياد .

أما عربات اليد هذه فهى التى ستبقى لأصحابها ذكرى لسنين طوال ! ولم تكن من ذلك الطراز ذى العجلة الواحدة الذى يستخدم فى نقل الاتربة ، بل من ذات العجلتين الضخمتين والتى راح اصحابها يدفعونها أمامهم معتمدين على عريشها . ولقد كان هناك الآلاف من الناس الذين راحوا يدفعونها ، يقطعون أراضى الدونباس من اقصاها الى اقصاها فى القيظ والصقيع ، تحت وقع الأمطار والثلوج ، يخوضون الأوحال والأتربة بحثا فى اغلب الأحيان عن مأوى أو مقبرة تضم رفاقهم ، ومتوجهين الى السوق فى أندرها .

كان الناس من سكان القرى المجاورة يتقاطرون منذ مطلع الفجر الى السوق يحملون الخضروات والحبوب والدواجن والفواكه والعسل . اما اهالى المدينة فكانوا يجيئون مبكرين ، منهم من يحمل قبعة او منديلا او جونلة او حذاء او مسامير او فاسا أو ملحا واحيانا اقمشة قطنية أو فستانا قديما مطرزا كان حبيس صندوق الجدّة .

ويندر أن يصادف المرء انسانا يتوجه الى السوق فى مثل هذه الظروف سعيا وراء الكسب الا اذا كان وضيعا احمق . ان العوز والجوع هما اللذان يدفعان الانسان الى الذهاب الى السوق . ويجرى اليوم تداول المارك الألمانى على الأرض الأوكرانية ، وليس ثمة من يدرى ما اذا كان هذا المارك حقيقيا ، ام مزوّرا ، وهل سوف يستمر تداوله طويلا ، علاوة على انه وللحقيقة قل من كان يملكه . ليس هناك افضل من المقايضة — طريقة الاجداد القديمة ، فكم من مرّة اثبتت فعاليتها فى الأيام العصيبة . ومنذ الصباح الباكر راح الناس يتوافدون الى السوق ، كل يدور حول الآخر آلاف المرّات .

وقد شاهد الجميع لوحة الاعلانات القائمة عند طرف السوق ،

لم يتغير مكانها شأن أعوام كثيرة مضت ؛ وشأن كل الأسابيع الأخيرة كانت تحمل الاعلانات الألمانية . وفجأة ، وفوق واحد من تلك الاعلانات حيث انتشرت على شكل مروحة صور تمثل استعراض القوات الألمانية فى موسكو ، والضباط الألمان الذين يستحمون فى نهر نيفا الى جوار قلعة بطرس وبافيل فى لينينجراد ، والذين يتابطون أذرع الفتيات الروسيات على كورنيش الفولجا فى ستالينجراد ، فوق كل ذلك ظهر منشور أبيض ، كتب فى عناية بحبر جرت صناعته منزليا .

وأثار الفضول فى البداية واحدا من رواد السوق ، ثم اقترب منه اثنان ثم توافد آخرون وآخرون ، وها هى مجموعة من البشر تشكل غالبيتها النسوة والكهول والمراهقون تتجمع حول لوحة الاعلانات يمطون رقابهم فى محاولة منهم لقراءة المنشور . ومن ذا الذى يمكن أن يمر مرور الكرام الى جوار مجموعة من البشر تتعلق انظارها بمنشور سجل على ورقة بيضاء ، ولا سيما اذا كان ذلك بالسوق !

احتشدت مجموعة كبيرة من الناس الى جوار لوحة الاعلانات . كان المتقدمون منها يقفون فى صمت دون أن يبارحوا اماكنهم ، تدفعهم قوة خارقة لاعادة قراءة المنشور مرات ومرات . أما من كان يقف خلفهم محاولا الوصول قريبا من المنشور ، فقد راح يثير الجلبة ويعلن عن غضبه متسائلا عما هو مكتوب فيه . وعلى الرغم من انه لم يكن هناك من مجيب ، ومن استحالة الوصول الى لوحة الاعلانات فقد عرف الحشد بمضمون تلك الورقة الصغيرة التى انتزعت من كراسة مدرسية . «لم يكن حقيقة استعراض القوات الألمانية بالميدان الأحمر ! ولم يكن حقيقة استحمام الضباط الألمان فى نهر النيفا ! ولم تكن حقيقة نزهتهم مع الفتيات الروسيات فى شوارع ستالينجراد ! لم يكن حقيقة ما يقال عن أنه لا وجود للجيش الأحمر بهذا العالم ، فى حين يقوم بدعم الجبهة المنغوليون الذين استأجرهم الانجليز .» كل ذلك ليس حقيقة . وتكمن الحقيقة فى أن بمدينتنا بقى أناسنا الذين يعرفون الحقيقة ، الحقيقة الوحيدة التى يبلغون بها الشعب دونما خوف .

وظهر رجل يحمل على ذراعه علامة الشرطى ، فارع القامة ،

يرتدى سروالا ذا رسوم مربعة دس نهايتيه فى حذائه الجلدى الطويل ، وجاكته ذات رسوم مربعة أيضا ، تدلى من تحتها جراب مسدس مربوط بشريط أصفر ، قام بالولوج الى داخل الحشد الذى احتواه بحيث لم تبد منه سوى رأسه الضيق تعلوه سدارة من الطراز القديم . وعرف الناس فى ذلك الشخص اجنات فومين ، ليفسحوا له الطريق وقد اعترتهم لومضة من الزمن مشاعر الخوف أو المداهنة .

واذ قام سيريوجكا تيولينين بجذب غطاء رأسه حتى حاجبيه والاختفاء خلف الحشد حتى لا يراه فومين ، راح يجول بناظريه بحثا عن فاسيا بيروجوك . وما ان وجده حتى غمز له بعينه وأومأ برأسه فى اتجاه فومين . غير أن بيروجوك كان يعلم ماذا يجب عليه القيام به وراح يشق طريقه خلف فومين فى اتجاه لوحة الاعلانات .

وعلى الرغم من طرد بيروجوك وكوفاليوف من الشرطة ، فقد ظلا محتفظين بعلاقات طيبة مع كافة رجال الشرطة الذين كانوا يعتبرون أن فعلتهما لا تستحق ذلك الجزاء . والتفت فومين الى الوراء لتقع عيناه على بيروجوك ، الا أنه لم يقل له شيئا . ووصلا سوية الى لوحة الاعلانات ، حيث حاول فومين باظافره انتزاع المنشور الذى التصق بالاعلان الألمانى المعلق ، بحيث لم يتيسر له ذلك الا بعد أن أحدث ثغرة فى ذلك الاعلان لينتزع المنشور وجزءا منه ثم كوّره ودسه فى جيبه .

والتفت الى الجمهور بوجهه الأصفر شأن وجوه الطواشية ، وقد برزت عيناه الرماديتان الصغيرتان من بين الغضون العديدة التى أحاطت بهما ، ليفح قائلا :

— لماذا تتجمعون هكذا ؟ ماذا تودون رؤيته ؟ هيا بعيدا !

وراح بيروجوك يلف ويدور حول فومين مثل الأفعى السوداء وهو يصيح بصوت صبيانى :

— هل سمعتم ؟ فلتتفرقوا أيها السادة . . فسوف يكون ذلك من الأفضل .

وباعد فومين ما بين يديه فى محاولة لتشتيت الجمع المحتشد،

فيما التصق به بيروجوك ومضة من الزمن . وانفرط عقد الحشد الذى بدأ فى التشتت ، يتقدمه بيروجوك .

وأخذ فومين يذرع السوق فى حذائه الجلدى الطويل يكسو التجهم قسمات وجهه . واذ القى كل من بالسوق ما كان يمارسه من شئون تجارية ، راح ينظر الى ظهر فومين وقد تباينت مشاعر الجميع ما بين خائف ومندهش وشامت . فقد ثبت الى جاكتة فومين ذات الرسوم المربعة منشور كتب عليه بحروف كبيرة : «انك تبيع شعبنا للألمان لقاء قطعة من السجق ولقاء جرعة من الفودكا وعلبة من التبغ . انك سوف تدفع حياتك الوضيعة ثمنا لذلك . حذار !»

ولم يكن ثمة من حذّر فومين بشأن ذلك المنشور المعلق على ظهره والذى قطع به كل أرجاء السوق وحتى وصل الى مركز الشرطة .

وراح رأس سيريوجكا بشعره الأصفر الأجعد ، ورأس بيروجوك بشعره الأسود يظهران تارة فى وسط ذلك الحشد ، ليختفيا تارة أخرى ، وهما يشقان طريقهما عبر الأجساد المتزاحمة التى راحت تدور هنا وهناك مثل المذنبات فى أفلاكها الغامضة . ولم يكونا وحدهما هناك ، حيث كان قد ظهر عند أحد المنعطفات رأس توسيا ماشينكو تلك الفتاة الهادئة ، متواضعة الملبس ذات الشعر الأشقر والعينين اللتين تشعان ذكاء . وما دام قد ظهر فى ذلك المكان رأس توسيا ماشينكو فذلك يعنى وجود على مقربة منها رفيق طريقها ستيوبا سافونوف ذى الشعر الأصفر . وراحت تتلاقى وتتباعد نظرات عينى سيريوجكا الثاقبتين مع عينى فيتكا لوكيانتشينكو الداكنتين المخمليتين . كما وصارت تدور طويلا حول الأكشاك وعربات الباعة فاليا بورتس ذات الضفيرتين الذهبيتين ، تحمل سلة مغطاة بمفرش سميك ، لا يعرف أحد ماذا تبيع أو تشترى .

وكان الناس يجدون فى الزكائب أو فى الأكياس الفارغة ، وأحيانا تحت ثمار الكرنب أو البطيخ المنشورات التى كانت فى بعض الأحيان عبارة عن قصاصة صغيرة سجلت عليها جملة كهذه:

«يسقط نظام البطاقات التموينية الألمانى ، وليعش نمط الحياة السوفييتى !»

ويعلو وجيب قلب الانسان ازاء مثل هذه الجملة .

وها هو سيريوجكا يدور حول صفوف الموائد متجاوزا اياها المرة تلو الأخرى ليظهر أخيرا فى داخل الحشد الذى وقف حاملا بضاعته فى يديه ليصطدم وجها لوجه بناتاليا الكسييفنا طبيبة مستشفى المدينة . كانت تنتعل حذاء من الكاوتشوك تقف الى جوار عدد من النسوة ممسكة فى يديها البضتين الصغيرتين حذاء نسائيا باليا عتيقا . وقد اعتراها الارتباك حين وقع نظرها على سيريوجكا، الذى ارتبك كذلك ، ليلقى التحية وهو يرفع غطاء رأسه .

ووميضت عينا ناتاليا الكسييفنا بتلك السمة المالوفة لديه والتى تنم عن فرحة مشوبة بالقسوة . ولفت الحذاء بحركة خاطفة من يديها البضتين ثم قالت :

– حسنا جدا . يهمنى أن أراك !

وكان من المفروض أن ينتقل سيريوجكا وفاليا من منطقة السوق الى مكتب العمل حيث سوف تأخذ المجموعة الأولى من الشباب طريقها من هناك الى ألمانيا تنفيذا للأوامر الصادرة بذلك. وها هى فاليا تشاهد فجأة سيريوجكا يصطحب فتاة ممتلئة – كما بدا من بعيد – ليخرجا من الحشد المجتمع بالسوق فى اتجاه مساكن لى فان تشى الطينية وحيث اختفيا فيما خلفها . وحالت كبرياء فاليا دون اقتفائها لآثارهما . وأصابت الرعشة شفتها العليا البضة ، ووميضت عيناها بما ينم عن برود . وراحت فاليا تتخذ اتجاهها نحو مكتب العمل تحمل سلتها التى احتوت تحت ثمار البطاطس المنشورات المطلوب توزيعها هناك ، تسير فى خطوات وئيدة ، مرفوعة الهامة .

كان الجنود الألمان يحيطون بالمساحة الكائنة أمام المبنى ذى الطابق الواحد فوق التل . واحتشد الشباب الذين كان ينبغى عليهم اليوم الرحيل عن مدينتهم الحبيبة ، وأمهاتهم وآباؤهم وأقاربهم ، يحملون صرر الملابس والحقائب . وكذلك الفضوليون عند منحدر التل قريبا من تلك المساحة المطوقة . وكانت سماء تلك الأيام ملبدة بالغيوم ، تنذر بالامطار . غير أن الرياح التى هبت قوية

منذ الصباح لم تدع لتلك السحب الفرصة لتفرغ ما فى جوفها من امطار وصارت تدفعها بعيدا . كما وراحت تتلاعب بفساتين النسوة والفتيات متباينة الألوان عند منحدرات التل ، وتثير الغبار على الطريق المجاور لمبنى اللجنة التنفيذية للاقليم ومنزل «النبيل المسعور» .

وخلق انطباعا كئيبا ذلك الحشد من النسوة والفتيات والمراهقين الذين لزموا اماكنهم فى صمت وظهروا وكانما حجّرتهم الكارثة . لقد كانوا جميعا لا يتجاوزون الصمت أو الهمس ان تحادث بعضهم ، بل وكانوا يخشون البكاء بصوت عال . كانت الأم تمسح دموعها بكمها ، أما الابنة فكانت تدفن عينيها فى منديلها .

توقفت فاليا عند طرف الحشد الى جوار منحدر التل ، من حيث شاهدت منطقة المنجم رقم ١ وجزء من خط السكة الحديدية .

كان الناس يتوافدون الى المكان من مختلف أرجاء المدينة . كما وتقاطر غالبية الصبية الذين كانوا يوزعون المنشورات بالسوق الى هناك . وفجأة وقع نظر فاليا على سيريوجكا يسير على جسر السكة الحديدية ، منكس الراس حتى لا تطيح الرياح بغطاء رأسه . ثم اختفى برهة من الزمن ليظهر من جديد فيما وراء التل . كان يسير دونما هدى يرمى الحشد بنظراته التى وقعت على فاليا أيضا لترتجف شفتها البضة العليا بما ينم عن اعتزاز بالنفس .

ولم تبادله فاليا النظر ، كما ولم تساله عن شىء . وأدرك سيريوجكا أن فاليا قد غضبت ولذا قال فى هدوء :

– ناتاليا الكسييفنا . .

ثم مال الى أذنها يهمس :

– ثمة مجموعة كاملة من الصبية فى مستعمرة كراسنودون . . مجموعة مستقلة . . . فلتحدثى أوليج بشانهم .

وكانت فاليا مراسلة اتصال للقيادة . وأومأت براسها بما يعنى الايجاب . وفى تلك اللحظة شاهدا أوليانا جروموفا تسير من ناحية «فوسميدوميكى» برفقة فتاة مجهولة ترتدى معطفا وبيريه على راسها . وقد كانتا تسيران تعاون كل منهما الأخرى

فى حمل حقيبة ، تحاولان تفادى الريح وتشيحان بوجهيهما اتقاء للغبار .

وهمس سيريوجكا :

– هل انت موافقة اذا ما تطلب الأمر ذهابك الى هناك ؟

واومات فاليا براسها .

وفى نهاية الأمر أدرك الملازم أول شبريك مدير مكتب العمل ان الشباب سوف يظلون مكانهم خلف «كردون» الجنود الألمان ، الى جوار اقاربهم اذا ما لم يحثهم على الانصراف . وخرج الى طنف المبنى برفقة الكاتب ، حليق الوجه يرتدى زيّه الرسمى الكامل ، وليس فى ذلك السروال الجلدى الذى كان يرتديه فى الأيام شديدة الحرارة أثناء عمله بالمكتب وسيره بالشارع ، ليصيح على الراحلين بضرورة تسلم الوثائق الخاصة . واعاد الكاتب ذلك على الأسماع بالأوكرانية .

لم يسمح الجنود الألمان بتجاوز الأقارب والمودعين الى ما خلف «الكردون» . وبدأت عملية الوداع . وتعالى صوت بكاء الأمهات والبنات اللاتى لم يستطعن الامساك عن ذلك . أما الصبية فقد استطاعوا التجلد ، غير انه كان رهيبا للمرء ان ينظر الى وجوههم حين راحت الأمهات والجدّات والشقيقات يلطمن صدورهم بينما وقف الآباء الذين تقدم بهم السن كثيرا ، والذين كانوا قد واجهوا الموت وجها لوجه اكثر من مرة أثناء عملهم بالمناجم ، وقفوا جميعا يمسحون دموعهم التى انزلقت على شواربهم وقد نكسوا رؤوسهم .

– آن الأوان .

قالها سيريوجكا فى صرامة فى محاولة منه كيلا ترى فاليا اضطرابه .

وتحركت فاليا تشق طريقها فى صورة الية عبر الحشد نحو مكتب العمل وهى تمسك نفسها بالكاد عن البكاء ، دون ان تعيره سمعها . وفى صورة آلية ايضا راحت تتناول من تحت البطاطس ، المنشور الذى طوى مرتين لتدسه فى جيب معطف او سترة او تحت مقبض حقيبة أو سلّة .

وعند «الكردون» دفع فاليا الى الخلف ذلك التيار البشرى الذى

تقهقر فجأة الى الوراء بعيدا عن مكتب العمل وقد أصابه الذعر . وكان بين المودعين كثير من المراهقين والفتيات وصغار النسوة ، حيث وبمحض الصدفة وقع شخص ما منهم ، كان يودع شقيقته او شقيقه الى ما وراء الكردون ليعجز عن العودة ثانية . وقد اثار ذلك المشهد المرح فى نفوس الجنود الألمان ، لدرجة انهم راحوا يمسكون بمن تقع عليهم ايديهم من الصبية والفتيات يجذبونهم الى ما وراء «الكردون» . وتعالت الصيحات والتوسلات والبكاء . واصابت الهستيرية احدى النسوة . واندفع الشباب فى رعب بعيدا عن المكان .

واذ ظهر سيريوجكا فجأة تكسو وجهه امارات المعاناة والغضب جذب فاليا من يدها الى خارج الحشد يقودها نحو نينا ايفانتسوفا .

وامسكت نينا يديهما ، بيديها الضخمتين اللتين تنمان عن انوثة قائلة :

– حمداً لله . . . والا كان هؤلاء الطغاة . . . اليوم فى الخامسة عند كاشوك . – وهمست لفاليا تقول : – ابلغى زيمنوخوف وستاخوفيتش بذلك . هل رايتما اوليانا ؟

وهرولت تبحث عن أوليانا . وقد كانت نينا شان فاليا مراسلة اتصال لدى القيادة .

ولبثت فاليا وسيريوجكا واقفين بعض الوقت كل يجاور الآخر ، فلم يكونا راغبين فى الفراق . وكان سيريوجكا يبدو وكانما على وشك الافصاح عن شىء غاية فى الأهمية ، غير انه لم يقل شيئا .

وذكرت فاليا برقة :

– انى سوف اذهب .

ومع ذلك فلم تبرح مكانها برهة من الزمن ، ثم ابتسمت لسيريوجكا والتفتت الى الخلف ليعتريها الخجل وتروح تهرول حاملة سلتها تهبط التل ، تقطعه بقدمين قويتين لفحتهما الشمس .

كانت أوليانا تتخذ مكانها الى جوار «الكردون» مباشرة فى انتظار ان تخرج فاليا فيلاتوفا من مبنى مكتب العمل . وامسك الضابط الألمانى الذى افسح الطريق أمام فاليا حاملة حقيبتها ، بيد أوليانا . الا انها رمته بنظرة هادئة باردة . والتقت عيونهما

ومضة من الزمن ، لينـد عن عينى الجندى ما يشبه امارة انسانية . وترك يد اوليانا ، ليلتفت الى الوراء ويصيح فجاة وعلى نحو ينم عن حقد مناديا على امراة شقراء عارية الراس تحتضن ابنهـــا المراهق الذى يناهز عمره السادسة عشرة . وتركت الأم ابنها فى نهاية الأمر ليتضح انها هى التى يجرى تسفيرها وليس ابنها . وراح الابن ينظر اليها والدموع تنهمر من عينيه كما الطفل ، وقد ابتعدت عنه تحمل صرة الملابس فى يدها ، تتجه نحو باب مكتب العمل الذى توقفت عند عتبته تبتسم لابنها للمرة الأخيرة ، ثم تخطو الى الداخل .

جلست فاليا واوليانا طوال الليل متعانقتين فى حجرة صغيرة بشقة آل فيلاتوف ، تزينها زهور الخريف . وكانت والدة فاليا التى تقدم بها العمر تقترب منهما تمسح راسيهما براحتيهـــا وتقبلهما تارة ، أو ترتب محتويات حقيبه فاليا تارة اخرى ، أو تقتعد فى صمت مطبق كرسيا فى زاوية الغرفة تارة ثالثة . لقـــد كانت سوف تبقى وحيدة تماما بعد رحيل فاليا .

وكانت فاليا التى اضنتها الدموع والتزمت الهدوء والصمت ، ترتجف فى بعض الأحيان وهى تجلس فى احضان اوليانا . امّـــا اوليانا التى استكانت فى رعب لحتميـــة ما كان يجب أن يحدث ، راحت ترتب فى صمت راس فاليا الاشقر وقد بدت رقيقة تقدمت بها السن قليلا .

وقد بددت اشعة مصباح الزيت ظلمة الغرفة بالكاد بحيث لم يكن باديا سوى وجوه وايادى الفتاتين والأم العجوز .

كم كان طيبا لو لم تر ذلك ابدا ! هذا الوداع بين فاليـــا وامها ، وذلك الطريق الذى لا نهاية له حاملـــة حقيبتها ، تصفر الرياح فى اذنيها ، وذلك العناق الأخير عند «كردون» الجنـــود الألمان !

غير ان كل ذلك حدث على مراى منها . . كما وما يزال يحدث حتى الآن . لقد توقفت اوليانا عند «كردون» الجنود الألمان ، وقد تعلق ناظراها بباب مكتب العمل ترتسم على وجهها امارات قوة مفعمة بالكآبة .

وبالساحة المجاورة لمبنى مكتب العمل ترك الشباب والفتيات

وصغار النسوة الموجودون داخل «كردون» الجنود صرر ملابسهم وحقائبهم ، حيث قيل انه سوف يجرى نقلهـــا على متن احدى العربات ، ودلفوا الى داخل المبنى . وكانت نيمتشينوفا تصرف لهم تحت رقابة الملازم الألمانى البطاقـــات التى كانت الوثائق الوحيدة لاثبات شخصياتهم لأى ممثل للسلطة الألمانيـــة طوال الطريق بأكمله . ولم يكن هناك مكتوبا اسم أو لقب حامل مثل تلك البطاقات ، بل رقم واسم المدينة فقط . وكانوا يخرجون من المبنى يحملون مثل تلك البطاقات ، بينمـــا راح وكيل العريف يصفهم طابورا بمحاذاة الميدان المجاور للمكتب .

وها هى فاليا فيلاتوفا تخرج من المبنى ، لتجول بناظريها بحثا عن صديقتها ، ثم تقدمت ببضع خطوات تجاهها ، غير أن وكيل العريف أمسك بيدها ودفعها نحو الطوابير المصطفة . واستقرت فاليا فى نهاية الطابور الثالث أو الرابع ، لتغيب كل من الصديقتين عن انظار الأخرى .

وقد منحت كارثة هذا الفراق الأليم الناس حق ابداء ما يجيش بنفوسهم من حب . فقد حاولت النسوة المحتشـــدات الاندفاع وتجاوز «الكردون» ، ورحن يصحن بآخر كلمات الوداع أو النصائح لأولادهم . أما الشباب الذين اتخذوا أماكنهم فى الطوابير ، والذين كانوا فى غالبيتهم من الفتيات ، فقد كانوا يبدون وكأنهم قادمون من العالم الآخر ، يجيبون بصوت خافت او باشارة من منديل أو يتاملون ويحدقون فى الأوجه الحبيبة فى صمت بينما تنهمر الدموع من اعينهم .

وها هو الملازم اول شمبريك يخرج من المبنى يحمل فى يده ظرفا أصفر . وصمت الحشد الذى تعلقت انظاره به . وأصدر أمره :

— انتباه !

واعاد وكيل العريف البدين الأمر بصوت رهيب :

— انتباه !

وجمدت الصفوف . وراح الملازم اول شمبريك يتفقد الصف الأول ، فيما يدفع اصبعه البدين الى جسد كل فرد فى الطابور الذى

تشكل من اربعة افراد يقفون كل وراء الآخر ، يحصى تعدادهم الذى بلغ ما يزيد عن مائتى شخص .

وسلم الملازم اول الظرف الى وكيل العريف واشاح بيده . وهنا اندفعت مجموعة من الجنود تفسح الطريق الذى احتشد به الجمهور . واصدر وكيل العريف أمره لتستدير الصفوف الى الخلف ثم تتحرك من مكانها فى بطء وكانما عن غير رغبة ، يرافقهـــا الحراس الذين تقدمهم وكيل العريف .

وانشق الحشد الذى شطره الجنود الى كلا جانبى الطريق الذى اتخذه طابور الراحلين ، مصحوبا بالبكاء والنحيب والصراخ الذى تمازج فى أنين متصل حملته الرياح بعيدا .

وراحت أوليا تتابع الحشد ، تشب على اطراف قدميها محاولة العثور بناظريها على فاليا التى وجدتها اخيرا ، لتصيح فيما يدفعها السائرون :

– اننى هنا يا فاليا . . اننى هنا .

غير ان فاليا لم تكن تراها او تسمعها حين صارت تلتفت الى الوراء تكسو وجهها امارات الألم والعذاب .

وكانت اوليا التى راح الحشد يتلاعب بها يمنة ويسرة قـــد شاهدت وجه فاليا عدة مرات ، وحتى انحدر قول المسافرين فيما خلف مبنى «النبيل المسعور» فى اتجاه المزلقان الثانى ، لتغيب فاليا عن الأنظار .

وظهرت نينا ايفانتسوفا فجأة امام اوليانا لتقول :

– اوليانا ! اننى ابحث عنك . اليوم فى الساعة الخامسة عند كاشوك . . . لقد وصلت ليوبكا .

ولم تعر اوليانا سمعها لما ذكرته نينا ، بل راحت ترنو اليها بعينيها السوداوين الرهيبتين فى صمت .

الفصل الاربعون

امتقع وجه اوليج قليلا حين تناول من جيب سترته الداخـــلى مفكرته ، وطفق يتصفحها فى امعان ، ثم جلس الى المائدة التـــى استقرت فوقها زجاجات الفودكا والأقداح والأطباق الفارغة ، يجلس

الآخرون أيضا ، بعضهم الى المائدة ، والبعض الآخر على الأريكة تعلو وجوههم امارات الجد ، ينظرون اليه فى صمت .

لقد كانوا بالأمس فقط رفقاء مدرسة ، يتشاقون ويمرحون دونما اية مسئولية ، اما ومنذ قطعوا على انفسهم ذلك العهد ، فقد بدوا وكأن كل منهم توادع مع ذاته ، وفرغ من علاقاته الودية القديمة غير المسئولة لينخرط فى غيرها جديدة أسمى من سابقاتها . . . صداقة الفكر الواحد ، والتنظيم الواحد ، والدم الذى اقسم كـــل منهم بذله فداء لتحرير الأرض الحبيبة .

كانت كبيرة تلك الغرفة فى شقة كوشيفوى شأن كل الغرف فى البيوت النموذجية ، ذات قواعد النوافذ غير المطلية التـــى استقرت فوقها ثمار الطماطم التى لم تنضج بعد ، وحيث الكنبة المصنوعة من خشب الجوز التى كان يفترشها اوليج لنومـــه ، وسرير يلينا نيكولايفنا بوسائده الكثيرة المنفوشة التى غطيت بمفرش . كما وكانت هذه الغرفة تحمل الى الذاكرة تلك الحياة الوادعة فى ظل رعاية الوالدين ، بينما تعتبر اليوم وفى نفس الآن مقر التنظيم السرى .

اما اوليج فقد غدا يحمل اسم كاشوك وهو لقب زوج امه ، الذى كان فى شبابه فدائيا شهيرا فى أوكرانيا ، ورئيسا لأحـــد الأقسام الزراعية بكانيف فى آخر سنوات حياته . وقد اخذ اوليج كنية لنفسه ذلك اللقب ، الذى ارتبطت به فى مخيلته بطـــولات النضال الفدائى وكل تلك التربية الجسورة التى لقيها على يدى زوج امه ، مثل العمل فى الحقـــول والصيد ، والنزهة على متـــن القوارب ، وظهور الجياد .

وتوقف عند تلك الصفحة التى كان مسجلا فيها كـــل شىء بعلامات رمزية ، واعطى الكلمة لليوبا شيفتسوفا .

ونهضت ليوبكا من مكانها على الأريكة وزرّت عينيها متخيلة كل ذلك الطريق المفعم بالأهوال والمخاطر واللقاءات والمغامرات والتى لم يكن بوسعهـــا الحديث عنهـــا عـــلى مدى ليلتين كاملتين .

فقد كانت بالأمس فقط تقف عند مفترق الطرق تحمل تلـك

الحقيبة التى كلّت يدها عن حملها ، بينما هى اليوم بصحبة اصدقائها من جديد .

وكما اتفقت مع اوليج مسبقا ، أبلغت اعضاء القيادة وبادئ ذى بدء كل ما ذكره لها ايفان فيدوروفيتش حول ستاخوفيتش . بيد انها لم تذكر بطبيعة الحال ايفان فيدوروفيتش باسمه ، على الرغم من انها كانت قد عرفته على التو ، قائلة انها قابلت بمحض الصدفة شخصا كان يقاتل برفقة ستاخوفيتش فى فصيل واحد .

وكانت ليوبكا شخصا صريحا يتسم بالجسارة ، بل وحتى بالقسوة ولا سيما مع اولئك الذين لم تكن تحبهم . ولذا فلم تخف توقعات ذلك الشخص بشان احتمال وقوع ستاخوفيتش فى قبضة الألمان .

وريثما كانت ليوبكا تفضى بكل ذلك ، كان اعضاء القيادة يتحاشون النظر الى ستاخوفيتش الذى جلس محاولا التمسك بالهدوء وقد استقرت يداه النحيفتان على المائدة يحدق بعينيه فيما قبالته ، بينما كانت قسمات وجهه تنم عن قوة . غير ان احواله سرعان ما تغيرت ، حين سمع آخر ما نطقت به ليوبكا ، وزال توتره الذى كان يعيشه ، لترتخى شفتاه وتنبسط يداه ، وليجول فجاة بناظريه يتامل الجميع فى دهشة وغضب ليبدو وكانما عاد الى سنى الطفولة من جديد .

– هل قال ذلك ؟ . . هل استطاع التفكير على هذا النحو ؟

وراح يردد هذين السؤالين عدة مرات وهو ينظر الى عينى ليوبكا فى غضب طفولى . ثم قال موجها حديثه اليها ، ثم نقل عنها نظراته لتستقر صريحة واضحة على الجميع :

– لقد غدوت موضع شك لأننى . . . لماذا لم يقل لك اننا طوردنا لمدة اسبوع باكمله ، وانه قيل لنا بضرورة التفرق جماعات ؟ لقد كنت اظن حين اتخذت مكانى بين الشجيرات ، انهم سوف يحاولون اختراق الحصار بغية النجاة ، وان الجزء الأعظم منهم ان لم يكونوا جميعهم ، سوف يلقون حتفهم ، ولربما لقيت حتفى كذلك معهم ، بينما يمكننى انقاذ نفسى ، وقد اكون مفيدا فيما بعد . هكذا فكرت آنذاك ، اما الآن فاننى اعرف ان ذلك

كان وبطبيعة الحال مجرد ذريعة . ومضى ستاخوفيتش يقول فى سذاجة :

– لقد كانت النيران شديدة الى الحد الذى ادخل الرعب فى قلبى . غير اننى ورغما عن ذلك لا اظننى قد ارتكبت جريمة كبيرة الى هذه الدرجة . أو لم ينقذوا هم كذلك انفسهم ؟ . وحين حلت الظلمة فكرت فيما يلى . . اننى اجيد السباحة ، وقد لا يلحظنى الألمان حين اسبح وحيدا . وحين لاذ الجميع بالفرار ، لبثت راقدا مكانى بعض الوقت ، وتوقف اطلاق النيران فى ذلك المكان ليتعالى قويا فى مكان آخر . واعتقدت ان الوقت قد حان ، ورحت اسبح على ظهرى لا يظهر سوى انفى فوق سطح الماء ، وذلك حيث اجيد السباحة . وصرت اسبح هكذا حتى منتصف النهر ، ثم أسلمت نفسى للتيار . وهكذا انقذت نفسى . . ويا لها من ريبة . هل يمكن ان يبلغ الأمر هذا الحد ؟ أو لم ينقذ ذلك الشخص نفسه فى نهاية الأمر كذلك ؟ لقد فكرت انه طالما اجيد السباحة ، فسوف استغل ذلك . ورحت اسبح على ظهرى . . وهكذا انقذت نفسى !

وقد كان ستاخوفيتش يجلس اشعث الشعر اشبه بصبى صغير . وذكر فانيا زيمنوخوف :

– فلنفترض أن الأمر كذلك . . لقد انقذت نفسك . . فلماذا اذن قلت لنا أنك مبعوث من قبل قيادة الفصيل ؟

– لأنهم كانوا حقا يودون ارسالى . . وظننت انه طالما بقيت حيا ، فان شيئا لم يتغير . كما واننى فى نهاية الأمر لم انج بنفسى لمجرد النجاة ، لقد كنت وما ازال اود التصدى للمحتلين . ان لدى الخبرة اللازمة حيث ساهمت فى تنظيم الفصيل ، واشتركت فى المعارك . . وهذا ما جعلنى اصوّر الأمر على ذلك النحو .

خيّم على نفوس الجميع عبء ثقيل ، مما جعلهم يشعرون بعد التفسيرات التى ادلى بها ستاخوفيتش بشىء من الارتياح . ومع ذلك فقد كانت تلك القصة أمرا لا يدعو الى الارتياح . أو كان ضروريا أن تشهد الحياة مثلها !

لقد كان الجميع يعرفون أن ستاخوفيتش يقول الصدق ، الا انهم كانوا يشعرون انه أساء التصرف ، ويسىء الحديث عن

فعلته ، وكان ذلك أمرا مبهما يدعو الى الأسى والغضب ، جعلهم لا يعرفون كيفية التصرف معه .

ولم يكن ستاخوفيتش فى حقيقة الأمر شخصا غريبا على المجموعة ، يبحث لنفسه عن وظيفة مرموقة أو عن مجد شخصى . لقد كان من أولئك الشباب الذين وجدوا أنفسهم منذ سنى طفولتهم قريبين من رجال يحتلون مراكز هامة ، أفسدتهم استعارتهم لبعض مظاهر السلطة ، فى حين انه لم يكن يدرك بعد الجوهر الحقيقى للسلطة الشعبية وأهميتها ، وكذلك كون أولئك الناس قد حظوا بحق التمتع بتلك السلطة بفضل عملهم الدؤوب وطباعهم التى عمّدها النضال .

لقد كان ذلك الصبى النابه الذى كان فى وسعه اتيان كل شىء ببساطة ، موضع اهتمام كبار رجالات المدينة منذ سنى الدراسة ، بفضل اخوته الشيوعيين الذين كانوا أيضا من مشاهير الرجال . واذ تعوّد الصبى على التعامل مع أمثال هؤلاء الناس منذ طفولته ، يتحدث عنهم فى أوساط اقرانه ، وكأنما يتحدث عن أناس من سنه ، كان يجيد التعبير قولا وكتابة عن تلك الأفكار التى لم يكن قادرا على الوصول اليها بنفسه ، القريبة عنه والتى كان يسمع عنها من الآخرين . ولقد كان ذلك الشخص الذى لم تسعفه الحياة بعد للقيام بشىء يذكر ، يعد فى أنظار العاملين فى لجنة المنطقة للكومسومول من نشطائه . أما أعضاء الكومسومول العاديون الذين لم يكونوا يعرفونه وان كانوا يشاهدونه فى كافة الاجتماعات اما وراء المنصة واما ضمن الخطباء ، يعدونه من العاملين فى لجنة المنطقة أو لجنة المقاطعة . وقد كان ستاخوفيتش دون أن يدرك المغزى الحقيقى لنشاط أولئك الذين يدور بين أوساطهم ، يفهم جيدا العلاقات الشخصية والعملية السائدة بينهم ، من منهم ينافس الآخر ، ومن يؤيد الثانى . ولذا فقد تصور أمام مخيلته وهما كاذبا حول فن السلطة وكأنما ينحصر لا فى خدمة الشعب ، بل فى المناورة الماهرة للبعض ازاء البعض الآخر ، وفى ضرورة أن يحظى بتأييد أكبر عدد ممكن .

لقد استعار من هؤلاء الناس طريقة تعاملهم التى لا تتسم بالليونة وصراحتهم المشوبة بالخشونة واستقلالية أحكامهم دون

أن يدرك مدى صعوبة وضخامة تلك الحياة التى تكمن وراء مثل ذلك السلوك . ولذا فقد تخلى عن سمات الحيوية وتدفق المشاعر التى يتميز بها الشباب ليبدو دائما متحفظا عن عمد ، يتحدث بصوت هادئ مصطنع ولا سيما اذا كان يتحدث تليفونيا مع شخص غريب ، وبوجه عام كان قادرا على تأكيد تفوقه فى حضرة رفاقه .

وهكذا تعوّد ستاخوفيتش منذ الطفولة اعتبار نفسه شخصية بارزة غير ملزمة بالتقيد بقواعد السلوك الانسانى الطبيعية .

فما الذى يرغمه فى حقيقة الأمر على الاستشهاد ، وليس محاولة النجاة كما فعل الآخرون مثل ذلك الفدائى الذى قابلته ليوبكا ؟ وأى حق يملكه هذا الشخص كى يوجه اليه مثل ذلك الاتهام ؟ ذلك أنه ، أى ستاخوفيتش ، لم يكن مذنبا فى وقوع الفصيل فى مثل هذا الموقف ، بل ينبغى سؤال آخرين ، اكثر مسئولية منه ، عن ذلك .

وريثما كان الصبية يلتزمون الصمت فى غير ما حسم ، اجتاحت ستاخوفيتش بعض سمات النشاط والمرح . بيد ان سيريوجكا هب فجأة ليقول فى حدة :

– لقد بدأ اطلاق النيران فى مكان آخر ، بينما استلقى هو على ظهره وراح يسبح ! ولقد جرى ذلك لأن الفصيل حاول اختراق الحصار ، وحيث كانت الأمور تتطلب وجود كل فرد . أولا يعنى ذلك أن الجميع قد انخرطوا فى القتال بغية انقاذه ؟

كان الضابط فانيا توركينيتش يجلس مكانه مفرود القوام ، دون أن يتعلق ناظريه بأحد ، تتسم قسمات وجهه بأمارات الطهارة والبسالة ، ليشرع قائلا :

– ينبغى على الجندى تنفيذ الأوامر ، بينما لُذت بالفرار أثناء المعركة . قصارى القول . . هربت . وتعاقب الجبهة على مثل هذه الفعلة بالاعدام رميا بالرصاص أو الحاق الهارب بكتيبة المعاقبين . لقد كان الآخرون يكفرون عن اخطائهم بدمائهم !

وذكر ستاخوفيتش ، فيما يعلو الشحوب وجهه :

– اننى لا أهاب بذل الدماء . .

وذكرت ليوبكا :

– انك وببساطة من المغرورين . هذه هى كل القضية .

وركز الجميع انظارهم على اوليج عسى ان يعرفوا وجهة نظره فى هذه القضية . وذكر أوليج بنبرة غاية فى الهدوء :

– لقد ذكر فانيا توركينيتش كل شىء ، وليس ثمة ما يقال افضل من ذلك . ونظرا لأن ستاخوفيتش ما زال يحاول تبرير موقفه ، فانه يكون بذلك وعلى ما يبدو شخصا غير منضبط . . فهل يمكن لمثل هذا الشخص أن يبقى فى قيادة فصيلنا ؟

وهنا افصح كل من الحاضرين عما يجول بخاطره . اذ راح الجميع يغرقون فى مهاجمة ستاخوفيتش حيث كانوا قد قطعوا عهدا على أنفسهم ، كل امام الآخر . فكيف استطاع ستاخوفيتش ان يقسم على ذلك بينما يخفى ضميره هذه الفعلة ؟ وكيف استطاع ايضا اخفاء مثل هذا الأمر ؟ يا له من رفيق ذلك الذى يسمح لنفسه بتدنيس ذلك اليوم المقدس . انه يلزم وبطبيعة الحال عدم الابقاء على مثل ذلك الشخص فى القيادة دقيقة واحدة بعد ذلك . اما الفتاتان ليوبا واوليانا واللتان لم تتفوها بحرف واحد ، فقد عبرتا بصمتهما عن احتقارهما الشديد الذى جعله اكثر احساسا بالمهانة .

لقد فقد السيطرة على نفسه تماما ، وراح يرنو الى الجميع فى ذلة محاولا التعلق بنظراتهم فيما يكرر :

– اولا تصدقوننى ؟ فلتجربونى ولو مرة اخرى ! . .

وهنا أثبت اوليج انه ليس ذلك الصبى صغير السن ، بل كاشوك الخبير المحنك ، حيث سأله :

– هل تعلم أنه من المستحيل الابقاء عليك فى القيادة ؟

واضطر ستاخوفيتش الى الاعتراف بأنه يستحيل بالفعل الابقاء عليه فى القيادة .

وذكر اوليج :

– انه من المهم أن تدرك بنفسك ذلك . وسوف نوكل اليك مهاما كثيرة . اننا سوف نختبرك ، وسوف نبقى على جماعتك معك ، لتتاح لك الامكانيات الكثيرة كى تمحو ما علق باسمك من عار .

أما ليوبكا فقد ذكرت :

– أنه ينحدر من أسرة طيبة . . ويا له من أمر مؤسف .

وجرى التصويت على فصل يفجينى ستاخوفيتش من قيادة «الحرس الفتى» . وجلس منكس الرأس ثم نهض متثاقلا وقال :

– ان وضعى عصيب بالفعل وانتم تدركون ذلك . بيد اننى اعلم انكم لم تكونوا لتتصرفوا على نحو مناقض لذلك . كما واننى لست غاضبا منكم . واقسم . . .

وهنا اختلجت شفتاه وهرول خارجا من الغرفة . واطبق الصمت على الجميع بعض الوقت ، حيث كان من العسير عليهم تحمل صدفة فقدان الثقة فى رفيقهم ، كما كان قاسيا ومؤلما على النفس حين تضطر الى تعذيب الآخرين .

غير أن ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتى اوليج ليقول فى تأتاة خفيفة :

– أقسم بالله انه سوف يكون قويما .

وأيده فانيا توركينيتش قائلا بصوت هادئ :

– هل تظنون أن مثل هذه الأمور لا تحدث بالجبهة ؟ ان المقاتل الشاب يجبن فى البداية ليتحول فيما بعد الى واحد من عمالقة المقاتلين !

وادركت ليوبكا انه قد حان الوقت للحديث باسهاب عن لقائها مع ايفان فيودوروفيتش . الا أنها لم تتحدث فى الواقع عن ذلك الطريق الذى قطعته للالتقاء به . وبوجه عام فلم تكن تملك حق التحدث عن الوجه الآخر لنشاطها ، بيد انها راحت تذرع الغرفة تقلده ، تصف كيف استقبلها ، وماذا قال لها . ودب النشاط فى الجميع حين ذكرت ليوبكا أن ممثل قيادة الفدائيين رحب بعملهم ومدح اوليج ثم قبّلها عند الفراق . وهذا يعنى أنه راض عنهم فى حقيقة الأمر .

واعترت الجميع مشاعر الاضطراب والسعادة وبعض الدهشة ، حيث اكتشفوا انفسهم فى نمط جديد ، وراحوا يصافحون بعضهم البعض ، يتبادلون التهانى .

وخاطب اوليج زيمنوخوف فيما تعكس قسمات وجهه سعادة مشوبة بالسذاجة :

– كم عظيم يا فانيا ذلك . . يا له من أمر عظيم . ان «الحرس

الفتى» منظمة موجودة وبلغ بها الأمر أنها حظيت باعتراف قيادة المقاطعة .

أمّا ليوبكا فقد راحت تعانق أوليانا التى تصادقت معها منذ ذلك الاجتماع الذى عُقد لدى توركينيتش ، وحيث لم يكن الوقت قد أسعفها بعد لالقاء التحية عليها ، وتقبلها فى حرارة كما لو كانت شقيقتها .

وعاد أوليج ثانية الى مفكرته ، ليتولى فانيا زيمنوخوف الذى كان قد اختير بالاجتماع الماضى منظما للخلايا الخماسية ، تحديد قادتها ، مراعاة لأن المنظمة آخذة فى التوسع .

وذكر فانيا فيما ينظر الى أوليانا فى مرح من وراء نظارته الشبيهة بنظارة البروفيسور :

– لعلنا نبدأ بحى بيرفومايكا !

ونهضت أوليانا وقد أسدلت يديها الى جوار جذعها ، لتعكس وجوه الجالسين على الفور تلك المشاعر النقية الطاهرة غير المغرضة التى لا يمكن الا أن يؤججها جمال الأنثى . الا أن أوليانا لم تلحظ اعجاب الآخرين بها ، لتقول :

– نحن ، أى أنا وتوليا بوبوف نرشح فيكتور بيتروف ومايا بيجليفانوفا .

وفجأة وقع نظرها على ليوبكا التى كانت تنظر اليها فى قلق ، لتمضى فى حديثها بصوت هادئ مبحوح :

– ولندع ليوبا تنتقى من تراه فى حى فوسميدوميكى .

وعلت الحمرة وجنتى ليوبكا ، لتشيح بيديها البيضاءين بما يعنى عدم قدرتها على التنظيم قائلة :

– أى كلام تقولين !

واعلن الجميع تأييدهم لأوليانا ، مما دعا ليوبكا الى الرضوخ بسرعة لتلك الرغبة ، وتخيل نفسها فى دور زعيمة التنظيم فى حى «فوسميدوميكى» ، مما جعلها فريسة مشاعر الفخر والخيلاء .

ووجد توركينيتش أن الوقت قد غدا مناسبا لطرح الاقتراح الذى اتفق بشأنه مع أوليج الليلة الماضية . وتحدث عما وقع لأوليج وعن العواقب التى كان يمكن ان تنجم عن مثل هذا السلوك وتؤثر ليس عليه فحسب بل وعلى التنظيم بأكمله ، وعرض اصدار

قرار يحظر اشتراك أوليج فى أية من العمليات دون اذن من القيادة . ثم أضاف قائلا :

– وأعتقد أنه ليس هناك ما يدعونى لتوضيح ذلك . كما ويجب أن يشملنى هذا القرار أيضا ، وبطبيعة الحال .

وذكر أوليج :

– انه محق فى ذلك .

ووافق الجميع على هذا القرار بالاجماع . ثم نهض سيريوجكا تعتريه مشاعر الحيرة والقلق ليقول فى تجهم ضاما شفتيه المكتنزتين :

– ثمة خبران أود اعلانهما .

وتملكت الجميع مشاعر المرح دون سابق مقدمات لدرجة أنهم لم يعيروه سمعهم بعض الوقت . الا أنه هب فجأة يقول وقد تضرجت وجنتاه :

– كلا . . اننى أود فى البداية الحديث عن هذا الاجنات فومين . الى أى مدى سوف نتحمل هذا الوغد ؟ لقد خان هذا الحيوان أوستابتشوك وفالكو ، ولسنا ندرى بعد كم من عمالنا أودى بهم ضميره الأسود . اننى أعرض الآتى . . اننى اقترح قتله . ولذا فلتوكلوا الى هذه المهمة ، لأننى سوف أقوم بقتله على كل حال .

وفجأة غدا واضحا للجميع أن سيريوجكا سوف يقوم فى حقيقة الأمر بقتل اجنات فومين .

وكست امارات الجدّية وجه أوليج ، لتغطى الغضون السميكة جبهته . وخيم الهدوء على كل أعضاء القيادة ، حتى ذكر فانيا توركينيتش بصوته الهادئ :

– وماذا فى ذلك ؟ انه يقول الحق ، لأن اجنات فومين خائن شرير لقومنا يجب شنقه فى مكان عام على مرأى من الجميع ، وتعليق لافتة على صدره توضح سبب شنقه حتى يتعظ الآخرون .

واتسم صوته بصرامة مفاجئة ليمضى قائلا :

– اننى اعتقد أنهم لن يرحمونا . فلتكلفونى وسيريوجكا تيولينين بهذه المهمة . . .

وشعر الجميع براحة بالغة ازاء تأييد توركينيتش لتيولينين .

فكم كان حقدهم هائلا على الخونة ! وقد كان صعبا عليهم للوهلة الأولى الاقدام على هذه الخطوة ، الا أن توركينيتش افصح عن رايه القاطع بهذا الشان . ولما كان توركينيتش رفيقا كبيرا وضابطا بالجيش الأحمر فقد كان ذلك يعنى أن هذا هو ما يجب أن يكون . وذكر أوليج :

– يجب علينا بطبيعة الحال انتظار الاذن بذلك من رفاقنا الكبار . بيد أنه ينبغى قبل ذلك التوصل الى رأى واحد . اننى سوف اطرح للتصويت فى البداية اقتراح تيولينين بشان فومين ، ثم أسماء من سوف توكل اليهم هذه المهمة .

وذكر فانيا زيمنوخوف :

– ان الموضوع واضح تماما .

وعلّق أوليج على ذلك فى اصرار مشوب بالتجهم :

– نعم . . ان الموضوع واضح ، بيد أننى سوف اعرض موضوع فومين منفصلا .

وادرك الجميع سبب اصرار أوليج على ذلك .

لقد قطعوا على أنفسهم عهدا ، وينبغى على كل منهم بحث هذا الأمر مع نفسه . وفى صمت رهيب افصحوا عن موافقتهم بشان اعدام فومين واوكلوا هذه المهمة الى توركينيتش وتيولينين .

وذكر سيريوجكا فيما تومض عيناه ، تعكس مشاعره الجارفة :

– لقد احسنتم اتخاذ القرار ! هكذا يجب التصرف مع امثال اولئك الأوغاد . ولأنتقل الى النبأ الثانى الذى كنت أود ابلاغكم به . . .

كانت ناتاليا الكسييفنا طبيبة المستشفى ، تلك المرأة ذات اليدين البضتين الصغيرتين والعينين المفعمتين صرامة ، والتى تعكس قسمات وجهها حبها للحركة والنشاط ، قد تحدثت مع سيريوجكا حول انه فى المستعمرة التى تحمل كذلك اسم كراسنودون والكائنة على مسافة ثمانية عشر كيلومترا من المدينة قد تشكلت مجموعة من الشباب لمقاومة المحتلين الألمان . ولم تكن ناتاليا الكسييفنا منضمة الى هذه المجموعة ، بل عرفت بوجودها من جارتها فى الشقة التى كانت تقيم بها والدتها . وقد

كانت هذه الجارة معلّمة تدعى انطونينا يليسينكو ، وعدتها بالاتصال بالمدينة بهذا الشان .

واوكلت القيادة ، وفقا لاقتراح سيريوجكا ، الى فاليا بورتس مهمة الاتصال بهذه المجموعة . وقد جرى ذلك غيابيا لأن مراسلات الاتصال نينا واوليا ايفانتسوفا وفاليا لم يحضرن اجتماع القيادة حيث جلسن فى الفناء مع مارينا يحرسن المنزل حيث يدور الاجتماع .

واستغلت قيادة «الحرس الفتى» كون يلينا نيكولايفنا والخال كوليا قد رحلا بضعة أيام الى المنطقة التى يعيش بها اقارب مارينا ، لمقايضة بعض الأشياء بالخبز . هذا بينما قامت الجدة فيرا فاسيليفنا التى تظاهرت بتصديقها ان الصبية تجمعوا لمجرد قضاء وقت فراغهم ، بارسال مارينا وابنها الصغير الى العنبر الخشبى الملحق بالمنزل .

وريثما كان الاجتماع ما يزال دائرا ، أسدلت الظلمة ستائرها ، لتدلف الجدة فيرا الى داخل الحجرة فجأة . ونظرت الجدة من فوق نظارتها التى كان احد ذراعيها مكسورا ، ومثبتا بخيط أسود ، الى زجاجة الفودكا التى لم يمسها احد ، والأقداح الفارغة . ثم قالت لتنتاب الحيرة والارتباك شباب العمل السرى :

– فلتشربوا شايا على الأقل ، ولقد اعددته لكم . اما مارينا فقد اقنعتها بقضاء الليلة مع ابنها فى العنبر الخشبى ، حيث أن الهواء هناك انقى مما فى الداخل .

وقادت الجدة فاليا ونينا واوليا الى الداخل ، واحضرت براد الشاى ثم تناولت من قاع احد الأدراج بعض الحلوى ، واغلقت النافذة واشعلت مصباح الزيت وانصرفت .

والآن وحين بقى الشباب وحدهم ، تبدّد ظلمة الحجرة التى يجلسون بها أشعة المصباح الذى تراقص لهبه خافتا ، لتبدو بعض تفاصيل وجوههم وملابسهم واثاث الغرفة مما جعلهم اشبه فى حقيقة الأمر بالمتآمرين ، كما وخفتت اصواتهم لتبدو مبهمة غامضة ، فيما همس أوليج متسائلا :

– هل تودون سماع موسكو ؟

وتصوره الجميع يمزح بعرضه هذا ، فيما عدا ليوبكا التى ارتجفت بعض الشىء متسائلة :

– كيف موسكو ؟

– على شريطة . . الا تسالوا عن اى شىء .

وخرج اوليج الى الفناء ، ليعود على الفور قائلا :

– فلتصبروا بعض الوقت .

واختفى بغرفة الخال كوليا المظلمة .

ولزم الجميع اماكنهم فى صمت لا يعرفون ما اذا كان يمكنهم تصديق اوليج فى حقيقة الأمر . غير انه لم يكن قادرا على المزاح بهذه الصورة ، وفى مثل ذلك الوقت . وتعالى صوت اوليج ينادى :

– نينا . . فلتساعدينى !

وذهبت نينا ايفانتسوفا اليه .

وفجاة ترامى الى الاسماع من غرفة الخال كوليا صوت خافت غير غريب عليهم ، وان كانوا قد نسوه . . قرقعة خفيفة ثم موسيقى . . لقد كان ثمة من يرقص تحت وقع هذه الموسيقى .

كانت المارشات الالمانية تفرض نفسها على الأثير طوال الوقت . وكان هناك صوت هادئ لمذيع تقدم به السن يعلن بالانجليزية اعداد القتلى فى مختلف الجبهات ، وآخر يتحدث بالالمانية دون انقطاع وعلى نحو سريع بدا معه وكانما يخشى ظهور من يمنعه عن استكمال حديثه .

وفجاة وبين هذه القرقعة الخفيفة تعالى صوت المذيع ليفيتان يدلف الى الحجرة موجات قادمة من الفضاء الرحب واضحا حرا ، يعلن فى نبرة احتفالية عادية :

«من مكتب الاعلام السوفيتى . . بيان العمليات عن السابع من سبتمبر : انباء المساء . . .»

وهمس فانيا زيمنوخوف فجاة فيما امسك بقلمه على الفور :

– اكتبوا . . اكتبوا . اننا سوف نصدره غدا !

وكان هذا الصوت الحر القادم من الأراضى الحرة يتعالى الى الاسماع عبر آلاف الكيلومترات .

«. . . خاضت قواتنا فى السابع من سبتمبر معارك ضارية ضد العدو غربى ، وجنوب غربى ستالينجراد وكذلك فى منطقتى

نوفوروسيسك وموزدوك . . ولم تشهد الجبهات الأخرى اية تغيرات جوهرية . . .»

وبدا الأمر وكانما يتسلل صدى المعركة العظيمة الى الداخل ليفرض نفسه على الاسماع .

وراح الصبية والفتيات يصغون الى ذلك الصوت المعبر عن الأرض الحرة وقد مالوا الى الأمام مفرودى القوام تبدو وجوههم تحت اشعة المصباح مثل رسومات الأيقونات ، واعينهم كبيرة داكنة اللون .

وعند عتبة الباب وقفت الجدة فيرا متكئة الى قائمته ، لا يلحظها احد ، بوجهها البرونزى النحيف الذى خطته التجاعيد ليغدو أشبه بوجه دانتى الليجيرى .

الفصل الحادى والاربعون

لم يكن هناك سوى المنشآت الالمانية يحظى بالتيار الكهربائى . وكان الخال كوليا قد استفاد من كون خط الكهرباء الموصل الى الادارة ومقر الحاكم لا يمتد عبر الشارع ، بل عبر المساحة التى تفصل بين البيت والفناء المجاور ، حيث كان أحد الأعمدة كائنا الى جوار غرفة آل كوروستيليف . وكان جهاز الراديو موجودا بحجرته تحت الواح الأرضية الخشبية فيما تحت صوان الثياب . أما السلك الذى كان يستخدم لتشغيل الجهاز فقد كان يمتد عبر الضلفة العليا للنافذة ، يلتف حول عصا طويلة تنتهى بخطاف ، يتصل بالسلك الكهربائى الاساسى قريبا من العمود .

بلاغ مكتب الاعلام . . . يجب الحصول على مطبعة بأى شكل كان !

وكان فولوديا اوسموخين وجورا اوروتيونيانتس وتوليا الملقب «بالرعد» قد استطاعوا الحصول على بقايا أحرف المطبعة المدفونة بالحديقة ، اذ انه ربما كان اولئك الذين دفنوها آنذاك قد القوها فى الحفرة ، واهالوا التراب عليها نظرا لعدم امكانيتهم

الحصول على صناديق تحفظها . أما الجنود الألمان الذين راحوا يحفرون لاخفاء العربات والمدافع المضادة للطائرات ، فقد كانوا يجهلون ماهية تلك الحروف ، مما جعلهم يلقون ببعضها بعيدا مع التراب الناتج عن الحفر . ، أما فيما بعد وحين افاقوا لأنفسهم ، ابلغوا القيادة بذلك . ومن المحتمل ان يكونوا قد سلموا جزءا من هذه الحروف ، الا أن جزءا آخر قد بقى فى قاع الحفرة . وعلى مدى بضعة أيام وبعد جهد مضنى عثر الصبية على بقايا تلك الحروف فى مكان قريب من ذلك الذى حددته الخطة المرسومة ، وقاموا بتجميع كل ما كان هناك . بيد أن هذه الحروف لم تكن تصلح لما كان يخطط ليوتيكوف بشانه ، ولذا فقد سمح لفولوديا باستخدامها «للحرس الفتى» .

كان الكسندر شقيق فانيا زيمنوخوف الأكبر والموجود حاليا بالجيش قد عمل فترة طويلة فيما قبل بمطبعة جريدة «الوطن الاشتراكى» المحلية وحيث كان فانيا يتردد عليه كثيرا . وهكذا صمم فولوديا وتحت اشراف فانيا مطبعة صغيرة . وكان فولوديا قد أعد خلسة الاجزاء المعدنية للمطبعة فى الورشة الميكانيكية ، أما جورا فقد أعد الصندوق الخشبى للآلة ، والصناديق اللازمة لصف الحروف .

وقد كان ابو جورا يعمل نجارا . بيد ان وللحقيقة لم يهب للنضال بعد احتلال الألمان للمدينة ، كما ولم تفعل نفس الشىء امه على الرغم مما عرف عنها من طباع ، وعلى النقيض مما كان يتوقع . بيد انه لم يكن يشك فى انه سوف يستميلهما تدريجيا الى نشاطه . وبعد تفكير متأن طويل وجد ان امه على درجة بالغة من النشاط ولذا فقد أجّل مفاتحتها فى الموضوع على أن يبدأ بوالده . وكان والد جورا شخصا تقدم به السن ، هادئ الطباع ، قصيرا ، تعلو قامته كتفى ابنه قليلا ، مما يعنى أن الابن قد شب شبيها بأمه طباعا وقامة وحتى لون شعره الاسود . وكان الأب غير راض تماما عن كون رجال العمل السرى قد أوكلوا هذه المهمة الحساسة الى ابنه الذى لم تتعد سنه عمر المراهقة بعد ، ومع ذلك فقد أعد دون علم زوجته الصندوق الخشبى للآلة والصناديق اللازمة لصف الحروف . ولم يكن يعلم بطبيعة الحال

ان جورا وفولوديا أصبحا اليوم من كبار المسئولين ، حيث يشرفان على خليتين خمسيتين .

وقد تطورت صداقة الصبية حتى بلغت درجة أنهم أصبحوا غير قادرين على الحياة دون أن يرى كل منهم الآخر يوميا . ولم يكن هناك سوى ليوسيا أوسموخينا التى ظلت علاقاتها بجورا رسمية مشوبة بالتوتر ، كما كان الحال فى السابق .

ولا ريب أن هذه الحالة كانت وضع فردين متباينى الطباع . ولقد كان كلاهما من هواة القراءة ، الا أن جورا كان يهوى الكتب العلمية ذات المضمون السياسى ، أما ليوسيا فكانت تفضل أساسا الكتب الغرامية ، كما ويجب القول انها كانت تكبره سنا . ويجدر بنا الاشارة الى أن جورا حاول التغلغل بناظريه فى مجاهل المستقبل ، وكان سعيدا بأن ليوسيا سوف تتقن ثلاث لغات اجنبية ، غير انه كان رغما عن ذلك يعتبر مثل هذا النوع من التعليم غير كاف ومن ثم فقد حاول تغيير اتجاه ليوسيا الى دراسة الهندسة المعمارية ، وان كان ذلك أمرا يبدو غير لائق .

وبوجه عام ، فقد تعامدت كنصلين معدنيين منذ اللحظة الأولى للقائهما نظراتهما . . ملتهبة مشرقة لدى ليوسيا ، وحاسمة داكنة لدى جورا . وكان كل منهما يهاجم الآخر طالما كانا يتواجدان سوية ، فى حضرة آخرين فى غالبة الوقت ، حيث تنازله ليوسيا بجمل مقتضبة لاذعة ، بينما يجيبها جورا بعبارات ارشادية تتسم بالموعظة وضبط النفس .

واخيرا جاء ذلك اليوم الذى تجمع فيه الفتيان الأربعة فى حجرة جورا ... صاحب المكان وفولوديا أوسموخين وتوليا الملقب «بالرعد» ، وفانيا زيمنوخوف رفيقهم الأكبر ورئيسهم الذى كان أكثرهم اهتماما بأمر المطبعة ، ليس لكونه شاعرا وحسب ، بل ولأنه كان كاتب غالبية منشورات وشعارات «الحرس الفتى» . وها هى المطبعة قد أعدت للعمل . وقام توليا فيما يسعل ويئز ، بحمل الآلة ، ليذرع الغرفة ذهابا وايابا بغية التأكيد على انه فى امكانية شخص واحد نقلها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك .

كما وكانت توجد لديهم فرشة عريضة وبكرة لتسوية الأوراق . وأعد ابو جورا الذى كان يعمل طوال حياته فى مجال

كانت الحروف قد أعدت وقام فولوديا بصف بعض الأسطر . وغمس جورا الفرشة فى ذلك «الخليط الفريد من نوعه» ، أما فولوديا فقد أعد الأوراق وسوّاها بالبكرة . وظهر النص المطبوع فى اطار اسود ، لم يعتن فولوديا ببرد قالبه المعدنى بما فيه الكفاية لحظة صنعه فى الورشة الميكانيكية . هذا علاوة على أن الحروف لم تكن ذات أحجام متساوية ، بيد أنهم رضخوا لذلك ، حيث أن المهم هو كونهم اليوم حيال نص مطبوع ، قادرين على قراءة ما قام فولوديا أوسموخين بتصفيفه :

«لا تذهب بعيدا لتنفرد بفانيا ولا ترهق أعصابك فاننا نعلم على الرغم من كل شىء مكنون قلبك . . أى ياى ياى» .

وأوضح فولوديا أنه يكرس هذين السطرين لجورا اروتيونيانتس وانه حاول استخدام الحرف «ى» كثيرا ، بل وصفّ «أى ياى ياى» خصيصا بسبب وجود ذلك الحرف الذى نملك منه فى مطبعتنا أكثر من أى حرف آخر . أما علامات الترقيم فلم يصفها ، لا لشىء الا لأنه نسى ضرورة ذلك ، شأن بقية الحروف .

وتوقد أوليج ليتساءل محدقا فى الجميع بعينيه الكبيرتين :

— هل تعرفون أن ثمة فتاتين فى حى بيرفومايكا تطلبان الانضمام الى الكومسومول ؟

وذكر جورا :

— ثمة فتى فى خليتى كذلك يطلب الانضمام الى الكومسومول .

وقد كان يتحدث عن راديك يوركين حيث أن خلية جورا اروتيونيانتس لم تكن تضم بعد سوى ذلك الفتى . وصاح أوليج :

— اننا نستطيع فى مطبعة «الحرس الفتى» طباعة بطاقات عضوية مؤقتة . أولسنا نملك الحق فى منح عضوية الكومسومول ؟ لقد جرى الاعتراف بمنظمتنا رسميا !

ومهما كانت تحركات ذلك الرجل ذى القامة الفارعة والرأس الصغير الذى تغطيه سدارة قديمة الطراز ، والعينين الصفراوين اللتين اختفيتا فيما بين ثنايا الجلد الكثيرة ، فقد كان محكوما عليه بالموت .

لقد كان الثأر يقتفى أثره فى كل مكان ، ليل نهار ، أثناء قيامه باعمال المناوبة أو بمهام التفتيش . كان يتابعه عبر النافذة ، ينظر اليه حين يجلس برفقة زوجته يتفحصان الأشياء والملابس التى صودرت من بيت أحد القتلى . . يعرف كل جريمة يرتكبها ويحصيها فى سجله . نعم كان يتتبعه فى شخص صبى سريع الحركة كالقطة ، ذى عينين تستطيعان تمييز كل شىء حتى فى حلكة الظلام . ولو كان فومين يدرك مدى قسوة ذلك الثأر حافى القدمين ، لتوقف على الفور ، وكف عن أية حركة توحى بالحياة .

وقد كان محكوما على فومين بالموت لأنه راح يعيش فى كل تصرفاته وافعاله ليس حتى خضوعا لمشاعر التعطش للثروة والأنتقام ، بل تحت وقع الحقد الهائل اللامتناهى على حياته وعلى كافة الناس بما فيهم الألمان .

وقد حمل الحقد الى أعماقه الخواء الذى أصاب روحه ، بيد أنها لم تكن ابدا على هذا النحو من الخواء واللاأمل كما هى اليوم حيث تهاوت تلك الركيزة المعنوية الأخيرة ، التى كان يعتمد عليها فى بقائه وعلى الرغم من دناءتها . ومهما كانت فداحة الجرائم التى ارتكبها فقد كان يأمل فى أن يصل الى السلطة بما يكفل له خوف الناس منه ، مما يجعلهم يحترمونه ويحنون هاماتهم فى حضرته . كما كان يتصور نفسه موضع احترام الآخرين ، شأن الأثرياء فى العهد القديم ، سوف يصل الى شاطئ الرضا والاستقلالية . واتضح انه لم يستفد ماديا من نشاطه هذا ، بل وفقد حتى الأمل فى ذلك . لقد صار يسرق متاع ضحاياه من المعتقلين والقتلى ، فى حين كان الألمان يتجاهلون ذلك على الرغم من علمهم به ، يحتقرونه كاجير وتابع ، وكوغد ولص . وكان يعلم أن الألمان فى حاجة اليه طالما يساعدهم ويعمل من أجل اقرار سيادتهم ، أما وحين سوف يتم ذلك ، ويستقر النظام الحديدى الجديد فسيطردونه او يدمرونه ببساطة .

وللحقيقة ، كان الكثيرون يخشونه ، بيد أن هؤلاء كانوا شأن الآخرين يحتقرونه ويتحاشون التعامل معه . أما وحين يفقد مكانته فى هذه الحياة وبدون احترام الآخرين له ، فلم تكن الأشياء والملابس التى كانت تؤول الى زوجته ، لتعود عليه بأية راحة

نفسية .. وكان يعيش مع زوجته على نحو أسوأ من معيشة الحيوانات ، ذلك لأن الحيوانات تعرب عن سعادتها ازاء الشمس والطعام ، علاوة على أنها تعيش حياتها الطبيعية .

أما اجنات فومين فلم يكن يعرف سوى الاعتقالات وحملات التفتيش التى يشارك فيها ، شأن كل رجال الشرطة الآخرين ، يقوم باعمال الحراسة والمراقبة بالشوارع والى جوار المؤسسات . وقد كان فى تلك الليلة يقوم بالحراسة الى جوار الادارة التى كانت تشغل مبنى مدرسة جوركى بالحديقة العامة .

كانت الرياح تهب متقطعة تضرب جذوع الأشجار تطيح باوراقها المبتلة التى تناثرت فى ممرات الحديقة ، فيما صارت الأمطار تتساقط رذاذا ، وبدت السماء داكنة يلوح خلف غيومها القمر أو النجوم ، وظهرت قمم الأشجار نقاط معتمة تداخلت اطرافها مع السحب على نحو بدت معه وكانما ذابت فى خضمها .

واستقر مبنى المدرسة الحجرى ، ومبنى المسرح الصيفى الخشبى الضخم كصخرتين داكنتين يواجه كل منهما الآخر على جانبى الممر .

وكان فومين يذرع الممر فيما بين المبنيين ذهابا وايابا دون ان يتوغل كثيرا فى داخل الحديقة وكانما هو مربوط بسلسلة ، يرتدى معطفا خريفيا أسود ، طويلا زررت ياقته باحكام . كان يتوقف احيانا الى جوار أحد اعمدة البوابة ، يحدق فى الظلمة التى اسدلت ستائرها على شارع سادوفايا حين أطبقت على عنقه من الخلف وبقوة هائلة يد راحت تضغط عليه لدرجة انه لم يكن قادرا حتى على اصدار اى صوت ، ثم مالت به الى الخلف حتى طقطق عموده الفقرى ، وطرحته ارضا . وفى نفس اللحظة شعر فومين بعدة أياد تطبق على جسده . وكانت احدى هذه الأيادى ما تزال مطبقة على عنقه ، بينما ضغطت أخرى على أنفه ، ودست ثالثة كمامة فى فمه المفتوح ، ثم شدت رابعة فوطة حول الجزء الاسفل من وجهه .

وحين عاد الى وعيه ، وجد نفسه موثق اليدين والقدمين مستلقيا على ظهره الى جوار البوابة تعلو رأسه السماء الملبّدة بالغيوم المشوبة بالضباب الذى اخذ فى التلاشى .

ولم يستطع تبين وجوه أولئك الذين وقفوا يلفهم الظلام يحيطون به من كلا الجانبين .

ونظر أحدهم الى اطار البوابة ، ليقول بصوت هادئ :

– ان المكان هنا مناسب جدا .

وتسلق الغلام النحيف الصغير اطار البوابة فى مهارة ، وظل برهة من الزمن مشغولا بشىء ما عند منتصفها ، وحتى وقع نظر فومين فجأة على انشوطة حبل سميك تتمايل تحت ضوء السماء الكالح .

وذكر الصبى الأكبر سنا الذى علت مقدمة غطاء رأسه الى السماء :

– فلتربطها عقدة مزدوجة .

وحين استمع فومين الى ذلك الصوت ، تذكر على الفور غرفته فى شنغهاى التى كانت عامرة بأصص النباتات والشخص مجدور الوجه قوى البنية الذى اتخذ مكانه حول المائدة ، وذلك الصبى الذى أعلن عن نفسه بتلك الجملة . واذ راح فومين يتململ فى مكانه ، زحف من مكانه الذى طرحوه فيه أرضا . غير أن الشخص الذى كان يرتدى سترة كبيرة شبيهة بسترة البحارة ذا اليدين الضخمتين ، عريض المنكبين دفعه بقدمه الى مكانه السابق .

وقد عرف فومين فى ذلك الشخص كوفاليوف الذى كان يخدم معه بالشرطة ، وجرى طرده من صفوفها . كما وعرف غير كوفاليوف ، أحد سائقى الادارة ، وهو فتى عريض المنكبين كذلك قوى البنية كان قد شاهده اليوم فى الجراج ، الى حيث عرج لاشعال سيجارته قبيل تسلمه المناوبة .. وكم كان غريبا أن يروح فومين فى مثل وضعه ذلك يفكر على الفور فى أن هذا السائق هو المسئول حتما عن حوادث عربات الادارة المتكررة ، والتى كانت الادارة الالمانية تشكو منها كثيرا ، وفى ضرورة الابلاغ عن ذلك . بيد أنه سمع فى تلك اللحظة صوت هادئ يعلن بلهجة أرمنية خفيفة وعلى نحو احتفالى :

– باسم اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفييتية . . .

وسكن فومين على الفور ورفع عينيه الى السماء حيث شاهد من جديد انشوطة الحبل السميك تحت ضوء الليل الخافت والصبى

النحيف الذى اعتلى فى هدوء أطار البوابة ، يحتضنه بقدميه وينظر الى أسفل . وها هو ينقطع ذلك الصوت الذى كان يتحدث بلهجة ارمنية . يتملك فومين الرعب الشديد ويروح يزحف على الأرض على نحو مشوب بالرهبة والرعب . وامسكت به عدة أياد قوية ترفعه الى وضع راسى ، أما الغلام الصغير فى أعلى البوابة فقد انتزع الفوطة التى كانت مشدودة على فكيه ، ووضع أنشوطة الحبل حول عنقه .

حاول فومين القاء الكمامة من فمه وتقلص فى الهواء عدة مرات ، دون ان تصل قدماه الى الأرض ، ليتارجح فى معطفه الاسود الطويل الذى كان قد احكم كل ازراره . وادار فانيا توركينيتش وجه اجنات فومين فى اتجاه شارع سادوفايا وعلق على صدره الورقة التى تحمل أسباب اعدامه .

وتفرق الشباب كل فى طريقه ، عدا راديك يوركين الذى رافق جورا ليقضى ليلته عنده .

وهمس جورا فيما تومض عيناه السوداوان فى الظلمة يسأل راديك الذى ألمت به الرجفة :

– كيف حالك ؟

واجابه راديك فيما ينظر اليه بعينين تتسمان بالهدوء :

– تراودنى رغبه شديدة فى النوم ، حيث تعودت على الرقاد مبكرا .

ولزم سيريوجكا تيولينين مكانه تحت اشجار الحديقة العامة مستغرقا فى التفكير . اذ تحقق فى النهاية ما كان قد اقسم على اتيانه يوم عرف أن فومين قد سلم الى السلطات الألمانية ذلك الشخص الطيب قوى البنية الذى شاهده عنده . ولم يكن سيريوجكا قد اصر فقط على تنفيذ ذلك الحكم بل وبذل لقاء ذلك كل قواه الجسمانية والمعنوية ، ليبلغ مراده فى نهاية الأمر . كانت تتنازعه مشاعر الارتياح ، وسعادة التوفيق وبقايا الاحساس بضرورة الثار والانهاك المضنى والرغبة فى الاستحمام بماء دافئ والتعطش الشديد لحديث ودى طيب حول شىء يتسم بالسذاجة والرقة كحفيف أوراق أشجار ، وخرير غدير ماء ، او أشعة شمس تداعب الجفون الناعسة المتعبة . وكم كان تواقا لأن يجد نفسه

الى جوار فاليا . بيد انه لم يكن قد تجاسر ابدا على زيارتها ليلا ولا سيما مع وجود أمها وشقيقتها الصغرى . هذا علاوة على أن فاليا كانت قد غادرت المدينة الى مستعمرة كراسنودون .

وهكذا راح سيريوجكا تيولينين يطرق نافذة فانيا زيمنوخوف فى تلك الليلة المشهورة حالكة الظلمة ، فيما يتساقط الرذاذ خفيفا ، وقد تجمدت أوصاله فى ذلك القميص المبتل الذى لم يكن يرتدى سواه ، وقدماه العاريتان اللتان خاض بهما القاذورات والأوحال .

جلس سيريوجكا وفانيا بالمطبخ ذى النافذة المعتمة تحت ضوء مصباح زيت خافت . كانت النيران تقرقع تحت اناء الماء حيث قرر فانيا رغما عن كل شىء اتاحة الفرصة لصديقه كى يستحم . أما سيريوجكا فقد جلس القرفصاء الى جوار النيران يستمتع بدفئها ؛ فيما كانت الرياح تعصف بالنافذة التى كان المطر يتساقط عليها رذاذا . وقد جعل وقع تساقط الرذاذ على زجاج النافذة وصفير الرياح التى تلاعبت بلهب المصباح داخل المطبخ ، جعل الشابين يتصوران مدى وحشة الانسان الوحيد فى البرارى ، وعذوبة الجلوس سوية ، يرتعان فى دفء المطبخ .

وفى صوت اجش تحدث فانيا عارى القدمين الذى يضع نظارة على عينيه :

– اننى اتخيله فى ذلك الكوخ الخشبى الصغير ، الذى تعصف به الزوبعة الثلجية من كل جانب ، بينما تجلس الى جواره الحاضنة ارينا روديونوفنا . تهب العاصفة الثلجية ، فيما تجلس الحاضنة الى جوار المغزل الذى يدور ويدور ، وفى الوقت الذى تقرقع فيه النيران بالموقد . اننى اقدر حاله خير تقدير ذلك لأننى انحدر من القرية ، كما وأن امى فلاحة امية شأن أمك . اننى اذكر بيتنا هناك . . اذكر يوم كنت اتخذ الفرن فراشا فى السادسة من عمرى ، فيما كان اخى الأكبر ساشا يعود من المدرسة ليحفظ الشعر . كما واذكر حين كانوا يسوقون الخرفان من المرعى ، فيما كنت اعتلى ظهر احدها احثه على السير ، ليلقى بى بعيدا عن كاهله .

وفجأة اعترى الارتباك فانيا ليتوقف عن الحديث بعض الوقت ليعود اليه ثانية :

– لقد كان يشعر وبالطبع بسعادة بالغة حين يزوره احد اصدقائه . انى اتمثله فى مخيلتى وقد جاءه بوشين لزيارته . كان صوت الجرس يتعالى ، ليجعله يتساءل فيما بين نفسه عن القادم ، خوفا من ان يكون من رجال الشرطة . غير ان القادم لم يكن سوى صديقة بوشين . أو أتخيله حين كانا يجلسان مع الحاضنة ، هناك فى القرية النائية التى تغمرها الثلوج ، غارقة فى حلكة الظلام ... هل تذكر اشعار «العاصفة تلف السماء بغلالة من الظلام . .» ؟ لعلك تذكرها . اننى اتاثر كثيرا بذلك المقطع .

وثمة سبب جعل فانيا يهب واقفا قبالة سيريوجكا ، لينشد بصوته الأجش :

فلنشرب يا صديقتى العزيزة
يا رفيقة شبابى البائس
فلنشرب كى ننسى احزاننا . .
هاتى كاسك ، ففيها راحة قلوبنا
ولتنشدى بصوتك الرقيق
حياة عصافير ما وراء البحار ،
فلتنشدى كيف راحت الفتيات
تنهلن صباحا من عذب المياه . .

كان سيريوجكا يجلس الى جوار الموقد فى صمت يمط شفتيه المكتنزتين ، بينما تكسو عينيه اللتين ترنوان الى فانيا ، امارات صرامة ممتزجة بالرقة . وتقافز غطاء اناء الماء فوق الموقد ، حيث راحت المياه تنز معلنة عن غليانها بما يدعو الى المرح .

– كفى أشعارا !

قالها فانيا وكأنما عاد الى وعيه ، ليمضى قائلا فى مرح :

– هيّا اخلع ملابسك ! اننى يا صاح سوف احممّك على افضل ما يكون . . هيا اخلع ملابسك كلها . . كلها ، ولا داعى للخجل . فقد أعددت ليفة مناسبة لذلك .

وريثما كان سيريوجكا يخلع ملابسه ، قام فانيا برفع اناء

الماء من على الموقد وتناول طستا ، وضعه على كرسى خشبى صغير ، ثم وضع الى جواره قطعة صغيرة من صابون الغسيل غير جيد الرائحة . وذكر فانيا فيما يقتعد الكرسى مباعدا ما بين قدميه العاريتين :

– كان يسكن قريتنا فى مقاطعة تامبوف عجوز عمل طوال حياته فى احد الحمامات بموسكو لدى التاجر ساندونوف . وهل تعرف ماذا يعنى عامل الحمام ؟ اذن فلتسمعنى . . لقد جئت على سبيل المثال الى الحمام . ولنقل انك من كبار النبلاء ، او من أولئك الكسالى غير القادرين على تنظيف أنفسهم . عندئذ تكترى احد عمال الحمام ليدعك لك جسمك كما تشاء . هل فهمت ؟ وقد ذكر ذلك العجوز انه حمّم ما يزيد عن مليون ونصف مليون شخص طوال حياته . وماذا تظن ؟ لقد كان يفخر بذلك . . يفخر بذلك الكم الكبير من الناس الذين جعلهم نظيفين ! وتلك طبيعة البشر . . . اذ انك بعد ، اسبوع سوف تعود قذرا من جديد .

وألقى سيريوجكا بآخر قطعة من ملابسه وهو يضحك ، ثم راح يصب الماء الساخن الى الطست الملىء بالمياه الباردة بغية جعلها اكثر سخونة ، وهبط فيها براسه ذى الشعر الخشن .

وذكر فانيا وهو يعلق ثياب سيريوجكا المبللة بالقرب من الموقد :

– ليس ثمة من يحسدك على ملابسك . انها اسوأ مما امتلك . كما وارى انك من هواة النظام . فلتصب الماء هنا فى هذا الدلو . . هيا ، مرة أخرى ولا تخف الطرطشة ، فسوف امسح الأرضية !

وفجأة علت وجهه امارة صرامة وان كانت تعنى الاستكانة فى نفس الوقت . فقد زاد من انحناءة ظهره وأسدل راحتيه على نحو بدتا معه وكأنهما غمدتا اكثر ثقلا وقال بصوت اكثر حدّة :

– فلتستدر يا صاحب السعادة حتى ادعك لك ظهرك !

ومسح سيريوجكا الليفة بالصابون فى صمت ، ثم نظر شزرا الى صديقه معلنا عن تأففه . وناول الليفة الى فانيا واتكأ بيديه على الكرسى مستديرا اليه بظهره النحيف الذى لفحته الشمس ، كثير العضلات ، وناتئ الفقرات .

ولما كان فانيا ضعيف النظر فقد راح يدعك ظهر صديقه بلا

مهارة ، ليعلن سيريوجكا فى تذمر وبنبرة يقلد بها كبار النبلاء :

– ما لك يا صاح ؟ هل اصابك الوهن ؟ أو انك تتكاسل ؟ اننى غير راض عنك . .

وأجاب فانيا بمنتهى الجدية بصوته الأجش ، وبنبرة تحمل معنى الاعتراف بالذنب :

– ما العمل اذا كان الغذاء لا يسعفنى بما هو أكثر من ذلك؟ فلتحكم سعادتك على الموقف بنفسك !

وفى تلك اللحظة انفرج باب المطبخ ، حيث التفت فانيا الذى كان يقف فى نظارته القرنية مشمر الساعدين ، وسيريوجكا عارى الجسم يغطى الصابون ظهره ، لتقع أنظارهما على والد فانيا فى ملابسه الداخلية ، يتخذ مكانه الى جوار الباب ، فارع القامة نحيف البنية ، وقد أسدل يديه القويتين اللتين حاول فانيا أن يملك مثلهما ، ينظر الى الشابين بعينين ضاربتين الى البياض مما جعل الرهبة تتسلل الى نفسيهما . ولبث واقفا مكانه بعض الوقت دون أن يقول شيئا ثم قفل خارجا من الغرفة وقد اغلق بابها قليلا . وتعالى الى سمعيهما دبيب خطواته بالردهة بما يعنى انه فى طريقه الى غرفته .

وذكر فانيا فى هدوء فيما يواصل دعك ظهر سيريوجكا دون حماسه السابق :

– لقد مرّت العاصفة ؛ ولك ان تدفع البقشيش يا صاحب السعادة .

– فليعطك الله !

قالها سيريوجكا بنبرة تعنى عدم الثقة فيما كان يمكن مخاطبة عمال الحمامات على هذا النحو ثم تنهد .

وذكر فانيا فى جدية حين جلس سيريوجكا حول المائدة الى جوار الموقد نظيفا متورد الوجنتين ممشط الشعر :

– اننى لا أعلم عن أوضاعك شيئا ، ولذا أقول أن ثمة مصاعب تنتظرنا مع الآباء بل ومع الأمهات أيضا .

بيد أن سيريوجكا لم يكن يهاب مواجهة المشاكل مع والديه ، وراح يرنو الى فانيا فى شرود ، ثم قال :

– أعطنى ورقة وقلما لأكتب رسالة ما ، حيث سرعان ما سوف أرحل .

وهاكم ما كتبه بينما كان فانيا ضعيف البصر يتظاهر بضرورة تنظيف المطبخ . .

«فاليا . . اننى لم اكن اعتقد ابدا اننى سوف أعانى ازاء كونك قد رحلت وحيدة . اننى افكر طوال الوقت فى أحوالك . فلنتفق على عدم الافتراق ابد الدهر ، وعلى العمل سوية ! فاليا . . اننى اطلب منك ان استشهدت ، أمرا واحدا . . لك ان تزورى قبرى لتذكرينى بكلمة طيبة هادئة !»

وراح يقطع حافى القدمين ، الطريق الدائرى حول مساكن شنغهاى ، والوهدة والحفر المنتشرة هنا وهناك ، تعصف به تلك الرياح الشديدة وتحت ذلك الرذاذ الثلجى ، ليصل الى الحديقة العامة ثم شارع ديريفيانايا بغية تسليم ليوسيا شقيقة فاليا هذه الرسالة عند مطلع الفجر .

الفصل الثانى والاربعون

كان التفكير فى الام يقض مضاجع فاليا ، يفسد عليها كل بهجة الرحلة فى هذا الوقت المبكر من صباح ذلك اليوم المعتم ، حين راحت تسير عبر البرارى برفقة ناتاليا الكسييفنا ، التى صارت تحث الخطى بقدميها البضتين فى حذائها الكاوتشوك تذرع الطريق الذى أكسبته قطرات الندى لمعانا .

ولقد كانت تلك هى المهمة الاولى التى تقوم بها وحدها ، فيما تواكبها المخاطر ، وبينما لا يشغل بالها سوى . . . ماما ، ماما ! كيف طفقت تنظر الى ابنتها فاليا حين أعلنت أنها وببساطة سوف تنتقل لبضعة أيام لتعيش فى ضيافة ناتاليا الكسييفنا ! ولا ريب فى أن تكون الام قد عاشت لحظات الاحساس بالخواء الروحى الصارم ازاء انانية الابنة . وماذا هى فاعلة اليوم بعد أن رحل الاب كذلك لتبقى وحيدة ! وماذا يمكن أن يكون اذا ما راودتها الشكوك ؟ . . .

وذكرت ناتاليا الكسييفنا مؤكدة كعادتها على ما تعنيه هذه الكلمات ، دون مراعاة لتاثيرها على من تحادثه :

– تعمل توسيا يليسييفنكو التى سوف أعرفك عليها ، مدرسة ، وهى جارة لأمى ، او بالادق تعيش هى وامها مع امى فى شقة واحدة من غرفتين . وهى فتاة ذات طابع يتسم بالاستقلالية والقوة ، تكبرك بكثير ، واقولك صراحة ان الاستياء سوف يعتريها ازاء كونى قد اتيت اليها بفتاة جميلة بدلا من احد رجال العمل السرى المحنكين ذوى اللحى . اننى اعرف سيريوجكا جيد المعرفة بوصفه فتى يتسم بالجدية ، واثق فيه اكثر من ثقتى فى نفسى ، بكل ما تعنى هذه الكلمة من معان . وما دام سيريوجكا قد ذكر لى انك من منظمة المنطقة ، فان ذلك يعنى الحقيقة . اننى اود تقديم العون اليكم . واذا ما حدث وكانت توسيا غير صريحة بما فيه الكفاية معك ، فعليك التوجه الى كوليا سومسكوى واعتقد انه رئيس تنظيمهم ، وذلك استنادا الى علاقة توسيا به . انهما يحاولان فى حقيقة الامر تصوير علاقتهما فى حضرة أم توسيا وأمى وكانها علاقة حب ، بيد اننى وان كنت لانشغالى بالعمل ، لم أعر اهتماما لحياتى الشخصية ، اعلم جيدا قضايا حياة الشباب . كما واعلم ان كوليا سومسكوى يحب ليدا أندروسوفا وهى فتاة متدللة – قالتها ناتاليا الكسييفنا بنبرة تعنى امتعاضها ، وان مضت تقول احقاقا للحق : انها ولا ريب عضو فى تنظيمهم . واذا ما تطلب الأمر اتصال كوليا سومسكوى بمنظمة المنطقة ، فسوف استخدم حقى كطبيب لمكتب العمل وامنحه اجازة مرضية لمدة يومين تعفيه من عمله باحد المناجم الصغيرة .

وتساءلت فاليا :

– وهل يعترف الالمان بشهاداتك ؟

وصاحت ناتاليا الكسييفنا :

– الألمان ! انهم لا يعترفون وحسب ، بل ويذعنون لكل ورقة تصدر عن شخصية رسمية . كما أن ادارة ذلك المنجم الصغير ، ادارة روسية ، وان كان يوجد رقيب المانى من الفرقة الفنية ، احمق لا يدرى شيئا يلازم المدير ، شان الحال فى كل

مكان . اننا الروس بالنسبة لهم متشابهو الوجوه ، بحيث لا يستطيعون ادراك من منا حضر الى العمل ، ومن غاب عنه .

وقد سارت الامور على نفس النحو الذى تنبات به ناتاليا الكسييفنا . ذلك لان فاليا اضطرت الى قضاء يومين كاملين فى تلك المستعمرة التى تناثرت مبانيها الضخمة كالثكنات العسكرية وابراج مناجمها السوداء العالية ، وحيث لا اثر للخضرة فيها ، بين قوم يصعب أقناعهم أن النفوذ القوى «للحرس الفتى» يتمثل فى هذه الاهداب الداكنة الطويلة والضفيرتين الذهبيتين .

وكانت والدة ناتاليا الكسييفنا تعيش فى الجزء القديم الاكثر حركة بالمستعمرة والذى تشكله عدة نجوع متصلة ، وحيث كانت توجد بعض الحدائق التى ذبلت شجيراتها . كما وخلقت الامطار الاوحال التى ارتفعت تغطى الشوارع ، مما بدا معه انها سوف تظل هكذا حتى حلول فصل الشتاء .

وخلال تلك الايام ظلت تتقاطر عبر المستعمرة قوات وحدة رومانية متجهة نحو ستالينجراد . وكانت مدافع تلك الوحدة ومركباتها ذات الجرارات التى تجرها الخيول النحيفة تتعطل بالساعات فى تلك الاوحال ، لترتفع اصوات الحوذية مدوية بالسبات والشتائم بالروسية .

وكانت توسيا يليسييفنكو فتاة فى الثالثة والعشرين من العمر ، ذات قد أوكرانى اهيف ، وعينين سوداوين متوقدتين ، على قدر بالغ من الجمال . وقد ذكرت لفاليا صراحة انها تتهم مركز العمل السرى بالمنطقة بالتقصير فى تقديره لاهمية مستعمرة مثل كراسنودون . والا فما السبب الذى يجعلهم هناك وحتى يومنا هذا لا يبعثون باى من ممثليهم لزيارتنا ؟ ولماذا لم يرسلوا تلبية لطلبنا شخصا مسؤولا كى يتولى تدريبنا على العمل ؟

وقد رات فاليا انها لا تملك سوى حق الافصاح عن كونها تمثل التنظيم الشبابى «الحرس الفتى» والذى يعمل تحت اشراف اللجنة الحزبية السرية للمنطقة .

وذكرت توسيا فيما تومض عيناها بما ينم عن الريبة :

– ولماذا لم يحضر الينا أى من ممثلى قيادة الحرس الفتى ؟

ثم اضافت فى تباه :

– فلدينا ايضا تنظيمنا الشبابى .

واجابت فاليا على نحو ينم عن انفة وعزة نفس :

– اننى مفوضة من قبل القيادة ، فقد يكون ارسال احد اعضاء القيادة الى منظمة لم تقم بعد بأى نشاط ، عملا متهورا لا يتسم بمراعاة أصول السرية . . . اذا ما كان بالطبع ثمة من يفطن الى ذلك !

وصاحت توسيا فى غضب :

– لم نقم بعد بأى نشاط ؟ يالها من قيادة جيدة تلك التى لا تدرى شيئا عن نشاط منظماتها ! ولست حمقاء حتى اتحدث عن نشاطنا الى شخص لا نعرفه .

ولربما كان يمكن لهاتين الفتاتين الجميلتين ، عزيزتى النفس الا تصلا الى اى اتفاق لو لم يصل كوليا سومسكوى .

وللحقيقة فقد حاولت توسيا حين اشارت فاليا الى لقبه ، ادعاء كونها لا تعرف انسانا بهذا اللقب . بيد ان فاليا ذكرت على الفور ان «الحرس الفتى» تعرف الدور القيادى لسومسكوى فى المنظمة ، وانه اذا ما لم تساعدها توسيا فى الوصول اليه ، فسوف تبحث عنه وحدها .

وذكرت توسيا بنبرة تحمل بعضا من القلق :

– طريف ان اعرف كيف ستجدينه وحدك !

– ولو عن طريق ليديا اندروسوفا .

– ليس ثمة ما يدعو ليديا اندروسوفا الى معاملتك على نحو آخر .

– وذلك من اسوا الأمور . . . حيث اننى سوف اتولى البحث عنه بنفسى ، ويمكن ان يؤدى جهلى بعنوانه الى كشف امره عن غير قصد .

وهنا استسلمت توسيا ازاء منطق فاليا .

وتغيرت الامور تماما حين تجمعوا فى ضيافة كوليا سومسكوى . وقد كان يعيش فى اطراف المستعمرة ، بمنزل خشبى واسع ليس هناك من خلفه سوى البرارى . وكان والده يعمل فيما سبق حوذيا باحد المناجم ، كما وكانت عائلته تعيش نمطا من الحياة اشبه بالريفى .

ولبث كوليا الاسمر ذو الانف الكبير والوجه الذى تنم قسماته عن ذكاء متوقد ، وبسالة ودهاء ، وكذلك الصراحة مما كان يضفى عليه سحرا خاصا ، يستمع فيما يزر عينيه ، الى ما تقوله فاليا فى غطرسة ، والى ما تتحدث عنه توسيا فى توقد . ثم قام بدعوتهما فى صمت الى خارج البيت . وارتقت الفتاتان فى اثره سلما متنقلا ، ليدلف ثلاثتهم الى الجمالون ، حيث تطاير الحمام فى جلبة ، وليستقر بعضه على راس وكتفى سومسكوى ، تحاول احداهما اقتعاد راحتيه ، ليفرد يده ، التى استقرت على راحتها حمامة ناصعة البياض .

اعترى الارتباك الشديد ذلك الشاب ضخم البنية الذى كان يجلس داخل الجمالون حين وقع نظره على تلك الفتاة المجهولة ، وسارع يغطى بالدريس شيئا ما الى جواره ، الا ان سومسكوى اشار له بان كل شىء على ما يرام . ورفع ذلك الهرقل الدريس فيما تعلو الابتسامة شفتيه ، لتشاهد فاليا جهازا للراديو الى جواره .

وذكر سومسكوى فى جدية بينما كان الحمام يحيط به من كل جانب ، يداعبه باجنحته :

– هذا هو فولوديا جدانوف . . . وهذه هى فاليا . . . المجهولة ! ما رايك ؟ . . . اننا نحن الثلاثة توسيا وفولوديا . . . و«محسوبك» . . . قادة تنظيمنا .

وريثما كانوا يحاولون الاتفاق بشان امكانية ذهاب سومسكوى برفقة فاليا الى المدينة ، احست فاليا بنظرة ذلك الهرقل تتوقف عليها لتعتريها مشاعر الارتباك والحيرة . ولقد كانت فاليا تعرف اناس اقوياء ضمن اعضاء «الحرس الفتى» مثل كوفاليوف الذى اطلقوا عليه لقب القيصر بسبب قوته الفائقة وطيبة قلبه . بيد ان ذلك الشخص كان ضخما بكل المعايير . . . وجها وجسدا . لقد بدا عنقه وكانه منحوت من البرونز ، تنم قسماته عن قوة وهدوء وجمال . وازاء ذلك لم تدر فاليا ما الذى جعلها تتذكر فجاة سيريوجكا نحيف القوام ، عارى القدمين ، لتشعر فى قرارة نفسها بالم تشوبه السعادة والرقة ، مما جعلها تلتزم الصمت .

واقترب رباعيهم من طرف الجمالون ليمسك كوليا سومسكوى بالحمامة التى استقرت على راحة يده ويقذف بها بكل قوة لتحلق

فى السماء الغائمة . وارتفع الحمام من على كتفيه ، فيما راح الجميع يتابع عبر ثقب النافذة تلك الحمامة التى احتوتها السماء كروح مقدسة .

وجلست توسيا يليسيينكو فيما تفرك راحتيها فى سعادة ، مما جعل الآخرين ينظرون اليها ضاحكين . وقد كانت أمارات تلك السعادة التى تبدت فى عينيها وصوتها تعنى وكانما تود ان تقول : «هل ثمة من يظن اننى غير طيبة ؟ فلتنظروا الي وتحكموا على مدى طيبتى !» .

ادرك الصباح فاليا وكوليا سومسكوى فى البرارى ، حين كانا فى طريقهما الى المدينة . وكانت السحب قد انقشعت ليلا ، بينما راحت اشعة الشمس تنال من كل ما حولهما تبعث اليه بالجفاف . وانبسطت البرارى بعيدة وقد ذبلت كل نباتاتها ، ومع ذلك فقد بدت جميلة تحت اضواء تباشير الخريف الذهبية . كما وامتدت خيوط العنكبوت رفيعة فى كثير من الاماكن ، وملأ ارجاء السهل هدير محركات طائرات النقل الالمانية التى كانت تحلق قاصدة نفس الاتجاه ، اتجاه ستالينجراد ، اعقبه هدوء مطلق اطبق على المكان .

وفى منتصف الطريق استلقى فاليا وسومسكوى على منحدر التل كى يستريحا ، تغمرهما الشمس باشعتها الدافئة . وشرع سومسكوى يدخن .

وفجأة تناهت الى اسماعهما انغام اغنية حملها الاثير لتحوم فوق البرارى ، وسرعان ما تأججت اصداؤها فى اعماقهما . . . «يلف النعاس التلال الداكنة . . .» وقد كانت تلك اغنية يعرفها كل سكان حوض الدونيتس ، اغنية حبيبة لم يكن احد منهما يدرى كيف راحت تتعالى هنا فى مثل ذلك الصباح ! واتكا كوليا وفاليا على مرافقهما ، فيما يرددان دون ان ينبسا ببنت شفة ، كلمات تلك الاغنية التى راحت تطرق آذانهما قريبا ، على لسانى شاب وفتاة فى مقتبل العمر ، بصوت عال وكانهما يتحديان العالم اجمع . . .

يلف النعاس التلال الداكنة
تغمرها الشمس الساطعة ،

تتعاقب كل فى اثر الأخريات . . .
غلالات الضباب البيضاء . . .
هاكم فتى فى ريعان الشباب ،
هاكم يصل الى برارى الدونيتس
بعد طريق الخمائل الصاخبة
بعد طريق الحقول المزهرة . . .

وزحفت فاليا بسرعة الى قمة التل لتختلس النظر من هناك ، ثم استوت جالسة وانفجرت ضاحكة .

لقد كان يقطع الطريق نحوهما فولوديا اوسموخين وشقيقته ليودميلا كل منهما يمسك يد الآخر ، فيما تتعالى عقيرتهما بالغناء او بالادق ، بالصراخ .

وانزلقت فاليا على التل وراحت تركض نحوهما سريعة شانها ايام الطفولة . وتبعها سومسكوى فى خطوات متثاقلة دون ان تعتريه الدهشة .

– الى اين تقصدان ؟

– الى جدي بالقرية سعيا وراء الخبز . ومن ذا الذى يثقل الخطى وراءك ؟

– انه من فتياننا . . . كوليا سومسكوى من المستعمرة .

وذكر فولوديا :

– استطيع تقديم واحدة اخرى من الموالين لنا . شقيقتى ليودميلا . لقد شرحت لها الامر هنا فى البرارى .

– فاليا . . . فلتحكمى على الامر بنفسك . اليس ذلك خسة؟ ان الجميع يعرفوننى ، بينما يخفى شقيقى الامر عنى . هذا على الرغم من اننى اعلم كل شىء ، بل وعثرت فى حوزته على حروف مطبعة ، وسائل ذى رائحة نتنة كان يستخدمه فى تنظيفها . لقد فرغ من تنظيف بعضها ، بينما ظل البعض الاخر على حاله وحتى حدث اليوم فجاة . . . هل تعرفين يا فاليا ماذا حدث اليوم ؟

وقد ند السؤال الاخير فجاة على لسان ليوسيا التى القت بنظرة سريعة على سومسكوى الذى غدا قريبا منهم .

وذكر فولوديا فى جدية :

– تمهلى قليلا . لقد شاهد عمال ورشتنا الميكانيكية بانفسهم

كل شيء ، وحدثونى عن ذلك . قصارى القول . . . كانوا يسيرون الى جوار الحديقة العامة حين وقعت انظارهم على شخص معلق بالبوابة فى معطف اسود وقد ثبتت على صدره قصاصة من الورق . وظنوه فى البداية واحدا من رجالنا شنقه الالمان . وحين اقتربوا منه تعرفوا فيه على فومين ! هل تعرفينه ؟ انه ذلك الوغد . . . الشرطى . بينما قرأ هؤلاء فى تلك القصاصة — «هذا سوف يكون جزاء كل من يشى برجالنا» .

وخفض فولوديا من صوته ليهمس قائلا :

— هذه هى كل القضية . هل فهمت ؟

ثم صاح مضيفا :

— ويالـه من عمل ! لقد ظل معلقـا على مدى ساعتين فى الصباح ! لقد كان ذلك المكان موقع حراسته ولذا فلم يكن هناك غيره من رجال الشرطة . كمـا وشاهده جمع غفير من الناس ، وليصبح مادة لحديث الجميع بالمدينة .

ولم يكن فولوديـا وكذلك فاليا يجهلان وحسب قرار القيادة بشأن اعدام فومين ، بل ولم تخطر لهما ببال امكانية تنفيذ مثل هذا القرار . وكان فولوديا على يقين من ان المنظمة البلشفية للعمل السرى هى التى تولت هذه العملية . بيد ان الشحوب اعترى فاليا فجأة لدرجة انه فرض نفسه على لونها البرونزى . . . اذ كانت تعرف شخصا جسورا ، قد يكون هو الذى نفذ مثل ذلك الحكم . وتساءلت فيما تحاول السيطرة على شفتيها المرتجفتين :

— هل مر كل شيء بسلام . . . او لم تقع ضحايا من جانبنا ؟

وصاح فولوديا :

— نجاح رائع ! ان كل شيء على افضل ما يرام ! ليس ثمة من يعرف اى شيء ! بيد ان الامور فى بيتى غير طبيعية ، حيث ان امى مقتنعة تمام الاقتناع باننى الذى شنقت ذلك الحشرة الملعونة ، وقد راحت تتنبأ لى بنفس المصير . ولذا رحت ادعو ليوسيا قائلا : «انت ترين ان امنا لا تريد ان تفهم شيئا ، ويبدو انها غدت فريسة للمرض . . . وبوجه عام فقد حان وقت الذهاب لجدنا» .

وفجأة خاطبت فاليا سومسكوى قائلة :

— هيا بنا ياكوليا !

وقد بذل كوليا كثيرا من الجهد كى يستطيع مواكبة فاليا التى جدت فى سيرها دون ان يدرى كنه تلك التغيرات التى طرأت عليها . وها هو دبيب خطواتها يتعالى على درج منزلها ، ليدلف سومسكوى فى اثرها الى غرفة الطعام ، تعتريه مشاعر الاضطراب والحيرة .

وهناك كانت ماريا اندرييفا تجلس في ردائها داكن اللون الذى لف جسدها البدين فى احكام ، قبالة ابنتها الصغرى ليوسيا ممتقعة الوجه ، التى تهدل شعرها الذهبى على كتفيها ، فيما يخيم على المكان الصمت والتوتر وكأنما تجلسان فى حفل تابين .

وما ان شاهدت ماريا اندرييفنا ابنتها الكبرى حتى سارعت بالنهوض من مكانها ، وكأنما كانت تود ان تقول شيئا ، الا ان الغصة اصابت حلقها ، واندفعت نحو ابنتها تنظر بشك اليها تارة ، والى سومسكوى تارة أخرى . بيد انها لم تتمالك نفسها وراحت تغمر ابنتها بقبلاتها . وهنا فقط ادركت فاليا ان امها قد عاشت نفس تلك المشاعر التى عاشتها ام فولوديا . فقد كانت تشك فى ان ابنتها ، فاليا بورتس شاركت في عملية اعدام فومين ، وذلك بالذات هو ما دعاها الى التغيب عن المنزل طيلة هذين اليومين .

واذ نسيت فاليا سومسكوى الذى وقف فى ارتباك الى جوار الباب ، راحت تنظر الى امها وكأنما تود ان تقول لها : «ماذا يمكننى ان اقول لك . . . يا أماه ! ما عساى ان اقوله لك ؟»

وفى تلك اللحظات تقدمت الصغيرة ليوسيا نحو فاليا فى صمت ، تناولها رسالة . وفضت فاليا الرسالة بحركة تلقائية ، لتعرف كاتبها من خطه دون ان يسعفهـا الوقت لقراءة مضمونهـا . وهنا اضاءت ابتسامة طفولية وجهها الاسمر الذى غطاه غبار الطريق . والتفتت بسرعة الى سومسكوى ، لتكسو الحمرة ليس وجنتيهـا وحسب ، بل ورقبتها واذنيها . ثم امسكت بيد امها تقودها الى الغرفة المجاورة . وراحت تقول :

— ماما . . . ماما ! ان ما تظنينه محض اشياء لا اساس لها من الصحة . غير اننى اسالك . . . او لا تعرفين ذلك الهدف الذى نعيش جميعـا من اجله ؟ او لا تدركين اننى ورفاقى لا نستطيع الحياة على نحو آخر ؟ ماما . . !

كانت الحمرة تكسو وجه فاليا التى غمرتها مشاعر السعادة فيما كانت تخاطب امها ، تتأمل بناظريها وجهها .

واعترى الشحوب وجه ماريا اندرييفنا الذى يؤكد صحتها الجيدة ، مما بدا وكأنما يوحى بالالهام .

– ليحرسك الله يابنيتى . . .

ندت هذه الجملة عن ماريا اندرييفنا ، وراحت تكررها فيما انهمرت الدموع من عينيها :

– فليحرسك الله يا بنيتى !

الفصل الثالث والاربعون

كم تصعب الحياة على الاباء والأمهات غير العارفين والعارفات بعالم أبنائهم الروحى ، حيث يخالونهم قد تورطوا فى نشاط سرى مبهم خطير ، بينما لا يستطيعون التغلغل الى اعماق عالم ذلك النشاط ، او حظره !

وفى الصباح حين تجمعت الأسرة لتناول الشاى ، شعر فانيا بدنو العاصفة من قسمات وجه أبيه التى اتسمت بالكآبة والتجهم . وقد هبت العاصفة بالفعل حين جاءت شقيقته التى كانت قد ذهبت الى البئر من أجل الماء ، بنبأ اعدام فومين وما يقوله الناس بهذا الشأن .

فقد ذكر الأب بنبرة لاذعة دون أن ينظر الى ابنه :

–أعتقد أننا نستطيع الحصول على قدر افضل من المعلومات دون ان نبارح منزلنا هذا . لماذا لا تتحدث ؟

ثم خفض الاب من صوته ، ليقول :

– هيا . . . تكلم ! الست هناك من المقربين ، كما يقال !

وامتقع وجه فانيا ليقول :

– من المقربين الى من ؟ الى الشرطة ؟

– لماذا جاء اليك تيولينين بالامس ؟ وفى ساعات حظر التجول . . .

– من ذا الذى يراعى هذا الحظر . . . وكأنما لا تخرج نينا

فى مثل هذا الوقت . لقد جاء لمجرد الثرثرة والحديث . وليست هذه هى المرة الاولى التى يزورنى فيها .

وزار الاب ودق المائدة بقبضته :

– لا تكذب ! ان السجن جزاء ذلك ! واذا كنت تخال حياتك رخيصة فلماذا تحملنا نحن والديك مثل تلك المسئولية ؟

– انك يا والدى تتحدث عن أشياء لا صلة لها بالموضوع .

قالها فانيا بصوت هادئ دون أن يعير اهتماما لكون والده راح يضرب المائدة مرة اخرى بقبضته صائحا : «كلا . . . انها متعلقة به» ، ثم مضى يقول :

– انك تود معرفة ما اذا كنت عضوا فى تنظيم سرى . اليس ذلك صحيحا ؟ كلا . . . لست عضوا . اما عن موضوع فومين فلم اسمع به سوى هذه اللحظة من نينا . ومع ذلك اقول انه لقى جزاءه كنذل وضيع ! وانت ترى ، ووفقا لحديثها ، ان الآخرين يشاطرونني الراى . كما وانك لا تخالفنا اياه . اننى لا اخفى كونى اساعد رجالنا بكل ما استطيع تقديمه . وذلك أمر واجب علينا جميعا . هذا بينما انا عضو فى الكومسومول ، ولم احادثك وامى فى هذا الشأن حتى لا اثير قلقكما عبثا .

ونظر الاب الى زوجته ليقول وقد استشاط غضبا :

– هل سمعت يا ناستاسيا ايفانوفنا ؟ هذا هو سبب احزاننا ! انك لا تستحى ! لقد بذلت جل حياتى فى سبيلكم . . . هل نسيت كيف كنا نعيش اثنتى عشرة عائلة فى بيت واحد ، كان يتمرغ على أرضيته من الاطفال فقط ثمانية وعشرون طفلا ؟ لقد بذلنا انا وامك كل ما لدينا من قوة فى سبيلكم ! فلتنظر اليها . حاولنا تعليم الكسندر ولم نفلح . . . حاولنا تعليم نينا ، فلم تكمله وكرسنا كل ما فى وسعنا من أجلك ، بينما انت تتورط فى اعمال جزاؤها المشنقة . فلتنظر الى أمك ! لقد ضعف بصرها من فرط البكاء من اجلك ، بينما انت لا تلحظ شيئا !

– وماذا تشير به علىّ ؟

– فلتلتحق بالعمل ! ان نينا تعمل ، وعليك انت كذلك ان تعمل . انها تمارس عملا بسيطا ، بينما هى محاسبة فى حقيقة الامر . فماذا تود انت ؟

واجاب فانيا فى سخط :

– العمل لصالح من ؟ لصالح الالمان ؟ حتى يتمكنوا من قتل اكبر عدد من رجالنا ؟ اننى سوف اكون اول الملتحقين بالعمل حين تعود سلطتنا من جديد . ان ابنك ، اى شقيقى ، يحارب فى صفوف الجيش الاحمر بينما تطلب منى العمل لصالح الالمان حتى يعجلون بقتله !

كان الاب والابن يقفان يواجه كل منهما الآخر . وصاح الاب :

– وماذا علينا اكله ؟ هل من الافضل ان يخونك ذلك الذى تعمل من اجله ؟ سيشى بك لدى الالمان ! هل تعلم نوعيات من يسكن شارعنا ؟ اننى اعرفها ... ان هؤلاء يعيشون اهتماماتهم وقضاياهم . وليس هناك سواك يعمل من اجل الجميع .

– ان هذا غير صحيح ! هل كانت لديك قضاياك حين بعثت بمتاع الدولة الى مؤخرة البلاد ؟

– ان الحديث لا يدور بشانى .

وذكر فانيا وهو يتكئ باصابع احدى يديه على المائدة منكس الراس فى نظارته القرنية :

– كلا ... ان الحديث يخصك انت . لماذا تظن نفسك افضل من الآخرين ؟ المنفعة الشخصية ! كل يعمل من اجل نفسه ! اننى اسالك اية منفعة شخصية كنت تبتغيها آنذاك حين تسلمت مستحقاتك ، فيما كنت تعلم انك سوف تبقى ، وان ذلك امر يمكن ان يعود عليك بالضرر ، وقمت بالرغم من مرضك ، تسهر الليالى فى تحميل متاع لا يخصك ؟ هل ليس ثمة من يماثلك فى هذا العالم ؟ حتى العلم يؤكد عكس ذلك !

كانت الاخت نينا ، تجلس فى مثل تلك الساعة من يوم الاحد ، فى فراشها مقطبة الجبين تتحاشى النظر الى ابيها وشقيقها ، دون ان يستطيع احد ، وكالعادة ، معرفة ما يدور بخلدها . اما الام التى اصابها الكبر سريعا وترك آثاره واضحة عليها ، الطيبة التى انحصرت دائرة اهتماماتها فى العمل بالحقول وممارسة الشؤون المنزلية ، فقد كانت تخشى ان يبلغ غضب الكسندر فيدوروفيتش حد طرده لابنه . وحين كان الاب يتحدث ، كانت تتملقه مومئة براسها ، فيما كانت ترسم على شفتيها ابتسامة مصطنعة وتنظر

الى الاب حين كان الابن يشرع فى حديثه ، مما كان يعنى انها ترجوه موافقته والعفو عنه ، على الرغم من انهما كعجوزين كانا يدركان مدى خطأ منطقه .

كان الاب يقف وسط الحجرة فى سترته الطويلة التى ارتداها فوق القميص ذى الازرار الجانبية ، وسرواله القديم الذى رقع عند الركبتين ينتعل حذاء تثنت حوافيه عند الكعبين ، وقد كور قبضتيه يضمهما فى رعشة الى صدره تارة ، ويسدلهما الى جانبيه تارة اخرى فيما يصيح :

– اننى لا اثبت لك ذلك استنادا الى علـــم ، بل الى خبرة حياتية !

وذكر فانيا فى حدة مفاجئة :

– أو لا يستند العلم الى الحياة ؟ انك لست وحدك تبحث عن العدالة ، فثمة آخرون يفعلون نفس الشىء . كما وانك تخجل من الاعتراف بمحاسنك !

– ليس هناك ما يخجلنى !

– فلتثبت لى عندئذ اننى لست على حق ! كمـــا ويستحيل اقناعى بالصياح والصراخ ، اذ انـه يمكننى الصمت ، بيد اننى سوف أتصرف حسبما يمليه على ضميرى .

وسرعان ما استكان الوالد لتخف حدة توقده التى ارتسمت على عينيه ، الا انه صرخ قائلا :

– هاك يا ناستاسيا ايفانوفنا ... لقد ربينا الابن .. ربيناه ليصبح فى غير حاجة الينا ... وداعا !

قالها مشيحا بيديه ليستدير خارجا من الغرفة .

وتبعته ناستاسيا ايفانوفنا فى خطى متثاقلة . امـا نينا فقد ظلت مكانها بالفراش تجلس منكسة الراس فى صمت .

وراح فانيا يذرع المكان ذهابا وايابـا دونما هدف ، وحتى استقر جالسا مثقل الضمير . وقد حاول ، شأن الحال فى الماضى ، التنفيس عن همومه فى رسالة شعرية يبعث بها الى اخيه :

صديقى الوفى الامين
ساشا .. شقيقى العظيم ...

كلا . . .

يا افضل الاصدقاء
يا اعز الاشقاء . . .

لم يستطع شحذ حواسه الفنية لنظم مثل هذه الرسالة ، كما وكان يستحيل عليه ارسالها الى شقيقه .

وعندئذ فطن فانيا الى ما ينبغى عليه عمله . . . زيارة كلافا فى نيجنى الكسندروفسكى .

كانت يلينا نيكولايفنا كوشيفايا تعانى مضاعفا ازاء كونها لم تستطع بنفسها تقرير ما اذا كان ينبغى عليها مساعدة ابنها فى نشاطه ، او الحيلولة دون ذلك . كما وكان الحزن والخوف على الابن يقضان مضاجعها شان الامهات الاخريات ، يوما بعد يوم يفقداها القدرة على العمل والنوم ، يحملان التجاعيد والغضون الى وجهها . وكان الخوف يتخذ فى بعض الاحيان طابعا حيوانيا ، اذ كانت تراودها الرغبة فى الصراخ والاندفاع ، وانتزاع ابنها بالقوة من براثن المصير الرهيب الذى يتجه نحوه .

بيد انها كانت تتسم ايضا بما كان يميز زوجها الراحل ، الذى كان حبها الوحيد الملتهب ، حيث كانت تتأجج فى اعماقها مشاعر الكفاح التى كانت تدفعها نحو التعاطف مع نشاط ابنها .

كانت كثيرا ما تشعر بالغضب ازاء محاولاته ابقاء اموره طى الكتمان ، دون ان يخبرها هى امه ، باخباره ، على الرغم من انه كان دائما معها ، صريحا مهذبا مطيعا ! وكان اكثر ما يغضبها كون امها ، الجدة فيرا ، مشتركة على ما يبدو فيما يفعله الحفيد ، دون ان تبلغها بذلك . كما وكان شقيقها كوليا واستنادا الى كافة الظواهر شريكا كذلك فى تلك المؤامرة . هذا علاوة على ان امراة غريبة مثل بولينا جيورجيفنا سوكولوفا ، او العمة بوليا كما كانت عائلة كوشيفوى تدعوها ، اصبحت على ما يبدو اقرب الى اوليج من امه الحبيبة . فكيف ومتى حدث كل ذلك ؟

ففى سالف الازمان كانت يلينا نيكولايفنا والعمة بوليا صديقتين لا تفترقان ، لدرجة ان الآخرين لم يكونوا ليتحدثوا عن احداهما دون الاشارة الى الاخرى . لقد كانتا صديقتين حميمتين شان من

تربطهما علاقات مشتركة فى العمل والفكر ، ناضجتين خبرتهما الحياة كثيرا . اما وحين اندلعت الحرب انطوت العمة بوليا على نفسها فجاة وكفت عن زيارة آل كوشيفوى . كما وحين كانت يلينا نيكولايفنا تزورها بحكم الصداقة القديمة ، كانت تبدو وكانما هى خجلة من بقرتها وبيعها للحليب ، وازاء احتمال ان تلومها يلينا نيكولايفنا بسبب تفرغها لحياتها الشخصية وابتعادها عما يمكن ان يرفع من شان الوطن . ولم تجد يلينا نيكولايفنا ما يعنيها على بحث ذلك الموضوع معها ، لينفرط عقد صداقتهما من تلقاء نفسه .

وها هى بولينا جيورجيفنا تظهر من جديد فى بيت آل كوشيفوى ، حين صار الالمان يسيطرون على مقاليد الامور فى المدينة . لقد جاءت بوجه يحمل امارات الصراحة والمعاناة ، لتعرف يلينا نيكولايفنا فيها صديقتها القديمة . وصارتا اليوم يتقابلان كثيرا ، لتروّح كل منهما عن نفسها ، بيد ان يلينا نيكولايفنا ، وكعادتها دائما ، كانت الاكثر حديثا ، فى حين كانت العمة بوليا الهادئة المتواضعة تنظر اليها بعينين منهكتين تتوقدان ذكاء . وعلى الرغم من كل ذلك ومهما حاولت العمة بوليا التمسك بهدوئها ، فلم تكن يلينا نيكولايفنا قادرة على الا تلحظ انها ، صديقتها القديمة ، قد استمالت اوليج الى جانبها . فقد صار يظهر الى جوارها كلما كانت تاتى الى بيتهم ، وكثيرا ما كانت يلينا نيكولايفنا تلحظ نظراتهما المتبادلة الخاطفة ، والتى تنم عن ان ثمة ما يود كل منهما اطلاع الآخر عليه . وحقا كان ذلك ، حيث ما كانت يلينا نيكولايفنا تكاد تفارقهما قليلا لتظهر من جديد حتى تشعر بأن حديثا خاصا بينهما قد انقطع . وحين كانت يلينا نيكولايفنا تخرج لوداع صديقتها حتى كانت الاخيرة تقول فى عجلة وحياء : «كلا . . . لا داعى للتعب يا لينوتشكا . . . اننى سوف اذهب وحدى» ، بينما لم تكن تقول ذلك ابدا اذا ما كان اوليج هو الذى يعرض مرافقتها .

كيف حدث كل ذلك ، كيف يمكن لقلب الام تحمل ذلك ؟ من ذا الذى يستطيع من البشر وفى كل ارجاء الكون ان يفهم الابن ويشاطره اموره وافكاره ويشمله بحبه ليدرأ عنه الخطر حين

يداهمه ، أفضل من الام ؟ وهمس صوت الضمير اليها بأن ابنها لا يثق فيها ، ومن ثم يخفى عنها ، ولاول مرة أموره .

وشأن كل الامهات اللاتى لم يتقدم السن بهن بعد ، كانت تركز أساسا على الجوانب الايجابية فى شخصية طفلها الوحيد ، بيد أن ذلك لم يحل دون معرفتها الجيدة بابنها .

ومنذ تلك اللحظة التى ظهرت فيها المنشورات ذات التوقيع الغامض «الحرس الفتى» ، لم تشك يلينا نيكولايفنا فى صلة ابنها بهذه المنظمة ، بل وكذلك فى أنه يلعب بها دورا قياديا . وقد كانت تنتابها مشاعر القلق والفخر والمعاناة ، الا انها لم تكن تظن انه من الممكن ارغام ابنها عن غير طيب خاطر على الحديث فى هذا الشأن .

الا أنها سألته ذات مرة ، وكأنما عرضا :

– من تصادق فى الفترة الاخيرة ؟

وتملص من الاجابة بما يتسم به من دهاء فورى ، ليتحول بالحديث وكأنما هو استكمال لحديث سابق حول لينا بوزدنيشيفا ، قائلا فى تأتاة وقليل من الارتباك :

– أصادق نينا ايفانتسوفا . . .

واستجابت الام لدهائه فى خبث :

– ولينا ؟

وتناول مفكرته فى صمت ليقدمها اليها ، حيث راحت تطالع ما كتبه بشأن آرائه اليوم فى لينا بوزدنيشيفا ، وحول تعلقه بها فيما سبق .

بيد انها وفى ذلك الصباح حين أبلغها جيرانهـــا بنبأ اعدام فومين ، كادت تطلق صرخة حيوانية أمسكت نفسهـــا عنهـــا مستلقية فى فراشها ، مما دعا الجدة فيرا التى بدت مبهمة غامضة كالمومياء ، الى وضع منشفة مبللة على جبينها .

لم تكن يلينا نيكولايفنـــا شأن كافة الامهات ، تشك لحظة واحدة فى براءة ابنها من ذلك العمل . بيد أن ذلك الحادث جرى فى نفس الاطار الذى يدور ابنها فى فلكه . فهذا أمر من سمات النضال العصيبة ! فأى عقاب ينتظره ؟ ولم يكن فى وسعها بعد ايجاد الوسيلة التى تكفل لها سير اغوار ابنها ، غير انه كان من

الضرورى تمزيق كل غلالات الاسرار الخفية الرهيبة ، حيث اصبح العيش على هذا النحو مستحيلا !

وفى ذلك الحين كان ابنها يجلس على الفراش ، أنيق الملبس كعادته ، نظيف البشرة التى تركت اشعة الشمس آثارها عليها ، وقد هبط بعنقه فيما بين كتفيه اللتين علا أحدهما الاخر ، بالعنبر الخشبى الملحق بالمنزل فى مواجهة كوليا سومسكوى كبير الانف ، برونزى البشرة رشيق الحركة ، الذى افترش الارض ينازلـــه الشطرنج .

وركز كلاهما انتباهه على قطع الشطرنج ، لا يقطع صمتهما سوى بعض الكلمات المقتضبة التى راحا يتبادلانها من آن لآخر ، والتى كان يمكن ان تبدو فى نظر غريب يسمعهما كحديث لشخصين عريقين فى الجريمة .

سومسكوى : هناك بالمحطـــة مستودع للحبوب . وقد قام كوليا ميرونوف وبالاجوتـــا بنشر السوس فى تلك الكميات التى جاؤوا بها الى هناك . . .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : هل جرى حصاد القمح ؟

– يرغمـــون الناس على الحصاد . غير أن الجزء الاعظم من المحصول ما يزال فى الاجران . ليست هناك آلات لدراسه ، وعربات لنقله .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : يجب اضرام النار فى الاجران . طابيتك فى خطر .

فترة صمت . . .

كوشيفوى : حسنا أن تجد فتيانا جيدين فى المزرعة الحكومية . لقد بحثنا فى القيادة ذلك الامر ، واتخذنا قرارا بضرورة تشكيـــل الخلايا فى النجوع . هل لديكم اسلحة ؟

– القليل .

– يجب تجميع الكثير .

– من أين ؟

– فى البرارى . فلتسرقوها من الالمان . . . انهم يعيشون كيفما اتفق !

سومسكوى : آسف . كش ملك !

كوشيفوى : سوف يـــرد عليك ياصاح ، كمـــا يردون على المعتدين !

– لست انا المعتدى .

– هذا بينما تشمخ بانفك كما العملاق .

وذكر سومسكوى ضاحكا :

– اننى شان الفرنسيين فى تصرفاتهم .

فترة صمت . . .

سومسكوى : معذرة اذا ما وجهت اليك ذلك السؤال . . . هل شاركتم فى عملية الشنق ؟

كوشيفوى : من ذا الذى يمكنه معرفة ذلك !

وذكر كوليا فى ارتياح ظاهر :

– حسنا . اننى اعتقد ضروريا قتل اكبر عدد منهم . ينبغى علينا قتل السادة وعدم الاكتفاء بالخدم .

– هذا حق . انهم يعيشون دونما هموم .

وذكر سومسكوى :

– اعتقد انه من الافضل الاستسلام . . . فالوضع عصيب ، علاوة على ان وقت العودة قد حان .

وجمع اوليج قطع الشطرنج فى اعتناء ثم نهض متوجها الى الباب حيث القى نظرة الى الخارج ليعود ادراجه .

– فلتقسم . . .

لم يفصل شيئا بين تلك اللحظة حيث كانا ما يزالان مكانهما يلعبان الشطرنج ، وحين وقف كوشيفوى وسومسكوى ، يواجه كل منهمـا الاخر ليبدو اوليج اعرض كتفين ، وقد اسدل يديـه الى جانبيه ، يرنو كل منهما الى الآخر فى بساطة .

وتناول سومسكوى من جيب سترته الصغير قصاصة صغيرة ليكسو الشحوب وجهه ، يطالع فى صوت مبحوح :

– انا ، نيكولاى سومسكوى ، اذ انضم الى صفوف الحرس الفتى وفى حضرة رفاقى فى السلاح وازاء ارضنا الحبيبة المعذبة ، وحيال كل الشعب اقسم . . . – وهنا تملكته مشاعر الاضطراب ، ليعلو صوته رويدا رويدا ، غير انه خفضه خوفا من ان يكون ثمة من

يسمعه بالفناء – باننى اذا ما حنثت بهذا القسم المقدس تحت وقع التعذيب او الجبن ، فلتحل اللعنة باسمى وباهلى الى ابد الابدين ، ولتنل منى يد رفاقى الصارمة . . . الدم بالدم والموت بالموت !

وذكر اوليج وهو يشد على يده :

– اهنئك . لم تعد حياتك ملكـا لك من الآن فصاعدا ، بل ملكا للحزب وللشعب باسره . عليك ان تتولى مسئولية القاء اعضاء جماعة كراسنودون للقسم .

شغل اوليج نفسه بالتفكير فى كيفية دخول المنزل حين تكون امه قد نامت ، او تظاهرت بالنوم ، كى يخلع ملابسه ويستلقى فى فراشه ، وحيث يمكن عندئذ ان يكون فى غير حاجة الى تفادى نظراتها التى تتسم بالقلق ، والتظاهر بانه ليس ثمة ما تغير فى هذه الحياة .

وعلى اطراف قدميه راح يخطو الى داخل المطبخ ، يفتح باب الغرفة بعض الشىء ليدلف الى داخلها فيما يشعر بوطاة ارتفاع قامته . كانت النوافذ مغلقة كالعادة ، اسدلت عليها ستائرهـا السوداء . كما كان الجو حارا لا يطاق ، حيث جرى اشعال الفرن نهارا . وكانت اشعة مصباح الزيت الذى وضع فوق علبة قديمة من الصفيح حتى لا يتسخ غطاء المائدة وحتى يزيد انتشارهـا ، تنتزع من براثن الظلمة زوايا الاثاث المالوف لديه .

وكانت امه التى عرف عنها حبها للنظام والنظافة ، تجلس فى الفراش المعد للنوم فى كامل ملابسها وهيئتها ، وقد وضعت يديها الرقيقتين السمراوين الصغيرتين فيما بين ركبتيها ، ترنو بانظارها الى اشعة المصباح .

ياله من هدوء ساد المنزل ! لقد عاد الخال كوليا الذى صار يمضى معظم الايام تقريبـــا لدى صديقه المهندس بيسترينوف ، ليستلقى فى فراشه ، كما واوت الى فراشها كذلك مارينا وابنها الصغير الذى غلبه النعاس منذ زمن بعيد . وها هى الجدة فيرا كذلك تنام فى فراشها دون ان يعلو شخيرها . حتى دقات الساعة صارت لا تطرق الاذان . . . لم يكن ساهرا سوى امى . . . امى العزيزة !

لكن حذار الانسياق وراء العواطف . . . يجب الاستمرار فى السير على اطراف الاصابع فى صمت وحتى الوصول الى الفراش ، ثم الخلود اليه فى سرعة ، ومن ثم التظاهر بالنوم !

وها هو فارع القامة ، متين البنية يقترب من امه ، ويجثو على ركبتيه ليدفن وجهه فيما بين ركبتيها . وهنا راح يشعر بيديها تلامسان وجنتيه ، يحس بدفئها الذى لا يعوض ، ورائحة الياسمين التى تعالت بعيدة تشوبهـــا رائحة تتسم ببعض المرارة ، اشبه برائحة الشيح او الباذنجان ... وعلى اى حال فالامر سيان !

وطفق يهمس فيما يرنو اليها بناظريه من اسفل :

– يا عزيزتى ! يا رائعتى ! انك تدركين كل شىء . . . كل شىء ياحبيبتى !

ومالت اليه برأسها تقول دون ان تنظر اليه :

– انى ادرك كل شىء !

واخذ يبحث عن عينيها اللتين دفنتهما فى شعره الحريرى ، وراحت تهمس . . وتهمس :

– اينما كنت . . . ووقتما كنت ، عليك الا تخشى شيئا ، فلتكن قويا يانسرى الصغير ! وحتى آخر قطرة من دمك !

وهمس قائلا :

– سوف اكون كذلك . . . حان وقت النوم . . . هيا . . . هل تودين ان اساعدك فى اطلاق سراح شعرك ؟

وراح ، كما كان الحال فى طفولته ، يتحسس بيديه دبابيس شعرها ، يتناول الواحد تلو الاخر ، فيما صارت تدس رأسها بين يديه وهى تخبأ وجهها ، غير انه فرغ من انتزاع دبابيس شعرها لينفرط عقد ضفيرتيها ، وتسقطان كما يسقط التفاح من اشجاره بالحديقة ، وليتهدل شعرها يدثر جسدها .

الفصل الرابع والاربعون

كان ينبغى على فانيا زيمنوخوف الحصول على اذن من القيادة يسمح له بالغياب بضعة ايام يزور فيها نيجنى الكسندروفسكى . ولذا فقد راح يقول لاوليج ببعض الارتباك :

– ان الامر لا يتلخص فقط فى مسالة زيارة احدى الفتيات . اننى انوى منذ زمن بعيد تكليفها بأمر منظمة الشباب فى كافة نجوع القوزاق .

بيد ان اوليج بدا وكانما لم يسمع تلك الاسباب الوجيهة التى اوردها فانيا . وقال :

– فلتنتظر يوما او يومين . فلربما يجرى تكليفك بمهمـــة اخرى .

ثم اضاف فجاة وابتسامة عريضة ترتسم على شفتيه ، حيث شاهد فانيا وقد تجهم وجهه :

– كلا . . . لا تخف . هناك ايضا !

ولقد كان فانيا يتجهم عادة حين يكون عازفـا عن ان يعرف الآخرين حقيقة مشاعره .

وفى الأيام الاخيرة كانت بولينا جيورجيفنا تطالب اوليج فى الحاح بترشيح احد الشباب كى يكون تحت تصرف ليوتيكوف ، للعمل مراسلا فيمـا بين كراسنودون ونيجنى الكسندروفسكى . وكان اوليج قد توقف بافكاره عند زيمنوخوف .

وكانت العمة بوليـــا تؤكد عند الحديث عن طلب فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف قائلة :

– ينبغى ان يكون ذكيـا موثوقا منه ، بل وغاية فى الذكاء وخير من يمكن الوثوق بهم .

وفى اليوم التالى مباشرة ، وبعد الحديث مع اوليج ، انطلق فانيا زيمنوخوف ضعيف البصر ينتعل حذاءه دون جورب ، يعصب راسه بمنديل عقده على نحو مربع يخطو باحد ممرات البرارى وسط ما ندر من حقول قمح لم يجر حصادها بعد ، تحت اشعة الشمس الحانية .

واذ كان يعيش اهمية ذلك الدور الذى اوكل اليه ، وكل ما يمكن ان ينجم عن آدائه لمثل هذا الدور . ولم يكن غريبا بالنسبة لمثل فانيا ضعيف البصر ان يركز حواسه حول افكار محددة ، ولذا فقد راح يذرع البرارى ، يجتاز الكفور والنجوع دون ان يلحظ كل ما صادفه فى طريقه .

لقد كان الانسان ، اذا ما كان فى الامكان ان يوجد ، يجد نفسه

مذهولا حيال تباين وكآبة الاشياء التى يقع عليها ناظراه فى تلك الاماكن الريفية الرازحة تحت وطأة الاحتلال الالمانى . فلقد كان يمكن ان يصادف عشرات ومئات الاماكن التى سجلت احتراق القرى والنجوع والكفور ، والتى لم يكن ليجد فيها سوى جذى النيران ورماد الحرائق ، وقطة شاردة تربعت عند مدخل منزل نصف محترق تغمره اشعة الشمس الدافئة ، وقد نبتت به الحشائش الطفيلية الطويلة . كما وكان يمكن ان يجد نجوعا لم تطأها قدم المانى ، اذا ما لم نأخذ فى اعتبارنا ، القليلين من الالمان الذين يضلون طريقهم .

كما وكانت هناك القرى ، حيث توطدت سلطة الالمان ، التى اعتبرتها اكثر ملائمة لها ، حيث سرقات الجيوش السافرة ، اى السرقات التى تقوم بهـــا وحدات الجيوش العابرة ، وكل انواع الاغتصاب والوحشية التى لـــم تكن بالامر الغريب على سلطات الاحتلال الالمانية كما شهدتها روسيا ، قد تجلت فى اتصع صورها .

وكان نجع نيجنى الكسندروفسكى ينتمى الى تلك النجوع التى عاشت مثل ذلك المصير ، وحيث وجدت كلافا وأمها مكانا للاقامة لدى اقارب الام .

وكان خالها القوزاقى الذى اقامتا فى ضيافته يعمل مزارعا بسيطا بالمزرعة التعاونية قبيل وصول الالمان . ولم يكن الخال رئيسا لمجموعة ، او سائسا بالمزرعة ، بل مزارعا عاديا يعمل مع أسرته ضمن افراد الجمعيات التعاونية بالحقول العامة ، يعيش من دخل ذلك العمل ومما تدره عليه قطعة الارض المجاورة لمنزله .

وقد عانى خال كلافا ، ايفان نيكانوروفيتش وكل أفراد اسرته ما قدّر لأية عائلة ريفية أن تعانيه تحت وطأة الاحتلال الألمانى . فقد نهبتهم وحدات الجيش الالمانية العابرة ، حيث صادر الجنود كل ما وقعت عليه أياديهم من ماشية ودواجن وماكولات . بيد أن ذلك لم يكن يعنى انهم قد سرقوا كل ما تملكه الأسرة ، حيث لا يوجد مزارع فى العالم اجمع حنكته التجارب وخبرته الحياة لدرجة يستطيع معها اخفاء بعض الاطعمة فى ايام المحن ، مثل المزارع الروسى .

وبعد عبور الجيوش الالمانية وبدء استقرار «النظام الجديد» ،

جرى اعلان ايفان نيكانوروفيتش شأن الآخرين ، بان الارض التى كانت ملكا لجمعية نيجنى الكسندروفسك التعاونية ، قد غدت مثل كافة الأراضى الاخرى ملكا للدولة الألمانية . وقد ذكرت تعليمات قوميسار النظام الجديد الواردة من كييف انه سوف يجرى تقسيم هذه الارض التى جرى تجميعهـــا فى حوزة جمعية تعاونية كبيرة وبصعوبة بالغة ، الى مساحات صغيرة يجرى منحهـــا لكل فلاح قوزاقى للاستغلال الفردى . على شريطة . . . ! لن يتم ذلك الا عندما يملك القوزاق والفلاحون ادواتهم الزراعية وماشيتهم الخاصة بهم . ولما كانوا لا يستطيعون ذلك اليوم ، فسوف تظل الأرض ملكا للدولة الألمانية . وسوف يجرى لزراعة هذه الأراضى تعيين عمدة للقرية ، روسى يعينه الالمان – وقد جرى بالفعل تعيينه – وتقسيم النجع الى مجموعات يتكون كل منها من عشرة بيوت . كما وسوف يجرى تعيين رئيس لكل مجموعة من هذه المجموعات ، – روسى يعينه الالمان – وقد تـــم تعيينهم . أما المزارعون فسوف يحصلون على الخبز وفقا لحصص معينة . وكى يحفزون الفلاحين للعمل ، ابلغوهم أن من يعمل منهم اليوم على خير ما يرام ، سوف يتملك قطعة ارض يفلحها لصالح نفسه .

ان الدولة الالمانية عاجزة عن ان تكفـل عملا جيدا فى هذه الارض الشاسعة ، ما لم توفر الآليات وما يستلزمها من وقود ، وكذلك الخيول اللازمـــة . لقد كان من المفروض ان يستخدم المزارعون الآلات الزراعية اليدوية ، وابقارهم الخاصة . وعبثا يؤمل كل من سوف يشفق على ابقاره ، فى الحصول على قطعة ارض مستقبلا . وعلى الرغم من ان مثل هذا النمط من العمل يتطلب قوة بشرية عاملة اكبر ، لم تبذل السلطة الألمانية جهدها للابقاء على هذه القوى العاملة فى مكانها وحسب ، بل وبذلت كل ما فى وسعها لارسال اكثر السكان قدرة على العمل واوفرهم صحة الى المانيا .

ونظرا لأن الدولة الألمانية لم تستطع فى الآونة الراهنة تقدير احتياجاتها من اللحوم واللبن والبيض ، فقد استولت مبدئيا على بقرة واحدة من كل خمسة منازل وخنزير من كل منزل وخمسين كيلوجراما من البطاطس وعشرين بيضة وثلاثمائة لتر من اللبن من كل بيت فى نجع نيجنى الكسندروفسكى . بيد ان الامر لم يقتصر

على ذلك ، اذ انـــه وازاء احتمال تزايد طلباتها ، وتلك حقيقة واقعة ، يحظر على القوزاق والمزارعين ذبح ماشيتهم ودواجنهم ، واذا ما تطلب الأمر ذلك ، يجرى التصريح بذبيحة واحدة لكل اربعـة منازل ، على ان تقوم هذه المنازل بتقديم ثلاثة مثلها الى الدولة الألمانية .

وللاشراف على هذه العملية ، اى مصادرة كل ما تقدمت الاشارة اليه من منزل ايفان نيكانوروفيتش وابنـــاء نجعه ، جرى تشكيل ادارة زراعية للمنطقة يراسهـــا الضابط ساندرز الى جانب عمدة النجع ورؤساء مجموعـات المنازل العشارية . وقد راح الضابط ساندرز شأن المـــلازم اول شبريك يتجول بين القرى والنجوع لا يرتدى سوى سترته وسرواله القصير ، نظرا لحرارة الجو ، مما كان مدعاة لامتعاض القوزاقيات اللاتى رحن يبصقن ويرسمن علامة الصليب على صدورهن عند رؤيته ، وكانما يشاهدن فيه صورة الشيطان . وكانت الادارة الزراعية بالمنطقـــة تتبع بدورها ادارة زراعية للدائرة اكبر حجما ، يراسها الضابط جليوكر الذى كان يفضل السروال الطويل فى ملبسه ، على النقيض من زميله السابق . اما هذه الادارة فكانت تتبـــع بالتالى المجموعـــة «با» والتى يراسها الرائد شتاندر . وقد كانت هذه المجموعة بعيدة عن اتصالات الآخرين لدرجة انه لم يكن ثمة من يستطيع الاتصال بها . وحتى هذه المجموعة لم تكن سوى احد اقسام الادارة «فيكدو ٩» برئاسة الدكتور ليوديه ، والتى كانت تابعة الى جهتين احداهمـــا ادارة الشرطة فى فوروشيلوفجراد ، والأخرى الادارة المركزية للممتلكات الحكومية فى مدينة كييف والتى يشرف عليهـــا قوميســـار الرايخ بنفسه .

واذ كان ايفان نيكانوروفيتش وابناء نجعه يشعرون يوميـــا بوطاة تلك السلسلة من مختلف العاطلين واللصوص الذين يتحدثون لغة غير مفهومة ومع ذلك يطالبون بتوفير المأكل والمشرب ، فقد ادركوا ان السلطة الألمانية الفاشية ليست سلطة وحشية وحسب — حيث كان ذلك واضحا منذ البداية — ، بل وسلطة مجموعـــة من المستهترين واللصوص ، ويمكن تسميتها وببساطة ، سلطـــة الأغبياء .

وهكذا بدا ايفان نيكانوروفيتش وابنـــاء نجعه ، شأن سكان الكفور والنجوع المجاورة — جوندوروفسكايا ، ودافيدوف وماكاروف يار وغيرها ، يتعاملون مع السلطة الالمانية كما يستطيع كل انسان يحترم نفسه التعامل مع سلطة غبية ، مما يعنى انهم دابـــوا على خداعها .

وكان خداع السلطة الألمانية يتركز اساسا فى التظاهر بالعمل وتبديد ، وان تيسرت الأمور ، تحويل كل ما قد ينتجونه الى المنازل ، وكذلك فى اخفاء الماشية والدواجن والمواد الغذائية . وامعانا فى الخداع حاول القوزاق والمزارعون ان يكون رؤساء مجموعات المنازل العشارية وعمد القرى والكفور من انصارهم . وشأن اية سلطـــة وحشية كانت السلطة الألمانية الفاشية تجد حيوانات بما فيـــه الكفاية توكل اليها بالقوة مناصب العمد . بيد أن الانسان ، وكما يقال لا يعيش ابدا . كان عمدة ذات يوم ، ليصبح اثرا بعد عين .

كانت كلافا كوفاليوفا فى الثامنة عشرة من العمر لا شأن لها بكل هذه الامور . ولم تكن تعانى سوى من تقليص حرياتها واستحالة ذهابها لتلقى العلم ، وغياب صديقاتها ، وجهلها بمصير ابيها . كانت تسلى نفسها بالتفكير فى فانيا ، وفى حياتها التى سوف تغدو ناصعة طيبة معه ، حيث ان النهاية هى مصير كل ازمة او فوضى ، مما يعنى أنهما سوف يتزوجان وينجبان الأطفال ليعيشوا جميعا فى افضل حال .

كما وكانت تقضى وقت فراغها فى قراءة الكتب التى كانت تجد صعوبة كبيرة فى الحصول عليها فى نيجنى الكسندروفسكى . وحين علمت كلافا أن مدرسة جديدة تابعة للسلطة الألمانية بالمنطقة قد وصلت بدلا من المدرسة القديمة التى اسعفهـــا الوقت للنزوح ، قررت انه ليس من المعيب فى شىء أن تطلب استعارة بعض الكتب منها .

وقد كانت هذه المعلمة تقطن غرفة المعلمة القديمة الملحقـــة بالمدرسة ، تستخدم اثاثها وحاجياتها ، استنادا الى ثرثرة جاراتها . وراحت كلافا تطرق بابها ، ودون انتظار لاجابتها مدت يدها القوية البضة تدفعه لتجد نفسها داخل الحجرة الكائنة فى الجزء الغربى من المدرسة والتى أسدلت ستائر نوافذها ، لتتامـــل من بالحجرة

شزرا . والتفتت بعض الشيء المدرسة التى كانت تنظف قاعدة النافذة بمنفضة من ريش الدجاج ، فيما ارتفع احد حاجبيها الكثين ، لتجفل الى الوراء ، تستند الى قاعدة النافذة ، ثم فردت قوامها وراحت تحدق النظر فى كلافا .

– أنت . . .

ولم تكمل حديثها ، حيث ندت على شفتيها ابتسامة تنم عن الشعور بالذنب ، وتقدمت الى الامام تستقبل كلافا .

لقد كانت امراة شقراء ، هيفاء القامة ترتدى فستانا بسيطا ، تند عن عينيها الرماديتين نظرات تتسم بالصرامة ، ذات شفتين واضحتى المعالم ، ومع ذلك فقد كانت الابتسامة الناصعة التى تعبر عن بساطتها ، ترتسم عليهما من آن لآخر .

وذكرت فى روسية طليقة ، شان كل مدرسة جيدة للغة الروسية :

– لقد تحطم صوان مكتبة المدرسة ، التى اتخذها الالمان مقرا لهم . يمكنك ان تصادفى بعض صفحات الكتب فى غير موضعها . الا ان ثمة ما بقى منها . وسوف نبحث عنها سويا . هل انت من سكان هذا النجع ؟

واجابت كلافا فى غير حسم :

– يمكن القول . . . نعم !

– ولماذا تتلجلجين ؟

واعترى الارتباك كلافا .

وركزت المدرسة ناظريها عليها .

– تفضلى بالجلوس .

وظلت كلافا واقفة مكانها .

وذكرت المدرسة :

– لقد شاهدتك فى كراسنودون .

وراحت كلافا تنظر اليها شزرا وفى صمت .

وذكرت المدرسة دون ان تفارقها ابتسامتها الناصعة :

– لقد ظننتك رحلت .

– اننى لم ارحل الى اى مكان .

– هذا يعنى ان ثمة من كنت تودعينه .

ونظرت كلافا اليها فى خوف وفضول :

– ومن اين علمت بذلك ؟

– اعلم ذلك . . . وليس ثمة مدعاة للارتباك . وقد تظنيننى قادمة بتكليف من السلطة الالمانية و . . .

– اننى لا اظن شيئا .

وضحكت المدرسة ، لتكسو الحمرة وجهها :

– لا . . انك تظنين بالفعل . من كنت تودعينه ؟

– والدى .

– لا . . ليس والدك .

– كلا . . والدى .

– حسنا . ومن هو والدك ؟

واجابت كلافا وقد زادت حمرة وجهها :

– موظف بالمؤسسة .

– تفضلى بالجلوس ولا داعى للخجل .

ومست المدرسة يدى كلافا فى رقة ، لتستجيب الى دعوتها بالجلوس .

– وهل رحل صديقك ؟

– وعلا وجيب قلب كلافا التى تساءلت :

– اى صديق ؟

وفارقت امارات الصرامة عينى المدرسة التى انفجرت ضاحكة ثم قالت :

– لا داعى للانكار . اننى اعرف كل شيء .

واجتاح الغضب كلافا فجاة لتقول فيما بين نفسها «لن اقول شيئا وان فصلت راسى عن جسدى» . ثم قالت وهى تنهض من مكانها ، استعدادا للانصراف :

– لست ادرى ماذا تقصدين . ان هذا امر غير طيب !

ولم تستطع المدرسة التحكم فى نفسها لما هو اكثر من ذلك فانفجرت تقهقه بصوت عال فيما تميل براسها ، تارة الى اليمين واخرى الى اليسار وتفرك يديها فى حبور . ثم قالت :

– يا عزيزتى . . ان قضايا قلبك واضحة تماما للعيان .

ثم نهضت على عجل لتجذب كتفى كلافا ، ثم مالت اليها ، ومضت تقول :

– اننى امزح معك . ولا داعى للخوف منى . اننى مدرسة روسية وليس اكثر من ذلك . أو ليس ضروريا للمرء ان يعيش ؟ كما انه ليس من الضرورى تعليم الشر للآخرين ، حتى فى ظل السلطة الالمانية .

وكان ثمة من يطرق الباب بقوة .

واذ تركت المدرسة كلافا ، توجهت بسرعة نحو الباب تفتحه بعض الشىء ، لتهتف فى فرحة عبرت عنها بصوت خافت قائلة :

– مارفا . . .

ودلفت الى الغرفة امراة فارعة القامة متينة البنية ، على راسها منديل ابيض لدرجة تعشى الأبصار ، لفحت الشمس قدميها اللتين علاهما الغبار تحمل صرة ملابس تحت ابطها ، لتنظر الى كلافا فى دهشة . وبعد ان القت عليها التحية ، توجهت بقولها الى المدرسة وقد كشفت ابتسامتها عن أسنان قوية :

– نعيش متجاورين ومع ذلك فلم آت سوى اليوم لزيارتك.

– ما اسمك ؟ كلافا . . سوف اصحبك الى أحد الفصول لتنتقى لنفسك كتابا . لكن ارجو انتظارى حيث سرعان ما سوف افرغ من امورى .

وعادت يكاتيرينا بافلوفنا لتتساءل وقد اعتراها الاضطراب :

– ماذا ؟ فيم الأمر ؟

جلست مارفا ، وقد غطت عينيها بيديها الكبيرتين اللتين لفحتهما الشمس وترك العمل آثاره عليهما ، وظهر غضن يتسم بالمرارة على زاويتى شفتيها اللتين ما تزالان تعبران عن الشباب . ثم رفعت يديها عن عينيها لتقول بالاوكرانية :

– لست أدرى مـا اذا كان على ان افرح أم احزن ! لقد جاء يزورنى شاب من نجع بوجوريلى ليقول أن زوجى جوردى كورنينكو ما يزال على قيد الحياة ، أسير لدى الالمان .

ثم رفعت راسها لتمضى قائلة بالروسية :

– حدثينى يايكاتيرينا ، ماذا على أن افعل . ان الاسرى ومن ضمنهم زوجى ، يعملون فى بوجوريلى ، ،يقطعون اشجـار الغابات

لصالح الجيش الالمانى تحت حراسة يبلغ تعدادها ما يقرب مـن الستين . ويسكن هؤلاء عنابر خشبية ، لا يستطيعون الفكاك منها ، بينما يتساقطون جوعا . ما العمل ؟ هل يتوجب على الذهـاب الى هناك ؟

–وكيف استطاع ابلاغك بذلك ؟

– ثمة ماجورون يعملون معهم . وقد استطاع زوجى أن يهمس الى احدهم بذلك . كما ويجهل الالمان أنه من هذه المنطقة .

وطفقت يكاتيرينا بافلوفنا تنظر اليها فى صمت بعض الوقت . فقد كان ذلك احد المواقف التى يتعذر فيهـا على الآخرين اسداء النصيحة . فقد كان يمكن ان تقضى مارفا اسبوعا باكمله فى نجع بوجوريلى دون ان تستطيع رؤية زوجها . وعلى افضل الاحوال فقد كانا يستطيعان رؤية كل منهما الاخر من بعيد ، مما يمكن أن يضيف الى آلام زوجها الجسدية آلاما معنوية لا تطاق . علاوة على انها لن تكون قادرة حتى على ارسال الاطعمة اليه . اذ يمكن للمرء تخيل النظام الذى يسود العنابر الخشبية التى يقيم فيها الاسرى !

– فلتفعلى ما يمليه عليه ضميرك .

وسالتها مارفا :

– وماذا انت فاعلة ، اذا ما كنت مكانى ؟

وتنهدت يكاتيرينا بافلوفنا قائلة :

– لقد كان يمكننى الذهاب . . . وسوف تذهبين انت كذلك ، لكن ما جدوى الذهاب ؟

– اننى ارى كذلك انه لا جدوى من الذهاب . . . ولذا فلن اذهب .

ودفنت مارفا عينيها فيما بين راحتيها .

– وهل يعرف كورنى تيخونوفيتش ذلك ؟

– نعم ، ويقول أنه اذا ما صرحوا له ومجموعته بشن الهجوم لاستطاع اطلاق سراحهم .

واعترت امارات القلق والاسى وجه يكاتيرينا بافلوفنا ، حيث كانت تعلم استحالة استخدام المجموعة الفدائية التى يقودها كورنى تيخونوفيتش فى مثل هذه الامور الفرعية .

فقد اصبحت خطوط مواصلات الجيش الالمانى تقع عبر مقاطعة

فوروشيلوفجراد فى الايام الاخيرة . كما وراح ايفان فيدوروفيتش يضع كل ما كان تحت تصرفه ، وكل ما قام باعداده بغية كسب معركة ستالينجراد التى تدور رحاها على مسافة المئات والمئات من الكيلومترات بعيدا عن الدونباس . فقد صارت كل الفصائل الفدائية التى جرى تقسيمها الى مجموعات صغيرة تمارس نشاطها على الطرق الكبيرة وثلاثة من خطوط السكك الحديدية التى تفضى الى الشرق والجنوب . وعلى الرغم من كل ذلك كانت القوات ما تزال قليلة التعداد . ولذا فقد قام ايفان فيدوروفيتش الذى لم يكن يعرف محل اقامته اليوم سوى يكاتيرينا بافلوفنا ومارفا كورنينكو ومراسلة الاتصال كروتوفا ، بتوجيه نشاط كل لجان المناطق للعمل السرى بالمقاطعة الى عمليات التخريب على الطرق .

وقد كانت يكاتيرينا بافلوفنا تعلم كل ذلك ، حيث كانت فى يديها الصغيرتين الدقيقتين كل خيوط الاتصال شلة واحدة ينبعث منها خيط واحد الى ايفان فيدوروفيتش . وكان ذلك ما جعلها تعزف عن الاجابة على عرض كورنى تيخونوفيتش غير المباشر الذى نقلته مارفا اليها ، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم مدى رغبة مارفا فى تحقيق ذلك الحلم .

وكانت يكاتيرينا بافلوفنا على اتصال غير مباشر بزوجها ، اى عن طريق مارفا ، وبالادق شقة مارفا . غير ان يكاتيرينا بافلوفنا لم تسالها عن ايفان فيدوروفيتش ، حيث كانت تعرف انه ما دامت مارفا لم تذكر عنه شيئا فان ذلك يعنى عدم وجود اخبار لديها .

وقفت كلافا الى جوار صوان الكتب . . . وقد كانت كتبا طالعتها فى سنوات طفولتها مما جعل الاسى يتسلل الى قلبها ازاء لقائها بتلك الفترة من عمرها . كما واعتراها الحزن حيال المقاعد الدراسية الخالية . وكانت اشعة شمس الغروب تتساقط مائلة على نافذة الغرفة ، تحمل فى طياتها ابتسامة الوداع التى تشوبها امارات الحزن والنضوج . ولم تشغل كلافا نفسها كثيرا بموضوع كيف تعرفت المدرسة عليها ، حيث كان الاسى يستولى على مشاعرها عموما .

— هل اخترت شيئا ما ؟

تساءلت المدرسة فيما تنظر الى كلافا وقد ضمت شفتيها

واضحتى المعالم ، تكسو عينيها الرماديتين امارات حزن دفين ، ثم مضت تقول :

— ها هى الحياة ، وكما ترين ، تمارس عادتها فى التفرقة بين الناس ، تترك بصماتها قاسية فى بعض الاحيان . اننا نعيش فى شبابنا نمطا يجعلنا لا نعرف ما قدر لنا أن نعيشه ، وعلى مدى الحياة . ولو كنت أستطيع العودة الى سنك ، لكان فى امكانى معرفة ذلك . بيد أننى غير قادرة حتى على أن انقل اليك ذلك . يجب عليك تعريفى بصديقك اذا ما حضر اليك .

ولم تكن يكاتيرينا بافلوفنا لتستطيع ان تتوقع وصول فانيا زيمنوخوف الى نيجنى الكسندروفسك فى تلك اللحظة ، يحمل رسالة خاصة بها ، اى بيكاتيرينا بافلوفنا .

وقد ابلغها فانيا بالشفرة — تقرير حول نشاط لجنة المنطقة للعمل السرى فى كراسنودون . اما يكاتيرينا بافلوفنا فقد أبلغته شفويا بطلب ايفان فيدوروفيتش حول ضرورة تحويل منظمة كراسنودون للعمل السرى الى فصيل فدائى كفاحى وحول تشديد الاعمال التخريبية على الطرق .

وذكرت يكاتيرينا بافلوفنا وهى تحاول تمعن النظر فى ذلك الشاب الجالس قبالتها وكانما تود معرفة ما يكمن وراء نظارته :

— فلتبلغه بأن الاحوال على الجبهة ليست سيئة . ربما يحين الوقت وفى القريب العاجل ، لنحمل فيه السلاح .

كان فانيا يجلس فى صمت ، يتململ فى غير انقطاع يسوى شعره الذى تهدل على جبينه . ويا ليت تلك المرأة عرفت المشاعر التى كانت تتأجج فى اعماقه !

ومع ذلك فقد راحا يتحادثان فى نهاية الامر . اذ قالت يكاتيرينا بافلوفنا حين أبلغها فانيا بالنبأ المحزن حول استشهاد ماتفى كوستيفيتش وفالكو :

— كم هى رهيبة مصائر البشر . ان عائلة اوستابتشوك ، وكما تعلم ، تعيش فى الاراضى التى يحتلها الالمان ، وقد تكون تواجه العذاب ، أو ترحل من مكان لاخر زوجته برفقة اطفالهما يحدوها أمل اللقاء به فى يوم من الايام ، فى حين أنه فارق الحياة . وهاك

قصـــة اخرى . . . لقـــد كانت فى ضيافتى امراة . . . – وراحت يكاتيرينا بافلوفنا تتحدث عن مارفا وزوجها – انه قريب منها ومع ذلك فهى غير قادرة على رؤيته . ولربما يسوقونه فيما بعد الى مكان ناء ، ليهلك هناك . – ثم مضت تقول وقد كورت قبضة يدها القوية الصغيرة :

– كم هو الاعدام عقوبة عادلة لاولئك . . . لهم !

وقال فانيا وقد تذكر فيتيا بيتروف ، لتجتاحه فكرة مبهمة :

– ان بوجوريلى نجع يقع غير بعيد عنا وحيث يسكن احـــد اصدقائنا . هل الاسرى كثيرون ؟ هل الحراسة مشددة ؟

وفجاة تساءلت :

– حاول ان تتذكر من الذى بقى على قيد الحياة من رجالنا فى كراسنودون ، ويستطيع تنظيم الآخرين .

وراح فانيا يستعرض اسماء الرجال .

– ومن بقى من العسكريين بعد حصار او نتيجة لاسباب اخرى ؟

– كثيرون !

فقد تذكر فانيا العسكريين من الجرحى الذين جرى اخفاؤهم فى مساكن المواطنين ، وكان قد عرف من سيريوجكـــا ان ناتاليـــا الكسييفنا تواصل علاجهم سرا .

وذكرت يكاتيرينا بافلوفنا :

– فلتبلغ من بعث بك ضرورة الاتصال بهم واستمالتهم للعمل . فسوف تحتاجونهم قريبا . . . فى القريب العاجل . انكم سوف تكونون فى حاجة الى اشرافهم عليكم انتم الشباب . وانتم قوم جيدون ، الا انهم يفوقونكم خبرة .

واوجز فانيا خطته بصدد استخدام شقة كلافا كمكان للقاء ومركز اتصال «الحرس الفتى» بشباب القرية ، وطلب تقديم العون اليها فى ذلك .

وابتسمت يكاتيرينا بافلوفنا قائلة :

– من الافضل ان تظل على غير علم بحقيقتى . وسوف اظل على صلة صداقة بها .

ولم يطق فانيا صبرا ليتساءل :

– من اين لك معرفتنا ؟

واجابته فيما علت امارات الدهاء وجهها :

– هذا ما لن اقوله لك ابدا ، والا فسوف يعتريك الاضطراب .

جلس فانيا الى جانب كلافا فى احدى غرف منزل ايفـــان نيكانوروفيتش التى خيمت عليها الظلمة الحالكة ، وحيث كانت تنام على حشية منفوشة والدتها التى راحت تعتبره مقربا ومنذ زمن بعيد ، وخاصة بعد الاحداث التى جرت عند محاولة عبور الدونيتس . وسالته كلافا بنبرة تحمل معنى الغيرة :

– ما هى تلك الاسرار التى بينكما ؟

وهمس متسائلا :

– هل تستطيعين اخفاء السر ؟

– وهل هذا سؤال ؟

– فلتقسمى !

– اقسم !

وذكر فانيا :

– لقد ابلغتنى بأن احد رجال كراسنودون يختبئ على مقربة من هنا ، وطلبت اخبار اقاربه بذلك ، ثم تحادثنـــا حول مختلف الامور التى لا اهمية لها .

ثم اضاف بنبرة احتفالية وقد امسك بيدها :

– لقد شكلنا فى كراسنودون تنظيمـــا للشباب للنضال ضد المحتلين . هل ستقبلين الانضمام اليه ؟

– وهل انت احد عضائه ؟

– بالطبع .

ومالت بشفتيها الدافئتين الى اذنه لتهمس اليه :

– اقبل بطبيعة الحال ! او لست حبيبتك ؟ هل تفهم ذلك؟

– لك ان تؤدى فى حضرتى ، ذلك القسم الذى كتبته واوليج ، والذى احفظه عن ظهر قلب . وينبغى عليك كذلك حفظه .

– سوف احفظه . ان قدرى فى يديك !

– يجب عليك تجميع الشباب هنا وفى النجوع المجاورة .

– سوف افعل كل شىء تامرنى به .

– يجب عدم النظر الى مثل هذه الامور باستخفاف ورعونة .

فالفشل يعنى الموت .

– وموتك أيضا ؟

– نعم .

– اننى على استعداد للاستشهاد معك .

– لكننى اظن أنه من الأفضل ان نبقى على قيد الحياة .

– طبعا . . . هذا أفضل كثيرا .

– لقد أعد اصدقائى فراشا للنوم عندهم ، ويجب الذهاب ، والا كان ذلك أمرا لا يتسم باللياقة .

وهمست كلافا اليه بشفتيها الدافئتين :

– لا داعى للذهاب . اننى ملك لك . . . هل تفهم . . . اننى لك . . .

الفصل الخامس والاربعون

فى اواخر سبتمبر كانت منظمة «الحرس الفتى» قد اصبحت فى منطقة منجم بيرفومايسك و«فوسميدوميكى» ومنطقة المنجم رقم ١ واحدة من اكبر المجموعات الشبابية للعمل السرى . وقد انضم اليها الشباب من تلاميذ الصفوف النهائية بمدرسة بيرفومايسك ، والذين كانوا يتسمون بالحيوية والنشاط .

وقد ملك شباب الحى جهاز راديو خاصا بهم ، وراحوا يصدرون بلاغات مكتب الاعلام السوفييتى والمنشورات التى كانوا يكتبونها بالحبر الصينى على اوراق الكراسات المدرسية .

وكم من المتاعب واجهها الشباب بسبب ذلك الجهاز ! فقد وجدوا فى مختلف المنازل المهجورة أجهزة راديو قديمة القى بها اصحابها منذ زمن بعيد فى سلال المهملات . وكان بوريس جلافان مولدافى هرب مع والديه من بيساربيا ليستقر فى كراسنودون ، يدعوه رفاقه «اليكو» ، قد شرع يصنع من بقايا تلك الأجهزة جهازا جيدا . غير أن الشرطى ألقى القبض عليه بالشارع حيث كان يحمل معه بعض قطع تلك الأجهزة .

وراح جلافان يتحدث الرومانية فى مركز الشرطة ، ويصيح قائلا أن الشرطة تحرم أسرته من موارد العيش ، حيث انها صادرت

كل ما كان يستخدمه لصناعة الولاعات ، ويقسم بانه سوف يتقدم بالشكوى الى قيادة الجيش الرومانى ، فقد كان ثمة من يسكن كراسنودون من الضباط الرومانيين الذين يشرفون على عبور الوحدات . وعثرت الشرطة فى مسكن جلافان على بعض الولاعات التى كان قد فرغ من تصنيعها ، وبعض آخر كان فى طور التصنيع ، مما كان يعنى حقيقة ادعاءاته ، مما جعل الشرطة تطلق سراحه بوصفه ممثلا لدولة حليفة ، وان كانت قد صادرت أجزاء أجهزة الراديو التى عثرت عليها معه . غير أنه استطاع رغما عن ذلك ، صناعة جهاز راديو من تلك القطع التى بقيت فى حوزته .

كان شباب بيرفومايسك على اتصال بالنجوع المجاورة عن طريق ليليا ايفانيخينا التى استعادت صحتها بعد عودتها من الأسر ، وانخرطت فى العمل مدرسة فى نجع سوخودول . كما وكانوا المصدر الرئيسى للأسلحة التى صاروا يجمعونها من البرارى يصلون فى رحلات بحثهم عنها الى ساحات المعارك ، قريبا من نهر الدونيتس ، ويسرقونها من الجنود والضباط الألمان والرومانيين الذين أقاموا عندهم . وكانت الأسلحة التى فاضت عن حاجة تسليح كل الشباب أعضاء المنظمة من أبناء حى بيرفومايسك ، قد سلمت الى سيريوجكا تيولينين الذى أودعها مكانا لا يعرفه غيره وسوى عدد قليل من زملائه . وقد كانت أوليانا جروموفا وأناتولى بوبوف القلب النابض للمنظمة فى حى بيرفومايسك ، شان أوليج كوشيفوى وايفان توركينيتش فى كل منظمة «الحرس الفتى» ، وكوليا سومسكوى وتوسيا يليسيينكو فى تنظيم مستعمرة كراسنودون .

وكانت القيادة قد عينت أناتولى بوبوف قائدا لمجموعة بيرفومايسك . وقد غرس روح المسؤولية والانضباط والجسارة الحاسمة فى شباب حى بيرفومايسك ليتجلى ذلك فى كل ما يقومون به ، مما كان نتيجة لخبراته التنظيمية التى اكتسبها من نشاطه فى الكومسومول ، وبما اتسم به من جدية .

اما أوليانا جروموفا فقد كانت صاحبة كل المبادرات ، ومؤلفة غالبية النداءات والمنشورات التى يصدرها شباب الحى . ولم تستطع سوى اليوم فقط ادراك مدى النفوذ المعنوى البالغ

الذى كانت تتمتع به بين صديقاتها ورفاقها ، والذى اكتسبته منذ تلك الأيام التى كانت تذهب فيها الى المدرسة معهم ، وتتنزه فى البرارى ، وتغنى وترقص ، كما يفعل الجميع ، وتلقى الاشعـــار وترشد الطلائع . . تلك الفتاة فارعة القامة ممشوقة القد ذات الضفيرتين السوداوين الكثتين والعينين اللتين تتألقان تارة ، وتتسم بالغموض والابهام تارة أخرى ، والأقرب فى طباعها الى الصمت ، غير الميالة الى الانفعال ، وان كانت تجمع أحيانا بين المتناقضات .

ويتسم الشباب بكونه يحكم على الاشياء استنادا الى نظرته الأولى ، دون خبرة او دراسة ، يلجأ فى ذلك الى اول ما تصادفه من حركة او كلمة لتكون معياره فى الحكم على الخيـــال والواقع ، على المؤنس والمزعج ، على الكذب والصدق . ولم تكن ثمـــة صديقات مقربات لدى اوليانا فى الآونة الأخيرة ، حيث أصبحت تعتنى بالجميع توليهن اهتمامها ورعايتها وتقسو فى طلباتها منهن جميعا وبدرجة واحدة . بيد ان الفتيات كن ما يكدن يتبادلن معها كلمتين او ثلاث حتى يتأكدن ان روحها ليست خاوية الى ذلـــك الحد ، بل هى عامرة بزخر هائل من المشاعر والأفكار والآراء بشأن مختلف الناس ، ووجهات النظر حيالهم ، يمكن أن يعلن عن نفسه وبقوة مباغتة ، ولاسيما اذا ما استحق المرء ذلك الجزاء المعنوى . وتلك طبيعة بعض الناس الذين تعتبر مجرد علاقتهم الطبيعيـــة المتزنة شيئا أشبـــه بالجزاء والمكافأة . وماذا يمكن للمرء أن يقول اذن ، اذا ما افصحت مثل تلك النفوس عن نفسهـــا ولو للحظة واحدة ؟

كما وكانت علاقاتها بالفتيان تتسم بنفس الدرجة من الحياد . فلم يكن هناك من يستطيع القول انها تصادقه اكثر من الآخرين ، بل ولم يكن قادرا حتى على تصور ذلك فيما بين نفسه . وقد كان كل منهم يدرك من نظراتها وتصرفاتها انه ليس حيال فتاة معتزة بنفسها ، مبالغة فى تقدير شخصيتها ، ومن ثم فتاة ضحلة المشاعر ، بل ازاء عالم كامل زاخر بالمشاعر الفياضة التى لم تجد بعد من يستطيع احتوائها ، وغير القادرة على التسرب قطرة قطرة . ولذا

فقد غدت أوليانا محط اهتمام ورعاية الفتيان غير المغرضة والتى قل من الفتيات من كن يتمتعن بها .

وقد كان هذا بالذات ما جعلها طبيعية فى تصرفاتها ، تلقائية ، تستولى على مشاعر صديقاتها ورفاقها فى حى بيرفومايسك لدرجة بدت غير ملحوظة حتى بالنسبة لها ، وليس فقط لأنها كانت ذكية واسعة الاطلاع .

اجتمعت الفتيات عند الشقيقتين ايفانيخينـــا ، وحيث رحن يجتمعن كثيرا ، ينهمكن فى اعداد الأكياس التى تحتوى على مواد التضميد الخاصة بالجرحى .

وكانت ليوبكا قد استولت على مواد التضميـــد من ضباط وجنود الخدمات الطبية الألمانية الذين قضوا ليلتهم فى ضيافتها ، ودون ان تعير ذلك اهتماما . بيد ان أوليانا حين علمت بذلك ، شرعت فى الاستفادة منها على الفور قائلة :

– يجب على كل واحد من شبابنا ان يحمل معه كيسه الخاص، حيث انهم ، على خلافنا ، سوف يخوضون المعارك .

ومن المؤكد انها كانت تعرف بعض المعلومات حين قالت :

– سرعان ما سوف يحين الوقت الذى نخوض فيه جميعـــا القتال . وعندئذ سوف نكون فى حاجة ماسة الى الكثير ، والكثير جدا من هذه المواد .

ولم تكن اوليانا فى حقيقة الأمر قد ذكرت اكثر مما تحدث عنه فانيا زيمنوخوف فى اجتماع القيادة . غير انها لم تكن تعرف مصدر تلك المعلومات .

وهكذا انكبت كافة الفتيات على اعداد تلك الأكياس بما فيهن شورا دوبروفينا الطالبة التى كانت تعد فى سالف الأزمان شخصا لا تهوى النشاط الاجتماعى ، فردية فى سلوكها ونمط حياتها ، والتى انضمت الى «الحرس الفتى» حبا فى مايا بيجليفانوفا . وقد كانت ساشا بونداريفا النحيفة تقول :

– هل تعلمن أيتها الفتيات بمن نحن أشبه ؟ اننا أشبـــه بالعجائز اللاتى كن يعملن ذات يوم فى المناجم ، وخرجن الى التقاعد او ليعشن فى كنف اولادهن . وكم شاهدت الكثيرات منهـــن فى ضيافة جدتى . لقد كن يحضرن الواحدة تلو الأخرى ، ليتجمعن

لديها ، فتمارس احداهن اشغال الابرة ، بينما تنشغل الأخرى فى حياكة الملابس ، وتساعد الثالثة جدتى فى تقشير البطاطس، وتنهمك الرابعة فى نشر أوراق الكوتشينة . . . وكلهن صامتات ، ويرحن يجلسن على هذا النحو فى سكون لا يقطعه سوى صوت احداهن تقف قائلة : «هيه أيتها العجائز . . . هل لنا أن نمرح !» وتضحك الجدات فى حياء ، لترد اخرى قائلة : «ليس من العيب أن نمرح !» وهنا تبدأ عملية المشاركة . لتلقى كل منهن بخمسة عشر كوبيكا . وما أن تمر لحظات حتى تكون المائدة قد فرشت . وهل تعتقدن أنهن كن فى حاجة الى الكثير من الطعام والشراب ؟ لقد كانت كل منهن تتناول كاسا واحدة صغيرة جدا ، ليجلسن فيما بعد وقد سندت كل منهن خدها الى يدها ويشرعن فى الغناء : «يا خاتمى الذهبى . . .» .

وضحكت الفتيات ، لتقول احداهن :

– يا لها من فتاة هذه الساشكا* ! أو يجب علينا كذلك الغناء شأن تلك العجائز ؟

بيد أنه وفى تلك اللحظة دخلت نينا ايفانتسوفا ، والتى كان يندر فى الفترة الأخيرة حضورها الى الفتيات لمجرد زيارتهن وقضاء الوقت . فقد أصبحت تجئ دائما كمراسلة اتصال لدى القيادة ، التى لم تكن الفتيات يعرفن مكانها أو أعضاءها . وكن يتصورن كلمة «قيادة» تعبيرا عن أناس كبار يجلسون فى مكان ما تحت الأرض ، ربما فى ملاجئ غطت الخرائط جدرانها ، مدججين بالسلاح قادرين على الاتصال لاسلكيا بالجبهة بل وربما بموسكو . وها هى نينا ايفانتسوفا تجئ لتدعو أوليانا الى الخارج ، ولتدرك الفتيات انها جاءت تحمل مهمة جديدة . وقد عادت أوليانا بالفعل بعد بضع لحظات لتقول أنه يتحتم عليها الانصراف لبعض الوقت . ثم دعت مايا بيجليفانوفا لتبلغها بضرورة توزيع الأكياس الخاصة على المنازل ، واحضار سبعة أو ثمانية منها اليها لأن الأمر قد يحتاجها فى القريب العاجل .

---

* ساشكا أو ساشا اسم التدليل لألكسندرا والكسندر ، والمقصود هنا الكسندرا بوندارينا . **المترجم** .

ولم يمض أكثر من ربع ساعة حتى كانت أوليانا ترفع جونلتها لتخطو بساقها اليمنى ثم باليسرى عبر السياج الفاصل بين حديقتها وحديقة آل بوبوف ، حيث كان يفترش عشبها الجاف فى ظل شجرة كرز قديمة أناتولى فى طاقيته الأوزبيكية التى غطت شعره الأشقر ، وفيتيا بيتروف ذو الشعر الداكن يواجه كل منهما الآخر ، يفحصان خريطة المنطقة .

وتعلقت انظارهما بأوليانا القادمة من بعيد ، وحين اقتربت منهما ، مضى كل منهما يمعن النظر فى الخريطة يحادث الآخر فى صمت . وفى غير اكتراث أمسكت أوليانا براحة يدها ضفيرتها التى سقطت على صدرها لتلقى بها الى ما وراء ظهرها ، ثم أمسكت بذيل ثوبها وهوت الى الأرض تجلس الى جوارهما القرفصاء ، وقد ضمت ركبتيها وراحت بدورها تنظر الى الخريطة .

وقد كانت العملية التى استدعى أناتولى وفيكتور أوليانا من أجلها أول تجربة حقيقية لشباب بيرفومايسك ، فقد قررت قيادة «الحرس الفتى» أن توكل اليهم مهمة تحرير الأسرى العسكريين الذين كانوا يعملون فى قطع الأخشاب قريبا من نجع بوجوريلى .

وتساءل أناتولى :

– هل يعيش الحراس بعيدا عنهم ؟

– ان الحراس يعيشون على الجانب الأيمن من الطريق ، داخل النجع . وهل تذكر العنبر الخشبى المنعزل الكائن الى جوار الدغلة ؟ لقد كان ثمة مستودع فى ذلك المكان قبل ذلك . كما وأن هذا المكان ليس سوى الواح من الخشب أحيطت بها الأسلاك الشائكة ، ولا يتولى حراستها غير حارس واحد . . واعتقد انه ليست هناك حاجة للقضاء على الحراس ، حيث من الأفضل أن تكتفى بالحارس المناوب .

ثم مضى فيكتور يقول فى غضب :

– وذلك أمر مؤسف حقا . . اذ ينبغى القضاء عليهم جميعا .

طرأت كثير من التغيرات على فيكتور بيتروف منذ استشهاد أبيه . كان يفترش الأرض فى سترته المخملية داكنة اللون ، يرتو

بعينيه الجسورتين فى كآبة الى اناتولى فيما يقضم قليلا من العشب ، ثم ذكر فى نبرة يشوبها الأسف :

– ان ثمة قفلا يحكم اغلاق باب المعتقل ليلا ، بيد انه يمكننا اصطحاب جلافان ومعه ما يلزم من ادوات ، حيث يستطيع فتحه دونما ضجة .

ورفع اناتولى عينيه الى اوليانا متسائلا :

– ما رايك فى هذا ؟

وعلى الرغم من ان اوليانا لم تحضر بداية حديثهما ، فقد فطنت على الفور الى سبب سخط فيكتور ، استنادا الى ادراكها الفورى للأمور ، والذى تعود الجميع عليه منذ بدء نشاطهم المشترك . واجابت بصوت هادئ نابع من الأعماق :

– اننى افهم ما يوده فيكتور على افضل نحو ؛ اذ تجتاحنى كذلك رغبة القضاء على الحراس . بيد اننا لم ننضج بعد لمثل هذه العمليات .

وذكر اناتولى :

– اننى اؤيد ذلك . ينبغى القيام بأبسط الأمور وبما يفضى الى غايتنا باقصر الطرق .

وفى مساء اليوم التالى دلف الشباب فرادى الى داخل الغابة المجاورة لنجع بوجوريلى على شاطئ الدونيتس . وكانوا خمسة . . . اناتولى وفيكتور ورفاقهما منذ سنى الدراسة فولوديا راجوزين وجينيا شيبيليف الذى كان اصغرهم عمرا ، وبوريس جلافان . وقد كانوا جميعا مسلحين بالمسدسات . كما وكان فيكتور يحمل خنجرا ورثه عن ابيه ، والذى كان يحمله دائما فى حزامه تحت سترته المخملية . اما بوريس جلافان فقد كان يحمل معه كماشة ومقصا للمعادن ومفكا .

كانت احدى امسيات الخريف بما تتميز به فى المناطق الجنوبية، ذات طقس معتدل ، يغيب فيها القمر عن السماء . وافترش الشباب اسفل المنحدر الأيمن لشاطئ النهر ، فيما كانت تتمايل فوقهم ، الشجيرات التى عمر بها المكان حتى مياه النهر التى كانت تتلألأ وتنساب فى غير جلبة ، لا يعلو خريرها سوى هناك بعيدا عند اجزاء الشاطئ الناتئة التى كانت تعترض طريقها ، او حين تجذب

فروع شجرة صفصاف لتجرها معها ، ثم تتركها بعد بضعة أمتار . كما وكان الضباب الفضى الكثيف يحتوى الشاطئ المنخفض الآخر للنهر .

ولبث الجميع ينتظرون منتصف الليل حين تجرى عملية تغيير المناوبين .

هكذا كانت تلك الليلة الخريفية ، رائعة مبهمة ، بغلالتها الضبابية الفضية التى احتوت ما وراء النهر ، وخرير المياه الذى تعالى كصوت طفل يرضع ثدى أمه ، مما جعل كلا من الفتيان غير قادر على التخلص من ذلك الشعور الذى يجتاحه . . . او ينبغى عليهم حقيقة الابتعاد عن ذلك النهر وهذا الخرير وخوض القتال ضد الحارس الألمانى ، وتجاوز تلك الأسوار والأسلاك الشائكة ؟ . . انهم يعرفون ذلك النهر وخرير مياهه ، بينما يتوجب عليهم مبارحة ما هو غير غريب ، للاندماج فيما سوف يفعلونه لأول مرة فى حياتهم ، فيما لا يتصور اى منهم عنه اى شىء . بيد ان كلا منهم لم يفاتح الآخر فيما تجتاحه من مشاعر ، ليتبادلوا جميعا الأحاديث حول أشياء مشتركة مختلفة .

وتساءل اناتولى :

– هل تذكر يا فيتيا ذلك المكان ؟ انه نفس المكان . . او ليس ذلك حقا ؟

– كلا . . ان ذلك المكان ابعد قليلا ، حيث يتعالى خرير المياه . لقد اضطررت الى السباحة انطلاقا من الشاطئ الآخر . . وكم كنت أخشى ان تجرفك المياه بعيدا . . الى الدوامة .

وذكر اناتولى وقد ندت عن شفتيه ابتسامة طفولية :

– الآن . . وقد قضى الأمر أستطيع القول ان الرهبة انتابتنى لدرجة مخيفة . لقد كدت اغرق .

وتدخل فى الحديث فولوديا راجوزين ، وهو شاب فارع القامة ، نحيف البنية ، جذب مقدمة كابه الطويلة الى عينيه لتغطى كل ملامح وجهه :

– لقد بارحت وجينكا موشكوف الغابة و . . . ويا للشيطان ، فلم أكن قد تعلمت السباحة بعد ! كلا . . لو لم يلق جينكا

موشكوف بنفسه الى المياه بكامل ثيابه فلم تكن لتستطيع الخروج من المياه .

واعترف فيكتور :

– نعم ان ذلك لم يكن باستطاعتى . ما هى اخبار موشكوف ؟

واجاب راجوزين :

– لا شىء . انه ملازم ثان بسلاح المشاة ! وتلك اصغر رتب القادة . انهم هناك يستشهدون بالجبهة جماعات !

واتكأ بوريا جلافان على مرفقه ليقول وقد لمعت اسنانه فى ظلمة الليل :

– كلا . . نهركم . . نهر الدونيتس هادئ ، أما نهرنا دنيستر ، فيا له من نهر ! سريع ، جميل ! وهناك ان سقط المرء فى مياهه ، فلا مفر من هلاكه . ثم اية غابات هذه ؟ اننا نسكن السهوب كذلك ، الا أن غاباتنا الواقعة على ضفاف الدنيستر تمتد الى ما بعد مرمى البصر ، كثيفة هائلة ، ترتفع قمم اشجارها ، تناطح السحب !

وذكر جينيا شيبيليف :

– كان من الأفضل لك ان تبقى هناك ! وكم هو امر يثير السخط ان لا يستطيع الناس الاقامة حيث يريدون . يا لها من حروب تلك ! والا كان كل امرئ يستطيع العيش حيثما اتفق له . فاذا ما كان يود الاقامة بالبرازيل ، فعلى الرحب والسعة ! أما عن نفسى فاننى افضل الاقامة فى الدونباس ، حيث يروقنى ذلك كثيرا !

وعلق جلافان على ذلك ضاحكا فى هدوء :

– كلا . . فلتسمعنى . . اذا ما كنت تريد العيش حقا فى هدوء ، عليك ان تزورنا فى وقت السلم ، بمدينة سموروكا ، ويكون افضل من ذلك ان جئت لزيارة قريتى ذات الاسم التاريخى الرنان . . «مدينة القيصر» . تعال لزيارتنا ، ويجب الا تقنع يومها بوظيفة غير ذات قيمة . ولتحذر كذلك وظيفة المفوض بشأن شراء الحيوانات . فلتحضر الينا كرئيس لجمعية الصليب الأحمر المحلية ، حيث لن يتعدى نطاق عملك سوى الاشراف على أحد صالونات الحلاقة ؛ قصارى القول لن تجد عملا لك سوى احتساء الخمر .

ثم ضحك جلافان قائلا :

– اقسم أنها وظيفة يحلم بها كل امرئ !

وذكر اناتولى فى رقة :

– أخفض صوتك . كم اغرقت فى مرحك !

وتعالى من جديد الى اسماع الفتيان خرير المياه بعيدا اشبه بصوت ذلك الطفل الذى يرضع ثدى امه .

وذكر اناتولى :

– لقد آن الأوان !

وسرعان ما بارحتهم تلك المشاعر البسيطة الغريزية ، والسعادة الفياضة التى كانت تجتاحهم منذ لحظات .

ودلفوا الى الدغلة التى كانت تقع خلف العنبر الخشبى ، يتوغلون فى المساحات كثيفة الشجيرات منها ، ويتجنبون الأماكن المكشوفة ، يتقدمهم فيكتور الذى كان يعرف كل شبر فى ذلك المكان . ثم افترشوا الأرض برهة من الزمن يصغون الى ما حولهم . كان الصمت المطبق يخيم على المكان . واشار فيكتور اليهم ، ليشرع الجميع فى الزحف الى الأمام .

وها هم يرقدون عند اطراف الدغلة ، حيث يواجههم العنبر الخشبى ، ذو سقف تدرج الى جانب واحد ، تلفه الظلمة ، ليس فيه ما يدعو الى الغرابة ،الا فى كونه يضم بين جدرانه اسرى مما جعله يتسم بالكآبة والرعب . وكان ذلك العنبر واقعا وسط ارض مكشوفة ، وظهر الى يساره شبح الحارس فى حلكة الظلام ، كما وظهر الى يسار الحارس الطريق الذى يتصدر مساكن النجع التى لم تكن تبلغها الأنظار من مكانهم .

كان باقيا من الزمن حوالى نصف ساعة ، وحتى يحين موعد تغيير المناوبين ، ليظلوا خلالها ممددين فى اماكنهم ، وقد تعلقت انظارهم بشبح الحارس الذى لم يفارق مكانه .

واخيرا تعالى دبيب خطوات الى اسماعهم من جهة اليسار ، راح يتنامى شيئا فشيئا ، ليدركوا دون أن تقع انظارهم على شىء ، أن شخصين وصلا الى الطريق ليصبحا قريبين منهم . لقد كانا الحارس المناوب ومرافقه . واقترب شبحاهما من الحارس الذى ما ان سمع وقع خطواتهما حتى استوى واقفا «انتباه» .

وترامى الى الأسماع امر صدر بالألمانية ، وقرقعة سلاح ،

ودبيب كعوب تطرق الأرض . وابتعد شبحان ، ليتعالى دبيب خطواتهما من جديد على الطريق الترابى ، بعيدا بعيدا وحتى احتواه صمت الليل .

واستدار اناتولى برأسه بعض الشىء فى اتجاه جينيا شيبيليف ، الا ان الأخير كان قد بدأ الزحف متراجعا الى أعماق الدغلة . فقد كان ينبغى عليه الالتفاف حول النجع واحتلال موقع المراقبة الى جوار منزل الحراس الصغير .

كان الحارس يذرع المكان بمحاذاة السور ذهابا وايابا ، كما الذئب داخل قفصه . كان يسير فى خطوات سريعة ، وقد علق بندقيته الى كتفه ، يفرك راحتيه ، مما يعنى احتمال كونه يشعر بالبرودة ، حيث استيقظ من نومه منذ قليل .

ومد اناتولى يده يتحسس يد فيكتور التى وجدها ساخنة دونما سبب مما دفعه الى أن يشد عليها فى هدوء .

وهمس اليه ، وقد دنا بشفتيه فجأة من أذنه :

– او ربما نذهب سويا ؟

كانت تلك الجملة تعبيرا عن ضعف الصديق ازاء صديقه . الا ان فيكتور هز رأسه علامة الرفض وتقدم زاحفا .

وصار اناتولى وبوريس جلافان وفولوديا راجوزين يتابعونه والحارس بانظارهم فى آن واحد وقد حبسوا انفاسهم .وكانوا يتصورون اى حفيف ينبعث عن حركة فيكتور وكانما هو ايذان بالكشف عن موقعه . بيد أن فيكتور كان يبتعد عنهم شيئا فشيئا ، ليمتزج لون سترته بلون الأرض التى يزحف عليها ، وليغدو بعيدا عن الأنظار ، والأسماع كذلك . وكانوا يتصورون من لحظة لاخرى وقوع ما كانوا فى انتظاره ، وركزوا انظارهم على شبح الحارس ، الا انه كان يواصل سيره ذهابا وايابا بمحاذاة السور ، دون ان يحدث شىء ؛ وخيل اليهم ان حقبة طويلة من الزمن قد انقضت وان الفجر سرعان ما سوف يلوح .

وشان العابنا ايام الطفولة ، التى يكاد النسيان يلفها ، وحيث كنا فى سن الطلائع ، نحاول خداع الرفيق الذى يقوم بدور الحارس ، كان فيكتور لا يزحف على الأرض ، بل ينقل الذراع ثم الساق ، ثم الذراع مرة أخرى لتعقبه الساق ثانية فى مرونة

فائقة . وحين كان الحارس يسير فى اتجاهه كان يتوقف عن الحركة ، ليواصلها حين يلتفت الحارس الى الاتجاه الآخر متمالكا حواسه حتى لا يسرع الحركة .

كان وجيب قلبه يتعالى سريعا ، بيد أن الخوف لم يجد مكانا فى أعماقه . فقد أرغم نفسه وقبل أن يتحرك من مكانه عند طرف الدغلة ، على التفكير فى أبيه ، حتى يحفز مشاعره المرة تلو الأخرى على الثأر والانتقام . بيد انه نسى كل ذلك فى هذه اللحظة ، حيث تركزت كل حواسه حول الوصول خلسة حتى مكان الحارس .

وهكذا ظل يزحف حتى بلغ زاوية الأسلاك الشائكة ، المحيطة بالعنبر الخشبى ، ثم جمد مكانه . وبلغ الحارس الزاوية المقابلة ، واستدار عائدا من جديد . وتناول فيكتور خنجره ليمسك به بين أسنانه وزحف فى اتجاه الحارس . وكانت عيناه قد تعودتا على ظلمة الليل لدرجة انه لحظ الأسلاك الدقيقة الممتدة بالمكان ، وخيل اليه أن الحارس قد تعود كذلك على الظلمة وسوف يكتشف وجوده حين يغدو قريبا منه . بيد أن الحارس بلغ فجوة فى الأسلاك الشائكة ، ليتوقف عن السير . وكان فيكتور يعرف أن هذا المكان ليس مجرد فجوة فى سور ، بل أحصنة خشبية لفت بأسلاك شائكة . ولبث فيكتور مكانه فى توتر ، غير أن الحارس وضع يديه فى جيبى سرواله دون أن يرفع البندقية عن كتفه ، وجمد مكانه دون حراك ، منكس الرأس قليلا يواجه ظهره العنبر الخشبى .

وفجأة تخيل فيكتور ما تخيله أصدقاؤه الذين كانوا ينتظرونه فى لهفة . . فقد تخيل أن حقبة طويلة من الزمن قد انقضت ، وان الفجر سرعان ما سوف يلوح . وبدأ فيكتور يزحف فى اتجاه الحارس دون أن يفكر فى كون هذا الأخير سوف يراه بسهولة ويسمعه كذلك حيث أن وقع خطواته كان يتناهى الى الآذان . لم تكن المسافة التى تفصل فيما بينهما تزيد عن المترين ، بينما ظل الحارس جامدا مكانه ، ويداه فى جيبى سرواله وبندقيته تتدلى من كتفه ، يميل بعض الشىء برأسه التى تعلوها طاقية عسكرية . ويصعب على فيكتور تحديد ما اذا كان قد واصل زحفه أم هب يهاجمه ، لكن الذى يذكره هو أنه انتفض واقفا الى يسار الحارس

ليطعنه بخنجره . وفتح الحارس عينيه واستدار برأسه سريعا ، ليراه فيكتور المانيا نحيفا تقدم به العمر كثيرا ، غير حليق الذقن ، كشفت عيناه امارات رعب جنونى ، لم يسعفه الوقت لاخراج يديه من جيبيه ولتند عنه صيحة مبحوحة غريبة :

– آه . . .

فقد طعنه فيكتور بكل قوة فى رقبته الى اليسار من ذقنه ، ليغمد خنجره وحتى مقبضه فيما خلف الترقوة . وسقط الألمانى ، ليجثم فيكتور فوقه ، رغبة منه فى طعنه ثانية الا أن الرجفة كانت قد تملكت الألمانى ، ليندفع الدم غزيرا من فمه . وانتحى فيكتور جانبا ليلقى بالخنجر الغارق فى الدماء بعيدا . وفجأة شعر بقىء شديد جعله يسد فمه بكمه الأيسر حتى لا يتعالى صوته .

وفى تلك اللحظة وجد أناتولى الى جواره يمد اليه يده بالخنجر هامسا اليه :

– امسك ، كى لا نبقى أثرا .

وأخفى فيكتور الخنجر ، بينما امسك به راجوزين من تحت ابطه قائلا :

– الى الطريق !

وتناول فيكتور مسدسه وهرول برفقة راجوزين نحو الطريق حيث كمنا مكانهما هناك .

واذ خاف بوريا جلافان التعثر فى الأسلاك الشائكة فى جنح الظلام الحالك ، راح وبمهارة وسرعة المحترف يفتح لنفسه ثغرة بين عمودين امتدت الأسلاك الشائكة بينهما . واندفع برفقة أناتولى الى باب العنبر الخشبى ، حيث تحسس بيديه المزلاج ليجده ترباسا حديديا عاديا يحكم اغلاقه قفل ، دس فيه مفكه محطما اياه ، لينفرج الباب عن تيار من الهواء الساخن كريه الرائحة . واستيقظ الأسرى ، وشعر أناتولى وبوريا باناس تتحرك الى اليسار واليمين والأمام ، ليتساءل عن الأمر أحدهم وعيناه ما تزالتان مثقلتين بالنعاس ، فى نبرة مشوبة بالخوف .

– أيها الرفاق . . .

لم يستطع اناتولى أن يقول أكثر من هذا حيث اعترته مشاعر الاضطراب .

وارتفعت بعض الأصوات تعبر عن فرحتها ، الا ان أصواتا اخرى اجبرتها على الصمت .

وتملك أناتولى زمام نفسه ليقول :

– فلتفروا عن طريق الغابة نحو النهر ، حيث عليكم أن تتفرقوا هناك يمنة ويسرة . هل يوجد هنا من يدعى جوردى كورنينكو ؟

واجابه صوت مبحوح :

– نعم !

– فلتذهب الى بيتك حيث تنتظرك زوجتك !

وخرج أناتولى من العنبر ولبث واقفا الى جوار بابه .

وتعالت الأصوات تقول :

– شكرا . . يا عزيزى . . شكرا يا محررينا !

وهرول من تقدم من الأسرى نحو الأحصنة الخشبية الملفوفة بالأسلاك الشائكة ، بيد أن جلافان اعترض طريقهم موجها اياهم الى الثغرة التى فتحها فى الأسلاك الشائكة . وفجأة شعر أناتولى بمن يمسك كتفيه وهو يهمس اليه فى سعادة بالغة متسائلا :

– توليا ؟ . . توليا ؟

واعترت الرجفة أناتولى ليدنو بوجهه قريبا من وجه ذلك الشخص الذى أمسك به ، ليقول فى غير دهشة :

– موشكوف جينيا !

وذكر موشكوف :

– لقد عرفتك من صوتك .

– انتظر . . فسوف نذهب سوية .

كان الفجر ما يزال بعيدا ، حين انفصل عن الآخرين ، أناتولى وفيكتور وجينيا موشكوف حافى القدمين رث الثياب ، ملبد الشعر ، ليجلسوا فى قاع وهدة ضيقة عامرة بالشجيرات ، بغية الراحة .

وخيل للجميع أعجوبة هائلة انقاذ موشكوف الذى كان مادة لحديثهم لحظة كانوا على شاطىء الدونيتس . وقد كان أناتولى بادى السرور على الرغم من ارهاقه ، راح يتذكر لحظات العملية التى كللت بالنجاح تارة ، ليتفرغ لاغراق المديح على فيكتور

وجلافان والآخرين تارة أخرى ، ليعود تارة ثالثة الى اعـــلان دهشته بصدد اطلاق سراح موشكوف . وكان فيكتور يجيب على ما يوجه اليه من اسئلة فى تجهم ، وباقتضاب ، بينما كان موشكوف يلتزم الصمت ، مما دعا أناتولى فى نهاية الأمر الى السكوت كذلك . وكانت الوهدة غارقة فى هدوء تام وظلمة حالكة .

وفجأة تعالت السنة اللهب بعيدة فيما وراء الدونيتس ،لتبدد ظلمة مساحات هائلة بالسماء ، لتبدو كستار مخملى يغطى ذلـــك المكان الذى اندلعت به الحرائق . كما وبلغت أضواؤها الوهدة التى كانوا يجلسون بها .

وسأل فيكتور بصوت خافت :

– أين هذا الحريق ؟

واجاب أناتولى بعد برهة من الصمت :

– الى جوار جوندوروفسكايا .

ثم أضاف بصوت خافت :

– انه سيريوجكـــا ... يحرق الأجران . وهو يفعـــل ذلك كل ليلة .

وفجأة تدخل فيكتور قائلا بكل قوة :

– لقد رحنا نتلقى العلم بالمدارس ، لتتفتح امامنا آفـــاق الحياة ناصعة واسعة ، بينما تضطرنا الظروف اليوم الى ممارسة مثل هذه الأمور . ولا مفر امامنا !

وذكر جينيا موشكوف بصوت مبحوح وقد دفن وجهه فيما بين راحتيه وارتمى على الأعشاب الجافة :

– أيها الأخوة ! أو حقا أكون حرا طليقا ؟ أيها الأصدقاء !

الفصل السادس والاربعون

وأخيرا حان الوقت الذى بدا فيه الجميع بما فيهم المشردون بعرباتهم يخافون التنقل عبر الطرق العامة والترابية ، ليتخـــذوا الممرات والبرارى طريقا لهم حيث صارت الألغام تنفجر فى كثير من الأحيان تحت عجلات عربات النقل والركوب وصهاريج الوقود .

وكانت الأخبار حول حادث كبير فى مكان ما على الطريق بين تل ماتفييف ونوفوشاختينسك بالجنوب ما تكاد تنتشر ، حتـــى تعقبها أخرى حول تدمير قول بأكمله من عربات البنزيـــن على الطريق بين ستاروبيلسك وبيلوفودسك فى الشمال .

وفجأة تطايرت فى الهواء أجزاء كوبرى من الأسمنت المسلح كان يصل بين شاطئ نهير كريبينكا والكائن على طريق رئيسى يفضى الى ستالينجراد ، دون أن يدرى أحد كيف حدث ذلك ، فقد كان الكوبرى يقع فى منطقة بوكوفو – بلاتوفو الآهلة بالسكان ، وفى موقع شدد الألمان حراستهم عليه . وبعد بضعة أيام تهاوى الى النهر كوبرى ضخم للسكك الحديدية قريبا من كامينســـك على طريق فورونيج – روستوف . وقد كان انفجار ذلك الكوبرى الذى تحرسه فصيلة من رماة الرشاشات الألمان تدعمها أربعة مدافع خفيفة ، قويا لدرجة أن دويـــه بلـــغ أسماع سكان كراسنودون .

وتوارد الى ذهن أوليج أن المنظمتين الحزبيتين للعمل السرى فى كراسنودون وكامينسك قد تعاونتا حتما فى تفجير الكوبرى . وقد خمن ذلك لأن بولينا جيورجيفنا طالبته على لسان ليوتيكوف قبل يوم انفجار الكوبرى بيومين بتوفير مراسل اتصال كى يبعث به الى كامينسك .

وكان أوليج قد رشح أوليا ايفانتسوفا .

وغابت أوليا طيلة أسبوعين كاملين عن العمل فى فلك «الحرس الفتى» ، على الرغم من أن أوليج علم من نينا أنهـــا جاءت الى كراسنودون عدة مرات لترحل عنها ثانية . وها هى تظهر من جديد فى بيت أوليج بعد انفجار الكوبرى بيومين ، وشرعت تمارس فى تواضع مهامها اليومية كمراسلة اتصال لدى قيـــادة «الحرس الفتى» . وكان أوليج يدرك استحالة سؤالها عن أى شىء ، بيد أنه كان يجد نفسه أحيانا يتأمل وجهها فى فضول واهتمام . الا أنها بدت هادئة طبيعية صموتة وكأنها لا تلحظ شيئا مما يجرى حولها . وقد بدا وجهها جامد التعبيرات ، حاد القسمات غير المتناسقة التى يندر أن تضيئها الابتسامة ، وكأنه قد خلق على هذا النحو خصيصا لحفظ الأسرار .

وفى هذا الحين كانت تعمل على طرق المنطقة وبعيدا عنها ثلاث مجموعات قتالية دائمة من شباب «الحرس الفتى» .

كانت المجموعة الأولى تعمل على الطريق الكائن بين كراسنودون وكامينسك ، تهاجم فى غالبية الأوقات عربات الركوب التى يستقلها الضباط الألمان ، ويراسها فيكتور بيتروف . وتعمل المجموعة الثانية على الطرق الموصلة بين فوروشيلوفجراد . وليخايا تهاجم صهاريج نقل البنزين ، تقتل السائقين والحراس وتسكب البنزين على الأرض ، ويراسها ملازم الجيش الأحمر جينيا موشكوف الذى جرى اطلاق سراحه .

أما المجموعة الثالثة فيراسها تيولينين وتعمل فى كافة الاتجاهات . كانت تتصدى للوريات الألمانية التى تنقل الأسلحة والمواد الغذائية والملابس ، وتتصيد الجنود الألمان الفرادى فى الطرق وداخل المدينة نفسها .

كان المقاتلون يتجمعون عند آداء المهمة ويتفرقون بعدها كل فى طريق ، كما وكان كل منهم يخفى سلاحه فى مكان ما بالبرارى .

وقد كان موشكوف الذى اطلق سراحه مكسبا جديدا «للحرس الفتى» بوصفه قائدا ذا خبرة .

وكان موشكوف الذى شفى من كل الآلام التى لحقت به ، متين البنية ، بدين الجسد ، يسير فى تثاقل ، يحيط برقبته شال من الصوف جعله يبدو غاية فى البدانة ، ينتعل حذاء شتويا طويلا كان قد انتزعه من قدمى الشرطى الذى قتل أثناء القضاء على مركز الشرطة فى نجع شيفيريفكا . كما وكان يبدو صارم الطباع على الرغم من انه كان غاية فى الطيبة فى قرارة نفسه . وقد علمته حياته بالجيش ضبط النفس والانضباط ، ولاسيما بعد قبوله عضوا بالحزب اثناء وجوده بالجبهة .

وقد التحق بالعمل برادا فى الورشة الميكانيكية التابعة للادارة رقم ١٠ ، وجرى ضمه الى قيادة «الحرس الفتى» بناء على اقتراح ليوتيكوف .

وعلى الرغم من أن «الحرس الفتى» كانت قد قامت بعدد من العمليات الكبيرة التى تلفت الأنظار ، لم يكن ثمة ما يدل على أن الألمان قلقون بصدد وجود مثل هذه المنظمة .

وشأن حركة المياه الدفينة فى أعماق الأرض والتى لا تلحظها العين ، والتى تسفر عن نبوع الأنهار والجداول ، كانت عمليات الحرس الفتى تندمج على نحو غير ملحوظ فى خضم تحركات الملايين الذين يسعون نحو العودة الى حياتهم الطبيعية التى كانوا يعيشونها قبيل الاحتلال الألمانى . وفى خضم العمليات الكبيرة والصغيرة لم يلحظ الألمان أثرا يذكر لمنظمة «الحرس الفتى» .

كان خط الجبهة قد غدا بعيدا اليوم ، لدرجة أن الألمان المقيمين فى كراسنودون تصوروا تلك المدينة وكأنها محافظة نائية عن محافظات الرايخ الألمانى . ولو لم تكن عمليات الفدائيين قد انتشرت تعلن عن وجودهم على مختلف الطرق ، لكان يمكن للمرء أن يتصور أبدية «النظام الجديد» هناك !

ساد الهدوء جبهات الحرب ، فقد لبث الجميع فى الشرق والغرب ، فى الشمال والجنوب يصيخ السمع الى ما يجرى هناك حيث دارت رحى معركة ستالينجراد العظيمة . ولم تحمل البلاغات اليومية المقتضبة عن سير المعارك فى منطقتى ستالينجراد وموزدوك أية أنباء جديدة طوال شهرى سبتمبر ثم اكتوبر ، حتى صار المرء يتخيل الوضع وكأنما سوف يظل هكذا الى الأبد .

وتوقف تماما تدفق الأسرى الذين كانوا يقودونهم من الشرق نحو الغرب عبر كراسنودون . بيد أن الوحدات الألمانية والرومانية وقوافل العربات والمدافع والدبابات كانت ما تزال تتحرك فى طريقها نحو الشرق ، حيث تضيع فى غياهبه ، لتتوالى غيرها اخرى جديدة . اما فى كراسنودون نفسها فقد كان الجنود والضباط الألمان والرومانيون يقيمون ليل نهار ، مما بدا الأمر معه وكأنه سوف يظل دائما .

وتوقف فى البيت الذى تقطن به عائلتا كوروستيليف وكوشيفوى ولعدة أيام ضابط ألمانى ، طيار ماهر عائد الى الجبهة بعد اجازة قضاها للاستشفاء بعد الاصابة ، فى آن واحد مع ضابط رومانى برفقة خادمه ، شاب مرح يتحدث الروسية ويسرق كل ما تقع عليه يداه ، حتى الثوم واطارات الصور العائلية .

كان الضابط الرومانى فى زيه الأخضر الفاتح ، ورباط عنقه

وعلامات كتفيه الذهبية المضفرة ، قصير القامة ، أسود الشارب والعينين جاحظهما ، نشيط الحركة التى بلغت حد مقدمة أنفه كذلك . واذ استقر فى غرفة الخال كوليا ، كان يقضى طوال يومه بعيدا عنها ، يذرع شوارع المدينة فى ملابسه المدنية ، يتفقد المناجم والمؤسسات والوحدات العسكرية .

وسأل الخال كوليا الخادم الرومانى الذى ارتبط به بعلاقة اشبه بعلاقة الأصدقاء :

– لماذا يسير سيدك فى ملابسه المدنية ؟

ونفخ الخادم المرح وجنتيه ثم طرقهما براحتيه لينفخ الهواء بصوت عال كما يفعلون فى السيرك ثم قال :

– جاسوس ! . . .

وبعد ذلك لم يكن الخال كوليا يستطيع ابدا العثور على غليونه .

أما الطيار الألمانى الماهر فقد أقام فى الغرفة الكبيرة ، لتنتقل يلينا نيكولايفنا الى غرفة الجدة ، بينما انتقل أوليج الى العنبر الخشبى الملحق بالمنزل . وكان هذا الضابط رجلا أبيض البشرة ، ضخم الجثة ، أحمر العينين ، تغطى صدره الأوسمة التى نالها فى المعارك التى خاضها فى فرنسا وبالقرب من خاركوف . وقد كان مخمورا حين جاؤوا به من مقر حاكم المدينة ، وظل يلازم مكانه بالمنزل بضعة أيام لأنه راح يواصل الشراب ليل نهار دون أن يفيق من حالته . وقد حاول استمالة الى الشراب كل من بالمنزل ، عدا الرمانيين اللذين لم يكن يعيرهما أدنى اهتمام ، وحيث كان غير قادر على البقاء دقيقة واحدة دون سمير . وشرع يؤكد بلغة المانية – روسية لا تطاق انه سوف يقتل البلاشفة ثم الانجليز ثم الأمريكيين ، ليعود الحال على أفضل ما يرام كما كان فيما قبل . بيد أن مشاعر الكآبة اجتاحته فى أواخر أيام اقامته .

ورفع سبابته الحمراء قائلا بروسية ركيكة :

– ستالينجراد ! ها . . ! ان البلاشفة يطلقون النار . . بم ! وقتلونى !

وترقرقت الدموع الكئيبة فى عينيه الحمراوين .

وقبيل الرحيل أفاق لنفسه قليلا لدرجة سمعت له باطلاق

نيران مسدسه على الدجاج فى الأفنية . ولم يجد مكانا لتخبئتها فيه ، ليقيده واضعا اياها عند مدخل المنزل وحتى يفرغ من جمع متاعه .

واستدعى الخادم الرومانى أوليج ، ثم نفخ وجنتيه وأطبق عليهما براحتيه ، ليطلق الهواء المحبوس فيهما بصوت عال كما يفعلون فى السيرك ثم قال فى دعة :

– يا لها من حضارة !

وهكذا فقد أوليج مطواته الى الأبد .

تشكلت فى كراسنودون فى ظل «النظام الجديد» «صفوة المجتمع» كما الحال فى هايدلبرج أو بادن بادن ، وهى سلسلة طويلة من الألقاب والمراكز الاجتماعية . وقد كان يتصدر هذه السلسلة الضابط بريوكنر ومساعده بالدر والملازم شفيديه رئيس الادارة . ولما كان هذا الملازم قد تعود على العمل فى جو المؤسسات الألمانية الذى يتسم بالدقة والنظافة ، فلم يلحظ كيف قام بنفسه بتغيير شؤون الادارات الفرعية التابعة للمؤسسة لتعمل وفق نمط فريد ، وبما يتفق وحيرته التى أفصح عنها فى حديثه مع باراكوف . حيث أنه ما دام هناك فى حقيقة الأمر عجز فى الآلات والعمال والمعدات ووسائل النقل والأخشاب اللازمة للمناجم ، فلن تكون هناك مناجم ، وبالتالى لن يوجد الفحم فى مثل هذه الأحوال . ولذا فقد راح يقوم بمهام وظيفته على خير ما يرام فى كونه يراجع كل صباح ما اذا كان السواس الروس يقدمون الشوفان لخيول الادارة الألمانية ، ويوقع مختلف الأوراق . اما بقية وقته فقد كان يكرسه وبهمة أكبر للاعتناء بدواجنه وخنازيره وأبقاره ، وتنظيم السهرات لكبار رجال الادارة الألمانية .

ويأتى فى المرتبة التالية من حيث الأهمية فيلدنير ، نائب شفيديه والملازم أول شبريك وزوندرفوهرر ساندرز بسروالة القصير ، ثم يعقب هؤلاء سوليكوفسكى رئيس الشرطة ، وستاتسينكو عمدة المدينة الذى كان يتسم بالوقار ، يبدو مخمورا منذ الصباح ، يخطو فى تثاقل فى نفس الساعة من كل يوم ، يحمل مظلته ويسير فى الأوحال متجها نحو عمله بمديرية المدينة ، ليعود منها على نفس النحو ، وكأنما يمارس عملا فى حقيقة الأمر .

ويجئ في نهاية هذه السلسلة من الألقاب والمراكز المساعد فينبونج وجنوده ، والذين كانوا يقومون بكل شيء في واقع الأمر .

وكم بدت مقفرة كئيبة تلك المدينة الحبيبة ، مركز المناجم حين هطلت أمطار الخريف . فقد غمرتها الأوحال ، وافتقرت الى الوقود والكهرباء ، تداعت أسوارها ، واجتثت نباتات حدائقها ، وتحطمت نوافذ منازلها المهجورة التي سلب الجنود العابرون ما بها من متاع ، وصادر كبار رجال الادارة الألمانية أثاثها لاستخدامه في مساكنهم . ولم يعد سكان المدينة يعرفون بعضهم البعض اذا ما تقابلوا صدفة بشوارعها ، حيث هزلت أجسادهم ورثت ثيابهم ، وترك الشقاء بصماته واضحة على معالمهم . وكان يحدث حتى مع أبسط الناس ، أن يتوقف عن سيره بالشارع أو يستيقظ من نومه في الفراش ليفكر . . «أحقيقة ذلك الذي يجري ؟ أو ليس ذلك حلما ؟ أو لا يكون ذلك مجرد أوهام ؟ أو ربما يكون الجنون قد الم بي ؟»

ولم يكن هناك سوى منشور يشاهده المرء فجأة معلقا على عمود التلغراف أو على جدار أحد المباني ، صغيرا بللته الأمطار ، يشعل نيران أعماقه بالكلمة الملتهبة «ستالينجراد» ، ودوى انفجار ما ، كما يحدث عادة ، على الطريق ، يؤكد له ولغيره «أن ذلك ليس حلما أو وهما ، بل حقيقة واقعة ؛ وان رحى النضال ما تزال دائرة !»

وفي ذات يوم من تلك الأيام التي هطلت فيها أمطار الخريف شديدة تواكبها الرياح العاصفة ، وصلت ليوبكا من فوروشيلوفجراد على متن عربة ركوب رمادية اللون ، هبط منها ملازم شاب ليفتح بابها مفسحا لها الطريق ومؤديا لها التحية العسكرية ، في حين هرولت تحمل حقيبتها في يدها نحو مدخل بيتها الحبيب .

وفي هذه المرة لم تتحمل أمها يفروسينيا ميرونوفنا ، لتقول لها حين خلدا الى فراشهما :

– يجب أن تكوني حذرة يا بنيتي ! هل تعرفين ما يقوله بسطاء الناس ؟ . . يقولون «انك تختلطين بالألمان كثيرا . . .».

– هل يقول الناس ذلك ؟ هذا حسن . . ان ذلك يناسبني جدا يا ماما . .

وضحكت ليوبكا ، ثم غطت في نومها وقد تكورت تحت الغطاء .

وفي صباح اليوم التالي وحين علم فانيا زيمنوخوف بوصولها ، انطلق يجري يقطع الأرض الخلاء الفسيحة التي تفصل ما بين شارعه وحي «فوسميدوميكي» ، ليصل الى بيت آل شيفتسوف وقد غطى الوحل ساقيه حتى ركبتيه ، ويدلف على هذا النحو الى غرفة المعيشة دون أن يطرق الباب .

كانت ليوبكا تجلس وحدها تمسك باحدى يديها مرآة صغيرة ، فيما تصفف بالأخرى شعرها الذي تهدل تارة ، وتمسح ردائها المنزلي الأخضر حول قدها تارة أخرى ، تذرع أرض الغرفة حافية القدمين ، تقول ما يعني :

– آه ليوبكا . . يا ليوبكا ! ما الذي يجعلك موضع اعجاب الصبية الآخرين ؟ انني لا أفهم سر ذلك . . . بم تتميزين عن الأخريات ؟ ان ثغرك واسع ، وعينيك صغيرتان ، وقسمات وجهك غير متناسقة ، وقوامك . . . كلا . . ان قوامك وللحقيقة لا بأس به ! واذا ما تمعنا في بحث الأمر . . . هل بذلت جهدا من أجل استقطاب اعجابهم ؟ كلا . . لم تفعلي ذلك ! وهل يمكن الجري وراء الصبية ! بالطبع لا . . وذلك أمر لا أفهمه .

واذ راحت تميل برأسها أمام المرآة تارة الى اليمين ، واخرى الى اليسار ، وتهز شعرها ، أخذت تضرب الأرض بقدميها العاريتين ، فيما تدندن :

ليوبكا . . يا صغيرتي
ليوبكا . . يا عزيزتي

ورأى فانيا الذي كان يراقبها في هدوء بالغ ، أنه قد آن الأوان ليطلق سعلته حتى تنتبه الى وجوده .

ولم تعتر الدهشة ليوبكا ، بل على العكس فقد علت قسمات وجهها أمارات التحدي ، وهبطت يدها بالمرآة في بطء ، ثم استدارت نحو فانيا ، وزرت عينيها الزرقاوين وأطلقت ضحكة رنانة .

وذكر فانيا بصوته الأجش :

– ان مصير سيريوجكا ليفاشوف قد غدا واضحا تماما ، اذ يتحتم عليه احضار حذاء الملكة * كي يرضى اهواءك .

وذكرت ليوبكا فى شيء من الارتباك :

– هل تعلم يا فانيا مدى غرابة الأمر ؟ اننى احبك اكثر مما احب هذا السيريوجكا !

فقال فانيا بدون ارتباك :

– هذا بينما انا ضعيف البصر ، ولذا اقول لك حقيقة ، أننى اتخيل كافة الفتيات ذوات وجه واحد ، ولا استطيع تمييزهن سوى باصواتهن . وتعجبنى الفتيات ذوات الصوت المنخفض كصوت الشماس فى الكنيسة ؛ بينما يذكرنى صوتك بالأجراس . هل هناك احد بالمنزل ؟

– كلا . . فقد ذهبت امى لزيارة آل ايفانتسوف .

– فلنجلس اذن ، ولتلقى بالمرآة جانبا حتى لا تثيرى اعصابى . ليوبوف جريجوريفنا ! هل توارد الى خاطرك اثناء مشاغلك اليومية ، ان الذكرى الخامسة والعشرين لثورة اكتوبر العظمى سوف تحل قريبا ؟

– بالطبع !

ندت هذه الاجابة عن ليوبكا التى وللحقيقة كانت قد نسيت هذا الأمر .

ومال فانيا نحوها ليهمس اليها بشيء ما .

– آه . . كم هذا رائع ! يا لكم من ابطال . . كم كان التوفيق حليفكم !

وطبعت قبلة على شفتى فانيا وضعت فيها كل ما اجتاح اعماقها ، ليعتريه الارتباك لدرجة ان نظارته كادت تسقط الى الأرض .

. . . – ماما ! هل تأتت لك ذات يوم صباغة اشياء الالبسة ؟

وتأملت الأم ليوبكا فى دهشة .

---

* من قصة نيكولاى جوجول «سهرة عيد الميلاد» . المترجم .

– لنقل على سبيل المثال . . . كانت لديك بلوزة بيضاء ، وراودتك الرغبة فى ان تصبح . . . زرقاء .

– طبعا . . تأتى لى ذلك يا بنيتى .

– وهل حدث وقمت بصباغتها باللون الأحمر ؟

– ان الأمر سيان . . فاللون لا يهم .

– فلتعلمينى ذلك يا امى ، فقد أود صباغة بعض الملابس لنفسى .

. . . وسأل فولوديا أوسموخين عمته ليتفينوفا التى كانت تعيش مع أولادها غير بعيد عن بيت آل أوسموخين :

– هل حدث أيتها العمة ماروسيا وقمت بصباغة بعض الثياب ؟

– نعم يا فولوديا . حدث ذلك .

– هل يمكنك أن تساعدينى فى صباغة اثنين او ثلاثة من اغطية الوسائد باللون الأحمر ؟

– قد تترك الصبغة آثارها على وجنتيك واذنيك !

– اننى لن أنام عليها ، حيث سوف أضعها بالنهار فقط لمجرد الجمال .

. . . وتحدث جورا أروتيونيانتس يخاطب والده :

– بابا . . لقد تأكدت من أنك تستطيع صناعة الألوان ليس فقط لصباغة الخشب بل وللمعادن كذلك . فهل تستطيع صباغة ملاءة سرير باللون الأحمر ؟ ان رجال العمل السرى هم الذين يطلبون منى ذلك . انهم يطلبون ملاءة حمراء فبم تجيبهم ؟

واجاب الأب فى شيء من التخوف :

– ان الصباغة أمر هين . . اما الملاءة . . . ؟ وماذا تقول أمك ؟

– عليكما فى نهاية الأمر ان تحددا من منكما رب العائلة ؟ انت ام امى ؟ عليكما ذلك فى نهاية الأمر ! والأمر واضح . . مطلوب ملاءة حمراء قانية ! . .

لم تتحدث فاليا بورتس الى سيريوجكا بشأن الرسالة التى بعث بها اليها ، كما ولم يفاتحها بدوره فى ذلك الأمر . بيد أنهما صارا ومنذ ذلك اليوم صديقين حميمين لا ينفصل أحدهما عن الآخر . كان كل منهما يسعى نحو صديقه منذ ان تشرق الشمس ؛ وكان

سيريوجكا فى اغلب الاحيان هو الذى يسارع بالذهاب الى شارع ديريفيانايا ، وحيث لم يتعود اهل البيت فقط على ظهور ذلك الشاب النحيف ذى الشعر الأجعد حافى القدمين حتى فى ايام اكتوبر الخريفية الممطرة ، بل واحبوه ايضا . . فقد احبته ماريا اندرييفنا وكذلك ليوسيا الصغيرة التى اعجبها كثيرا ، وعلى الرغم من انه كان يلتزم الصمت فى حضورهما وفى كثير من الاحيان .

وقد سالته ليوسيا الصغيرة ذات يوم :

– لماذا تكره انتعال الاحذية الى هذه الدرجة ؟

واجاب سيريوجكا ضاحكا :

– يسهل الرقص لعارى القدمين !

بيد انه راح بعد ذلك يزورهم وقد انتعل حذاءه ، الذى لم يسعفه الوقت لاصلاحه .

واثناء ذلك الحين الذى ملكت فيه صباغة الاقمشة كل حواس اعضاء «الحرس الفتى» ، كان ينبغى على سيريوجكا وفاليا توزيع المنشورات للمرة الرابعة ، فى احدى الحفلات السينمائية التى كانت تجرى فى مبنى المسرح الصيفى .

وقد كان المسرح الصيفى ، والذى كان يسمى فيما سبق بنادى لينين ، كائنا بمبنى خشبى عال ، ذى خشبة مكشوفة دائما ، لا تدعو الى الراحة ، تغطيها فى ايام الحفلات قطعة من القماش . وكان المتفرجون يجلسون على ارائك طويلة دفنت قوائمها فى الأرض ، يرتفع مستوى الصفوف الخلفية منها . وكان يجرى بهذا المسرح بعد احتلال الألمان للمدينة عرض الأفلام الألمانية ، وغالبيتها من الأفلام التسجيلية العسكرية ، كما وكانت تقدم الفرق الفنية المتجولة فيه عروضها التى تتضمن العاب السيرك فى غالبيتها . ولم تكن مقاعد المسرح مرقمة ، واسعار التذاكر واحدة ، مما كان يجعل احتلال المقعد الأفضل امرا مرهونا بقوة ومهارة المتفرج .

جلست فاليا كعادتها فى الجهة الأخرى من المسرح بالصفوف الخلفية ، فيما بقى سيريوجكا الى جوار المدخل قريبا من الصفوف الأمامية . وفى تلك اللحظة التى اطفئت فيها الأنوار ، وراح المتفرجون يقتتلون من أجل المقاعد قاما بالقاء المنشورات على الجمهور .

وتعالت الصيحات والتأوهات ، والتقط الجالسون المنشورات . والتقى سيريوجكا بفاليا عند مكانهما المألوف الى جوار العمود الرابع بعد خشبة المسرح والذى يستند اليه سقف المبنى . وكان المتفرجون وكالعادة اكثر عددا من المقاعد الموجودة . ولبث سيريوجكا وفاليا يقفان وسط المتفرجين فى الممر . وحين بدا الضوء الأزرق ينبعث من كشك العرض فى اتجاه الشاشة لمس سيريوجكا بمرفقه مرفق فاليا مشيرا اليها بعينيه نحو يسار الشاشة ، وحيث كان معلقا علم الألمان الفاشيست الأحمر الداكن بدائرته البيضاء وصليبه المعقوف فى الوسط يتدلى مغطيا جزءا كبيرا من المسرح ، يتلاعب به الهواء بعض الشىء .

وهمس سيريوجكا الى فاليا قائلا :

– سوف أعتلى خشبة المسرح ، بينما عليك الانصراف مع المتفرجين ، وصرف انتباه الحارسة بحديث ما . كما وينبغى عليك تعطيلهم ولو لمدة خمس دقائق اذا ما أرادوا كنس القاعة .

واومأت فاليا برأسها فى صمت .

وظهرت على الشاشة فوق عنوان الفيلم الألمانى ترجمة روسية بخط ابيض «العذاب الأول» .

وتساءل سيريوجكا بشىء من الارتباك :

– هل يمكن الذهاب الى بيتك بعد ذلك ؟

واومأت فاليا برأسها علامة الايجاب .

وما كاد الضوء ينطفئ استعدادا لعرض الجزء الأخير حتى ابتعد سيريوجكا عن فاليا ، ليختفى دون أثر وعلى النحو الذى لم يكن ثمة سواه يستطيعه . فلم تند اية حركة فى اى مكان بالممرات التى كانت تغص بالمتفرجين . وكم كانت تود معرفة الكيفية التى يختفى بها هكذا . وصارت فاليا تشق طريقها نحو الباب دون ان يفارق عينيها الباب الصغير المجاور للشاشة ، والذى لم يكن هناك غيره يستطيع سيريوجكا عبره الوصول الى خشبة المسرح خلسة . وانتهى العرض ، واندفع الجمهور فى جلبة نحو الباب ، واضيئت الأنوار ، بينما لم تستطع فاليا رؤية اى شىء .

وغادرت المسرح مع الجمهور لتتوقف الى جوار الباب . وكانت الظلمة والبرد والرطوبة تلف الحديقة العامة ، حيث لم تكن أوراق

الأشجار قد تساقطت جميعها ، لتتلاعب الرياح بما بقى منها ليعلو حفيفها أشبه بالتنهيدة . وها هم آخر المتفرجين يبارحون القاعة ، ولتتقدم فاليا نحو حارسة ، تميل بقامتها وكأنما تبحث عن شيء فى ذلك المكان الذى تسللت اليه أشعة مصابيح قاعة العرض عبر الباب المفتوح .

– أو لم تجدى هنا كيس نقودى ؟

وأجابت حارسة الباب المسنة :

– كيف تسنى لى يا بنيتى أن أجده . لقد غادر الجمهور القاعة توا .

ومالت فاليا وراحت تتحسس بيديها تارة هنا وأخرى هناك القمامة التى داستها أقدام المتفرجين .

– لقد سقط منى حتما فى هذا المكان . لقد تناولت منديلى من جيبى حين خرجت ، ولم أبتعد سوى قليلا حين اكتشفت ضياعه .

وراحت الحارسة تبحث بدورها معها عن الكيس .

وفى ذلك الآن كان سيريوجكا الذى دلف الى خشبة المسرح عبر السور الذى يفصل الأوركسترا عن القاعة ، وليس عن طريق الباب الصغير ، يجذب بكل قواه العلم الألمانى فى محاولة لانتزاعه من مكانه ، الا أنه كان ثمة ما حال دون ذلك . وتمزق العلم على نحو كاد يسقط سيريوجكا معه الى مكان الأوركسترا .

وقد وقف وحيدا على خشبة المسرح فى مواجهة القاعة الخالية ضعيفة الاضاءة ، ذات الابواب المفتوحه على مصاريعها والتى تفضى الى الحديقة العامة ، يلف على مهل العلم الفاشى الكبير طيتين ثم أربع ثم ثمان حتى يتمكن من اخفائه تحت ملابسه .

وتوجه الحارس الذى أغلق كشك العرض من الخارج ، نحو حارسة الباب وفاليا اللتين كانتا تبحثان عن كيس النقود ، تحت الضوء المنبعث من قاعة العرض ، ليقول فى غضب :

– الضوء ! أولا تعرفين جزاء ذلك ! هيا أطفئى الأنوار ، حتى نغلق الأبواب .

واندفعت فاليا نحوه وأمسكت بسترته تتوسل اليه قائلة :

– أرجوك . . لحظة واحدة ! لقد فقدت كيس نقودى . ولن أستطيع البحث عنه . لحظة واحدة .

وذكر الحارس وقد لانت لهجته ، وراح يجيل بناظريه فيما حوله ودون ارادة :

– اين للمرء أن يجده هنا ؟

وفى تلك اللحظة مرق الى جوارهم شاب يغطى رأسه بكاب هبط كثيرا حتى عينيه ، شديد الاكتراث لدرجة شديدة ، نحيف الساقين بحيث لم تكونا تتناسبان مع اكتراثه ، يهرول بعيدا حتى احتوته الظلمة .

وأسعف الوقت فاليا حتى تقول :

– آه . . ياللأسف !

بيد أن الضحك راح يغالبها لتدفن وجهها بين راحتيها ، واندفعت بعيدا عن المسرح وهى تكاد تختنق .

الفصل السابع والاربعون

لم يعد ثمة ما يحول دون نشاط أوليج بعد حديثه الصريح مع أمه ، حيث أصبح كل أفراد البيت وعلى رأسهم أمه يساهمون فى نشاطه ، يقدمون اليه كافة أنواع الدعم .

ولم يكن هناك من يعرف كيف انصهرت فى بوتقة قلب ذلك الشاب ذى الستة عشر ربيعا خلاصة خبرات الأجيال السابقة والمعارف الكامنة فى صفحات الكتب وأقاصيص زوج أمه ، وخاصة ما أوحى به اليوم اليه قائده المباشر فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف ، كيف انصهرت فى قلبه خبراته الشخصية وخبرات رفاقه ، وما وعاه من الفشل والنجاح اللذين أصابا أولى عملياتهم . بيد أن نفوذ أوليج راح يتزايد بين رفاقه شيئا فشيئا مع تزايد نشاط «الحرس الفتى» ؛ وقد شعر بنفسه بذلك .

وقد كان اجتماعيا بطبعه ، محبا للحياة ، غير متكلف لدرجة أنه كان يكره فكرة السيطرة على رفاقه ، وعدم الاهتمام بهم وبآرائهم وخبراتهم . بيد أنه كان يعى مع كل يوم أن نجاح أو فشل نشاطهم يتوقف بالدرجة الأولى على مدى حسن تقديره هو قبل الآخرين ، للمواقف .

كان دائما شعلة من النشاط يتسم بالمرح وبالدقة فى نفس الآن ، وبحسن تقدير الأمور والصرامة ازاء نفسه والآخرين . وقد كانت علامات الصبا تتجلى واضحة فيه حين يتعلق الأمر به وحده ، حيث كان تواقا للصق المنشورات واضرام النار فى الاجران وسرقة الأسلحة وقتل الألمان عند نواصى الشوارع . بيد انـــه كان يعى جسامة المهمة الملقاة على عاتقه ، ولذا فقد راح يستكين للواقع .

كانت تربطه أواصر صداقة بفتاة تكبره سنـــــا ، غاية فى البساطة ، جسورة لا تهاب شيئا ، رومانسية صموتة ، ذات شعر اسمر كث تهدل على كتفيها القويتين المكتنزتين ، وذراعين جميلين لفحتهمـــا الشمس حتى السمـــرة وعينين واسعتين كستنائيتين يعلوهما حاجبان مستديران بما يعنى التحدى والشوق . لقد كانت نينا ايفانتسوفا تعرف مغزى كل نظرة من نظراته ، وكل حركة أو ايماءة ، لتقوم بتنفيذ اية مهمة توكل اليها فى جسارة ودقة ودون اى تردد .

ولقد كانا يستطيعان التحلى بالصمت ساعات بأكملها حين كانا يجلسان متجاورين دون أى شعور بالملل ، فيما ينهمكان تارة فى المنشورات واخرى فى البطاقات المؤقتة لعضوية الكومسومـــــول ، وثالثة فى وضع خريطة لموقع ما . وكانا اذا مـــــا تحدثا عن شىء ارتقيا بنفسيهما عاليا يتصوران امام ناظريهمـــا كل ما استطاعت بلوغه النفس البشرية السامية ، وما تستطيع مخيلة الطفل الوصول اليه . كما وكانا يشعران فى بعض الأحيان بالمرح ليغرقا فى الضحك دونما سبب لذلك ، وليروح أوليج يفرك أنامله كما الصبية الصغار وحتى تنزلق دموعه ؛ أما هى فكانت متحفظة فى ابداء بهجتها التى كانت تتجلى فى هدوء وغموض وكأنما تخفى فى اعماقها شيئا ، وعلى النحو الذى تتسم به الفتيات ، وتشوبه احيانا وفجأة بعض مظاهر الأنوثة .

وذات مرة طلب أوليج فى ارتباك أن يقرأ عليها بعض الأشعار ، لتساله فى دهشة :

– اية اشعار ؟ . . اشعارك ؟

– كلا . . فلتسمعيها . .

وبدأ ينشد وقد زادت تأتأته التى خفت فيما بعد حين تملك روعه فجأة :

فلتنشدى يا صديقتى اغنية الكفاح
ولتتركى الحزن والاسى جانبا
وسرعان ما سوف يجيئونا
تسورنا الحمر الاعزاء . .
سوف يفتحون الابواب ،
ابواب السجون والمعتقلات
سوف تسطع الشمس عالية
تمسح ما علق من دموع بالاهداب
سوف نرفرف رايات الحرية
سوف نعيش عيد العمال
هيا بنا نسعى للانتقام
لارضنا الحبيبة رمز الجمال . .

وتوقف أوليج ليقول فى ارتباك :

– اننى هنا لم انته بعد . . اذ كان يجب اضافة مقطع حول انخراطنا بصفوف الجيش سوية . أو كنت تودين ذلك ؟

– هل كرست هذه الأشعار لى ؟

ثم عادت تسأله وقد تألقت عيناها :

– هل كتبتها من أجلى ؟ لقد أدركت على الفور انها من تأليفك . ولماذا لم تخبرنى قبل ذلك بأنك تنظم الشعر ؟

واجاب فيما ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة ، حيث كان راضيا لكون اشعاره قد حازت اعجابها :

– كنت خجلا . اننى انظم الشعر منذ زمن بعيد ، لكننـــى لا اعرضه على احد . اننى اخجل من فانيا كثيرا ، فهو يجيد نظمه ، بينما انا . . فلا ! – ثم مضى يقول وقد أسعده كثيرا اعترافـــه لنينا بنظمه الشعر :

– اننى اعلم ان الأوزان غير مضبوطة ، كما ان القافية ليست دائما على افضل حال .

وهكذا كانت أحوال أوليج الذى تفتحت مواهبـــه فى ريعان شبابه وحين كانت البلاد تعانى اقسى فترات تاريخها .

وفى السادس من نوفمبر ، قبيل عيد ثورة اكتوبر ، اجتمعت كل قيادة «الحرس الفتى» فى مسكن كوشيفوى بحضور مراسلات الاتصال فاليا بورتس ، ونينا واوليا ايفانتسوفـــا . وكان اوليج قد قرر الاحتفال بهذا اليوم بقبول راديك يوركين عضوا فى الكومسومول .

ولم يكن راديك يوركين قد ظل نفس ذلك الصبى ذا العينين الوديعتين الهادئتين والذى ذكر لجورا اروتيونيانتس آنذاك «لقد تعودت النوم مبكرا» . فقد جرى ضمه الى مجموعة تيولينين القتالية بعد ان شارك فى عملية اعدام فومين ، وساهم فى مهاجمة اللوريات الالمانية ليلا . كان يجلس الى جوار الباب واثقا من نفسه ، ينظر فى هدوء عبر النافذة ، بينما كان اوليج يفتتح الجلسة ، ثم أعقبه تيولينين بالقائه نبذة من سلوكه وخصائله . وكان يشعر فى بعض الأحيان بفضول يجعله يتساءل فيما بين نفسه حول ماهية اولئك الذين يقررون مصيره . وراح ينقل نظراته الهادئة من تحت اهدابه الرمادية الطويلة ، يتمعن فى أعضاء القيادة الذين اتخذوا مقاعدهم حول المائدة الكبيرة التى حفلت بمختلف انواع الطعام . بيد أن ثمة فتاتين ، احداهما شقراء والأخرى سمراء ، راحتا تبتسمان اليـــه فى رقة . ولما كانت هاتان الفتاتان على قدر كبير من الجمال فقد شعر راديك فجأة بمشاعر الارتباك والحيرة تجتاحه ليحول ناظريه عنهما .

وتساءل اوليج :

– هل ثمة من يريد توجيه اسئلة الى الرفيق راديك يوركين ؟

ولم يرد أحد .

وذكر فانيا توركينيتش :

– فليقص علينا تاريخ حياته !

وطلب منه اوليج ان يقص تاريخ حياته .

وينهض راديك يوركين ليقول بصوته الرنان ، فيما كانت نظراته متعلقة بالنافذة كما كان يفعل أيام المدرسة :

– ولدت فى مدينة كراسنودون فى عام الف وتسعمائة وثمانية وعشرين . والتحقت للدراسة بمدرسة جوركى . . . – ولم يكن ثمة ما يستطيع راديك يوركين اضافته الى تاريخ حياته أكثر من ذلك ، الا انه شعر بمدى ضآلة تاريخه ، ليستطرد فى غير ثقة قائلا : وحين وصل الألمان . انقطعت عن الدراسة .

والتزم الجميع الصمت مرة اخرى ليقطعه فانيـــا زيمنوخوف متسائلا :

– أو لم تقم بأى نشاط اجتماعى ؟

وتنهد راديك يوركين فى عمق قائلا :

– كلا . . .

وتساءل فانيا مرة اخرى وقد ركز ناظريه على المائدة :

– هل تعرف واجبات عضو الكومسومول ؟

وذكر راديك يوركين بوضوح :

– ان مهمة عضو الكومسومول تتلخص فى التصـــدى للالمان الفاشيست المحتلين وحتى القضاء على آخر رجل منهم .

وذكر توركينيتش :

– اننى أرى أن الصبى على وعى سياسى جيد .

وهتفت ليوبكا التى كانت تود أن ينتهى كل شىء لراديـــك يوركين على ما يرام ، تقول :

– يجب قبوله بالطبع !

وراح بقية اعضاء القيادة يكررون :

– نعم يجب قبوله . . يجب قبوله .

وسأل اوليج وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ، ورفع يده :

– من يؤيد قبول الرفيق راديك يوركين عضوا بالكومسومول ؟

ورفع الجميع أياديهم .

وذكر اوليج :

– بالاجماع !

ثم نهض مضيفا :

– تعال هنا !

واعترى الشحوب وجه راديك بعض الشىء وتقدم نحو المائدة ليفسح له توركينيتش وأوليانا جروموفا مكانا فيما بينهما وهمـــا يتأملانه فى جدية .

وذكر اوليج :

– راديك ! بتفويض من القيادة أسلمك بطاقة مؤقتة لعضوية الكومسومول . فلتحافظ عليهـــا ، محافظتك على شرفك . وسوف

تقوم بدفع اشتراكات العضوية فى خليتك الخماسية . وحين يعود الجيش الأحمر ، سوف تقوم لجنة الكومسومول بالمنطقة باستبدال بطاقتك المؤقتة بأخرى دائمة .

ومد راديك يده النحيفة التى لفحتها الشمس ليتناول البطاقة . وكانت البطاقة من حجم البطاقات العادية ، صنعت من ورق مقوى يستعمل فى رسم التصميمات والخرائط وطويت الى قسمين مطبوعة على غلافها بأحرف صغيرة جملة : «الموت للمحتلين الألمان» ، وأسفلها قليلا : «اتحاد الشباب الشيوعى اللينينى لعموم الاتحاد السوفييتى» ، ثم أسفل وبحروف اكبر قليلا : «بطاقة مؤقتة لعضوية الكومسومول» ، وفى داخل البطاقة كتب الى اليسار لقب راديك واسمه واسم أبيه وتاريخ ميلاده ، ثم تاريخ انضمامه الى الكومسومول : «٦ نوفمبر ١٩٤٢» ، وتحته عبارة «صرفت من منظمة «الحرس الفتى» للكومسومول بمدينة كراسنودون . السكرتير : كاشوك» . أما الجهة اليمنى فقد قسمت الى اعمدة لتسجيل سداد اشتراكات العضوية .

وذكر راديك بصوت يسمع بالكاد فيما يخفى بطاقته فى جيب سترته الداخلى :

– اننى سوف احملها دائما داخل جيب سترتى الذى سوف احيكه حولها .

وذكر اوليج :

– يمكنك الانصراف .

وقام الجميع بتهنئة راديك يوركين وشد كل منهم على يده .

وخرج راديك الى شارع سادوفايا ، ولم تكن ثمة امطار تتساقط بعد ، الا ان الرياح كانت شديدة والجو باردا . كما وكان المساء قد كان يسدل ستائره . وكان من الواجب على راديك فى تلك الليلة تزعم مجموعة من ثلاثة اشخاص للقيام بمهمة كبيرة بمناسبة العيد . وراح يذرع الشارع قاصدا بيته ، يشعر صدره بملمس بطاقته ، تعلو السعادة والفرح قسمات وجهه . وعند المنحدر المتجه الى المزلقان الثانى ، قريبا من مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة حيث تمركزت اليوم الادارة الزراعية ، رفع راسه قليلا ثم

باعد بين شفتيه ليصدر صفيرا حادا ، لا يستهدف به شيئا سوى ان يعلم الألمان بوجوده فى هذا العالم .

وفى تلك الليلة لم يكن راديك يوركين وحده مكلفا باداء مهمة الاحتفال بالعيد ، بل كان كافة افراد المنظمة تقريبا مشغولين بنفس الشىء .

وذكر اوليج :

– ارجو الا تنسوا . . يجب ان يحضر الى كل منكم فور الانتهاء من آداء مهمته ، عدا شباب بيرفومايسك .

وقد كان شباب بيرفومايسك يحتفلون بعيد ثورة اكتوبر فى مسكن الشقيقتين ايفانيخينا .

ولبث مكانه بالغرفة اوليج وتوركينيتش وفانيا زيمنوخوف ومراسلتا الاتصال نينا واوليا . واعترى الاضطراب وجه اوليج فجاة ، ليقول وقد اشتدت تاتاته :

– ايتها الفتيات . . يا عزيزاتى . . لقد حان الوقت !

وتقدم نحو باب غرفة نيكولاى نيكولايفيتش يطرقه مناديا :

– لقد حان الوقت يا خالة مارينا !

وخرجت مارينا فى معطفها وهى تعقد منديلها حول راسها اثناء السير فى اثر الخال كوليا . كما وخرجت الجدة فيرا ويلينا نيكولايفنا من حجرتهما .

واذ ارتدت مارينا واوليا ونينا ما يقيهن شر البرد غادرن البيت لآداء مهمة الحراسة بالشوارع المجاورة .

ويالها من جسارة مشوبة بالخطورة . . القيام بتلك المهمة فى مثل تلك الساعة من المساء حين كان الناس لم يخلدوا بعد الى النوم ، ولا يزال بعضهم يذرع الشوارع . بيد انه لم يكن من الممكن تفويت مثل هذه المناسبة !

كان المساء قد أسدل كل ستائره ، لتسدل الجدة فيرا بدورها ستائر تعتيم النوافذ واشعلت المصباح . وخرج اوليج الى الفناء فى اثر مارينا التى كانت قد ابتعدت عن المنزل .

– لا أحد . .

وانحنى الخال كوليا ينظر الى الشارع عبر الضلفة العليا للنافذة ، ليجيل النظر فيما حوله ثم ناول اوليج نهاية السلك .

وقام اوليج بتثبيته الى عصا علقها بالسلك الى جوار العمود بحيث لا يمكن تمييزها منفصلة عنه فى عتمة الليل .

كان اوليج وتوركينيتش وفانيا زيمنوخوف يجلسون فى غرفة الخال كوليا حول المكتب كل يمسك فى يده بقلم رصاص ، فيما جلست على الفراش الجدة فيرا مفرودة القامة واضحة القسمات ، ويلينا نيكولايفنا التى مالت بجسدها الى الأمام ، تعلو وجهها امارات السذاجة المشوبة بالرهبة ، وقد تعلقت انظارهما بالمذياع .

ولم يكن هناك سوى الخال كوليا قادرا على ضبط المذياع على الموجة المناسبة بدقة وهدوء وسرعة . وقد فعل ذلك فى نفس اللحظة التى تعالت فيها عاصفة من التصفيق . ولم تساعدهم الضجة والتشويش على سماع بوضوح الصوت الذى كان يعلن :

– ايها الرفاق ! اننا نحتفل اليوم بالذكرى الخامسة والعشرين للثورة السوفييتية فى بلادنا . لقد مرت خمس وعشرون سنة منذ ارساء النظام السوفييتى فى وطننا ، ونقف اليوم على اعتاب السنة السادسة والعشرين من قيام نظامنا السوفييتى . .

وكان توركينيتش بوجهه الرصين الجاد وفانيا الذى انحنى بنظارته قريبا من الكراسة ، يسجلان فى سرعة ما يسمعانه . ولم يكن ذلك يشكل صعوبة لهما ، حيث ان ستالين كان يتحدث على مهل . كان يصمت بعض الوقت ليتعالى صوت الماء الذى كان يفرغه فى كوبه الذى يعيده مرة اخرى الى مكانه . وقد شحذ الجميع اسماعهم فى بادئ الأمر حتى لا تفوتهم اية كلمة تقال . ثم اعتادوا على رتابة الخطاب ، ليدرك وعى كل منهم مدى غرابة بل واستحالة ما يفعلونه .

ولن يدرك ابدا المشاعر التى كانت تجتاح اعماقهم حين كانوا يستمعون الى الخطاب المذاع من موسكو نفسها كل من لم يقض ليلته على ضوء مصباح زيت صغير فى غرفة باردة او ملجأ ، وحين تعصف رياح الخريف الباردة بكل ما فى الأفنية ، ويوم يعيش الانسان مذلا ومهانا وفقيرا ؛ ومن لم يحاول ضبط المذياع المخبأ على موجة وطنه الحر بأصابع جمدها البرد القارس .

– . . . ان هتلر ، آكل لحوم البشر يقول : «اننا سوف نقضى

على روسيا نهائيا حتى لا تقوم لها قائمة بعد اليوم» . اعتقد ان ذلك امر واضح ، وان كان يتسم بالغباء .

وتعالى الى اسماعهم صوت ضحك الحاضرين فى القاعة التى كان يخطب فيها ستالين ، ليجعل الابتسامات ترتسم على شفاههم لحظة من الزمن ، حتى ان الجدة فيرا وضعت يدها على شفتيها .

– اما نحن فلا نستهدف مثل تلك المهمة ، للقضاء على المانيا ، لان ذلك امر مستحيل ، بنفس درجة استحالة القضاء على روسيا . اما القضاء على الدولة الهتلرية فامر ممكن ، وواجب . وهذه هى مهمتنا الأولى ، والتى تكمن فى القضاء على الدولة الهتلرية وعلى زعمائها .

وانطلقت عاصفة من التصفيق ، كانت تدفعهم الى الافصاح عما يجول فى اعماقهم ، الا انهم لم يفعلوا ذلك ، وراح كل منهم يتأمل الآخرين بناظريه .

فقد كان يجتاح اعماقهم كل ما اعتلج عن غير وعى فى قلوبهم من مشاعر وطنية بدءا من الصبى ذى الستة عشر ربيعا وحتى المرأة المسنة ، ليتجلى واضحا فى حقيقة الوقائع والارقام الناصعة .

لقد كانوا هم البسطاء الذين وقع على كاهلهم ما لا يطاق من آلام وعذاب ، يقولون للعالم اجمع :

– ان السفاحين الهتلريين . . يغتصبون ويقتلون المدنيين فى الأراضى المحتلة من بلادنا ، الرجال والنساء ، الأطفال والشيوخ ، اخواننا واخواتنا . . . وليس هناك سوى الحقراء والانذال هم الذين يسمحون لأنفسهم بالقيام بمثل هذه الأعمال الوحشية ضد الأبرياء والعزل من السلاح . . . اننا نعلم المسؤولين عن هذا ، نعرف بناة «النظام الجديد فى اوروبا» ، كل هؤلاء الجدد من الجنرالات المحافظين ، والحكام العسكريين ومعاونيهم ، والذين يعرف عشرات الآلاف من الضحايا اسماءهم . وليعلم هؤلاء الجلادون انهم لن يفلتوا من تبعات جرائمهم ، ولن ينجون من انتقام الشعوب المعذبة . . .

لقد كان صوت الأمل والانتقام هو الذى يعلن ذلك . واندفعت انفاس العالم الكبير المحيط بمدينتهم الصغيرة ، التى وطأتها اقدام جنود الأعداء ، واهتزاز الأرض الحبيبة ونبضات ليل موسكو ، تملأ

كل ارجاء الغرفة ، تغمر قلوبهم بسعادة ادراك كونهم ينتمون الى ذلك العالم .

وكانت ضجة التصفيق تطغى على كل كلمة «يعيش !» .

– المجد للفدائيين رجالا ونساءا !

وهتف اوليج يقول وقد تألقت عيناه بمشاعر السعادة :

– هل سمعتم ؟

واغلق الخال كوليا جهاز الراديو ، ليخيم على الحاضرين فجاة الصمت المطبق . فقد اختفى ما كان موجودا منذ لحظات . وها هى ضلفة النافذة تعلن عن نفسها تحت تأثير رياح الخريف ، فيما كانوا يجلسون وحدهم فى تلك الغرفة ضعيفة الاضاءة تفصلهم مئات الكيلومترات من الاحزان ، عن ذلك العالم الذى كان يضج معلنا عن نفسه منذ بعض الوقت .

الفصل الثامن والاربعون

كانت الليلة حالكة السواد لدرجة يتعذر معها على من يلتقى بآخر وجها لوجه ، تمييز شخصيته . وكانت الرياح الباردة الممتزجة بالرطوبة تمرق بالشوارع ، تزار عند النواحى ، تعصف بأسقف المنازل ، وتئز بالمداخن وتصفر حين تصطدم بالأسلاك والأعمدة . وقد كان على المرء معرفة المدينة بشكل جيد حتى يستطيع الوصول فى دقة متناهية الى كشك الحراسة عبر الأوحال التى يصعب خوضها ، والظلمة التى خيمت على المدينة . كان الشرطى المناوب يقوم بعمله عادة فى المكان الواقع بين طريق فورشيلوفجراد ونادى جوركى . الا انه وعلى ما يبدو فضل الاحتماء بسقف ما ، تفاديا لتلك الأوحال والبرودة .

وكان كشك الحراسة مشيدا من الأحجار ، اشبه ببرج قلعة ، يوجد فى الطابق الأرضى منه مكتب وممر للدخول الى منطقة المنجم ، متصل بسور حجرى عال الى يمينه ويساره .

ولقد كانا قد خلقا على نحو بديا معه وكأنما خصيصا للقيام سوية بتلك العملية . . سيرجى ليفاشوف متين البنية عريض

المنكبين ، وليوبكا نشيطة الحركة ذات الساقين القويتين . ومد سيرجى ركبته وفرد ذراعيه يهيئهما لمساندة ليوبكا التى مدت يديها الصغيرتين لتصطدم بهما دون أن تراهما ، لتضحك فى هدوء . ثم وضعت قدمها على ركبته لتعتلى فى نفس اللحظة كتفيه وتمد يديها الى السور الحجرى . وامسك فى قوة بساقيها أعلى حذائها حتى لا تسقط ، فيما راحت الرياح تتلاعب بثوبها فوق راسه ليخفق كالعلم . وارتمت على بطنها فوق السور ممسكة بجانبه الآخر بيديها اللتين اتكئت بصدرها عليهما . ولم تكن يداها قويتين للدرجة التى تمكنها من مدهما لمعاونة سيرجى ، الا انها استطاعت الثبات على ذلك النحو وحتى قفز سيرجى متعلقا بخصرها ومستندا بقدميه الى الجدار ، ليمد يديه اللتين نقل احداهما ثم الأخرى فى قوة ليتعلق بالجدار . ولم يبق على ليوبكا سوى أن تفسح له مكانا الى جوارها . .وقد كان ذلك .

كان أعلى الحائط السميك مدببا بعض الشىء ومبللا ، مما كان يسهل معه الانزلاق عليه . بيد أن سيرجى لبث مكانه فى ثبات وقد استند بجبهته الى جدار البرج باسطا يديه عليه . وفى هذه المرة اعتلت ليوبكا دونما مساعدة ظهره ثم كتفيه مما كان يؤكد مرة أخرى قوته الجسمانية الفائقة . وبلغ صدرها حافة الجدار لترتقى البرج فى سهولة . وراحت الرياح تتلاعب بثوبها وسترتها بقوة لتبدو وكأنما على وشك الاطاحة بها بعيدا . غير أن الاصعب كان قد ولى وانقضى .

وتناولت من صدرها لفة ، ثم تحسست الدوبارة المثبتة الى حاشيتها لتربطها الى صارية البرج دون أن تترك تلك اللفة عرضة للرياح . وما كادت ترفع يدها حتى أطاحت الرياح بها بكل قوة ليخفق قلبها اضطرابا . وتناولت لفة أخرى أصغر قليلا ثبتتها الى أسفل نفس الصارية فيما تحت الحافة الداخلية للسور . ثم هبطت الى الجدار على نفس النحو مستندة الى ظهر سيرجى ، الا انها لم تجرؤ على القفز فى الأوحال ، لتجلس وقد تدلت ساقاها . أما سيرجى فقد قفز الى الأرض وراح يناديها بصوت خافت ، ترامى الى اسماعها ، دون أن تراه . وفجاة تعالى وجيب قلبها لتمد يديها الى الأمام ، وتزر عينيها وتقفز الى الأرض ، لتسقط بين ذراعيه

وتحيط برقبته ، ليمسك بها على هذا النحو بضع لحظات . بيد أنها تخلصت من احضانه وقفزت الى الأرض ، لتهمس اليه فيما تلهب وجهه بانفاسها الدافئة :

– سيريوجكا . . فلتحضر الجيتار . . هيه ؟

واجابها فى سعادة :

– حسنا . كما وسوف اغير ملابسى التى اتسخت . وضحكت فى مرح :

– كلا . . انهم سيستقبلوننا بملابسنا هذه !

اما فاليا وسيريوجكا تيولينين فقد كان عليهما العمل فى وسط المدينة ، وهو اخطر الأماكن . فقد كان الحراس الألمان يقومون بمهام عملهم الى جوار مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومبنى مكتب العمل ، كما وكان ثمة شرطى يقوم بمناوبته بجوار مبنى الادارة ، علاوة على مركز الشرطة الكائن على مسافة قريبة . بيد أن الظلمة الحالكة والرياح الشديدة يسرت الظروف الملائمة لهما . ووقع اختيار سيريوجكا على منزل «النبيل المسعور» ، وريثما كانت فاليا تقوم بالحراسة عند الجهة الأخرى من المنزل والمواجهة لمبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ، كان سيريوجكا قد ارتقى الدرج القديم الذى يفضى الى الجمالون والذى يعود بلا ريب الى عهد «النبيل المسعور» ، ليفرغ من مهمته فى خمس عشرة دقيقة .

وكانت البرودة قد المت باطراف فاليا ، لتشعر بالسعادة حين فرغ سيريوجكا من مهمته بهذه السرعة . بيد أن سيريوجكا مال قريبا الى وجهها ليقول ضاحكا :

– معى علم آخر . . فلنرفعه على مبنى الادارة !

– وما عسانا أن نفعل مع الشرطى ؟

– هل نسيت سلم المطافئ ؟

وكان سلم المطافئ موجودا فى حقيقة الأمر فى الجهة المقابلة للمدخل الرئيسى ، ولذا فقد أجابته :

– هيا بنا !

وتوجها فى حلكة الظلام الدامس نحو خط السكك الحديدية ، يذرعان فلنكاته فترة طويلة من الزمن ، لدرجة بدا لفاليا معها أنهما سرعان ما سوف يصلان الى فيرخنيدوفانايا . الا أن الأمر لم

يكن كذلك حيث كان سيريوجكا يجيد النظر فى الظلام كالقطة ، ليقول :

– هنا . . فلتتبعينى ، الى اليسار من هنا . وسرعان ما سوف نصل الى مدرسة الشرطة .حذار المنحدر !

كانت الرياح تعصف باشجار الحديقة العامة ، تهز اغصانها العارية ، تسقط ما علق بها من قطرات الأمطار الباردة على فاليا وسيريوجكا ، الذى اقتادها فى سرعة وثقة عبر الممر تلو الآخر ، لتخمن فاليا أنهما قد أصبحا قريبين من المدرسة حيث ثمة جلبة تعالت من سقفها .

وها هو السلم الحديدى يكف عن الاهتزاز تحت وقع أقدام سيريوجكا الذى غاب فترة طويلة ، لتظل فاليا واقفة وحدها أسفله . وكم كانت مريعة رهيبة تلك الليلة ، التى تعالى فيها صوت اصطدام اغصان الأشجار ببعضها البعض ! وكم كان مدى الضعف والضياع اللذين تعيشهما أمها وشقيقتها الصغرى ليوسيا فى ذلك العالم المظلم الرهيب ! وماذا عن أبيها ؟ كيف حاله ان كان ضعيف البصر قد ظل مشردا حتى اليوم دون ماوى ؟ وتصورت فاليا أمام مخيلتها ذلك الفضاء الشاسع لبرارى الدونيتس والمناجم التى جرى تفجيرها والمدن الصغيرة والقرى التى أغرقتها الأمطار وغابت عنها الأضواء ، وغصت برجال الشرطة . وفجأة خيل اليها أن سيريوجكا لن يعود أبدا من ذلك السقف الذى تعالى ضجيجه ، لتخونها شجاعتها . بيد أنها شعرت فى تلك اللحظة باهتزاز السلم ليتسم وجهها بامارات الاستقلالية والبرودة .

وابتسم فى الظلمة يسألها :

– أو ما تزالين واقفة ؟

وشعرت بيده تمتد اليها ، لتمد اليه يدها كذلك . كانت يده باردة كما الجليد . فكم عانى ذلك النحيف فى حذائه العامر بالثقوب والذى خاض به ساعات باكملها فى الأوحال ، والذى ربما يكون ممتلئا بالمياه ، وفى سترته القديمة المرتقة المفتوحة على صدره ! وأمسكت وجنتيه بكلتا يديها لتجدهما باردتين كالجليد ايضا .

وقالت دون ان ترفع يديها عن وجنتيه :

– لقد تجمدت من البرود !

وسكن هنيهة ، ليقفا هكذا بعض الوقت لا يقطع سكونهما سوى صوت الأغصان العارية المتمايلة ، وحتى همس يقول :

– لن نقوم بدورات اخرى . . فلنبتعد قليلا . . ولنمر عبر السور .

ورفعت يديها ، لينطلقا سويا نحو بيت أوليج من تلك الناحية التى كان يقطن بها جيرانه . وفجأة أمسك سيريوجكا بيد فاليا ليلتصقا بالجدر . ودنت فاليا التى لم تدرك شيئا ، بأذنها قريبا من شفتيه ، ليهمس اليها قائلا :

– كان ثمة شخصان يسيران فى اتجاهنا .

– خيل اليك !

– كلا . . انهما يقفان . . .

– هيا بنا الى الفناء !

بيد أنهما ما كادا يلتفان حول المنزل من جهة الجيران ، حتى أوقف سيريوجكا فاليا مرة اخرى . . فقد خطا المجهولان فى نفس الاتجاه المقابل لهما .

– قد تكون واهما !

– كلا . . انهما واقفان هناك .

وانفرج باب بيت آل كوشيفوى ، ليخرج من اصطدم بهذين المجهولين اللذين وجل منهما سيريوجكا وفاليا .

وتعالى صوت يلينا نيكولايفنا :

– ليوبكا ؟ لماذا لا تدخلين ؟

– همس . . !

وذكر سيريوجكا فيما يجذب فاليا من يدها متقدما :

– انهما من شبابنا !

وتعالت فى ظلمة الليل ضحكات ليوبكا الهادئة . وراحت وسيرجى ليفاشوف الذى حمل جيتاره ، وسيريوجكا وفاليا يمسك كل منهم بيد الآخر ضاحكا ، يندفعون نحو مطبخ آل كوشيفوى . كانوا مبللين بالمياه ، ملطخين بالأوحال مفعمين بالسعادة ، لدرجة أن الجدة فيرا رفعت يديها النحيفتين فى كميها الملونين لتصيح قائلة :

– انقذونا يا أفضل الناس !

لم يشهدوا فى حياتهم قط مثل تلك السهرة التى يقضونها تحت ضوء مصباح زيت صغير فى غرفة باردة بمدينة رازحة تحت سطوة الألمان لما يزيد عن ثلاثة اشهر .

وكم كان غريبا أن يستطيع اثنا عشر من الشباب الجلوس متجاورين على كنبة واحدة ! وراح كل منهم فى مكانه الملاصق لزميله يقدم تقريره ، لتعبر الوجوه فى عفوية ، عن كل ما عانته اليوم سواء الى جوار الراديو او اثناء الترحال عبر الأوحال . لقد كانت الوجوه تنم فى آن واحد عن مشاعر الحب الذى يربط بين بعضهم البعض لتمتد كما التيار الكهربائى الى الآخرين ، والسعادة الفياضة ازاء الاحساس بالوحدة حول فكرة بشرية واحدة ، ولا سيما تلك الفكرة التى تعبر اليوم عن أهم ما فى حياتهم جميعا . كانت وجوههم تعكس مشاعر الصداقة وسنوات الصبا المشرق وكل ما يؤكد ان حياتهم سوف تكون على أفضل حال . ووصل الأمر بيلينا نيكولايفنا كذلك أن راحت تشعر بنفسها شابة سعيدة فى صحبتهم . ولم تكن هناك سوى الجدة فيرا التى اتكأت بوجهها النحيف على راحتها الحمراء يعتريها الخوف والاحساس بالشفقة تجاه الآخرين ، وقد جمدت نظراتها اليهم بما يعكس فارق السن .

وقام الشباب بتلاوة تقرير ستالين حول عيد الثورة ، لينصرفوا الى افكارهم ، فيما اعترى وجه الجدة ما ينم عن دهاء ، لتقول بالأوكرانية :

– اننى انظر اليكم ايها الشباب وايتها الفتيات فيما افكر . . كيف يمكن ذلك ؟ فى مثل ذلك العيد الكبير . . . هل توضع الخمر لتزيين المائدة ؟ او ليس واجبا احتساؤها !

وصاح أوليج :

– آه يا جدتى . . انك زينتنا ! هيا بنا الى المائدة .

وكان من الواجب الا تعلو الأصوات ، وكان الجميع يشعرون بالسعادة حين يهمسون جوقة واحدة على من يعلو صوته . . . همس ! وقد اتفقوا رغما عن ذلك على القيام بالحراسة الى جوار المنزل بشكل دورى . وكانوا يضحكون حين يأتى دور من أغرق



فى مداعبته لجاره او لجارته ، او من يكون قد أطلق العنان لسروره .

وكان ستيوبا سافونوف اشقر الشعر يستطيع فى الأحوال العادية التحدث فى كافة الموضوعات ، غير أنه وحين كان يشرب قليلا من الخمر لا يغدو قادرا الا على الحديث حول موضوعه المفضل وهكذا راح صاحب الأنف المغطى بالنمش الذى غطته حبات العرق يقص على جارته نينا ايفانتسوفا ما يعرفه عن طائر الفلامينجو . وهمس الجميع اليه ليخفض من صوته ، ثم طاردوه تدريجيا للقيام بدوره فى الحراسة . وقد عاد فى تلك اللحظة التى اقتربوا فيها من المائدة ، وحين تناول سيرجى ليفاشوف جيتاره .

وكان سيرجى ليفاشوف يداعب أوتار جيتاره بنفس الطريقة الروسية المنتشرة فى أوساط العمال الروس ، حين يبدو العازف ولاسيما وجهه وكأنما لا صلة له بالعالم المحيط ، وحيث لا يكترث بالراقصين الذين يتمايلون على انغامه او بالمستمعين الذين يصغون اليه ، بل ولا ينظر الى جيتاره او الى أى شىء محدد ، بينما تتراقص أصابعه من تلقاء نفسها فوق الأوتار على نحو يجعل المستمع مدفوعا عن غير ارادته الى الرقص .

وتناول سيرجى ليفاشوف جيتاره ليعزف لحنا اجنبيا راقصا حديثا انتشر فى سنوات ما قبل الحرب . واندفع ستيوبا سافونوف نحو نينا يراقصها ليدورا سوية بالغرفة .

وكانت ليوبكا – الفنانة افضل من يؤدى هذه الرقصة بطبيعة الحال . اما فانيا توركينيتش فكان افضل الرجال فى هذا الامر . . فهو فارع القامة ممشوق القوام ظريف الطباع ، كأى ضابط حقيقى ! وقد راحت ليوبكا تراقصه فى البداية ، ثم تحولت الى أوليج والذى كان يعتبر كذلك ، من افضل الراقصين بالمدرسة .

أما ستيوبا سافونوف فلم يترك طوال الوقت نينا التى استكانت صامتة تراقصه فيما يشرح لها الفرق بين ريش أنثى وذكر الفلامينجو ، وكم من البيض يمكن أن تضعه أنثى هذا الطائر .

وفجأة كست الحمرة وجه نينا الذى تغيرت قسماته نحو الأسوأ :

– انني يا ستيوبا لست أشعر بالراحة فى مراقصتك ، اذ انك قصير ، تدوس قدمى ، ولا تكف عن الثرثرة .

وتخلصت من ذراعيه لتهرول بعيدا .

واندفع ستيوبا سافونوف نحو فاليا ، الا انها راحت تراقص توركينيتش . وعندئذ توجه للامساك باوليا ايفانتسوفا ، تلك الفتاة الهادئة الرصينة التى كانت اكثر صمتا من شقيقتها ، مما جعل ستيوبا ينهمك فى الحديث اليهـــا كما يحلو له حول طائره الغريب .

ولم يكن قد نسى الاهانة ، وراح يتحين الفرصة المناسبـــة ليبحث بناظريه عن نينا التى كانت تراقص اوليج ، فيمـــا كان الأخير يدور فى ثبات وثقة بجسدها البض القوى ، وبينما كان ثغرها ينفرج عن ابتسامة تلقائية وعيناها تتألقان بالسعادة ، لتبدو باهرة الجمال .

ولم تتحمل الجدة فيرا لتصيح قائلة :

– اى رقصات هذه ! وما عساكم تعجبون بمثل هذه الألحان الأجنبية ؟ فلتعزف لنا يا سيرجى موسيقى «هوباك» الأوكرانية .

وتحول سيرجى ليفاشوف الى «هوباك» الأوكرانية دون ان يحرك ساكنا . وقفز اوليج ليصل الى الجدة فى خطوتين ، ويمسك بخصرها ، لتدور معه فى خفة تطرق الأرض بكعبيهـــا دون ان يعتريها اى اضطراب . وراح ذيل ثوبها داكن اللون يدور ليؤكد مهارة الجدة فى الرقص ، التى تجلت فى حركات قدميها ، وتألقت على نحو اكثر فى حركة ذراعيها وقسمات وجهها .

وليس ثمة ما هو افضل تعبير عن الطابع الشعبى اكثر من الأغانى والرقصات . لقد كان اوليج يرقص فى مهارة فائقة فيما تتجلى امارات الدهاء فى نهايتى حاجبيه اللتين اصابتهما الرجفـــة وليس فى شفتيه او فى عينيه ، وقد فك ازرار ياقة قميصـــه ، وندت حبات العرق على جبينه تحت شعر راسه الكبيرة التى جمدت مكانها مثل كتفيه ، ليبدو عريق الأوكرانية مثل جدته .

اما الحسناء مارينا ذات الأسنان البيضاء والعينين السوداوين والتى تزينت بمناسبة العيد بكل ما لديها من حلى ، فلم تتمالك نفسها وراحت تدق بكعبيها ثم اشاحت بيديها ودارت حول اوليج .

بيد أن الخال كوليا لحق بها ، ليمسك أوليج من جديد بجدته ، لينهمك رباعيهم فى الرقص يدقون الأرض بأقدامهم .

وفجأة صاحت الجدة وقد اعترت الحمرة وجهها ، لترتمى فوق الكنبة ، فيما تروح عن نفسها بمنديل :

– لقد كادت العجوز تموت !

وضج الجميع ، وعمت الحركة المكان ، فيما علا تصفيق الحاضرين وتوقف الراقصون ، الا أن سيرجى ليفاشوف اللامبالى بكل ما حوله ، واصل عزفة للموسيقى الأوكرانية ، وكأنما لا يعنيه كل ما يجرى فى الغرفة ، ثم وفجأة وضع راحته على الأوتار لينقطع اللحن الذى لم يكتمل .

فقد صاحت ليوبكا تقول :

– لقد تغلبت الأوكرانية . سيريوجا ! هيا نرقص رقصة روسية !

ولم تكد أنامله تداعب الأوتار حتى كانت ليوبكا تؤدى رقصة روسية ، تدق الأرض بقدميها لدرجة كان يستحيل على المرء معها النظر الى أى شىء آخر عدا قدميها . وهكذا راحت تتقدم نحو سيريوجكا تيولينين مرفوعة الهامة مفرودة الكتفين لتدق الأرض بكعبها أمامه ، وتتراجع ثانية الى الوراء لتفسح له المكان .

وتقدم سيريوجكا فى غير اكتراث نحو ليوبكا ، جامد القسمات شأن العمال الروس حين يعزفون وحين يرقصون ، يدق الأرض خفيفا بحذائه الذى أعيد رتقه اكثر من مرة . وهكذا راح يسير حتى بلغ ليوبكا ليدق الأرض بقوة ثم يتراجع الى الوراء . وهنا تقدمت ليوبكا نحوه ممسكة فى يدها بمنديل ، لتدق الأرض ثم تنساب راقصة مرفوعة الهامة على نحو يتسم بالمهارة غير الملحوظة . واندفع سيريوجكا اليها يدق الأرض تارة بيمناه ، ثم بيسراه ، فيما أسدل يديه ودون أن تعكس قسمات وجهه أية من حركاته ، الا أن ذلك كان يعنى اندماجه فى الرقص بشكل تام ، بينما كانت قدماه تعكسان مثابرته التى كانت تتسم باللامبالاة والفكاهة .

واستدارت ليوبكا فجأة نحو سيريوجكا الذى واصل التقدم

نحوها ، فيما يدق الأرض بقوة وحمية بحذائه حتى راح يتطاير منه بعض ما علق به من أوحال .

وكان أكثر ما يميز أداء سيريوجكا احساسه المرهف بالنغم ، وجسارته الكامنة بعيدا فى أعماقه . أما ليوبكا فلم يكن ثمة من يعلم أى شىء ذلك الذى كانت تؤديه بقدميها القويتين البضتين ، فيما علت الحمرة وجهها ، واهتزت خصلات شعرها الأصفر التى بدت وكأنها من الذهب الخالص ، لتعلن وجوه الحاضرين ما يدور فى خلدهم . . «هكذا الأمر يا ليوبكا – الفنانة !» . ولم يكن هناك سوى سيرجى ليفاشوف الذى كان مغرما بها ، لا يعيرها ناظريه ، تنم قسمات وجهه عن عدم اكتراثه بكل ما يجرى حوله ، ولا تعلن عن نفسها غير أنامله القوية التى راحت تداعب الأوتار فى سرعة .

واذ أشاح سيريوجكا بيده فى قوة وكأنما يضرب الأرض بقبعته تقدم فى حسم تجاه ليوبكا ، وراح تحت وقع أنغام الموسيقى يضرب ركبتيه وكعبيه براحتيه وحتى دفع بها الى دائرة المتفرجين ، ليتوقفا سويا وهما يدقان الأرض بكعوبهما . وانفجر الجميع فى الضحك وراحوا يصفقون . أما ليوبكا فقد ذكرت فجأة فى نبرة تتسم بالأسى :

– هذه هى رقصتنا الروسية !

وقد كفت ليوبكا بعد ذلك عن الرقص لتجلس الى جوار سيرجى ليفاشوف وقد اتكأت على كتفه بيدها الصغيرة البيضاء .

وفى ذلك اليوم قامت قيادة «الحرس الفتى» وبتصريح من لجنة المنطقة للعمل السرى بتوزيع مساعدات مالية لبعض عائلات المقاتلين بالجبهة ، التى تعانى عوزا شديدا .

ولم تكن موارد «الحرس الفتى» تتكون من اشتراكات العضوية فحسب ، بل ومن بيع السجائر والكبريت والثياب ومختلف المنتوجات ولا سيما السبرتو ، والتى كان الفتيان يغنمونها من لوريات الألمان .

وكان فولوديا أوسموخين قد ذهب نهارا الى عمته ليتفينوفا ليسلمها مظروفا به أوراق مالية سوفيتية ، كان يجرى استعمالها الى جانب الماركات الألمانية ، وان كان بقيمة تقل عن قيمتها الحقيقية .

وقد ذكر فولوديا :

– يا عمة ماروسيا . . لقد بعث رجال العمل السرى بهـذا المظروف اليك والى كاليريا الكسندروفنا . فلتشترى شيئا للاولاد بمناسبة العيد الكبير .

وكانت كاليريا الكسندروفنا زوجة احد ضباط الجيش الاحمر تقطن بجوار العمة ليتفينوفـا ، وكانت كلتاهمـا اما لكثير من الأطفال ، تعانيان من عوز شديد ، حيث لم يكتف الألمـان بمصادرة ما كان لديهما ، بل ونهبوا كذلك جزءا كبيرا من اثاث منزليهما .

وقررت كاليريا الكسندروفنا والعمة ليتفينوفا الاحتفال بالعيد ، بتجهيز عشاء جيد ، فابتاعتا قليلا من الشراب واعدتا فطيرة من دقيق القمح محشوة بالكرنب والبطاطس .

وفى الثامنة مساء تجمع بمسكن كاليريا الكسندروفنا حيث كانت تعيش مع امها واطفالها ، يليزافيتا الكسييفنـا – ام فولوديا ، وشقيقته ليودميلا والعمة ماروسيا مع طفلتيها . اما الفتيان فقد اكدوا انهم سوف يحضرون متاخرين بعض الشىء ، استنادا الى ارتباطهم برفاقهم . وشرب الكبار قليلا من الخمر ، ليعلن عن تذمرهن بصدد الاحتفال بالعيد خلسة . وراح الصغار يترنمون بصوت خافت ببعض الأغانى السوفيتية ، لتترقرق الدموع فى مآقى الكبار . وكانت ليوسيا تشعر بالملل الشديد . وبعـد قليل خلد الصغار الى مضاجعهم .

وكان الوقت قد تاخر كثيرا حين جاء جورا اروتيونيانتس . واعتراه كثير من الاضطراب حين دخل الغرفة التى يغمرها الضوء فيما كانت ملابسه ملطخة بالأوحال ، ولانه لم يكن هناك غيره بالحجرة من الشباب ، وحيث اضطر الى الجلوس بجوار ليوسيا . وفى محاولة منه لتملك روعه افرغ جوفه نصف كوب من الخمر كانت قد ناولته ليوسيا اياه ، لتدور راسه . وحين وصل فولوديا وتوليا اورلوف كانت امارات الكآبة والتجهم بادية على وجهـه ولدرجة أن وصول رفيقيه لم يصلح من شانه .

وشرب الفتيان كذلك بعض الخمر ، بينما انصرف الكبـار

للحديث . وادركت ليوسيا من بعض العبارات التى تبادلهـا الفتيان فيما بينهم انهم لم يكونوا فى ضيافة آخرين .

فقد همس فولوديا الذى انتقل الى جورا متخطيا توليا الملقب «بالرعد» ، يساله :

– أين ؟

واجابه جورا فى كآبة :

– المستشفى . وانت ؟

ومال فولوديا يهمس الى اذن جورا وقد تالقت عيناه بامارات الجسارة والدهاء :

– مدرستنا . . .

وساله جورا وقد فارقه تجهمه لحظة من الزمن :

– كيف ؟ احقا تقول ؟

وذكر فولوديا :

– كلا . . انها الحقيقة . كم آسف انا على مدرستنا ، لكننا سوف نشيد غيرها .

وذكرت ليوسيا تخاطب شقيقها وقد اغضبها كونهما يتبادلان الاسرار دون اطلاعها عليها :

– ما دمت تحدد مواعيدا للآخرين ، فيجب عليك البقاء بالمنزل لاستقبالهم . لقد جاءك اليوم كثيرون من الفتيان وكذلك بعض الفتيات ، يسالون جميعا عنك .

وضحك فولوديا قائلا :

– لاننى كما الأمير فاسكا بوسلاى * الذى يسعى الجميـع الى قصره .

ونهض توليا الملقب «بالرعد» فجاة من مكانه ليقول فى تردد :

– اقدم تهنئتى للجميع بمناسبة الذكرى الخامسة والعشريـن لثورة اكتوبر العظمى .

وكان الخمر قد فك عقدة لسانه ، وكسا وجهه حمرة ، واتسمت

---

* فاسيلى بوسلاى احد ابطال المعارك الروسية نهاية القرن الرابع عشر ، مطلع الخامس عشر ، فقد اتزانه بعد وفاة والده وانغرق فى اللهو والشراب . المترجم .

عيناه بأمارات الدهاء وراح يعاكس فولوديا مشيرا الى فتاة تدعى فيموتشكا .

اما جورا فقد صار يحدق بعينيه السمراوين فى المائدة ليقول دون أن يتوجه بحديثه لأى من الحاضرين بالتحديد :

– ان هذا بطبيعة الحال امر لا يتسم بالعصرية ، الا انني افهم بيتشورين * . ولا ريب كذلك فى أن هذه الخطوة لا تتناسب وروح العصر . بيد أنهن فى حالات أخرى يستأهلن مثل هذه المعاملة بالذات .

ثم صمت برهة من الوقت ليضيف فى تجهم :

– انهن النساء .

ونهضت ليوسيا من مكانها فى حركة استعراضية وتقدمت نحو توليا الملقب «بالرعد» لتقول له فيما تقبله فى اذنه فى رقة :

– انك مخمور جدا يا توليتشكا !

وهكذا بدا عقد الجمع ينفرط ، حتى نهضت يليزافيتا الكسييفنا بما عرف عنها من حدة وحنكة لتعلن أنه قد حان وقت الانصراف .

استيقظت العمة ماروسيا كعادتها مع مطلع الفجر لتمارس شؤون المنزل والعناية بأطفالها ،لتدس قدميها فى شبشبها وترتدى ثوبا منزليا ، ثم سارعت باشعال الموقد الذى وضعت عليه براد الشاى . واذ استغرقت فى التفكير هنيهة من الوقت تقدمت نحو النافذة المطلة على الأرض الخلاء . وقد كان مبنى مستشفى الأطفال ومدرسة فوروشيلوف يقعان الى يسارها ، فيما كان يقع الى يمينها فوق التل مبنى اللجنة التنفيذية للمنطقة ومنزل «النبيل المسعور». وفجأة ندّ عنها صوت خفيف . . . فقد وقع نظرها على علم احمر يخفق فوق مبنى مدرسة فوروشيلوف يتصدر السماء التى تمزقت سحبها ، لتتناثر هنا وهناك . كانت الرياح تجذبه تارة بقوة لدرجة يبدو معها فى كامل حجمه وتارة أخرى تتركه ليلتف حول صاريته ، فيما تتطاير أطرافه .

---

* احدى شخصيات وبطل من هذا الزمان» لميخائيل ليرمونتوف . المترجم .

كما وكان ثمة علم آخر أكبر حجما يخفق فوق مبنى «النبيل المسعور» . وكانت مجموعة كبيرة من الجنود الألمان وبعض الأشخاص فى ملابس مدنية يقفون الى جوار المنزل قريبا من سلم خشبى متنقل ، وقد تعلقت أنظارهم بالعلم . كما وكان يعتلى ذلك السلم جنديان ، أحدهما عند نهايته التى ارتكزت الى السقف ، بينما وقف الآخر يدنوه ببضع درجات ، ينظران الى العلم حينا ، ويتبادلان الحديث مع الواقفين أسفل السلم حينا آخر . بيد انه لم يكن ثمة من صعد أكثر من ذلك لانتزاع العلم من مكانه ، وحيث كان يخفق فى تلك النقطة العالية فى جلال لتراه المدينة بأسرها .

وسارعت العمة ماروسيا دونما وعى ، بالقاء شبشبها جانبا وانتعال حذائها تهرول دون أن تمشط شعرها ، او تغطيه بمنديل ، نحو جارتها .

وجثت كاليريا الكسندروفنا فى قميص نومها ، مترمة القدمين ، على ركبتيها متكئة الى قاعدة النافذة ، وقد امسكت ضلفتيها بيديها ترنو الى العلم وامارات البهجة ترتسم على وجهها فيما انهمرت الدموع غزيرة من مآقيها على وجنتيها السمراوين .

وقالت :

– ماروسيا ! ماروسيا ! لقد فعلوا ذلك من أجلنا نحن المواطنين السوفييت . انهم يذكروننا . ان أهلنا لم ينسونا . اننى . . اننى أهنئك !

واندفعت كل منهما نحو الأخرى تتبادلان الأحضان .

الفصل التاسع والاربعون

لم تكن الاعلام الحمراء تخفق فوق منزل «النبيل المسعور» ومدرسة فوروشيلوف وحسب ، بل وكانت ترفرف عالية ايضا فوق مبنى الادارة ، ومقر الجمعية الاستهلاكية للمنطقة فيما سبق ، والمناجم الثانى عشر والسابع والثامن والتاسع والعاشر والثانى والاول ، ومناجم حى بيرفومايكا ومستعمرة كراسنودون .

وهرع الناس من كافة أرجاء المدينة ينظرون الى الأعلام . وتجمعت الجماهير حول تلك المبانى واكشاك الدخول . واحتار رجال الشرطة فى أمرهم لا يعرفون ما عسى يمكنهم عمله ، وراحوا يحاولون تفريق تلك الحشود ، ودون ان يجرؤ اى منهم على انتزاع الأعلام ، حيث كانت هناك لافتة صغيرة مثبتة الى أسفل كل علم مكتوب عليها بحروف سوداء «هنا يوجد لغم» .

وصعد ضابط الصف فينبونج الى سطح مبنى مدرسة فوروشيلوف ، ليكتشف سلكا يصل ما بين العلم ونافذة الجمالون ، حيث كان يوجد لغم بالفعل ، لا يخفيه شيء .

ولم يكن ثمة فى مركز الشرطة او فى فرقة اس اس من يستطيع ابطال مفعول الالغام . وبعث بريوكنر سيارته الى مركز الشرطة بالدائرة فى روفينكى لاحضار عدد من الاخصائيين فى ازالة الالغام . بيد انه لم يكن هناك فى روفينكى امثال هؤلاء الاخصائيين ، لتنطلق العربة الى فوروشيلوفجراد .

وفى الساعة الثانية من بعد ظهر ذلك اليوم وصل اخصائيو ازالة الالغام ليرفعوا اللغم الموجود فوق مبنى المدرسة ، الا انهم لم يجدوا الغاما فى كافة المواقع الأخرى .

انتشر خبر رفع الأعلام الحمراء فى كراسنودون احتفالا بعيد ثورة اكتوبر العظمى ، فى كافة ارجاء مدن وقرى حوض الدونيتس . ولم يكن هناك من استطاع اخفاء ذلك العار الذى لحق بالشرطة الالمانية عن الميجور جنرال كلير الحاكم العسكرى للمقاطعة فى يوزوفكا . وتلقى بريوكنر امرا يقضى بضرورة كشف منظمة العمل السرى والقبض على اعضائها مهما كان الثمن ، والا فسوف يجرى تجريده من رتبته ليعود الى الجيش جنديا عاديا .

ولما كان الضابط بريوكنر لا يملك اى تصور حول المنظمة التى كلف بالقبض على أعضائها ، فقد تصرف كما رجال الشرطة والجستابو ، اذ لجأ الى طريقة القبض على كل «من هب ودب» كما وصفها سميرجى ليفاشوف آنذاك . فقد اعتقل عشرات الأبرياء فى المدينة والمنطقة . بيد أنه وعلى الرغم من الامعان فى تنفيذ هذه الطريقة ، فلم يجر اعتقال اى من افراد المنظمة الحزبية للمنطقة والتى جرى رفع الاعلام بناء على تكليف منها ، ولا اى من اعضاء

«الحرس الفتى» . ولم يكن الالمان قادرين باى حال من الاحوال على اعتقاد ان المنظمة التى تولت القيام بهذه العملية تتكون من الشبان والفتيات .

وحقا كان صعبا على المرء تصور مثل هذا الأمر ، اذا ما اخذنا فى اعتبارنا ان عضوا بارزا فى منظمة العمل السرى مثل ستيوبا سافونوف سجل فى مفكرته ليلة الاعتقالات الرهيبة ما يلى :

«جاء سينكا لزيارتي فى حوالى الخامسة ليدعونى الى حى «جولوبياتنيكى» قائلا انه سوف تكون هناك فتيات جميلات . وذهبت الى هناك برفقته ، حيث جلسنا بعض الوقت . كانت هناك اثنتان او ثلاث لا بأس بهن . اما الباقيات فكن قبيحات . . .»

وفى النصف الثانى من شهر نوفمبر عرفت «الحرس الفتى» من انصارها فى النجوع ان الالمان يسوقون من مقاطعة روستوف قطيعا كبيرا من الماشية يبلغ عدده حوالى الف وخمسمائة راس . وكان القطيع قد عبر نهر الدونيتس قريبا من كامينسك ، الى شاطئه الايمن ويتحرك فى المنطقة الواقعة بين النهر والطريق الترابى الكبير كامينسك-جوندوروفسكايا تحت حراسة بعض الرعاة الاوكرانيين من الدون وحوالى اثنى عشر او ثلاثة عشر جنديا المانيا مسنا من فرق الامداد والتموين ، مسلحين بالبنادق .

وفى تلك الليلة ، وكما اتضح فيما بعد ، احتلت مجموعات تيولينين وبيتروف وموشكوف مواقعها مسلحة بالرشاشات والبنادق فى وهدة وفيرة الاحراش على شاطئ نهير صغير يصب فى نهر الدونيتس الشمالى الى جوار كوبرى خشبى يصل ما بين جزئى الطريق الترابى عبر النهير . وجاء افراد الاستطلاع بنبأ ان القطيع وحرسه يقضى الليل على مسافة خمسة كيلومترات تقريبا بين الاجران التى بعثرها الرعاة والجنود لاطعام المواشى .

كانت الامطار الباردة تهطل محملة بالثلوج التى كانت تذوب بمجرد هبوطها الى الارض لتشكل الاوحال . وكان الفتيان الذين حملت نعالهم كثيرا من اوحال البرارى التى قطعوها ، يتزاحمون كل الى جوار الآخر سعيا وراء الدفء يمزحون قائلين :

– يا له من طقس . . . لقد جننا للاصطياف !

ولاح الفجر رماديا مربدا ناعسا ، ليظل فترة طويلة فى غير

هيئته المالوفة وكانما يفكر «هل من الضرورى النهوض فى مثل هذا الطقس السيىء ، او ليس من الأفضل العودة ثانية للاستمتاع بالنوم ؟» بيد ان الشعور بالواجب نحىّ جانبا تلك الافكار الكسولة التى توادرت الى مخيلته ، لينبلج فوق اراضى الدونيتس . وكانت الرؤية فى ظل تلك الامطار والثلوج والضباب واضحة لمسافة ما يقرب من ثلاثمائة قدم .

وتنفيذا لأمر توركينيتش الذى كان يقود المجموعات الثلاث ، انبطح الشباب يمسكون باسلحتهم فى وضع استعداد وقد تجمدت اطرافهم ، على الشاطىء الايمن للنهير من تلك الناحية التى كان من المفروض ان يظهر الالمان منها فى اتجاه الجسر .

وكان اوليج الذى يساهم كذلك فى هذه العملية ، وستاخوفيتش الذى اصطحبوه معهم اختبارا لقدراته فى الاعمال العسكرية ، يرقدان على نفس الشاطىء ، الى جوار منعطف النهير .

وكان ستاخوفيتش ، ومنذ تلك اللحظة التى ابعد فيها عن قيادة «الحرس الفتى» ، قد شارك فى كثير من اعمال المنظمة وتمكن تقريبا من استعادة سمعته الطيبة . وقد كان ذلك امرا سهلا بالنسبة له ، حيث لم يكن قد فقدها ابدا ، فى نظر غالبية اعضاء «الحرس الفتى» .

ان السمة الطيبة للطبيعة البشرية التى تميز فى بعض الاحيان حتى ذوى المبادىء تجعل من الصعب على المرء تغيير طباعه ، حيث يظن انه من غير المستحسن تغيير ما قد غدا طبيعيا مالوفا فى علاقاته الانسانية ، على الرغم من ان الحقائق التى لا تدحض تؤكد ان ذلك المرء يتباين مع النحو الذى كان يبدو عليه . ويقال فى هذا الصدد : «لا بأس . . سوف ينصلح حاله ! فمن منكم بلا خطيئة ؟»

ولم يظل على علاقته بستاخوفيتش وكان شيئا لم يحدث ، اعضاء «الحرس الفتى» العاديون وحسب ، بل وغالبية القريبين من القيادة كذلك .

رقد اوليج وستاخوفيتش فى صمت فيما بين الشجيرات ، يفترشان الاوراق الذابلة ، يتفحصان الارض المكشوفة المبللة ، نادرة التضاريس ، فى محاولة للوصول بانظارهما الى ابعد نقطة

ممكنة عبر ستار الامطار والثلوج التى تساقطت فى الضباب ، بينما كان خوار مئات الابقار يتعالى فى اتجاههما ، يشكل نشازا موسيقيا غير مالوف وكانما ينفخ الشيطان فى مزماره .

وذكر اوليج بصوت خافت :

– انها تعلن عن عطشها . وسوف ياتون بها الى النهير كى تروى ظماها ، وذلك امر يفيدنا .

وهتف ستاخوفيتش يقول فى اضطراب :

– انظر ! انظر !

وظهرت الى يسارهما حيوانات حمراء يغمرها الضباب . . الاول ثم الثانى ، فالثالث . . . عشرة وعشرون . . . كثير من ذوى القرون التى ارتفعت عمودية ثم مالت الى الداخل باطرافها المدببة . وكانت هذه الحيوانات اشبه بالابقار ، الا ان الأبقار ليست ذات قرون وان كانت ذات نتوءات بين الآذان تنمو منها القرون عادة . امّا هذه الحيوانات التى لم تكن تبدو منها سوى رؤوسها عبر ذلك الضباب الكثيف ، فقد كانت قرونها تنبت من رؤوس ملساء . كما وكانت تلك الحيوانات تبدو فى خضم ذلك الضباب كما الاشباح .

ولم تكن هذه الحيوانات بلا ريب مقدمة القطيع ، بل اطراف جناحه الأيسر ، فقد تعالى من ورائها خوار هائل ، وضجة تخبط اجسامها ، ودبيب آلاف حوافرها الذى كان يهز الارض .

وفى تلك اللحظة تعالت الى اسماع اوليج وستاخوفيتش اصوات تتحدث الالمانية تقترب منهما الى يمين الطريق . وقد كانت تلك الاصوات تعكس مدى نشاط وحيوية اصحابها بعد قسط جيد من الراحة . كما وكانت اقدامهم تخوض الاوحال دونما وهن .

وانتقل اوليج وستاخوفيتش فى خطوات سريعة وقد مالا بقامتيهما ، الى موقع بقية رفاقهما .

كان توركينيتش يقف الى جوار نتوء الشاطىء لا يبعد عن الكوبرى باكثر من عشرة امتار يحمل رشاشه الذى تعلق بكتفه اليسرى ، يجول بناظريه بعيدا وقد ظهر راسه بالكاد بين الشجيرات والاعشاب الجافة المبللة . وعند قدميه كان يجلس جينيا موشكوف ذلك الشاب الاشقر الساخط والذى لف شالا من

الصوف حول عنقه ، يحمل رشاشا تدلى من كتفه اليسرى ، فيما تعلق ناظراه بالكوبرى . اما بقية الشباب فكانوا يرقدون بمحاذاة الشاطئ الواحد تلو الآخر ، فى صف اوله سيريوجكا ، ونهايته فيكتور اللذان كانا مسلحين كذلك برشاشين .

وانبطح اوليج وستاخوفيتش ارضا بين موشكوف وتيولينين .

وبدا صوت الجنود الالمان المسنين وكانما يطرق آذانهم عن قرب ، فى نبرة هادئة لا تنم عن قلق . وجثا تركينيتش على احدى ركبتيه وامسك برشاشه فى وضع الاستعداد ، وانبطح موشكوف وسوى سترته القطنية المبللة ، ليضع رشاشه كذلك فى وضع الاستعداد .

وراح اوليج ينظر فى سذاجة طفولية الى الكوبرى ، حيث تعالى فجأة دبيب الاقدام ، لتظهر مجموعة من الجنود الالمان الذين تلطخت معاطفهم بالاوحال وقد تدلت بنادق البعض فى غير اكتراث من الاحزمة بينما استقرت على ظهور البعض الآخر .

وكان عريف طويل القامة كث الشارب أصفره ، يسير ضمن من تقدم من الجنود يقص امرا ما فيما يستدير احيانا ، موجها حديثه الى من تخلف عنه . وقد كان يلتفت برأسه فى ذلك الاتجاه الذى تمدد فيه الشبان على الشاطئ ، كما وهامت انظار الجنود فى فضول الانسان الذى يعبر احدى المناطق للمرة الاولى ، تتفحص فى غير وعى ما على يمين ويسار الكوبرى . ولما كانوا لا يتوقعون وجود الفدائيين فى مثل هذا المكان فلم تقع انظارهم عليهم .

وفى تلك اللحظة انطلقت فى صوت يصم الآذان نيران رشاش تركينيتش ثم موشكوف ، لتتبعهما طلقات البنادق فى غير انتظام .

وقد حدث كل ذلك مباغتة وعلى غير ذلك النحو الذى تصوره اوليج ، لدرجة انه راح ينظر للوهلة الاولى فى دهشة الاطفال الى ما يجرى وحتى شعر بدفقة داخلية تؤكد ضرورة مشاركته اطلاق النيران ، الا ان كل شىء كان قد انتهى . فلم يكن هناك جندى واحد على الكوبرى ، حيث سقطت غالبيتهم ، فيما استطاع الهرب اثنان لم يكونا قد اعتليا الكوبرى بعد . الا ان سيريوجكا وموشكوف الذى هرول فى اثره وستاخوفيتش بعدهما ، راحوا

يهرولون على الشاطئ ليردونهما قتيلين .

وتسلق تركينتش وبعض الفتيان الكوبرى ، حيث وجدوا احدهم لم يلفظ بعد انفاسه الاخيرة ، ليجهزوا عليه . وصاروا بعد ذلك يجرونهم من اقدامهم ليخفون جثثهم فيما بين الشجيرات ، فيما صادروا اسلحتهم . اما القطيع الذى كان يمتد لبضعة كيلومترات فقد توقف يروى ظمأه ، حيث كان بعضه يشرب من مكانه على الشاطئ ، فيما يفعل البعض الآخر ذلك وقد دلف باقدامه الامامية واحيانا بالخلفية كذلك الى داخل النهير ، فيما يتعالى صوت نفخ خياشيمها الذى بدا كصوت بضع مضخات لسحب المياه .

وقد كان ذلك القطيع الضخم يجمع ما بين ثيران العمل العادية الحمراء والرقطاء ، وذات القرون السميكة ، عريضة الصدور وكانما نحتت من معدن ، والابقار من مختلف الانواع ، ذات الارداف المستديرة والضروع الحمراء التى لم تمس ، وغيرها من ذات القرون التى نبتت على جباهها الملساء ، متعددة الالوان ، والابقار الهولندية السمراء والحمراء متباينة الالوان ، والتى يكسبها اللون الابيض احتراما لتبدو وكانما ذات مرايل واغطية رؤوس .

وكان الرعاة رجالا طاعنى السن تاقلموا على السير فى تمهل خلف حيواناتهم ، او تعودوا على الحياة فى سنوات الحرب ، حتى انهم لم يعيروا اهتماما لاطلاق الرصاص الذى جرى الى جوارهم ، حيث افترشوا الارض المبللة على شكل دائرة خلف القطيع وراحوا يثرثرون . غير انهم سرعان ما هبوا واقفين حين وقعت انظارهم على المسلحين .

ورفع الشباب اغطية رؤوسهم الشتوية عن رؤوسهم فى احترام محيين اياهم .

وذكر عجوز قصير القامة مفلطح القدمين يرتدى صديريا من جلد الغنم فوق جلبابه القصير :

– تحية ايها السادة الرفاق !

واستنادا الى ذلك السوط المجدول الذى كان يحمله ، على خلاف الآخرين الذين كانوا يحملون سياطا عادية طويلة ، ادرك

الشباب كونه رئيسا لهم . وقد استدار الى رفاقه رغبة منه فى طمانتهم ، ليقول :

– انهم كذلك من الفدائيين .

وذكر اوليج فيما يرفع غطاء راسه قليلا ليرتديه من جديد :

– معذرة أيها الطيبون . لقد قضينا على الحراس الالمان ، ونرجو مساعدتنا فى تفريق القطيع فى كل ارجاء البرارى حتى لا يستفيد منه الالمان .

وبعد برهة من الصمت ذكر عجوز آخر قصير القامة مفعم بالحركة :

– اه . . نفرق القطيع ! أليست هذه ماشيتنا جئنا بها من اراضى الدون ؟ كيف لنا تفريقها فى اراض غريبة ؟

وذكر اوليج وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة :

– وهل سوف تعودون بها مرة اخرى ؟

واعلن الجد موافقته على الفور قائلا :

– هذا صحيح . . . فليس ذلك بالامر الممكن .

– اننا اذا ما فرقناها ، فيمكن ان تئول الى مواطنينا .

وفجاة امسك العجوز براسه ليقول فى يأس ودهشة :

– آه . . وآه . يالها من ثروة كبيرة !

وهكذا اتضح للشباب مدى معاناة الكهول الذين اضطروا الى ان يسوقوا مثل هذه الثروة الهائلة من المواشى من اراضيهم الى الارض الالمانية الغريبة ، ليشفقوا على الكهول ويتاسفوا على الماشية ؛ بيد انه لم يكن ثمة وقت لديهم !

وذكر اوليج فيما يتناول السوط من يد العجوز القصير متوجها نحو الماشية :

– هات يا جدى ذلك السوط .

وكان القطيع يتحول تدريجيا الى الشاطئ الآخر للنهير بعد ان تروى الابقار والثيران ظماها ، يبحث بعضها عن بقايا الاعشاب الجافة ، فيما يتشمم الارض القفرة المبللة ، بينما وقف البعض الآخر يعرض ظهوره للامطار او يتلفت حوله وكانما يتساءل : اين انتم ايها الرعاة ؟ ما عسانا ان نفعل بعد ذلك ؟

وراح اوليج فى ثقة وهدوء بالغين شان من يعيش حياته

الطبيعية يشق طريقه بين الماشية ، يدفع احداها ، ويربت بطن او رقبة الاخرى ، ويلهب بسوطه الثالثة ، وحتى عبر النهير ليبلغ المكان الذى تجمع فيه أكثر عدد منها . وتبعه الجد ذو الصديرى الفرائى كى يقدم له العون ، فيما يحمل سوطه المضفر . كما وهرع اليهما بقية الكهول والشباب .

وراحوا يصيحون ويطرقعون بسياطهم حتى استطاعوا بعد جهد جهيد تقسيم القطيع الى قسمين ، مما استنفذ منهم وقتا كثيرا .

وذكر العجوز ذو الصديرى الفرائى:

– كلا . . ان هذا الامر لن يجدى . فلتطلقوا عليها نيران رشاشاتكم فقد خسرناها فى كل الاحوال .

تاوه اوليج وزر عينيه وكانما يشعر بالم ، ثم ما لبث ان علت وجهه فى نفس اللحظة امارات وحشية ، ليتناول رشاشه من على كتفه ويطلق دفعة واحدة من نيرانه على القطيع .

وسقطت بعض الابقار والثيران ، لتندفع اخرى جريحة تئن نحو البرارى . وما ان وصلت رائحة البارود الى خياشيم ذلك الجزء من القطيع حتى اندفع فى البرارى يزلزل الارض تحت حوافره . وقام سيريوجكا وجينيا موشكوف على التوالى باطلاق نيران رشاشاتهم على الجزء الثانى من القطيع ليتفرق بدوره .

وهرول الشباب فى أثره يطلقون نيرانهم على كل مجموعة من الماشية تتوقف متجاورة . وهكذا خيّمت على البرارى اصوات اطلاق النيران وخوار الماشية ودبيب حوافرها وطرقعة السياط وصراخ البشر الرهيب . وكان الثور حين تصيبه الرصاصة اثناء ركضه يتوقف فجاة ، يثنى ساقيه الاماميتين بطيئا ثم يسقط فى قوة على خيشومه . اما الابقار المصابة فقد كانت ترفع رؤوسها الجميلة لتخور عاليا ثم تهوى بها فى عجز . وهكذا انتشرت الجثث فى كافة الارجاء تبدو حمراء فى خضم الضباب ، تغطى الارض السمراء .

وحين راح الشباب يتفرقون كل منهم فى اتجاه ، كان كل منهم يصادف فى طريقه تارة هنا واخرى هناك بعض الابقار والثيران انتشرت فى البرارى .

وبعد بعض الوقت تصاعد الدخان عاليا فوق البراري . فقد قام سيريوجكا تيولينين بتكليف من تورکينيتش باضرام النيران في الكوبرى الخشبى الذى كان قائما حتى ذلك اليوم مما يدعو الى الدهشة .

وانصرف اوليج وتورکينيتش سوية .

وتساءل اوليج فى حيوية :

– هل لاحظت قرون تلك الابقار التى نمت على جباهها الملساء ، فيما تنحنى اطرافها الى الداخل وحتى تلتقى تقريبا ؟ انها من شرق براري سالسكايا ، وقد تكون من براري استراخان . وهى ماشية هندية ، يعود تاريخها الى زمن المغول .

وتساءل تورکينيتش فى ريبة :

– ومن اين عرفت ذلك ؟

– لقد كان زوج امى يصطحبنى معه ايام كنت طفلا ، حين كان يخرج لقضاء امور تتعلق بها . وهو انسان ذو حنكة وخبرة فى هذا المجال .

وذكر تورکينيتش :

– لقد ابلى ستاخوفيتش اليوم بلاء حسنا .

وذكر اوليج فى غير ثقة :

– نعم . . . لقد قمت آنذاك مع زوج امى برحلات كثيرة . ولك ان تتصور الدنيبر والشمس والقطعان الكبيرة فى البراري . ومن ذا الذى يمكنه ان يتصور آنذاك ، اننى . . . اننا . . .

وهنا زرّ اوليج عينيه تعبيرا عن الألم واشاح بيديه ، ليلتزم الصمت حتى بلغ بيته .

الفصل الخمسون

فطن الناس ، بعد ان استطاع الالمان بالحيلة ارسال اول مجموعة من سكان المدينة للعمل بالمانيا ، الى ما يتهددهم من جراء ذلك وراحوا يتهربون من تسجيل اسمائهم فى مكتب العمل .

وكان الالمان يقومون باصطياد السكان فى الشوارع وفى

المنازل كما كانوا يفعلون فى زمن العبودية حين كانوا يتصيدون الزنوج فى الادغال .

وكانت جريدة «الحياة الجديدة» التى تصدر فى فوروشيلوفجراد عن القسم السابع لدى الادارة العسكرية تنشر دائما خطابات بعث بها المرحّلون الى المانيا الى ذويهم يشرحون لهم فيها وحسبما تدعى الجريدة مدى طيبة وهناء الحياة هناك ، وكذلك حول كونهم يتقاضون اجورا جيدة .

كما وكانت نادرا ما تصل الى كراسنودون خطابات الشباب الذين كان يعمل بعضهم فى بروسيا الشرقية كعمال اجراء او خدما بالمنازل . ولم تكن الرسائل تحمل علامات رقابة البريد ، وكان من الممكن معرفة الكثير الذى يتوارد فيما بين سطورها ، الاّ انها لم تكن تتحدث وفى ايجاز سوى عن مظاهر الحياة الخارجية ، وفيما كانت غالبية الأهالى لا تتلقى اية رسائل على الاطلاق .

وقد ذكرت المرأة التى تعمل بمركز البريد لأوليا ان الرسائل الواردة من المانيا تخضع لرقابة شرطى المانى يعرف الروسية عين خصيصا لهذا الغرض . وذكرت انه يحجز الرسائل ليلقى بها فى درج المكتب حيث يغلقه بمفتاحه ، وحتى تتجمع اكبر كمية منها فيقوم باحراقها .

وبتفويض من قيادة «الحرس الفتى» تولت اوليانا جروموفا كل شئون العمل ضد تعبئة وترحيل الشباب ، فراحت تكتب وتوزع المنشورات ، وتساعد من كان مهددا بالترحيل فى الالتحاق بالعمل فى المدينة ، او فى اعفائه بحجة المرض عن طريق ناتاليا الكسييفنا ، بل وكانت تقوم احيانا باخفاء من جرى تسجيلهم للترحيل ومن هرب منه ، فى النجوع .

ولم تكن اوليانا تقوم بذلك لأنها فوضت بالقيام به وحسب ، بل وانطلاقا من وازع داخلى ، حيث كانت تشعر ببعض الذنب ازاء كونها لم تستطع تجنيب فاليا ذلك المصير الرهيب . وقد راح هذا الشعور يتعقبها مع كل يوم ، يعلن عن نفسه اكثر حدة لانها لم تتلق هى وام فاليا اية رسالة منها .

وفى مطلع ديسمبر وبمساعدة تلك المرأة العاملة بمركز

البريد ، استطاع الشباب سرقة الخطابات من مكتب الرقيب ، لتجدها اليوم ماثلة امامها .

ومع حلول الشتاء عادت اوليانا تعيش فى مسكنها الصغير برفقة كل اعضاء اسرتها . وكانت شان غالبية اعضاء «الحرس الفتى» تخفى انتماءها لتلك المنظمة عن أهلها .

وكم كانت معاناتها رهيبة حين راح والداها خوفا عليها يحاولان الحاقها بالعمل . وكانت الأم من مكانها بالفراش ترنو اليها فى تضرع بعينيها السوداوين الكبيرتين تارة ، فيما تهم بالبكاء تارة اخرى . اما الأب ماتفى ماكسيموفيتش فقد صرخ ينهر ابنته لاول مرة منذ اعوام عديدة . وتدفق الدم الى وجهه حتى بلغ أعلى جبهته الصليعة . غير ان ثمة ما ينم عن شفقة تبدى فى ما تبقى من شعيرات برأسه ، وفى عجزه عن السيطرة على ابنته رغما عن جسده الضخم بارز العظام وقبضتيه الرهيبتين .

وقد ذكرت اوليانا انها سوف ترحل عن البيت اذا ما سمعت مرة اخرى تانيبا من أمها او من أبيها .

واعترى الارتباك والحيرة ماتفى ماكسيموفيتش وماترينا سافيليفنا ، حيث كانت ابنتهما المفضلة . وشعر الوالد للمرة الاولى بانه فقد سيطرته على ابنته ، اما الأم فقد كانت تئن تحت وطأة المرض لدرجة لم تكن تسمح لها بالاصرار على موقفها .

وقد كانت اوليانا امعانا فى محاولتها اخفاء نشاطها ، تقوم فى حيوية باداء الشئون المنزلية ، اما وحين كانت تضطر الى الغياب عن المنزل ، كانت تتذرع بمدى وطأة وظلمة حياتها التى لا تجد فرصة للترويح عن نفسها فيها سوى مع صديقاتها . وكثيرا ما كانت تشعر بنظرات امها الحزينة تلسعها وكأنما تتسلل الى أعماقها . اما الأب فقد غدا يشعر بالخجل فى حضرة ابنته ، ويلتزم الصمت فى وجودها فى غالبية الأحيان .

اما وضع اناتولى فقد كان على النقيض . فحين رحل الأب الى الجبهة ، تولى اعباء رب العائلة ، حيث كانت الأم تانيسيا بروكوفيفنا وشقيقته الصغرى تلبيان كل اشارة تنده عنه وتستجيبان لكل كلمة يقولها . وها هى اوليانا تجلس امام كيس الخطابات فى بيت اناتولى ، وليس فى بيتها ، وحيث كان صاحب

البيت قد ذهب آنذاك الى ليليا ايفانيخينا فى سوخودول . وراحت تدس أصابعها الطويلة فى الأظرف التى قصها الرقيب لتتناول الخطابات وتقرأ اولى سطورها على عجل ثم تضعها على المائدة .

كانت الاسماء والالقاب ، وكلمات التحية التقليدية الى الوالدين والشقيقات ، والتى تمس شغاف القلوب بسذاجتها ، تتوالى امام ناظرى اوليانا كثيرة ، كثيرة ، استغرقت مطالعة سطورها الاولى فقط زمنا كثيرا . الاّ انها لم تجد فيما بينها خطابا من فاليا .

وكانت اوليانا تجلس وقد تقوس ظهرها ووضعت راحتيها على ركبتيها ، وتعلق ناظريها بالفراغ فى وهن . كان الهدوء والصمت يخيمان على المنزل ، حيث كانت تانيسيا بروكوفيفنا وشقيقة اناتولى الصغرى قد خلدتا الى النوم . وكان ضوء المصباح الصغير الذى يشوبه خيط رفيع من الدخان يتموج تحت تأثير أنفاس اوليانا تارة هنا واخرى هناك . وكانت ساعة الجدار العتيقة المعلقة فوق راسها تحصى الثوانى فى صوت شابه الصدا «. . تريك تراك – تريك . . تراك» . وقد كان منزل آل بوبوف شان منزل أوليا يقع منعزلا عن مساكن الحى . وقد ترك هذا الاحساس بالعزلة بصماته على اوليانا منذ طفولتها ، ولاسيما فى ليالى الخريف والشتاء الباردة . وكان بيت آل بوبوف متين البنيان لدرجة أن الرياح القوية فى الخارج والتى تؤذن بقدوم الشتاء ، لم تكن تصل الى الاسماع الاّ بالكاد من وراء ضلف النوافذ .

وكانت اوليانا تشعر بنفسها وحيدة لا أنيس لها فى هذا العالم الصاخب بكثير من الاصوات المبهمة غير الطيبة ، والذى تضيئه اشعة ذلك المصباح الصغير التى تتراقص عالية واطية .

لماذا خلق العالم على هذا النحو الذى يتعسر على المرء فيه منح الآخرين قلبه حتى النهاية ؟ واذا كانت قد ارتبطت بفاليا منذ طفولتها المبكرة وتمازجت روحاهما فلماذا لم تقم ، هى اوليانا ، بهجرة بيتها بكل ما يحفل به من مشاغل يومية ، وبالتخلى عن كل عاداتها ورفاقها وذويها ، كى تكرس كل حياتها من أجل انقاذ فاليا ؟ لماذا لم تذهب اليها كى تكون الى جوارها ، تمسح دموعها وتفتح أمامها طريق الحرية ؟ وكان صوت من الاعماق يتردد معلنا

«لأن ذلك أمر مستحيل . . . ولأنك وهبت قلبك لما هو أكبر من فاليا وحدها . . . لقد كرسته لتحرير الأرض الحبيبة» . وراحت تقول فيما بين نفسها : «كلا . . كلا . . لا تبحثى عن المبررات . انك لم تفعلى ذلك حين لم يكن الوقت قد فات بعد ، ولأن قلبك كان آنذاك خاليا من العواطف والمشاعر شأن الآخرين !»

وفكرت اوليانا : «أوليس من الممكن اتيان ذلك اليوم ؟» . واستغرقت فى احلام طفولية ، لتجد البواسل القادرين على تلبية ندائها ، وتخطى كافة العقبات ، وخداع الحكام الألمان ، ولتصل فى النهاية الى فاليا وتقول لها : «لقد بذلت كل ما فى وسعى ، ولم اضن بجهد لانقاذك . . . وها أنت حرة طليقـــة . . .» . آه . . لو كان ذلك ممكنا ! غير ان ذلك مستحيل ، فلا وجـــود لأمثال اولئك البواسل ، علاوة على أنها أضعف من ان تقوم بمثل تلك المهمة ... كلا ... لقد كان يستطيع ذلك الصديق ... لو كان لفاليا صديق !

وهل لديها هى ، اوليانا ، مثل هذا الصديق ؟ من ذا الذى يمكن ان يفعل ذلك من اجلها اذا ما وجدت نفسها فى مثل هـذا الوضع ؟ كلا . . . ليس لديها مثل هذا الصديق . ولربما يكون لا وجود فى هذه الدنيا لأمثال هؤلاء الاصدقاء !

أوليس هناك من سوف تحبه فى هذا العالم ؟ ومن يكـــون ؟ انها لم تره بعد ، وان كان يعيش فى أعماق روحها كبيـــرا ، صدوقا ، قويا ، ذا نظرات جسورة تتسم بالطيبة . وراح الظمأ للحب يقض مضاجعها . آه لو كانت تستطيع اغماض عينيهـــا ونسيان كل ما حولها ، كى تهب نفسها لمن تحب . . . لقـــد تألقت عيناها السوداوان اللتان عكستا ضوء المصباح الصغير المشوب بالدخان ، باشعة الشـــوق الجارف الذى راح يضطرم تارة ، ويخبو تارة أخرى .

وفجأة تعالى الى اسماع اوليانا تأوه خافت أشبه بصـــوت يناديها ، لتعتريها الرجفة وليرتعش أنفها الرقيق . آه . . لقد كانت شقيقة اناتولى الصغرى تتنهد اثناء نومها . كانت كومـــة الخطابات ملقاة أمامها على المائدة ، بينما كانت خيوط الدخـــان الرقيقة تتصاعد من شريط المصباح ، وترامـــى من وراء ضلف

النوافذ صوت الرياح رفيعا ودقات ساعة الحائط تواصل احصاء الثوانى «تريك – تراك . . . تريك – تراك» .

وكست الحمرة وجنتى اوليانا ، بحيث لم تستطع هى نفسها تفسير سر خجلها . . . هل لكونها رفضت العمل جريـــا وراء الاحلام ، ام لأنها لم تفصح فى احلامها عما يمكن ان يكون مدعاة للخجل . وراحت تعود من جديد لتصفح الخطابات ، وهى غاضبة من نفسها ، تبحث فيها عما يمكن ان يعود عليهـــا بالنفع فى نشاطها .

وقفت اوليانا قبالة اوليج وتوركينتش تخاطبهما قائلة :

– اه . . لو قراتما هذه الخطابات ! انه لأمر رهيب ! . . لقد ذكرت ناتاليا الكسييفنا ان الألمان قاموا طوال تلك الفترة بترحيل ما يقرب من ثمانمائة من سكان المدينة ، واعدوا قائمة سريـــة باسماء ألف وخمسمائة ، تتضمن العناوين وغيـــر ذلك مـــن المعلومات . كلا . . . يجب القيام بتدبير مضاد ، قد يكـــون بمهاجمتهم اثناء عملية الترحيل ، او بقتل هذا الالمانى المدعـــو شبريك .

وذكر اوليج :

– ان قتله لن يجدى ، حيث أنهم سوف يقومون بارســـال غيره .

وذكرت فيما تعكس امارات وجهها مشاعر الثأر وعلى حيـــن غرة :

– احراق القوائم . . . واعرف كيفية ذلك . ينبغـــى اضرام النار فى مكتب العمل .

وقام بهذه العمليـــة التى تعد واحدة من عمليات «الحرس الفتى» الخرافية سيريوجكا تيولينين وليوبكا شيفتسوفا بالتعاون مع فيتيا لوكيانتشينكو .

كان الطقس يميل فى تلك الايام الى البرودة يعلن عن قدوم الشتاء ، حيث كانت درجة الحرارة تنخفض كثيرا عنـــد الليـــل ، لتتجمد الأوحال وآثار عجلات العربات بالشوارع ، لتظل على هذا النحو وحتى تذيبها شمس منتصف النهار .

كانت نقطة التجمع بحديقة منزل فيتيا لوكيانتشينكو . وعبر الثلاثة خط السكة الحديدية ثم ساروا فى اتجاه التل ، متفادين الطريق والممرات فى تحركاتهم . وكان سيريوجكا وفيتكا يحملان صفيحة ممتلئة بالبنزين ، وبعض زجاجات السائل الحارق ، بالاضافة الى سلاحهما الشخصى . أما ليوبكا فقد تسلحت بزجاجات ممتلئة بالعسل ، وبعض أعداد جريدة «الحياة الجديدة» .

كان الصمت مطبقا الى حد احتمال سماع اى صوت يصدر ، او اية عثرة ، او حركة غير محسوبة لمن يحمل تلك الصفيحة المعدنية الممتلئة بالبنزين ومما كان يمكن أن يكشف عن وجودهم . وقد كانت الظلمة حالكة لدرجة أنهم كانوا يجهلون احيانا تحديد موقعهم على الرغم من معرفتهم الجيدة للموقع . كانوا يتقدمون خطوة ، ثم يتوقفون يصيخون السمع ، ثم يتقدمون الأخرى وهكذا . . .

هكذا مر الوقت بطيئا وكانما لا نهاية له . وكم كان غريبا انه وحين تعالى الى اسماعهم دبيب خطوات حارس المبنى ، خفت حدة رهبتهم . وكان وقع خطوات الحارس يتعالى بوضوح اثناء الليل احيانا ، وينقطع احيانا اخرى ، حين يتوقف فى محاولة لسماع ما قد يجرى حوله ، او ربما بغية الراحة بعض الوقت عند مدخل المبنى .

وكان مبنى مكتب العمل ذا واجهة طويلة تشرف على مقر الادارة الزراعية . ولم يكونوا قد بلغوه بعد ، الاّ ان خطوات الحارس كانت تؤكد انهم وصلوا جانبه ، ليلتفوا حول جانبه الايسر حتى يستطيعوا الدخول عبر جداره الخلفى الطويل .

وهنا ، توقف فيتكا لوكيانتشينكو على مسافة عشرين مترا تقريبا من المبنى ، حتى تقل الجلبة المحتملة ، فيما تقدم سيريوجكا وليوبكا الى النافذة فى هدوء .

وسكبت ليوبكا العسل على أسفل زجاج النافذة المستطيل ، ثم لصقت عليه احدى صفحات الجريدة . وضغط سيريوجكا على الزجاج الذى انكسر دون أن يتساقط على الأرض . ثم راح ينتزعه من مكانه فى صبر واناة كما وفعلا نفس الشىء مع زجاج الاطار الثانى للنافذة .

وبعد أن فرغا من ذلك توقفا لالتقاط أنفاسهما . وكان الحارس

يدق الأرض بقدميه عند المدخل وكانما سعيا وراء الدفء ، ولذا فقد اضطرا الى الانتظار طويلا وحتى ينصرف من مكانه . وقد كانا يخشيان أن يسمع من مكانه عند المدخل خطوات ليوبكا داخل المبنى . وحين انصرف الحارس هبط سيريوجكا بقامته قليلا لترتقى ليوبكا يديه المتشابكتين باحدى قدميها لتنقل الأخرى عبر النافذة التى أمسكت باطارها . واذ أمسكت بالحائط من الداخل جلست على قاعدة النافذة فيما شعرت بحافة الأطار السفلى تشق ساقيها . الاّ انها لم تكن لتعير هذه الأمور التافهة اهتمامها وراحت تنزلق بقدمها نحو الأرض وحتى بلغتها اخيرا ، لتصبح بكامل قوامها داخل المبنى .

وناولها سيريوجكا صفيحة البنزين .

وقد قضت بالداخل فترة طويلة من الزمن مما اثار قلق سيريوجكا خوفا من أن تصطدم فى الظلام بكرسى او مائدة .

وحين ظهرت ليوبكا من جديد الى جوار النافذة كانت رائحة البنزين تنبعث نفاذة منها . ونظرت الى سيريوجكا والابتسامة ترتسم على شفتيها ثم رفعت ساقها تتجاوز بها قاعدة النافذة ثم مدت يدها وراسها ليمسك سيريوجكا بها من تحت ابطها ويساعدها فى الخروج .

كان سيريوجكا يقف وحيدا الى جوار النافذة التى انبعثت منها رائحة البنزين ، ولبث فى مكانه برهة من الزمن تكفى وفقا لحساباته ، فيتكا وليوبكا للابتعاد المسافة المناسبة .

وعندئذ تناول من تحت ثيابه زجاجة السائل الحارق والقى بها بكل قوة عبر النافذة المفتوحة . بلغت درجة الاشتعال قوة أعشت ناظريه . ولم يلق ببقية الزجاجات وانطلق يهرول فى اتجاه التل نحو خط السكة الحديدية .

وصار الحارس يصيح ويطلق النيران فى اثره ، لتصفر احدى الرصاصات عالية فوق راسه . وكانت المنطقة تغرق تارة فى الأضواء الشاحبة ، لتعود تارة اخرى الى الظلمة التى تلفها من جديد . وفجاة اندفع عمود من اللهب الى عنان السماء ليغمر الضوء المكان وكانما الوقت نهارا .

خلدت أوليانا فى تلك الليلة الى مخدعها دون أن تغير ثيابها .

وكانت تتوجه الى النافذة فى هدوء حتى لا توقظ أحدا لترفع ستارة تعتيمها بعض الشىء ، الا ان الظلمة كانت تخيم على كل ما حولها . وقد اعترت مشاعر القلق ازاء ليوبكا وسيريوجكا ، ليخيل اليها انها عبثا قد فكرت فى ذلك الامر . ومرت الثوانى بطيئة بطيئة ، حتى شعرت أوليانا بالانهاك والى أن غلبها النعاس .

وفجأة استيقظت من نومها لتندفع نحو الباب ، وقد اصطدمت باحد المقاعد فى طريقها . وهبت الأم مذعورة تسالها ، الا انها لم تجب شيئا وخرجت فى فستانها ودون معطف الى الفناء .

فقد تعالى وهج الحريق فوق المدينة فيما وراء التلال ، وترامت الى الأسماع طلقات بعيدة ، وصراخ كما خيّل لأوليانا . وكانت اضواء اللهب بعيدا فى تلك المنطقة النائية عن المدينة تمزق غلالات الظلام حول أسقف المنازل والمبانى الخشبية الملحقة بها فى الأفنية .

بيد ان هالة الحريق لم تثر فى نفس اوليانا ما كانت تتوقعه . فقد تمازجت الهالة واضواؤها والصراخ وطلقات الرصاص وصوت الأم الوجل ، لتثير فى روحها شعورا مبهما يتسم بالقلق . وقد كان ذلك تعبيرا عن القلق ازاء ليوبا وسيريوجكا وخاصة ازاء منظمتها فى ذلك الوقت حين يبحثون عنها . كما وكان قلقا ازاء عدم فقدان اكبر واسمى واطيب ما فى هذا العالم ، وما وعته روحها ، حين يضطر المرء الى ممارسة التخريب والدمار . وقد كانت أوليانا تعانى مشاعر القلق هذه لأول مرة فى حياتها .

الفصل الحادى والخمسون

فى الثانى والعشرين من نوفمبر ١٩٤٢ التقطت موجات عشرات اجهزة الراديو السرية فى مختلف مناطق مقاطعة فوروشيلوفجراد بلاغ مكتب الاعلام السوفييتى «آخر ساعة» حول تمكن القوات السوفييتية من قطع خطين من خطوط السكة الحديدية التى تغذى الجبهة الالمانية عند ستالينجراد ، واسر اعداد كبيرة من الألمان . وفجأة ظهر الى النور كل ما قام به واشرف عليه ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو يوما بعد يوم من عمل سرى مجهول ،

وبدأ يتسم بطابع الحركة الشعبية العامة ضد «النظام الجديد» .

وكان كل يوم جديد يأتى بانباء جديدة حول تطوير القوات السوفييتية لانتصاراتها عند ستالينجراد . وفجأة تحول كل ما كان يجول مبهما فى نفس كل انسان سوفييتى كالترقب والأمل ، الى دم فوار يغلى فى قلبه معلنا : «انهم قادمون !» .

وفى وقت مبكر من صباح ٣٠ نوفمبر جاءت بولينا جيورجيفنا وكعادتها ، الى ليوتيكوف باللبن فى سطلها . وكان فيليب بيتروفيتش متقيدا بنفس الجدول اليومى الذى اتبعه منذ التحق بالعمل فى الورش . وكان الوقت صباح الاثنين . وقد وجدت بولينا جيورجيفنا فيليب بيتروفيتش يرتدى حلته القديمة التى تحمل آثار المعادن وزيوت الماكينات ، حيث كان فى طريقه الى العمل . وقد كانت تلك الحلة هى نفسها التى كان يرتديها ايام العمل فيما قبل الاحتلال . وحين كان يصل الى مقر عمله كان يرتدى فوق تلك الحلة معطفا ازرق مخصصا للعمل . ولم يكن ثمة فرق الا فى كونه كان يحتفظ فيما سبق بذلك المعطف فى صوان بالمكتب ، اما اليوم فيحمله معه تحت ابطه كل يوم . وقد كان فيليب بيتروفيتش قد لف المعطف ووضعه على مقعد خشبى بالمطبخ وحتى يفرغ من تناول طعامه .

وادرك فيليب بيتروفيتش بالنظر الى وجه بولينا جيورجيفنا انها جاءت اليه باخبار ، وفى هذه المرة باخبار ذات فال حسن . واذ مزح قليلا مع بيلاجيا ايلينيشنا ، وان لم يكن ثمة داع لذلك حيث انها وطيلة تلك الاشهر التى عاشها فى بيتها لم تبد اية بادرة تدل على أنها ترى شيئا ، دلف الى غرفته برفقة بولينا جيورجيفنا .

وذكرت بولينا جيورجيفنا فى شىء من الاضطراب وهى تتناول من تحت بلوزتها قصاصة من الورق مكتوب عليها بخط دقيق :

– لقد احضرت لك خصيصا هذا . . . ما جرى التقاطه مساء الأمس .

كانت قد جاءت اليه صباح الأمس ببلاغ مكتب الاعلام السوفييتى «آخر ساعة» حول الهجوم الكبير للقوات السوفييتية فى قطاع الجبهة الرئيسى عند منطقة فيليكى لوكى ورجيف ، واليوم حول وصول قواتنا الى الشاطئ الشرقى للدون .

ولبث فيليب بيتروفيتش ينظر الى الورقة جامد القسمات هنيهة من الزمن ، ثم رفع عينيه الصارمتين ينظر الى بولينا جيورجيفنا يقول لها :

– كابوت . . . هتلر كابوت . . . خلاص . . . خلاص !

لقد لفظ نفس الكلمات التى كان الجنود الالمان ووفقا لأقوال شهود العيان ، يقولونها حين يستسلمون للأسر . لكنه لفظها بنبرة جادة ثم عانق بولينا جيورجيفنا التى ترقرقت دموع الفرحة فى مآقيها . وقالت تسأله :

– هل نطبع منها الكثير ؟

ولم يكونوا فى الآونة الاخيرة يصدرون المنشورات ، بل يوزعون بلاغات مكتب الاعلام السوفييتى المطبوعة والتى كانت الطائرات السوفييتية تلقى بها فى الاماكن المتفق عليها . بيد أن بلاغ الأمس كان على درجة كبيرة من الاهمية ، بحيث سمح فيليب بيتروفيتش باصدار المنشور اللازم . وقال :

– فليصدروهما فى منشور واحد ، وسوف نعلقه هذه الليلة .

وتناول من جيبه ولاعته ليشعل النار فى تلك القصاصة بمنفضة سجائره ، ثم فرك رمادها وفتح الضلفة العليا من النافذة لينفخه عبرها الى الشارع .

ولفح الهواء البارد وجه فيليب بيتروفيتش ، ليتوقف بنظراته على الندى المتجمد الذى كسا اوراق عباد الشمس والقرع بحديقة المنزل . ثم تساءل بنبرة مشوبة بالقلق :

– هل كان الصقيع شديدا ؟

– مثل الأمس . لقد تجمدت البرك حتى قاعها ، ولم تذب مياهها بعد .

وتجمعت الغضون على جبين فيليب بيتروفيتش ، ليلبث واقفا برهة قصيرة يفكر فيما بين نفسه . وكانت بولينا جيورجيفنا تقف فى انتظار تعليمات اخرى الا انه بدا وكانما نسى وجودها ، لتخاطبه قائلة :

– انى ذاهبة .

واجابها على نحو بدا كالذى استيقظ توا من نومه ، وتنهد فى عمق :

– نعم . . . نعم .

وظنته بولينا جيورجيفنا غير معاف .

وحقا ذلك . . . فلم يكن فيليب بيتروفيتش جيد الصحة ، حيث كان مصابا بالنقرس يعانى من ضيق التنفس . بيد أن هذا المرض كان قديما ، كما انه لم يكن مبعث استغراقه فى التفكير .

وقد كان فيليب بيتروفيتش يدرك أن الكارثة فى مثل تلك الأوضاع التى يعيشونها تحل من حيث لا يدرى المرء .

كما وكان ليوتيكوف كرئيس للمنظمة فى وضع جيد ، حيث انه لم يكن على علاقة مباشرة بالادارة الالمانية مما يسمح له بالعمل ضدها دون أن يتحمل أدنى قدر من المسئولية . فقد كان باراكوف هو المسئول الأول قبل السلطة الألمانية . وكان ذلك هو السبب الأساسى الذى جعل باراكوف وبناء على تعليمات ليوتيكوف يبذل قصارى جهده فيما يخص الانتاج حتى يبدو ازاء الادارة والعمال مديرا يجد فى عمله لصالح الالمان . لقد كان عليه أن يفعل كل شىء شريطة التغاضى عن كل ما يفعله ليوتيكوف ضد الألمان .

وقد كان الأمر يبدو على النحو التالى . . . يبذل باراكوف الرجل النشيط المفعم حيوية كل جهده من أجل الابداع والعمل وعلى نحو يلحظه الجميع ، فيما يقوم ليوتيكوف الرجل المتواضع غير الملحوظ للآخرين بتخريب كل شىء ، دون أن يراه أحد . هل هذا يعنى أن العمل لا يجرى فى انتظام ؟ كلا . . . انه يجرى بوجه عام ، لكن فى بطء شديد يتباين مع رغباتهم . اما عن الأسباب فهى ذاتها كما كانت فى السابق . . . «لا عمال ، ولا آلات ، ولا معدات ، ولا وسائل نقل ، ومن ثم فلا انتاج» .

وكان تقسيم العمل القائم بين باراكوف وليوتيكوف يقضى بأن يقوم الأول بعد تلقيه التعليمات والأوامر ، بابلاغ الثانى بها ثم يشن نشاطا مسعورا يستهدف تنفيذها . اما ليوتيكوف فقد كان عليه القيام بافساد كل شىء يجرى .

وقد كان نشاط باراكوف واسع الاطار والذى يرمى الى بعث

الانتاج لا يعود بادنى نتيجة . بيد انه كان يغطى على نحو رائع النشاط المثمر كثيرا لباراكوف كقائد ومنظم لغارات وعمليات الفدائيين التخريبية على الطرق التى تمر عبر منطقة كراسنودون وما جوارها .

وكان ليوتيكوف قد اخذ على عاتقه بعد استشهاد فالكو تنظيم العمليات التخريبية فى كافة مؤسسات انتاج الفحم وغيرها من المؤسسات بالمدينة والمنطقة ، وفى الورش الكهربائية المركزية بالدرجة الأولى ، حيث يتوقف عليها اساسا تصنيع واعداد المعدات اللازمة للمناجم وغيرها من المؤسسات .

وقد كان عدد المؤسسات فى المنطقة كبيرا ، بحيث لم تكن الادارة الألمانية قادرة على الاشراف عليها وحدها دون عون عدد من الموالين لها . وحدث ما كان الناس منذ سالف الأزمان يسمونه بالتظاهر و«الكروتة» * ، حيث راحوا جميعا يتظاهرون بالعمل دون أن يفعلوا شيئا .

كما وكان ثمة من يتولى من تلقاء نفسه المبادرة «بالكروتة» حتى يتبعه الآخرون .

وهاكم على سبيل المثال ، فيكتور بيستريئوف ، زميل نيكولاى نيكولايفيتش الذى كان يعمل بالادارة فى وظيفة اشبه بوظيفة السكرتير او الكاتب . لقد كان مهندسا بحكم تعليمه وعمله ، لم يقتصر على التكاسل وعدم العمل بالادارة ، بل وراح يجمع حوله كل من لا يقوم بشىء فى المناجم ، يعلمهم ماذا عليهم أن يفعلوا حتى يجعلوا الآخرين لا يقومون بشىء . وقد راح يتردد عليه منذ بعض الوقت العجوز كوندراتوفيتش ، الذى بقى حيا بعد استشهاد رفاقه شيفتسوف وفالكو وكوستيفيتش ، كشجرة وحيدة فى مهب الرياح . ولم يكن ذلك العجوز يشك فى ان الألمان لم يقربوه بسبب ابنه الذى راح يمارس تجارة المحرمات ويصادق رجال الشرطة .

وعلى أى حال ، فقد اعترف له ابنه ذات مرة وفى احدى لحظات

---

* تعنى بالعامية المصرية عدم القيام بالعمل على خير وجه . المترجم .

الصفاء الروحى النادرة ، بان السلطة الالمانية اقل نفعا له من السلطة السوفييتية ، معترفا بشىء من الحزن :

– لقد بلغ الفقر بالناس اشده ، واصبح الآخرون بلا نقود !

وذكر العجوز بصوت اجش خافت يشوبه الهدوء :

– فلتنتظر حتى يعود أشقاؤك من الجبهة ، لتذهب انت الى العالم الآخر ، حيث لا عذاب ولا تنهدات .

ولم يكن العجوز كعهده سابقا ايام السلطة الالمانية ، يعمل فى اى مكان ، الا انه راح يقضى ايامه متجولا بين المناجم الصغيرة وكذلك بين مساكن عمال المناجم ، ليغدو دون أن يدرى موسوعة لوضاعات واخطاء وهفوات الادارة الألمانية بالمناجم . وقد كان بوصفه عاملا قديما ذا حنكة ومهارة يحتقر الاداريين الألمان ، وكان احتقاره هذا يتزايد مع كل يوم جديد يكون فيه على يقين اكثر من جهلهم بشئون الادارة والانتاج .

وكان يخاطب بيستريئوف والخال كوليا قائلا :

– فلتحكما على الامر بنفسكما ايها المهندسان الشابان ! انهم يسيطرون على كل شىء فى كل أرجاء المنطقة ، ومع ذلك . . . ليس اكثر من طنين فى اليوم ! اننى اعلم انهم يتبعون النظام الراسمالى ، اما نحن ، وكما يقال : نعمل لانفسنا . او لا يرجع عمر تجربتهم الى مائة وخمسين عاما ، بينما لا يتعدى عمر تجربتنا خمسة وعشرين عاما . ماذا فعل هؤلاء ؟ لقد قام السادة المشاهير والاقتصاديون الأمجاد بتنظيم السرقات على مستوى العالم اجمع .

وبصق العجوز قائلا بصوته الذى بح تماما :

– معذرة أيها السادة !

وذكر بيستريئوف وقد زلّ لسانه يعبر عن حنقه :

– انهم افاقون . انهم لا يستطيعون السرقة فى القرن العشرين ، لقد ضربوا فى عام ١٩١٤ وسوف يضربون اليوم . انهم يحبون السرقة لكنهم لا يستطيعون التفكير . . . برجوازيون صغار ، ضيقو الافق يعيشون على هامش الحياة ! ان البشرية باسرها شاهد على عدم كفاءتهم الاقتصادية التى تبدو واضحة للعيان !

وراح المهندسان والعامل العجوز ودون مجهود يذكر يعدون

الخطط لكل يوم والرامية الى تدمير تلك الجهود الضئيلة التى يبذلها الملازم شفيديه بغية استخراج الفحم .

وهكذا استند نشاط العشرات من الناس على نشاط اللجنة الحزبية للمنطقة للعمل السرى .

وقد كان اصعب واخطر كثيرا على فيليب بيتروفيتش القيام بكل ذلك فى الورش التى يعمل فيها بنفسه . لقد كان يتبع القاعدة التالية : تنفيذ بكل دقة وامانة كافة الأعمال البسيطة التى لا تعنى أى دور هام فى الانتاج ، والمماطلة الى أطول حد ممكن فى تنفيذ الطلبات الكبيرة . ومنذ أولى ايام العمل قامت الورش فى ظل السيطرة الالمانية بالبدء فى اصلاح عدد من المكابس ، ومعدات الضخ فى بعض المناجم الكبيرة ، الاّ انها وحتى اليوم لم تفرغ من اصلاح او اعداد أى منها .

بيد انه كان يستحيل فى نفس الوقت تشويه سمعة المدير باراكوف بحيث تظهر كافة تدبيراته عقيمة النتائج . ولذا فقد كان يجرى تنفيذ بعض الأعمال حتى النهاية ، او حتى ما يقارب النهاية ، الاّ ان حادثا يطرأ عرضا ليتوقف الامر كله . كان المحرك يتعطل دائما ، حيث كان ثمة من يلقى الى داخله بذرات الرمل . وريثما كان يتم اصلاح المحرك ، كانوا يضعون آخر سرعان ما يتعطل فجأة . . . تسخّن اسطوانته ، ويسكب عليها الماء البارد . وقد كان يقوم بكل تلك الأعمال التخريبية البسيطة رجال فيليب بيتروفيتش المنتشرون فى كافة الورش ، والذين يتبعون شكليا رؤساء ورشهم ، الاّ انهم لا ينفذون سوى تعليمات ليوتيكوف .

وفى الآونة الاخيرة قام باراكوف باستنجار عدد كبير من العمال الجدد – من قدامى العسكريين . ففى ورشة الحدادة عمل شيوعيان كانا ضابطين بالجيش الأحمر . وقد كانا يتراسان مجموعات الفدائيين التى تقوم بالاعمال التخريبية على الطرق . وكان يجرى لتبرير تغيب الرجال عن الانتاج ، اللجوء الى الماموريات الوهمية الى المؤسسات الكائنة فى المناطق الاخرى بحجة احضار المعدات اللازمة او استكمال الآلات . كما وكان يجرى ارسال العمال غير المشتركين فى منظمة العمل السرى فى ماموريات مشابهة حتى لا يثيروا ظنونهم . وكان العمال يغدون على يقين من استحالة الحصول

على اية معدات او آلات ، بينما كانت الرئاسة ترى ان المدير ورؤساء الورش يبذلون جهودهم . وهكذا توقف العمل استنادا الى اسس مشروعة .

وقد تحولت الورش الى مركز رئيسى لمنظمة العمل السرى فى كراسنودون ، وكانت القوى التى يجهل الآخرون موقعها متركزة فى مكان واحد ، رهن الاشارة ، وحيث كان الاتصال بها سهلا بسيطا . بيد أن ذلك كان أمرا محفوفا بالخطورة .

كان باراكوف يتسم فى عمله بالجرأة وضبط النفس والتنظيم . فقد كان بوصفه عسكريا ومهندسا يراعى كافة التفاصيل الدقيقة .

وكان يخاطب فيليب بيتروفيتش فى لحظات الانشراح قائلا :

– لقد اعددت كل شىء بحيث لا يقبضون علينا فى حالة تلبس . لماذا ينبغى علينا الاعتماد فى نشاطنا على كوننا اغبى منهم ؟ وما دمنا اذكى منهم ، ينبغى علينا خداعهم . وسوف نخدعهم !

وهبط فيليب بيتروفيتش بذقنه الكبيرة ، بحيث بدا وجهه وكأنما انتفخ نحو الأسفل مما كان يعد دليلا على امتعاضه ، ثم قال :

– انك تتبسط كثيرا فى الحكم على الأمور . انهم المان فاشيست . انهم ليسوا اذكى او اكثر دهاء منك ، وهذا حقيقة . وما الذى يجعلهم فى حاجة الى معرفة ما اذا كنت على حق ام لا ؟ انهم ما ان يتأكدوا من أن الامور لا تسير على ما يرام ، حتى يقتلونك دون ادنى تفكير ، ليجيئوا بنذل ينصبونه مكانك . اما نحن فسوف يكون نصيبنا اما الشنق واما الفرار . ولسنا نملك حق الفرار . كلا . . . يا صاح ، اننا نخاطر كثيرا ، واذا ما كنت حريصا ، فيجب أن تضاعف حرصك ثلاث مرات .

هذا ما كان يقض مضاجع فيليب بيتروفيتش حين يتململ فى فراشه بحجرته المظلمة فيما يرفض النوم النزول ضيفا عليه ليظل يفكر فى كل ذلك ، وفى أن الوقت يمضى ويمضى .

وكلما كان يتأخر تنفيذ الطلبات ، كلما كانت تزيد قائمة الأعطال والحوادث والمتاعب الواردة فى سجل باراكوف مما يجعل موقفه اكثر اهتزازا ازاء الادارة الالمانية . بيد ان الأخطر من كل

ذلك هو أنـــه ومع مرور الوقت راح عدد كبير من عمـــال المؤسسة ، ومن بينهم كثيرون من العمال ذوى الخبرة ، يدرك ، حيث لم يكن من الممكن عدم ادراك ، أن ثمه من يقوم بالأعمال التخريبية عن عمد .

وقد كان باراكوف وثيق الصلة بالألمان ، يتحدث لغتهـــم ، ويبدو غاية فى الصرامة بين العمال حول ما يخص الانتاج ، يعتبر رجلا المانيا . وكان العمال بالورش يتحاشون التعامل معه ، ومن ثم فلم يكن هناك من يشك فيه على الاطلاق . أما مظاهر الريبة فقد تجمعت حول فيليب بيتروفيتش ، حيث انه ندر من كان يصدق فى كراسنودون امكانية انخراطه فى خدمة الألمان . لقد كان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف من رعيل عمال روسيا الذين كانوا يسمونهم فيما قبل ضمير الطبقة العاملة . كان الجميع يعرفونه ويثقـــون فيه . . . والشعب عادة لا يخطىء !

كان يعمل عشرات العمال بالورشة تحت الاشراف المبـــاشر لفيليب بيتروفيتش . ومهما كان يحاول التزام الصمت ، والتظاهر بالتواضع أمامهم فلم يكونوا ليغفلوا عن أن تعليماته التى يلقى بها عرضا ، وكأنما يعبر بها عن بعض التردد او الارتباك ، تعنى الاضرار بالانتاج .

كان نشاطه تعبيرا عن مجموعة من توافه الامور ، لا يعنى كل منها على حدة شيئا يذكر . بيد ان الوقت كان يمر ، وتتراكـم التوافه لتتحول الى شىء كبير ، كما يغدو فيليب بيتروفيتش نفسه اكثر وضوحا . وقد كان المحيطون به فى غالبيتهم الساحقة مـــن انصاره ومعارفه . وكان يعتقد فى وجود الكثيرين بينهم من امثال صاحبة مسكنه بيلاجيا ايلينيتشنا ، والذين يلحظون كل شىء ، ويتعاطفون معه دون ان يظهروا ذلك له او للآخرين ، بل وحتى لأنفسهم . بيد ان امر الافصاح عن هويته لم يكن متعلقا بالكثير من الأنذال ، اذ يكفى لذلك وضيع واحد يمكن ان يودى به .

وكانت الورش مكلفة بالعمل اساسا لاصلاح أكبر مضخة مياه فى كراسنودون ، والتى تتولى امداد مجموعة المناجـــم ووسط المدينة ، بما فى ذلك الورش نفسها بالمياه . وقد جرى منذ حوالى

شهرين القاء مهمة اصلاحها على عاتق باراكوف الذى اوكلها بدوره الى فيليب بيتروفيتش .

وكانت هذه العملية البسيطة ، شأن كل العمليات الأخـــرى تجرى خلافا للعقل السليم . بيد أن الحاجة كانت ماسة لضـــخ المياه . ولذا فقد قام السيد فيلدنير بنفسه عدة مرات بمراجعة العمل ، وأعلن عن امتعاضه الشديد لبطء التنفيذ . وبلغ الأمـر بفيليب بيتروفيتش أن رفض تسليم المضخة حتى بعد تجهيزها للعمل بحجة ضرورة تجربتها قبل التسليم . وكان الصقيع يفرض نفسه صباح كل يوم بقوة شديدة على غير العادة فى مثل تلـــك الايام من كل عام ، بينما كانت كافة المواسير ممتلئة بالميـــاه التى تكون قد تجمدت بطبيعة الحال .

ومع نهاية عمل يوم السبت جاء فيليب بتروفيتش لاستـــلام مضخة المياه . وراح يعلن عن تعنته ازاء تسرب المياه مـــن الصهريج والمواسير ، واخذ فى دقة متناهية يحكم ربط الصواميل والصنابير . وصار رئيس العمال يسير من خلفه صامتا فيما يرى أن كل شىء على ما يرام . أمـــا العمال فقد كانوا ينتظـــرون بالشارع .

واخيرا خرج فيليب بيتروفيتش برفقة رئيس العمـــال الى الشارع . وتناول من جيب سترته علبة تبغ وبضع اوراق للف السجائر قطعت من صحيفة «الحياة الجديدة» ، واخذ يقرى العمال تبغا من ذلك الذين يزرعونه محليا ، جرى اعداده مشوبا بجذور نباتاته . وراح العمال يتناولونه فى حيوية ونشاط . هذا وكان حتى هذا النوع من التبغ نادرا . لقد راحوا يدخنون تبغا مخلوطا بالدريس ، كانوا يسمونه «حشايا الجدة» .

وراح الجميع يدخنون فيما يقفون الى جوار مضخة الميـــاه . وكان العمال يتأملون بما يعنى التساؤل رئيس العمال تـــارة ، وليوتيكوف تارة اخرى . والقى فيليب بيتروفيتش بسيجارتـــه قبل أن يفرغ من تدخينها وراح يفركها بحذائه قائلا :

– الآن ، وعلى ما يبدو ، خلاص ! فليس ثمة من نسلمـــه اياها اليوم ، حيث غدا الوقت متأخرا . فلننتظر حتى يوم الاثنين .

وشعر بنظرات الآخرين اليه والتى تحمل معنى الارتباك ، اذ أن الصقيع يتزايد مع حلول المساء .

وذكر رئيس العمال فى تردد :

– ربما كان من الأفضل تصفية مياه المواسير ؟

وذكر فيليب بيتروفيتش فى صرامة :

– هل نحن فى فصل الشتاء ؟

لم يكن يود على الاطلاق أن تلتقى نظراته مع عينى رئيس العمال ، الاّ أن ذلك حدث صدفة ، ليدرك أنه قد فطن كذلك الى الأمر . ومن المؤكد أن يكون الآخرون قد فطنوا الى ذلك ، حيث ساد الموقف فجأة شىء من التوتر . الاّ أن فيليب بيتروفيتش رابط الجاش ذكر فى غير اكتراث :

– هيا بنا . . .

وانصرف الجميع فى صمت مطبق .

تذكر فيليب بيتروفيتش كل ذلك حين فتح الضلفة العليا للنافذة ، ووقع ناظراه على الندى الكثيف الذى كسا أوراق عباد الشمس والقرع التى أكسبها الصقيع سمرة .

وكما توقع فيليب بيتروفيتش ، كان العمال يقفون فى انتظاره الى جوار المضخة . ولم تكن ثمة ضرورة لابلاغه بفساد شبكة المياه ، حيث انتفخت المواسير وتشققت مما كان يتطلب بدء عملية الاصلاح من جديد .

وعلق فيليب بيتروفيتش على ذلك قائلا :

– يا للأسف . . . من ذا الذى كان يمكن أن يتوقع ذلك ! يا له من صقيع ! . . لن يصيب الوهن عزائمنا . ينبغى تغيير المواسير . حقا انها غير موجودة ، لكننا سوف نسعى من أجل الحصول عليها . . .

كان الجميع يتاملونه فى شىء من الحيرة ، ليدرك أن الجميع يحترمونه لجسارته ، ويهابون ما أقدم عليه ، بل ويهابون أكثر هدوءه .

حقا . . . لقد كان أولئك الذين يعملون مع فيليب بيتروفيتش من انصاره ، لكن الى متى سوف يستمر فى المغامرة بمصائرهم ؟

ووفقا للنظام غير المكتوب السائد فيما بين باراكوف

وليوتيكوف ، لم يكونا يلتقيان فى غير اماكن العمل كيلا يثيرا الظنون بشأن احتمال صداقتهما ، ومن ثم احتمال تعاملهما على أساس لا صلة له بالعلاقات الوظيفية . واذا ما كان الأمر يحتم ضرورة التحادث بشأن أمر عاجل كان باراكوف يستدعى فيليب بيتروفيتش الى مكتبه ، بينما يقوم باستدعاء بقية رؤساء الورش قبل وصوله وبعده .

وفى تلك المرة ظهرت ضرورة ملحة للحديث .

دلف فيليب بيتروفيتش الى مكتبه بالورشة والقى على المكتب بمعطفه الأزرق الملفوف الذى كان يحمله دائما تحت ابطه ، ورفع غطاء راسه وخلع معطفه ومسح براحتيه على شعره الأشيب وسوى بمشطه شاربه القصير وذهب الى باراكوف .

وكانت ادارة الورش كائنة فى مبنى حجرى صغير بالفناء .

وعلى النقيض من غالبية المؤسسات والمساكن الشخصية فى كراسنودون والتى كان الجو فيها مع حلول الشتاء يغدو أكثر برودة من الشارع ، كانت ادارة الورش تنعم بدفء شأن ما تنعم به المؤسسات والمساكن التى يعمل بها ويعيش الألمان . كان باراكوف يجلس فى مكتبه الدافىء يرتدى سترة فضفاضة عريضة الياقة مفتوحتها ، تبدو من تحتها ياقة قميص سماوى جيدة الكواء ، وربطة عنق ناصعة اللون . وكان باراكوف يبدو أكثر نحافة مما كان عليه ، اكسبته الشمس سمرة مما اضفى عليه مسحة الشباب . وقد ترك شعره ينمو ليقوم بتمشيطه على نحو بدا معه متموجا كثا فوق جبهته . وقد اثار هذا الشعر المتموج على جبهته والغمّازة فى ذقنه ، وفى نفس الآن نظرته الواضحة المباشرة الجسورة وعيناه الكبيرتان وشفتاه المضمومتان المكتنزتان ، انطباعا متباينا لدى الآخرين فى مثل هذا الموقف .

كان باراكوف يجلس فى مكتبه لا يفعل شيئا بكل ما يحمل ذلك من معنى . وسعد كثيرا لمقدم ليوتيكوف .

وتساءل فيليب بيتروفيتش وهو يجلس قبالته يلتقط انفاسه :

– هل تعلم الأمر ؟

وانفرجت شفتا باراكوف المكتنزتان عن شبه ابتسامة ليقول :

– فلتذهب الى الجحيم !

– كلا اننى اتحدث بشأن نشرة الأنباء !

وكان باراكوف يملك مذياعا خاصا به ولذا فقد أجابه :

– اعرف كذلك .

وتساءل ليوتيكوف بالاوكرانية ضاحكا فى سخرية :

– وهل سرعان ما يصلون حقا الى اوكرانيا ؟

– هكذا سوف نفعل . . . سنعد حركة «عامة» .

ورسم باراكوف بكلتا يديه دائرة واسعة ، بحيث غدا واضحا لفيليب بيتروفيتش ماذا تعنى «الحركة العامة» التى سوف يعدها باراكوف . ثم دار براحة يده على المكتب وحرك أصابعه على نحو غير محدد قائلا :

– بمجرد أن يصل رجالنا . . .

وذكر فيليب بيتروفيتش بنبرة تعكس ارتياحه الى زميله :

– حقا . . .

– سوف أحضر لك غدا كل الخطة . . . اننا نعانى من نقص فى الجمال والحبال والأموال وليس فى الأطفال . . .

وهنا ضحك باراكوف حيث راقه ما استشهد به من سجع بمحض الصدفة . وقد كان يقصد أن المقاتلين موجودون ، بينما تنقصهم البنادق والذخيرة .

– سأبلغ الشباب بضرورة احضار ما تريد .

ذكر فيليب بيتروفيتش هذا ثم تحول فجأة الى ما يقض مضاجعه فى حقيقة الأمر :

– ان الأمر لا يتعلق بالمضخة . بل يتعلق . . . انك تعرف بأى شىء !

وظهرت تجعيدة واضحة على جبهة باراكوف ، ليقول فى حسم :

– فلتسمع ما اقترحه عليك . . . ما رايك ان اقلتك من عملك ؟ سوف اتذرع بأنك تسببت فى تجمد شبكة المياه ، لافصلك من العمل .

واستغرق فيليب بيتروفيتش فى التفكير ، حيث كان ذلك حلا معقولا . لكنه ذكر بعد برهة من الوقت :

– كلا . . . ليس ثمة مكان احتمى به . وحتى اذا ما وجدت هذا المكان ، فانه من المستحيل ذلك ، حيث ان الجميع سوف يفطنون الى الأمر ، ليلحقك الأذى ، كما ويلحق الآخرين . – ثم اضاف فى حسم : – يستحيل علينا اليوم ان نفقد مثل هاتين الوظيفتين . سوف نواصل متابعتنا لأحوال قواتنا على الجبهة . اذا ما كانوا متقدمين ، فعلينا العمل بحماس لصالح الألمان حتى يكتشف من كانت تراوده الريبة بشأننا ، انه قد أخطأ ، حيث يجد ان وضع الألمان قد تدهور ، فى حين نمارس عملنا بنشاط ! وسوف يكون الأمر سيان ، لأن ما نقوم به ، سوف ينول الى مواطنينا .

وأذهلت هذه الفكرة باراكوف للوهلة الأولى نتيجة بساطتها ، الا انه ذكر :

– لو اقتربت الجبهة كثيرا سوف يجرى تحويلنا لاصلاح الأسلحة .

– اذا ما اقتربت الجبهة سوف نلقى بكل شىء الى الشيطان ونتحول الى العمل الفدائى !

وتوارد الى خاطر باراكوف فى ارتياح : «كم هو عظيم ذلك العجوز» .

وذكر فيليب بيتروفيتش :

– يجب تشكيل مركز آخر للقيادة خارج الورش يمكن ان يكون احتياطيا لك ولى .

وقد راودته رغبة فى ان يقول ما يكون مواساة أو أشبه بالمواساة . . . «ربما لا تكون فى حاجة الى مثل هذا المركز . . .» لكنه شعر بعدم ضرورة الافصاح عن ذلك ليمضى قائلا :

– لقد اصبح رجالنا اليوم ذوى خبرة وحنكة ، ويستطيعون الاضطلاع بمهام العمل دوننا . أوليس ذلك حقا ؟

– حقا !

وذكر فيليب بيتروفيتش فيما تأمل باراكوف فى صرامة ثم رمش له بحاجبه :

– يجب عقد اجتماع للجنة المنطقة . لقد كانت آخر مرة

اجتمعنا فيها قبل وصول الالمان . واين مبدأ الديموقراطية فى العلاقات الحزبية ؟

وانفجر باراكوف ضاحكا . فلم يكن اجتماع للجنة المنطقة قد عقد بالفعل ، حيث كان ذلك امرا مستحيلا فى مثل ظروف كراسنودون . بيد انهما لم يكونا يقرران شيئا هاما بدون التشاور مع القادة الآخرين فى المنطقة .

وشاهد فيليب بيتروفيتش فى طريق عودته الى مكتبه عبر الورشة ، موشكوف وفولوديا اوسموخين وتوليا اورلوف الذين كانوا يعملون على المناجل .

وتظاهر فيليب بيتروفيتش بانه جاء من أجل الاشراف على العمل ، وسار بمحاذاة المائدة التى امتدت الى جوار الحائط لمسافة تقرب من نصف طول الورشة ، والتى كان يعمل البرادون عليها . وقام الشباب الذين كانوا يدخنون ويتسكعون دون عمل ، بتناول مباردهم متظاهرين بالعمل .

وحين اقترب فيليب بيتروفيتش ، رفع اليه موشكوف عينيه ليقول بصوت خافت وابتسامة تتسم بالغضب :

– هيه . . أو نالك عقاب ؟

وادرك فيليب بيتروفيتش أن موشكوف يعرف موضوع المضخة ويسأل عن باراكوف . فلم يكن شأن الشباب الآخرين يعرف الحقيقة بشأن باراكوف معتبرا اياه رجلا المانيا .

وهز فيليب بيتروفيتش راسه وكأنما قد ناله فى حقيقة الأمر عقابا :

– لا داعى للحديث . . .

ثم مضى يسأل اوسموخين وهو يميل نحوه وكأنما يتفحص عمله :

– كيف الحال ؟

ثم استطرد يقول بصوت خافت :

– ابلغ أوليج كى يزورنى هذه الليلة ، كما فعل آنذاك . . .

وكانت تلك حلقة ضعيفة اخرى فى سلسلة منظمة «الحرس الفتى» فى كراسنودون .

الفصل الثانى والخمسون

كلما كان يتوسع الجيش الاحمر فى تحقيق انتصاراته ليس فقط فى منطقة ستالينجراد وعلى نهر الدون ، بل وفى شمال القوقاز ومنطقة فيليكيه لوكى ، كلما كان يتزايد نشاط «الحرس الفتى» ويتخذ ابعادا اعرض .

كانت «الحرس الفتى» منظمة كبيرة انتشرت فى كافة ارجاء المنطقة ، تضم ما يزيد عن مائة عضو ، الى جانب انصارها ومعاونيها .

وتنامت المنظمة ، حيث كان ذلك امرا طبيعيا نتيجة تطويرها لنشاطها ، وهو ما كان واجبا عليها . بيد انه وللحقيقة بدا الشباب اعضاء المنظمة يشعرون بانهم غدوا اكثر وضوحا عن تلك الفترة التى بدأوا فيها نشاطهم . وقد كان ذلك امرا محتوما .

غير انه كلما ازداد نشاط المنظمة ، كلما كانت حبال شبكة «القبض على كل من هب ودب» التى فرضتها الشرطة والجستابو ، تضيق حول عنقها .

وفى احد اجتماعات القيادة تساءلت أوليانا فجأة :

– من منا يعرف الابجدية اللاسلكية ؟

ولم يسألها احد عن سبب توجيه مثل ذلك كما ولم يكن ثمة من سخر منها . وقد يكون ذلك نتيجة ان اعضاء القيادة كانوا يفكرون آنذاك ولاول مرة منذ بدء نشاطهم ، فى احتمال القبض عليهم . بيد ان تلك الافكار كانت مجرد خواطر لم تصمد كثيرا . فلم يكن هناك ما يهددهم بعد .

وفى تلك الفترة بالذات جرى استدعاء أوليج لحديث شخصى مع ليوتيكوف .

ولم يكونا قد التقيا منذ ذلك اللقاء الاول ليجد كل منهما ان تغييرات كبيرة قد طرأت على الآخر .

فقد شاخ فيليب بيتروفيتش كثيرا ، وغدا اكثر بدانة . الا ان ذلك وكما بدا ، لم يكن نتيجة الصحة الجيدة . فقد كان اثناء حديثهما ينهض كثيرا من مكانه يذرع الحجرة ذهابا وايابا بعض الوقت ليعود الى مكانه من جديد . وكانت انفاس ليوتيكوف تتناهى عالية الى سمع

اوليج . وتمثل الصعوبة التى يكابدها ليوتيكوف فى حمل جسمه الكبير . ولم يكن هناك سوى عينيه اللتين راحتا تنظران اليه فى صرامة دون أن تبدو فيهما اية امارات للتعب او الانهاك .

اما ليوتيكوف فقد شاهد اوليج كبيرا ، فارع القامة ، شابا ناضجا يعيش أحسن فترات حياته . وقد غدت واضحة قسمات وجهه بارز العظام ، ولم يبق من امارات طفولته سوى ما تنم عنه عيناه وثنية شفتيه المكتنزتين ولاسيما حين كانتا تفتران عن ابتسامة . بيد انه بدا فى ذلك اللقاء اكثر استغراقا فى التفكير ، يجلس متململا فى مكانه وقد هبط براسه فيما بين كتفيه ، وظهرت الغضون العريضة على جبينه .

وراح فيليب بيتروفيتش يغرق فى استفساراته وتساؤلاته المرة تلو الأخرى عن مجموعات «الحرس الفتى» القديمة والجديدة . وقد شعر اوليج انه غير مهتم بالجانب الظاهرى للمنظمة والذى كان يعرفه جيد المعرفة عن طريق بولينا جيورجيفنا بقدر اهتمامه بالوضع الداخلى لها ، ولاسيما تصور اوليج عنها وعن حالة اوضاعها .

لقد كان فيليب بيتروفيتش مهتما بمدى معرفة اعضاء المنظمة كل للآخر ، وبكيفية اتصال القيادة بالاعضاء ، واتصال المجموعات ببعضها البعض والتنسيق فيما بينها . وتذكر عملية مهاجمة قطيع الماشية ، وتساءل طويلا حول كيفية ابلاغ القيادة للمجموعات بشأن العملية المرتقبة ، وكيف ابلغ قائد كل مجموعة اعضاءها ، وكيف التقى هؤلاء الاعضاء . كما واعلن اهتمامه بامور اكثر اعتيادية مثل لصق المنشورات ، من وجهة نظر الاشراف والاتصال كذلك .

ونعود هنا لنقول أن فيليب بيتروفيتش كان يتميز بانه فى حديثه مع اى من الآخرين بالقدرة على الاصغاء الى حديثه حتى النهاية ، دون أن يتعجل ابداء رايه . ولم يكن ابدا يتظاهر بمجاراة لهجة وطريقة سميره فى الحديث ، بل كان يتحدث مع الصغير والكبير حديث الند للند .

وقد شعر اوليج بذلك ، حيث كان فيليب بيتروفيتش يتحدث معه وكانما مع موجه سياسى يصغى الى كل ما يقوله فى انتباه . ولا ريب فى أن مثل هذه العلاقة كانت يمكن أن تكون فى اى وقت آخر

مصدر فخر وسعادة اوليج . بيد انه كان يشعر اليوم بان فيليب بيتروفيتش غير راض عن «الحرس الفتى» . فقد راح يسأله ويسأله ثم نهض من مكانه فجأة وصار يذرع الغرفة على غير عادته . ثم كف عن توجيه اسئلته ليستغرق فى سميره فقط ، بينما لزم اوليج الصمت . واخيرا استقر فيليب بيتروفيتش فى مقعده قبالة اوليج ليرفع اليه عينيه الصارمتين ، ثم قال :

– لقد كبرت المنظمة ، كما كبرتم انتم ، وهذا شىء جيد . فالفائدة منكم جمة ، وقد شعر الشعب بوجودكم ، وسوف يحين الوقت الذى يعلنكم فيه عن شكره . اما انا فسوف اقول لك ما لا يعجبنى . عليكم عدم قبول اى شخص آخر فى هذه المنظمة بدون اذنى . . كفى ! فقد جاء الوقت الذى يقوم فيه بتقديم العون الينا اكثر الناس كسلا واضطرابا ، دون ان يستلزم الأمر انخراطه فى المنظمة . واضح ؟

وذكر اوليج فى صوت خافت :

– واضح !

– الاتصالات . .

قالها فيليب بيتروفيتش ثم لزم الصمت برهة ليستطرد قائلا :

– انكم تعملون بصورة بدائية . لقد افرطتم فى التزاور ، وفى الانتقال من مسكن لآخر . ولاسيما فى مسكنك ومسكن توركينيتش . ان ذلك امر محفوف بالخطورة . لقد كنت قادرا على ملاحظة ذلك ، لو كنت احد سكان شارعك العاديين . لماذا يهرول الشباب والفتيات اليكما فى كثير من الاوقات وليلا فى بعض الاحيان ، فى ساعات حظر التجول ؟ لماذا يجيئون اليكما ؟ هكذا يمكن ان يفكر المواطن العادى . هذا بينما يجرى البحث عنكم . فان الذين سيوكلون اليهم البحث عنكم سيلتفتون الى ذلك قبل غيرهم . انكم شباب ، ولكم ان تتجمعوا احيانا ، لا من أجل السياسة ، بل لمجرد الترفيه .

وقد نطق فيليب بيتروفيتش هذه الجملة الاخيرة بنبرة رقيقة فيما انفرجت شفتاه عن ابتسامة تنم عن دهاء .

واعترت مشاعر الارتباك اوليج ليبتسم مومئا براسه .

وذكر فيليب بيتروفيتش بنبرة غاية فى الجدية :

– ان هذا لا يصلح . يجب عليكم التحمل قليلا ، وحتى ياتى

رجالنا وحين يمكن لنا ان نمرح كما نشاء . كما ويجب التقليل من اجتماعات القيادة . ان الحرب دائرة ، ولديكم القائد العسكرى والقوميسار السياسى ، فلتعملوا كما يعملون فى الجبهة . اما عن الاتصالات فيجب ان يكون على مستوى منظمتكم . من الجيد ان تفكروا فى مكان يمكن لكل فرد التردد عليه فى حرية دون ان يثير دهشة وريبة الآخرين . ماذا يوجد اليوم فى نادى جوركى ؟

واجاب اوليج :

— لا شىء . مبنى مهجور ، لا يصلح مقرا لمؤسسة ولا مكانا للاقامة ، ولذا يظل مهجورا .

وهنا تذكر يوم لصق على جداره منشوراته ، حين كاد يقع فى قبضة الشرطى ، وتخيل مدى قدم ذلك الحادث .

— يمكن ان تطلبوا من رئاسة المدينة السماح لكم باستخدامه ناديا .

ولبث اوليج صامتا برهة من الوقت ، لتتجمع الغضون على جبهته ، ثم قال :

— لا افهم .

وذكر ليوتيكوف :

— ليس ثمة ما يجب فهمه . ان النادى مقر للشباب وللسكان . فلتنظموا الشباب والفتيان ممن ليست لهم اية اهتمامات سياسية ، من اولئك الذين يفكرون فى اللهو وحسب ، ولتشكلوا مجموعة للمبادرة بمشاركتكم ، ولتتوجهوا الى السيد عمدة المدينة بطلب السماح لكم بافتتاح المبنى ناديا حيث يمكن وكما يقال ، تقديم النشاط الثقافى للترفيه عن الناس فى اطار «النظام الجديد» . فلتتذرعوا بضرورة افتتاحه حتى يتخذه الشباب مكانا للرقص بدلا من التسكع هنا وهناك ، وكيلا يصبحوا فريسة للافكار الضارة . وسوف يتردد ذلك النذل فى اتخاذ القرار ، حيث لا يستطيعه ، وليرفع طلبكم الى رئاسته التى يمكن ان تسمح بذلك . فهى نفسها تكاد تموت ضجرا .

وسرعان ما فطن اوليج بما اتسم به من تقدير كبير للأمور لا يتناسب وسنه ، الى امكانية تعيين بعض اعضاء القيادة فى ادارة النادى حتى يمكن عن طريقهم الاتصال برؤساء الخلايا الخماسية .

بيد ان احتمال تورطه رغما عن ارادته فى حياة لا تتسم بالانسانية ، واشتراكه فى امور ذلك العالم الوضيع كان يؤرق ضميره . هل له ان يدعم الاخلاق الدنيئة فى الناس او يساعد على ذلك وان كان بطريق غير مباشر . . . كلا . . انه قادر على القيام باى شىء عدا المساهمة فى ذلك الامر ! وظل ساكنا لا يقول شيئا ، منكس الراس ، غير قادر على النظر الى فيليب بيتروفيتش .

وذكر ليوتيكوف فى هدوء :

— هكذا ظننتك ! انك لم تدرك جوهر القضية ! وان كنت قد ادركته ، لكان يمكنك تقديم هدية كبيرة لى وللمنظمة . — ونهض ليوتيكوف من مكانه وخطا فى الغرفة بضع خطوات ثقيلة . — انك صبى صغير ، ومع ذلك تخاف . . . تلويث سمعتك ! ان نظيف النفس لن يغدو قذر الملبس ! اية دعاية تظنونهم سوف يوجهونها من النادى ؟ هل سيضعون مكبرا للصوت به ، انهم يفعلون ذلك بدون ناد . يجب علينا بذل الجهد حتى يظل النادى تحت اشرافنا . وسوف تكون دعايتنا خافتة الصوت ، الا انها سوف تكون اقوى من دعايتهم . ولأقل لك صراحة . . اننا سوف نكون على اتصال خفيف بهذه المسالة . الا ان ذلك سوف يتم ، ومعذرة . . دون ان تلحظوا . اما عن البرنامج . . فلكم اعداده محايدا . واذا ما اوكلت هذه المهمة الى الشباب من امثال موشكوف وزيمنوخوف او اوسموخين ، ويا حبذا لو اوكلت ذلك الى ليوبا شيفتسوفا ، فسوف يقومون بها على افضل نحو .

وظل العجوز ليوتيكوف يقنع رفيقه الصغير طويلا باهمية القضية ، حتى بعد ان اعلن اوليج عن موافقته . بل وكان اوليج غير راض عن انسياقه وراء العواطف الكاذبة .

وذكر ليوتيكوف مواصلا تعليم اوليج :

— اننى اقول ذلك حتى تستطيع ان تقنع رفاقك اذا ما ساقوا لك الحجج التى افصحت عنها الآن .

وحصل فانيا زيمنوخوف وموشكوف وفتاتان لا صلة لهما بالمنظمة على توصية ادارة المنجم رقم ١ ، ليذهبوا جميعا الى عمدة المدينة ستاتسينكو . وكانوا حقا يمثلون مجموعة الشباب الذين استطاعوا استقطابهم حول هذه الفكرة .

واستقبلهم ستاتسينكو فى مقر بلدية المدينة البارد غير النظيف . وقد كان كعادته مخمورا . واذ وضع يديه الصغيرتين متورمتى الاصابع على مفرش المائدة من الجوخ الاخضر راح يحدق النظر فى فانيا زيمنوخوف الذى اتسم بالتواضع واللباقة والتأدب مما جعله لا يبادله تلك النظرات مكتفيا بالنظر الى مفرش المائدة الأخضر .

وذكر فانيا وهو يحرك اصابعه فى الهواء على نحو غير محدد :

– ثمة اشاعات كاذبة تنتشر فى المدينة تدعى أن الجيش الالمانى يلقى الهزائم عند ستالينجراد . وقد لوحظ بعض الارتباك فى صفوف الشباب بهذا الصدد . وقد جئنا اليكم بتوصية من السيد باول – وكان ذلك لقب مفوض كتيبة المناجم بالمنجم رقم ١ ، والسيد . . . – وذكر لقب رئيس قسم التربية والتثقيف فى بلدية المدينة ، والتى يجب أن تكونوا على علم بها ايها السيد عمدة المدينة ، وباسم شباب المدينة الموالى للنظام الجديد نطلب منكم شخصيا يا فاسيلى ايللاريونوفيتش ، ونحن نعرف طيبة قلبكم . .

وفجأة صاح ستاتسينكو فى رقة :

– من جهتى ايها السادة . . . الشباب . . . ان بلدية المدينة . . .

وترقرقت الدموع فى مآقيه .

فقد كان ستاتسينكو ، والسادة ، والشباب يعلمون ان بلدية المدينة لا تستطيع تقرير شىء ، حيث تتوقف كل الامور على رئيس الشرطة . بيد ان ستاتسينكو نفسه كان مؤيدا ، وقد أصاب فيليب بيتروفيتش فى ذلك ، حيث كان «يموت ضجرا» .

وهكذا وفى التاسع عشر من ديسمبر ١٩٤٢ اقيم اول حفل فى نادى جوركى وبموافقة بريوكنر .

كان المتفرجون يجلسون ويقفون فى ملابسهم الشتوية ومعاطفهم الصوفية والفرائية ، حيث كان النادى غير مدفأ ، الا أن الحاضرين كانوا ضعف ما يتسع النادى لدرجة أن قطرات الماء سرعان ما أخذت تتساقط من سقف القاعة المشبع بالرطوبة .

وقد احتل المقاعد الامامية الضابط بريوكنر ومساعده بالدر والملازم شفيديه ونائبه فيلدنير وساندرز برفقة كل موظفى الادارة

الزراعية ، والملازم اول شبريك برفقة نيمتشينوفا ، وعمدة المدينة ستاتسينكو ورئيس الشرطة سوليكوفسكى برفقة زوجته ، والمحقق كوليشوف الذى أرسل لمعاونته منذ مدة قريبة . وقد كان ذلك الشخص انسانا يتسم بالهدوء واللباقة ذا وجه يغطيه النمش وعينين زرقاوين وحاجبين يندر شعرهما الاصفر يرتدى معطفا أسود طويلا وغطاء رأس شتوى أحمر القاع تحيط به حواش ذهبية . كما وحضر الحفل باول ويونير وبيكير وبلوشكيه وشفارتس وغيرهم من مساعدى كتيبة المناجم ، وكذلك المترجم شوركا ريباند وطباخ بريوكنر ، وكبير طباخى الملازم شفيديه .

واحتل بعض المقاعد البعيدة فيما بين الحاضرين من السكان المحليين بملابسهم القاتمة وأغطية رؤوسهم الرثة ، جنود الوحدات الالمانية والرومانية العابرة ، ورجال الشرطة الذين كانوا يتميزون عن الآخرين بمعاطفهم وستراتهم العسكرية . ولم يحضر فينبونج الحفل ، نظرا لمشاغله الكثيرة ، وعدم حبه للهو .

كان كبار الضيوف يجلسون قبالة الستار السميك القديم الذى يحمل فى كل أرجائه شعارات الاتحاد السوفييتى بعلامات المنجل والمطرقة . بيد أنه وحين ارتفع الستار شاهد المتفرجون فى نهاية المسرح صورة ملونة كبيرة للفوهرر جرى رسمها محليا مع بعض الخلافات فى مقاييس الوجه ، لكنها شديدة الشبه بهتلر .

وبدا الحفل بفوديفيل فولكلورى ، لعب فيه فانيا توركينيتش دور العجوز والد العروس ، والذى جرى وفقا لتقيده بالمبادئ والقواعد الفنية وضع المكياج له ليغدو شديد الشبه بالبستانى دانيليتش . واستقبل جمهور كراسنودون ممثله المحبوب ، كما ودّعه بالتصفيق الحار . ولم يضحك الألمان لأن بريوكنر لم يفعل ذلك . بيد أن بريوكنر قام عند انتهاء هذه الرواية الصغيرة يخبط كفا بكف . وعندئذ انخرط الألمان فى التصفيق .

وقام اوركسترا الآلات الوترية مطعما بافضل عازفى جيتار فى المدينة ، فيتيا بيتروف وسيرجى ليفاشوف ، باداء فالس «حلم ليلة خريفية» ، و«هل لى أن أخرج الى النهير» .

واعتلى خشبة المسرح ادارى النادى ومقدم الحفل ، ستاخوفيتش

فى حلته داكنة اللون وحذائه اللامع ، نحيف القامة ، رابط الجأش ، ليعلن :

– الفنانة الاستعراضية بمقاطعة لوجانسك . . . ليوبوف شيفتسوفا .

وصفق الحاضرون .

وظهرت ليوبكا فى فستانها الأزرق وحذائها سماوى اللون ، تصاحبها فاليا بورتس على بيانو عتيق ، لتغنى بعض الأغانى الحزينة والمرحة . وقد نالت اعجاب المتفرجين لدرجة أنهم استدعوها كثيرا الى المسرح . واندفعت من جديد الى المسرح كما الاعصار فى فستان ملون وحذاء بيج تمسك فى يدها بهارمونيكا ، لترقص رقصا عاصفا . وضجّ الألمان مودعين اياها بعاصفة من التصفيق .

وظهر ستاخوفيتش من جديد فى حلته الداكنة :

– محاكاة شعرية هجائية غجرية . . فلاديمير أوسموخين . يصاحبه على الجيتار سيرجى ليفاشوف !

واذ قام فولوديا بلى يديه ومط رقبته على نحو غير طبيعى ، والاندفاع احيانا الى رقص عاصف ، راح يغنى «آه يا أماه . . اموت ضجرا يا أماه» . وصار سيرجى ليفاشوف يتابعه فى تجهم .

وضحك الجمهور ، وكذلك الألمان .

وأخذ فولوديا يدندن بما غناه ، يمط رقبته ويدور برأسه على ذلك النحو غير الطبيعى ، فى اتجاه صورة الفوهرر فى غالبية الأحيان .

فلتقل لنا أيها الصعلوك
من أهلك ومن أين قدمت ؟
صدقنى أن الجزاء قريب قريب
والشمس آتية – ساطعة حامية
لتغط في نومك . . الى ابد الآبدين

وصار الحاضرون يقفزون فى أماكنهم ، يصيحون اعجابا ، يعيدون فولوديا الى المسرح مرات ومرات .

وانتهى الحفل ببعض العاب السيرك التى قدمتها فرقة كوفاليف .

وريثما كان الحفل مقاما بالنادى ، استطاع أوليج ونينا

التقاط بلاغ «آخر ساعة» حول الهجوم الكبير للقوات السوفييتية فى المنطقة الوسطى من الدون ، وحول تحريرها لنوفايا كاليتفا وكانتيميروفكا وبوجوتشار ، أى تلك المواقع التى احتلها الألمان قبيل وصولهم الى الجنوب فى يوليو من العام الحالى .

وظل أوليج ونينا ينسخان هذا البلاغ وحتى مطلع الفجر . وفجأة تعالى الى سمعهما هدير محركات ، جعل الذهول يعتريهما . واندفعا الى الفناء ، ليريا بأعينهما القاذفات السوفييتية تحلق واضحة فى سماء المدينة التى لفها الصقيع . كانت تطير بسرعة غير كبيرة تملأ أرجاء الجو بهدير محركاتها ، لتلقى بقنابلها فى مكان ما قبل فوروشيلوفجراد . وترامت اصوات انفجارات القنابل لتبلغ كراسنودون . ولم تتصد اية طائرات معادية للقاذفات السوفييتية ، كما ولم تطلق المدافع المضادة للطائرات نيرانها عليها الا بعد برهة من الزمن . الا أن القاذفات السوفييتية ورغما عن ذلك راحت تعبر سماء كراسنودون فى الاتجاه المعاكس وفى سرعة بطيئة .

الفصل الثالث والخمسون

فى تلك الايام التاريخية المشهودة – أيام نوفمبر وديسمبر ١٩٤٢ – لم يكن المواطنون السوفييت ، ولاسيما الذين يرزحون تحت وطأة الاحتلال الالمانى ، قادرين على تصور الأبعاد الحقيقية للأحداث التى تمثلت فى ذاكرة الشعوب بكلمة رمزية واحدة . . . ستالينجراد .

ستالينجراد . . انها ليست فقط دفاعا لا مثيل له فى التاريخ ، عن قطعة أرض ضيقة على ضفاف الفولجا ، بمدينة تحطمت حتى النهاية ، ضد عدو ملك قوات هائلة مزودة بكافة انواع الأسلحة والمعدات العصرية الكثيرة ، لم يحدث وشاركت مثلها فى اى من المعارك طوال تاريخ البشرية .

ستالينجراد . . انها مرآة عظيمة للعبقرية العسكرية التى كان يتمتع بها أولئك القادة الذين شبوا فى ظل النظام السوفييتى .

ففى برهة وجيزة لم تتعد شهرا ونصف الشهر استطاعت القوات السوفييتية وفق خطة واحدة جرى تنفيذها على ثلاث مراحل فى مساحات هائلة من برارى الدون وما جوار الفولجا ، محاصرة اثنتى وعشرين فرقة وتدمير ست وثلاثين من فرق العدو . ولم يتطلب الامر اكثر من شهر واحد ليجرى القضاء على الفرق المحاصرة وأسر قواتها !

ستالينجراد . . انها خير شهادة على العبقرية التنظيمية لأولئك الذين شبوا فى ظل النظام السوفييتى . ولادراك تلك الحقيقة يكفى للمرء أن يتصور الأعداد البشرية الهائلة والمعدات العسكرية التى جرى تحريكها وفق خطة واحدة ، وارادة واحدة ؛ والاحتياطيات البشرية والمادية الضخمة التى جرى توفيرها واعدادها لتنفيذ هذه الخطة ، والجهود التنظيمية والثروات المادية التى جرى بذلها لنقل تلك الحشود الى الجبهة وامدادها بالمواد الغذائية والملابس والذخيرة والوقود ، واخيرا . . النشاط التعليمى والتربوى ذا الأهمية التاريخية العالمية الذى بذل من أجل أن تتزعم مئات الآلاف من القادة العسكريين من الرقيب وحتى المارشال ، المحنكين ذوى الخبرة من وجهة النظر العسكرية والتربية السياسية ، هذه الحركة وتحويلهم لها الى حركة واعية للملايين من المسلحين .

ستالينجراد . . انها دليل سامى على تفوق اقتصاديات المجتمع الجديد بخطته الموحّدة ، على المجتمع القديم بفوضاه الانتاجية . فما من دولة واحدة من دول الطراز القديم كانت لتستطيع فى خلال عام ونصف من توغل الى أعماق اراضيها قوات العدو التى يقدر تعدادها بالملايين ، تسلحها وتمدها صناعة وزراعة غالبية بلدان اوروبا ، وبعد ذلك الدمار والخراب اللذين لحقا بها ، — ما من دولة واحدة من دول الطراز القديم كانت لتستطيع من وجهة النظر الاقتصادية التصدى لمثل هذا الهجوم .

ستالينجراد . . انها تعبير عن القدرة المعنوية والوعى التاريخى للشعب الذى تخلص من اغلال الرأسمالية ، ليدخل التاريخ من أوسع ابوابه .

وشأن كل المواطنين السوفييت لم يكن ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو قادرا على معرفة الأبعاد الحقيقية للأحداث التى شهدها

وشارك فيها . لكنه وبحكم ارتباطه عبر الراديو وكذلك مراسلى الاتصال مع قيادة فدائيى اوكرانيا والمجلس العسكرى للجبهة الجنوبية الغربية التى كان يتوجب عليها البدء فى دخول الاراضى الاوكرانية ، كان يعرف اكثر من المواطنين السوفييت الآخرين ، المناضلين ضد العدو فى اراضى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، طابع وأبعاد العمليات الهجومية للقوات السوفييتية .

ولبث ايفان فيدوروفيتش يعيش فى فوروشيلوفجراد تلك المدة التى لزمته لتنظيم نشاط اللجان الاربع للعمل السرى بالمنطقة . بيد انه استطاع تغيير محل اقامته بضع مرات قبل أن يصله نبأ اختراق القوات السوفييتية للجبهة الالمانية فى اواسط الدون . وقد استقر فى غالبية الاوقات بالمناطق الشمالية للمقاطعة اعتبارا من نهاية نوفمبر .

لم يكن ثمة من أبلغ ايفان فيدوروفيتش بضرورة تواجده فى تلك المناطق الشمالية بالذات فى تلك الآونة . بيد ان تفكيره السليم او حدسه قد جعله يفطن الى ضرورة تواجده فى تلك المنطقة التى سوف تكون قريبة من جبهة القوات السوفييتية ، وحيث تستطيع فصائل الفدائيين التنسيق عسكريا مع قوات الجيش السوفييتى النظامية .

واقترب الوقت الذى انتظره ايفان فيدوروفيتش طويلا ، وحيث كان يمكن تشكيل الفصائل من مجموعات الفدائيين الصغيرة ، لتغدو قادرة على القيام بالعمليات الكبيرة .

وكان ايفان فيدوروفيتش قد استقر اخيرا فى احدى قرى منطقة بيلوفودسك لدى أقارب مارفا كورنيينكو ، وحيث اختبأ كذلك زوجها الرقيب جوردى كورنيينكو الذى جرى تحريره من الأسر . وكان كورنيينكو قد قام بتشكيل مجموعة فدائية فى القرية تولت الى جانب واجباتها الاساسية مهمة حماية ايفان فيدوروفيتش من كافة ما يمكن ان يتعرض له بمحض الصدفة . وكان يقوم بالاشراف على كافة مجموعات الفدائيين بمنطقة بيلوفودسك مدير تلك المزرعة الحكومية التى عمل بها تلاميذ مدرسة جوركى بكراسنودون ، والذى أفرد عربة نقل لتهجير التلاميذ ، يوم طلبتها منه ماريا اندرييفنا بورتس . وكان ايفان

فيدوروفيتش قد أصدر أمره الى ذلك المدير بالذات لتشكيل فصيل كبير من مجموعات الفدائيين بمنطقة بيلوفودسك يبلغ عدد أفراده ما يقرب من المائتين .

ولم يكن العالم قد عرف بعد بالهجوم الجديد الكبير للقوات السوفييتية فى منطقة اواسط الدون ، حين التقط عامل اللاسلكى لدى ايفان فيدوروفيتش اشارة اخبارية حول اختراق الجبهة الألمانية لمسافة عميقة من الشمال الشرقى عند قطاع نوفايا كاليتفا – موناستيرشينا ، ومن الشرق ، فى منطقة بوكوفسكويه على نهر تشير . وقد صدر فى نفس الوقت أمر الى ايفان فيدوروفيتش بتوجيه كل القوات الفدائية الموجودة تحت تصرفه لقطع خطوط اتصالات العدو فى الشمال ، فى اتجاه كانتيميروفكا وماركوفكا ، وفى الشرق نحو ميلليروفو وجلوبوكايا وكامينسك وليخايا . وقد كان ذلك الأمر صادرا عن المجلس العسكرى للجبهة .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فى نبرة احتفالية ، معانقا عامل اللاسلكى :

– لقد حانت ساعتنا !

وتبادلا القبلات كالشقيقين . وفجأة دفع ايفان فيدوروفيتش عامل اللاسلكى فى رقة ، ليهرول الى خارج المنزل فى نفس هيئته ، بملابسه المنزلية .

كان الصقيع شديدا والنجوم واضحة تضيء ظلمة الليل . كما وكانت الثلوج قد تساقطت فى الايام الاخيرة تغطى اسطح البيوت ، والتلال البعيدة التى راحت تغط فى سبات عميق متدثرة بها . ولبث ايفان فيدوروفيتش واقفا دون أن يشعر بتلك البرودة القارسة وقد فك أزرار قميصه ليبدو صدره عاريا ، يستنشق فى نهم الهواء البارد دون أن يمسك دموعه التى انزلقت من عينيه لتتجمد على وجنتيه .

وقطع ايفان فيدوروفيتش طريقه الى مسكنه فى حوالى ساعة . وكان قد صحب معه عامل اللاسلكى بجهازه . كما وكان جوردى كورنييتكو المقاتل العظيم يغط فى سبات عميق بعد عودته من عملية تدمير مراكز الشرطة فى النجوع . بيد أن النوم فارق

عينيه على التو بمجرد أن هز ايفان فيدوروفيتش كتفه وابلغه بما لديه من اخبار ، ليصيح وقد توقدت عيناه :

– الى جوار موناستيرشينا ! اننى من تلك الجبهة ، وهناك وقعت فى الأسر . . . ان رجالنا سوف يصلون الى هنا بعد بضعة أيام . . لا تنس كلمتى !

واعترى الاضطراب الجندى القديم ليشرع فى ارتداء ملابسه .

فقد كان جوردى كورنييتكو يشرف على كل مجموعات الفدائيين الشمالية ، ولذا كان عليه العمل فورا فى منطقة ماركوفكا – كانتيميروفكا . أما ايفان فيدوروفيتش برفقة عامل اللاسلكى بجهازه واثنين من الفدائيين ، فقد كان ينبغى عليهم الوصول الى قرية جورودیشى حيث كان يتمركز مدير المزرعة الحكومية وفصيله ، وحيث أدرك ايفان فيدوروفيتش انه قد حان الوقت الذى ينبغى فيه أن يكون الى جوار الفصيل .

وفى ايام ترحاله تلك كانت ترافقه باستمرار مراسلة الاتصال ماشا شوبينا ، صديقة زوجته ، التى صحبها معه من فوروشيلوفجراد . وقد اتضح انها ، وكما كان يتوقع من أولئك الناس الذين يتسمون بالصمود والوفاء ، يعيشون فى تواضع على هامش الحياة ، بحيث لا يمكن اكتشافهم بين الجماهير الغفيرة سوى حاد النظر والحواس من المشرفين . بيد انه وحين يتوقف الاختيار عليهم ، يتفانون فى العمل الى اقصى حد ، ويروحون يعيشون ذلك العمل بكامل حواسهم بحيث يضطلعون عمليا بتنفيذ كل المهام الوظيفية لرؤسائهم ومديريهم . ولولا عون اولئك الناس لظلت المهام حبرا على ورق ، لا تعرف طريقا الى التنفيذ .

وقد فقدت ماشا شوبينا لانشغالها القدرة على تمييز الليل من النهار . ولو حاول اولئك الذين كانوا يعملون الى جوارها تصور اهم ما تتسم به حياتها وعملها ، لاصابتهم الدهشة ازاء كونهم لم يشاهدوها ذات يوم تخلد الى النوم . وكانت حين تفعل ذلك ، لا تستغرق كثيرا من الوقت ، والأهم ، على نحو غير ملحوظ وكانما لم تنم قط .

كان حب العمل يتأجج فى أعماق تلك المرأة . وكانت سعادتها الشخصية الوحيدة التى تبعث الدفء الى نفسها تكمن فى شعورها

بانها ليست وحيدة ؛ وان كانت للحقيقة غير قادرة على معايشة صديقتها كاتيا ، التى كانت مارفا كورنييينكو حلقة اتصالها بها . بيد ان ماشا كانت تعرف أن صديقتها الحبيبة الوحيـــدة تعيش قريبة منها فى مكان ما ، وانهما تعملان لصالح قضية مشتركة واحدة . اما عن علاقتها بايفان فيدوروفيتش ، فقد كانت شديدة الاخلاص له ، تتفانى فى شكره لقاء كونه قد لحظها من بين الكثيرين واولاها ثقته التى يمكن ان تدفع حياتها ثمنا لها .

وقام ايفان فيدوروفيتش الذى استولت عليه ضخامة الأحداث التى ساهم بما استطاع بذله من جهد على تطورها ، باصدار آخر تعليماته الى ماشا :

– سوف تلتقين لدى مارفا بقائد فصيل ميتياكينسكـــى شخصيا . وتقع منطقة عملياته فى اطـــار الطرق المفضيـــة الى جلوبوكايا وكامينسك . فلتبلغيه بضرورة البدء فورا فى العمل والاستمرار فيه ليل نهار ، دون ان يسمح للعدو بفرصة يلتقط فيها انفاسه . كما ويجب ان تقوم مارفا بابلاغ كاتيا بضرورة ترك التدريس والعودة توا الى هنا . . .

واعادت ماشا سؤاله :

– الى هذا المسكن ؟

– نعم . اما انت فعليك ، دون توان ، الذهاب الى كسينيا كروتوفا . هل تعرفين الطريق ؟

– نعم .

وكان ايفان فيدوروفيتش حين شرح لماشا دائرة واجباتها ، قد سلمها هذا العنوان : قرية اوسبينكا ، النقطة الطبية . الطبيبة فالنتينا كروتوفا . وكانت كسينيا شقيقة فالنتينا تعمل آنذاك مراسلة اتصال بين يكاتيرينا بافلوفنا ، زوجة بروتسينكـــو ، وكافة لجان المنطقة الكائنة الى جنوب الدونيتس .

– فلتبلغى كسينيا : منطقة العمل – على الطرق المؤدية الى ليخايا ، وشاختى ، ونوفوتشيركاسك وروستوف وتاجانروغ . – ومضى ايفان فيدوروفيتش يقول : – العمل ليل نهار . دون اعطاء العدو اية فرصة لالتقاط انفاسه . يجب الاستيلاء على النقـــاط الآهلة بالسكان واستمالة العدو الى ناحيتنا فى كل مكان قريب من

الجبهة . وتلغى شقة كاتيا كمكان رئيسى للقاء . والمكان الرئيسى للقاء الآن . . مسكن مارفا . سوف يجرى تغيير كلمة السر . . – ومال الى اذن ماشا وادلى اليها بكلمـــة السر الجديدة . – الن تنسيها ؟

– كلا .

وفكر برهة قليلة ثم قال :

– هذا هو كل شىء .

ورفعت عينيها اليه متسائلة :

– هل هذا هو كل شىء ؟

ولقد كان هذا السؤال يعنى فى جوهره «وانا ؟» ، الا ان عينيها لم تقولا شيئا .

وقام ايفان فيدوروفيتش فيما بين نفسه بوصفه انسانا قوى الذاكرة ، بمراجعة ما اذا كان قد نسى شيئا . وتذكر ما يجب ان تفعله ماشا :

– ينبغى عند وصولك الى كسينيا ، العمل تحت اشرافها . سوف تعملين مراسلة اتصال بمارفا . ارجو ان تبلغيها عـــن لسانى كى لا يرسلوك الى اى مكان .

واسدلت ماشا عينيها . فقد راحت تتخيل كيف سوف تذهب اليوم وحيدة ، بعيدا بعيدا عن تلك الاماكن التى سوف تصـــل اليها قواتنا ان لم يكن اليوم فغدا . نعم فبعد بضعة ايام ، لـــن يكون فى ذلك المكان الذى تقف فيه اليوم مع ايفان فيدوروفيتش عدو واحد ، ليعود من جديد ذلك العالم الناصع المضىء الـــذى انتظروه طويلا ، مضحين بحياتهم فى سبيله .

وذكر ايفان فيدوروفيتش بالأوكرانية :

– هيه يا ماشا . لا وقت لديك . . ولدىّ كذلك . شكرا لك على كل ما قمت به من مجهود !

واحتضنها بقوة ، ثم طبع قبلة على شفتيها ، لتعتريها مشاعر الهدوء والسكون وتغدو غير قادرة على مبادلته عواطفه .

وبارحت المسكن فى ملابسها التى لم تكن تتباين فى شىء عن تلك الأسمال البالية التى كان يرتديها سكان المناطق المحتلة ، لتتخذ طريقها الطويل فى مثل تلك الساعة المبكرة قبيل طلـــوع

الفجر ، تخطو بين الثلوج ، تحمل قسمات وجهها الذى تقدم بـه العمر امارات الصبا ، امرأة عادية لا يلحظها احد ، وان كانت ذات ارادة حديدية .

وبعد برهة قليلة من الوقت اتخذ ايفان فيدوروفيتش طريقه برفقة مجموعته غير الكبيرة . كان الهدوء والصقيع يغمران ذلك الصباح . وتبدت خيوط الفجر شتوية صارمة فيما بين غـلالات الضباب الكثيف ، وساد السكون الأرض والسماء ، حيث انقطعت الأصوات وتوقفت الرياح فى ذلك الفضاء الرحب الذى لم تكـن الأنظار تبلغ مداه ، والصحراء الثلجية التى انتشرت الشجيرات فى بعض وهادها ومنحدرات تلالها . كان كل شىء قد غط فى نـوم عميق متدثرا بالثلوج ، ليحمل الى النفس البرودة وعدم الارتياح يعكس الفقر والندرة البشرية ، ليبدو وكأنما سوف يظل هكذا ابد الدهر . أما ايفان فيدوروفيتش فقد راح يقطع هذه الصحـراء مترامية الأطراف ، فيما تدوى أصوات الانتصارات فى أعماق صدره الرحب .

انقضى من الزمن ما يزيد بقليل عن خمسة أيام منـذ ذلك الصباح الهادئ الذى اتخذ فيه ايفان فيدوروفيتش طريقـه الى فصيل الفدائيين ، وذلك الوقت المتأخر من المساء الذى وصل فيه اليه احد الفدائيين يرتدى معطفا غنمه من الألمان ، يرافق زوجته كاتيا الى كوخه المهجور الواقع قريبا من نجع جورودیشى . وكان دوى المعارك الهائلة يزلزل أرجاء الأرض والسماء يملأ كل الفضاء الرحب مترامى الأطراف . وجلس ايفان فيدوروفيتش الذى اكسبه البارود سوادا يتأمل وجه زوجته الجميل .

كان كل شىء يلف ويدور متمازجا مترفعا متألقا . وكان وميض صواريخ الاشارة ، ونيران المدافع يبدو واضحا فى الليـل على مسافة عشرات الكيلومترات . وكان دوى القنابل يتعالى فى الارض والسماء . واندلعت المعارك الجوية ومعارك الدبابات الهائلة . ولم يستطع افراد فصيل ايفان فيدوروفيتش الذين بلغهم خبر تقدم فيلق المدرعات الذى حاز على لقب الحرس منذ مدة قصيـرة ، التخلص من اوهامهم التى تمثلت فى تصورهم انهم يسمعـون اصوات اصطدام القذائف بالدبابات . كما وكانت الطائـرات

السوفييتية والمعادية ترسم فى الجو خطوطا حلزونية بيضاء تظل عالقة ساعات طوال بالسماء التى غمرها الصقيع .

كانت وحدات الشئون الادارية للقوات الالمانية التى اختلطت فيما بينها ، تزحف عبر الطرق الرئيسية فى اتجاه الغرب والجنوب الغربى ، بينما كانت الطرق الترابية التى لا حصر لها تحت سيطرة ايفان فيدوروفيتش . وكما يحدث عادة حين تقع الهزائم الفادحة ، وحين يروح المنتصر يشدد من هجومه ، كانت كل القوات الالمانية المسلحة التى ما تزال قادرة على المقاومة منصرفة الى مهمة صـد هذا الخطر الرئيسى الرهيب ، دون ان تجد فرصة للرد على هجمات الفدائيين !

كانت الحاميات الالمانية متمركزة فى النقاط الصغيرة والكبيرة الآهلة بالسكان ، ولاسيما على ضفاف أنهار كاميشنايا وديركول ويسفوج التى تصب فى الدونيتس الشمالى وحيث كان قد جرى فيما قبل تشييد التحصينات طويلـة الأمد . وقد دارت رحـى المعارك الضارية حول كل من تلك التحصينات حتى وحين كانت تجرى محاصرته ليصبح تحت امرة القوات السوفييتية المهاجمة . كما وكانت الحاميات الالمانية تقاتل حتى آخر جندى تنفيذا للأمر الذى أصدره هتلر بعدم التراجع وعدم الاستسلام . أما من كان يتخذ الطرق الترابية الفرعية ملاذا للفرار من مجموعات الجنـود والضباط الالمانيـة المشتتة فقد كان يقع فريسـة لنشاط الفدائيين .

وقد كان يمكن الحكم على مـدى انتشار هجوم القـوات السوفييتية استنادا الى أن المطارات الالمانية الكائنة فى المناطق المحتلة ، والتى كانت مقفرة تقريبا طوال بضعة أشهر ، تحولت فى هذه الايام الخمسة الى مطارات تعج بالحركة ، ولتصبح هدفا للطيران السوفييتى . ولذا فقد سارعت القوات الالمانية الجويـة الاستراتيجية بالانتقال الى مطارات تقع على مسافة أعمق من تلك المواقع .

كانا يجلسان وحيدين فى كوخ منعزل . . كاتيا التى القت على التو بمعطفها الفرائى ، تحمل وجنتاها حمرة الصقيع ، وايفـان

فيدوروفيتش الذى حمل السهـــاد السمرة الى وجهـــه . وكانت الشرارات تتقافز من عين لأخرى فيما يقول :

– اننا نقوم بكل ما يشير علينا به قسم الشئون السياسية لدى فيلق الحرس للمدرعات وحسنا نقوم بواجبنا .

ثم ضحك ليستطرد قائلا :

– كاتيا . . لقد استدعيتك لأوكل اليك مهمة لا أستطيع أن اثق فى غيرك القيام بها . هل تعرفينها ؟

لقد كانت ما تزال تشعر بوقع عناقه الحار وقبلاتـه ، حيث كانت تعكس ذلك عيناها التى بللتها الدموع وتألقت فيما تنظر اليه . أما هو فلم يكن قادرا على الافصاح عن اى شىء عدا تلك المهمة التى كانت تملك كل حواسه . ولذا فقد خمنت على الفور سر استدعائه لها . كلا . . انها لم تكن فى حاجة الى التخميـــن ، حيث كانت قد أدركت ذلك بمجرد ان وقعت عليه عيناها . فلن تنقضى سوى بضع ساعات حتى يتوجب عليها مبارحته من جديد لتمضى . . وكانت تعرف الى اين . ولم تكن تعرف سر معرفتهـــا لذلك ، والذى لم يكن يخرج عن اطار كونها تحبه . ولذا فقـــد اجابت على سؤاله بايمائة من راسها ، ورفعت اليه من جديـــد عينيها المتألقتين اللتين بللتهما الدموع ، وكانتا بالغتى الجمال داخل اطار وجهها واضح القسمات صارمها بعض الشىء .

وقفز من مكانه فى سرعة ليتأكد من احكام اغلاق البـــاب ، ليتناول من حقيبته الميدانية بعض اوراق رقيقة صغيرة الحجم ، وفردها فى حرص على المائدة ليقول :

– انظرى . . لقد كتبت النص ، وكما ترين بالشفرة . اما الخريطة فلا يمكن رسمها بالشفرة !

وحقا . . كانت الكتابة قد غطت الاوراق من كلا وجهيها بقلم رصاص رفيع ، دقيقة لدرجة يتعذر على المرء معها تصـــور ان تكون يد بشرية هى التى فعلت ذلك . وكانت احدى هذه الاوراق تعكس خريطة مقاطعة فوروشيلوفجراد وقد غطتها المربعـــات والدوائر والمثلثات . ويمكن تخيل ضخامة الجهد الذى تطلبه هذا العمل المضنى اذا ما اشرنا الى ان اكبر هذه العلامات كان طولها نصف سنتيمتر ، واصغرها بحجم راس الدبوس . لقد كـــانت

معلومات جمعت وروجعت فى دقة على مدى خمسة أشهر وجـــرى استكمالها باحدث التغيرات ، حول مواقع الخطوط الرئيسيـــة لدفاعات العدو ونقاطه المحصنة ، ومواقع نيرانه ، ومطاراتـــه وسرايا الدفاع الجوى وجراجات العربات وورش الاصلاح وتعداد القوات والحاميات وتسليحها وغير ذلك من المعلومات .

– فلتبلغيهم أن كثيرا من البيانات سوف يتغير لصالـح العدو فى منطقتى فوروشيلوفجـــراد والدونيتس ، عما جـــاء فى قوائمى . أما كل ما جاء من بيانات قبل الدونيتس فسوف تظـل دون تغييرات . كما ويجب ابلاغهم أنه يجرى تدعيم ميوس بشكل قوى . وسوف يستخلصون النتائج اللازمة بنفسهم . فلست معلما لهم . أما أنت . . فاقول لك انهم ما داموا يدعمون ميوس ، فان ذلك يعنى أن هتلر فقد الثقة فى امكانية الاحتفاظ بروستوف . هل فهمت ؟

وضحك ايفان فيدوروفيتش بصوت رنان ينم عن مرح ، وكما كان يفعل عادة فى نطاق اسرته مع اطفاله ، حين لا يكون هناك ما يشغله . ونسى كل منهما للحظة من الزمن ما سوف ينتظرهم . وامسك ايفان فيدوروفيتش راس زوجته بكلتا يديه ، ومال به قليلا يتأمل بعينين مفعمتين بالرقة وجهها قائلا :

– آه . . يا عزيزتى . . يا عزيزتى . . اننى لم ابلغك باهم الأخبار : لقد دخلت قواتنا الارض الاوكرانية . انظرى . . .

وتناول من حقيبته الميدانية خريطة عسكرية كبيـرة لصقت اجزاؤها وفردها على المائدة . وكان اول ما وقعت عليه عينا كاتيا خطوط حمراء وزرقاء ، عريضة تمثل النقاط الآهلة بالسكان فى شمال شرقى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، التى حررتها القـــوات السوفييتية . واجتاحت موجة من الدفء قلبها ، حيث كان الكثير من هذه النقاط قريبا جدا من جوروديشى .

جرى لقاء ايفان فيدوروفيتش وكاتيا فى تلك الايام ، حين لم تكن قد انتهت بعد المرحلتان الثانية والثالثة لعملية ستالينجراد العظيمة وحين كان خط الحصار الثانى لم يتصل بعد ليعلن احكام الحصار حول الالمان . بيد انه فى تلك الليلة كان قد ذاع نبـأ القضاء على القوات الالمانية التى اندفعت لعون الالمان المحاصرين

فى منطقة كوتيلنيكوفو ، ووصلت اولى الانباء حول مهاجمة قواتنا لشمال القوقاز .

وذكر ايفان فيدوروفيتش فى مرح :

– لقد قطعت قواتنا خط السكة الحديدية ليخايا – ستالينجراد فى موقعين ، هنا . . عند تشيرنيشيفسكايا ، وعند تاتسينسكايا. اما موروزوفسكى فما تزال تحت سيطرة الالمان . وهنا على نهر كاليتفا . . تسيطر قواتنا على كافة النقاط الآهلة بالسكان . وجرى عبور خط السكة الحديدية ميلليروفو – فورونيج من هذه النقطة شمالى كانتيميروفكا ، بينما ما تزال ميلليروفو نفسها تحت سيطرة الالمان الذين قاموا بتحصينها بشكل جيد . ويبدو ان قواتنا قامت بتجاوزها . . انظرى الى اتجاه الدبابات .

ومر ايفان فيدوروفيتش باصبعه فوق نهر كاميشنايا غربى ميلليروفو ونظر الى كاتيا .

كانت كاتيا تتمعن النظر فى الخريطة بتوتر ، ولاسيما فى اقرب الاماكن الى جورودیشى ، لتعلو عينيها امارات صرامة بالغة . وفطن ايفان فيدوروفيتش الى سر تلك النظرات دون ان يقول شيئا . ورفعت كاتيا عينيها عن الخريطة لتنظر بعض الوقت الى الفراغ القائم امامها . وكانت تلك هى نظرتها العادية التى تتسم بالذكاء والاستغراق فى التفكير والشعور ببعض الأسى . وتنهد ايفان فيدوروفيتش ووضع الورقة الخفيفة التى رسمت عليها الخريطة فوق الخريطة العسكرية الكبيرة ، ثم قال :

– انظرى الى هنا . يجب عليك ان تتذكرى كل ذلك ، اذ انك سوف تكونين ملزمة بعدم النظر اليها اثناء الطريق . يجب تخبئة الاوراق على نحو يجعلك قادرة اذا ما تطلب الأمر . . . قصارى القول . . ابتلاعها . وعليك أن تذكرى جيدا من أنت ؟ انك هاربة . . مدرسة هاربة ، فلتنقل من قرية تشير ، حتى لا يلاحقك الحمر . هذا ما سوف تقولينه للالمان ورجال الشرطة . اما عن الأهالى المحليين ، فسوف تقولين لهم انك من تشير فى طريقك الى اقاربك فى ستاروبيلسك ، لانه من الصعب عليك ان تعيشي وحدك .

ثم مضى ايفان فيدوروفيتش يقول بصوت خافت دون ان ينظر الى زوجته :

– سوف يقدم الانسان الطيب لك الماكل والماوى ، اما الانسان السيئ فلن يجد ما يمكن ان يؤذيك به . ولتتذكرى ان خط الجبهة كما يفهمونه هنا غير موجود . . . ان دباباتنا تهاجم هنا وهناك . . يجب عليك تجاوز النقاط الالمانية المحصنة بحيث لا يلحظ وجودك أحد . بيد أن ثمة المانا يمكن ان تصادفيهم عرضا فى كل مكان ، وهؤلاء هم من يجب عليك ان تحذريهم اكثر من اى امرئ آخر . وحين تصلين الى ذلك الحد ، يجب ان تلزمى مكانك . . فى انتظار قواتنا . وانت ترين أننى لم اشر بشىء على الخريطة فى هذا المكان لأننا لا نعرف شيئا عنه ، كما ويحظر عليك سؤال اى أحد هناك ، لأن ذلك امر محفوف بالخطورة . فلتبحثى لنفسك عن امرأة عجوز وحيدة او اية امرأة اخرى لتقيمى عندها . وان اشتعلت المعركة ، عليك ان تلزمى مكانك بالقبو هناك حتى النهاية .

لقد كان قادرا على عدم ذكر كل ذلك لزوجته الا أنه كان تواقا لتقديم يد العون اليها ولو بمجرد النصيحة . وكم كان يمكنه ان يغدو سعيدا لو كان قادرا على الذهاب بدلا منها .

– سوف ابلغهم هناك بذهابك اليهم بمجرد ان تبارحى هذا المكان . ولئن لم تجدى من يستقبلك ، عليك الاتصال بأول فرد يصادفك من قواتنا تجدينه مناسبا كى يرافقك الى قسم الشئون السياسية بفيلق المدرعات .

وهنا ظهرت شرارة لعوبة تتقافز فى عينه ليقول :

– وهناك بقسم الشئون السياسية ، ارجو الا تنسيك الفرحة ان ثمة زوجا لك ، واطلبى منهم ابلاغى . . «وصلت . . وكل شىء على ما يرام !»

– اننى لن اقول هذا وحسب . اننى سوف اقول لهم . . اما ان تتعجلوا بهجومكم لانقاذ رجلى ، واما ان تتركونى اعود له من جديد .

هذا ما قالته كاتيا وانفجرت ضاحكة .

واعترت مشاعر الارتباك ايفان فيدوروفيتش دون سابق مقدمات ، ليقول فيما كانت قسمات وجهه تتسم بالصرامة :

– لقد كنت اود عدم الحديث عن هذا الموضوع لكننى وعلى ما يبدو لن استطيع ذلك . فمهما كان هجوم قواتنا سريعا ، فلن اكون قادرا على انتظارها . حيث اننا ملزمون بالتراجع مع الالمان. وحين تصل قواتنا الى هذا المكان ، سنكون نحن الى جوار الالمان، اذ سوف نكون معهم ضفتين لنهر واحد . وطالما لم يرحل آخر جندى المانى عن اراضى فوروشيلوفجراد سوف اضربهم من الجانب الآخر . والا ماذا يمكن أن يظنه مناضلو المقاومة السرية فى ستاروبيلسك ، وفوروشيلوفجراد وكراسنودون وروبيجانسك وكراسنى لوتش وكذلك الفدائيون ؟ اما انت فلا داعى لعودتك ثانية الىّ ، فذلك امر لا يتسم بالمنطق . ولتسمعينى . . .

ومال اليها ليضع راحته الكبيرة على اصابع يدها الرقيقة ويضغط عليها فيما يمضى قائلا :

– ليست هناك حاجة لبقائك فى الفيلق ، ولذا فلتطلبى منهم توزيعك على المجلس العسكرى للجبهة . وهناك سوف تجدين نيكيتا سيرجيفيتش لتطلبى منه اجازة لقضائها مع اطفالنا . وليس ثمة شىء معيب فى ذلك ، حيث تستحقينها وعن جدارة . وما ذنب الاطفال ؟ كما واننا لا نعرف اين هم اليوم . . فى ساراتوف ام فى مكان آخر . . على قيد الحياة ام فارقوها ؟

كانت كاتيا تنظر اليه دون ان تقول شيئا ، فيما كان دوى المعركة الليلية البعيدة يزلزل ارجاء هذا المسكن المنعزل عن النجع .

وكان قلب ايفان فيدوروفيتش مفعما بحب لها والشفقة عليها، هى صديقته ومعشوقته . فهو الانسان الوحيد الذى يعرف مدى رقة زوجته كاتيا وطيبتها ، وكم استطاعت بقوة طابعها الخارقة تجاوز كل المخاطر والمتاعب والمذلة والمهانة ، ووفاة واستشهاد الأقارب ! وقد كان يود لو استطاع التعجيل بنقل حبيبته كاتيا الى هناك حيث يعيش الأحرار ، ينعمون بالدفء والضوء ، وحيث يوجد اطفالهما . بيد أن زوجته كاتيا لم تكن تفكر فى ذلك .

فقد ظلت تنظر اليه ، تتأمله هو ايفان فيدوروفيتش ، ثم

تخلصت بيدها من تحت راحته لتمسح شعره الأصفر الممشط والذى بدا خلال تلك الشهور يفارق فوديه يوما بعد يوم لتتخذ جبهته العريضة ابعادا اكبر . وربتت بيدها الرقيقة على هذا الشعر الأصفر الناعم وقالت :

– لا تتحدث . . لا تقل لى شيئا . . لا تقل شيئا ، حيث اعرف كل شىء . فليبعثوا بى الى حيث يشاؤون ، ولن اطلب منهم اى شىء . وطالما سوف تكون هنا ، ساظل قريبة منك ، ما دام ذلك ممكنا .

وقد أراد معارضتها ، الا ان اسارير وجهه سرعان ما تفتحت لينتزع يديها ، يدفن وجهه فى راحتيها ، ليظل على هذا النحو هنيهة قليلة ثم رفع اليها عينيه الزرقاوين ليقول فى صوت خافت :

– كاتيا . .

وردت عليه فيما تنهض من مكانها :

– لقد حان وقت الرحيل .

الفصل الرابع والخمسون

رافقها عجوز فارع القامة ضخم البنية اشبه بالدب ، من سكان المنطقة ، كان الجميع يدعونه «العجوز فوما» . وفى بداية الرحلة وحين كان ما يزال فى مقدور يكاتيرينا بافلوفنا والعجوز فوما تبادل بعض الكلمات ، استطاعت كاتيا معرفة أن لقبه هو كورنيينكو ، أحد الكثيرين الذين يحملون هذا اللقب ، وسليل اوائل العائلات الاوكرانية التى استوطنت هذه البرارى ، وشأن كل آل كورنيينكو ، على قرابة بعيدة مع جوردى كورنيينكو .

وقد غدا حديثهما غير ممكن فيما بعد .

راحا يسيران طوال الليل ، تارة يقطعان الطرق الترابية الجانبية ، واخرى يشقان البرارى . وكانت الثلوج لم تهطل بعد غزيرة لتغطى تلك الأراضى ، مما جعل السير امرا غير صعب . وكانت انظارهما تقع احيانا على اضواء مصابيح سيارات تبدو الى شمالهما والى جنوبهما ، سرعان ما تختفى . بيد ان هدير محركات

تلك السيارات كان يتعالى الى اسماعهما على الرغم من بعد المسافة . كانت تتراجع عند الجنوب الوحدات الألمانية التى جرى تحطيمها فى منطقة ميلليروفو ، أما فى الشمال فقد كانت تنسحب الوحدات من عند بارانوفكا ، اول نقطة آهلة بالسكان فى مقاطعة فوروشيلوفجراد استعادتها قواتنا .

واتخذت يكاتيرينا بافلوفنا والعجوز فوما طريقهما نحو الشرق، بيد أنهما كانا كثيرا ما يغيران اتجاههما لتجاوز القرى والنقاط المحصنة الكائنة بالبرارى . وبدا الطريق لكاتيا طويلا طويلا ، الا انهما كانا وعلى الرغم من ذلك يقتربان اكثر فاكثر من منطقة المعارك ؛ فقد تناهت الى اسماعهما عالية تاوهات المدافع وتبدى واضحا لأنظارهما وميض نيرانها تارة هنا واخرى هناك . وعند الفجر بدأت الثلوج الخفيفة الجافة تتساقط لتخف حدة تلك الأصوات ، ويختفى عن الأنظار ما كانت تراه .

كانت كاتيا تنتعل حذاء شتويا قديما وتحمل على ظهرها مخلاة من الخيش غطتها الثلوج . وبدا لها كل ما حولها وهميا لا اساس له . . العجوز فوما بجسده الضخم وغطاء راسه الذى ارتفعت حافتاه دون أن يربطهما ، ودبيب الخطوات ، وهذه الثلوج التى تتساقط وتتطاير أمام ناظريها . وغطت روح كاتيا فى شبه سبات او فيما أشبه بالنعاس . وفجأة شعرت بقدميها تطئان ارضا صلبة . وتوقف العجوز فوما . ودنت كاتيا بوجهها قريبا منه ، لتشعر بوخزة بسيطة فى قلبها . . فقد كانا عليهما أن يفترقا فى هذا المكان .

وراح العجوز فوما يتأمل وجهها فى رقة وقلق ، بينما أشاح بيده السمراء مشيرا الى محاذاة الطريق الترابى الذى وصلا اليه . ونظرت كاتيا الى حيث يشير بيده . وكان ضوء الفجر قد بدأ يلوح مبددا ظلمة الليل . وأمسك العجوز كتفيها بيديه الكبيرتين وضمها قليلا اليه ليهمس اليها بصوته الدافئ ، تداعب أذنها شعيرات شاربه ولحيته :

— يبقى حوالى مائتى متر . . هل فهمت ؟

وهمست تجيبه :

— وداعا !

وما أن تقدمت قليلا عبر هذا الطريق الترابى حتى توقفت تجيل النظر الى ما خلفها ، لتجد أن العجوز فوما كورنييتكو ما يزال واقفا هناك . وأدركت كاتيا أنه سوف يظل هكذا وحتى تختفى عن ناظريه . وكان ذلك حقا ، حيث ما أن ابتعدت حوالى خمسين مترا، وكانت ما تزال قادرة على تمييز شبحه ، حتى وجدته ايضا ما يزال يقف مكانه تغطيه الثلوج ليبدو أشبه ببابا نويل . أما وحين التفتت الى الوراء للمرة الثالثة لم تقع عيناها عليه . وقد كانت تلك هى آخر قرية ، تستطيع أن تجد فيها أنصارها الذين يمكن أن يقدموا لها يد العون . أما وفيما بعد فقد صار ينبغى عليها أن تعتمد على نفسها . كانت القرية تقع خلف التحصينات العالية التى شيدها الألمان لتشكل جزءا من الخط الدفاعى الذى اقيم على عجل فى ذلك المكان . وكان ايفان فيدوروفيتش قد ذكر لكاتيا أن أفضل منازل القرية قد شغلها الضباط وقادة الوحدات الصغيرة التى اتخذت مواقعها فى تلك النقاط المحصنة .

كما وكان ايفان فيدوروفيتش قد حذر زوجته من أن وضعها يمكن أن يسوء اذا ما غصت القرية عند وصولها هناك بتلك الوحدات التى أبعدت عن الحد الدفاعى الألمانى على نهير كاميشنايا . وكان ذلك النهير الذى يصب فى نهر ديركول أحد روافد الدونيتس ، يجرى من الشمال الى الجنوب قريبا من حدود مقاطعة روستوف موازيا تقريبا لخط السكة الحديدية كانتيميروفكا — ميلليروفو . وقد كان من الواجب على يكاتيرينا بافلوفنا الوصول الى احدى تلك القرى الكائنة على ضفاف نهير كاميشنايا ، وحيث ينبغى عليها انتظار قواتنا .

ووقع نظر كاتيا عبر غلالات الثلوج على خيال كوخ قريب ، لتنحرف عن الطريق الترابى ، تذرع الحقول لتتجاوز تلك القرية ، دون أن تترك سطح الكوخ يفلت من ناظريها . وقد قيل لها ان كوخها هو ثالث كوخ يصادفها . وبدا الضوء يلقى بأشعته ، ليساعد كاتيا على الاقتراب من ذلك الكوخ الصغير الذى التصقت بنافذته المغلقة . كان الهدوء يخيم على الكوخ . ولم تطرق كاتيا النافذة بل خربشتها كما علموها .

ولم يجبها أحد فترة طويلة ، ليتعالى وجيب قلبها قلقا . وبعد

بعض الوقت تعالى صوت صبى صغير يرد عليهـــا فى خفوت . وخربشت كاتيـــا النافذة مرة أخرى . وتعـــالى دبيب قدمين صغيرتين ، لينفرج الباب وتدلف كاتيا الى الداخل .

كانت الظلمة تسود المكان تماما .

وتساءل ذلك الصوت الطفولى :

– من اين انت ؟

ونطقت كاتيا بالجملة المتفق عليها .

وذكر الصبى :

– هل تعرفين ، يا ماما ؟

وترامى صوت امراة خافت ، تقول همسا :

– اخفض صوتك . او لا تعرف الروسيـــة ؟ انهـــا امراة روسية . . الم تسمع ذلك ؟ تعالى هنا . . تفضلى على الفراش . ارشدها يا ساشكا .

وامسك الصبى بيده الباردة يد يكاتيرينا بافلوفنا الدافئـــة وراح يتقدم طريقها . لكنها قالت له :

– انتظر حتى اخلع معطفى .

بيد أن يد المراة امتدت اليها تتناول راحتها من يد الصبى ، لتضمها بعض الشىء قائلة :

– فلتجلسى بمعطفك ، حيث الجو بارد عندنا . هل صادفت حرسا المانيا ؟

– كلا .

والقت يكاتيرينا بافلوفنا المخلاة عن كاهلها ، وخلعت المنديل الذى كانت تعصب به راسها ، ونفضت ما علق به من ثلوج ، ثم فكت ازرار معطفها ، وامسكت بذيله ترفعـــه عاليا لتجلس على الفراش الى جوار مضيفتها . وفى صمت جلس الصبى الى جوارها من الناحية الأخرى ، ليلتصق بامه يستمتع بدفئها . ولم تكن كاتيا قد سمعت او شاهدت شيئا ، بل احست بذلك انطلاقا من مشاعر الأمومة . وتساءلت :

– هل يوجد بالقرية كثير من الألمان ؟

– ليسوا بالكثيرين . انهم لا ينامون فى هذه الايام هنا ، بل هناك فى الأقبية .

وضحك الصبى ليقول :

– الاقبية ! . . انهم هناك فى الملاجىء !

– الأمر سيان . يبدو انهم فى انتظار امدادات ، بغية تثبيت خط الجبهة هنا .

وتساءلت كاتيا :

– هل اسمك جالينا الكسييفنا ؟

– فلتنادينى بجاليا . فلم يتقدم العمر بى بعد ، جاليـــا كورنييينكوفا .

وكانوا قد ذكروا لكاتيا فيما قبل انهـــا سوف تذهب الى شخص آخر من آل كورنييينكو .

وتساءل الصبى :

– هل انت ذاهبة الى قواتنا ؟

– نعم ، الى قواتنا . هل يمكن العبور اليهم ؟

وصمت الصبى بعض الوقت ليجيب فى غموض :

– لقد عبر البعض . .

– منذ زمن بعيد ؟

ولم يجب الصبى بشىء .

وتساءلت المراة :

– كيف لى ان اناديك ؟

– اسمى وحسب الوثائق . . فيرا .

وقالت المراة بابتسامة طيبة :

– فليكن الأمر كذلك . فيرا . . ان الناس هنا بسطاء وسوف يصدقونك . ومن لن يصدقك فلن يقول شيئا . لربما كان من الممكن ان يوجد فيما قبل ذلك السيىء الذى يشى بك ، بيد انه من ذا الذى يستطيع ذلك اليوم ؟ ان الجميع يعلمون بقرب قدوم قواتنا . . . هيا اخلعى ملابســـك وارقدى وسوف اغطيك حتى تشعرين بالدفء . أما نحن فسوف ننام سويا ، حتى يستمتع كل منا بدفء الآخر .

وردت كاتيا تقول بحيوية :

– هل سببت لكم ازعاجا ؟ كلا . . كلا . . اننى استطيـــع

النوم ولو على اريكة خشبية ، او على الأرض . وعلى اى حال فلن يغمض لى جفن .

– سوف تنامين . اما نحن فقد حان وقت استيقاظنا .

وقد كان الجو فى الكوخ حقا غاية فى البرودة ، يؤكد انه لم تجر تدفئته منذ بداية الشتاء . وكانت كاتيا قد تعودت على عدم تدفئة الأكواخ الرازحة تحت وطأة الاحتلال الالمانى ، اما عن طعام القوم فى ظل هذه الظروف فلم يكن يتعدى شوربة او عصيدة او بطاطس يجرى اعدادها على وجه السرعة .

وخلعت كاتيا معطفهـــا وحذاءها الشتوى لترقد بالفراش ، ولتقوم ربة البيت بتغطيتها بلحاف من القطن وضعت فوقه المعطف الفرائى ، ولتستغرق على التو فى نوم عميق .

وقد استيقظت على وقع دوى عنيف زلزل جسدها ، اكثر مما ترامى الى اسماعها فيما كانت تغط فى سباتها .

ودون ان تفطن الى شىء بعد ، نهضت من فراشهـــا قليلا ، ليتناهى الى سمعها كيف راحت تدوى قوية بعض الانفجارات تزلزل ارجاء الفضاء الرحب وتملؤه بالأصوات العنيفة . وتعالى الى اسماعها هدير كثيف للمحركات . . فقد كانت الطائرات تمرق فوق القرية على مسافة منخفضة الواحدة تلو الاخرى حيث سرعان ما ترتفع الى اعلى فى قوس يصعب على المرء تخيله . ولم تكن كاتيا قد فهمت ، بل ادركت من اصوات المحركات انها طائرات «ايل» السوفييتية . وصاحت تقول :

– قواتنا !

وفى تحفظ ذكر الصبى الذى كان يجلس على الاريكة الى جوار النافذة :

– نعم . . انها طائراتنا .

وذكرت جاليا فيما تقف وسط الغرفة وهى تمسك بمكنسة فى يدها :

– ارتد ملابسك يا ساشكو ، وانت ايضا يا فيرا ، فلست اعرف لك اسما آخر ! نعم . . طائراتنا لكن قذائفها قد تصيبنا فى مقتل .

وعلى الرغم من برودة المسكن ، فقد كانت جاليـــا تقف على

الارض الطينية حافية القدمين ، عارية الذراعين ، كما وكان الصبى يجلس كذلك شبه عار ، يقول وهو يشعر بتفوقه على المراتين :

– ان قذائفها لن تصيبنا . انها تقصف تحصيناتهم .

كان يجلس على الاريكة مفترشا قدميه المتعامدتين العاريتين ، صبيا نحيفا تحمل عيناه امارات جدية الانسان الناضج .

وذكرت كاتيا فى اضطراب :

– طائراتنا «ايل» . . فى مثل ذلك الجو !

وذكر الصبى عندما ادرك نظراتها التى تعلقت بالنوافذ التى كساها الصقيع :

– ان ذلك بسبب صقيع الأمس . الجو لا باس به . فان لم تشرق الشمس بعد ، ولكن الثلوج قد توقفت عن التساقط .

ولما كانت كاتيا قد تعودت اثناء عملها كمدرسة على التعامل مع المراهقين من امثال هذا الصبى ، فقد شعرت انه مهتم بها ، ويود ان توليه اهتمامها . كما وكان الصبى فى نفس الآن يتسـم باكبار النفس لدرجة انه لم يبد فى تصرفاته او حديثه ما يمكن ان يعنى الغرور .

وتناهت الى اذنى كاتيا اصوات نيران الرشاشات المضادة للطائرات هناك فيما قبل القرية . ومهما بلغت درجة اضطراب كاتيا فلم تكن لتغفل عن ملاحظة ان الألمان لا يملكون فى هذا المكان المدافع المضادة للطائرات ، مما يعنى ان خط التحصينات القائم هنا لم يكتسب اهمية كخط للدفاع سوى الآن وعلى حين غرة .

وذكرت جاليا :

– يا ليت قواتنا تعجل بالوصول . فليس لدينا حتى قبو فى هذا الكوخ . لقد كنا نهرع الى قبو جيراننا حين كانت تتراجـع قواتنا هربا من قذائف الطائرات الالمانية ، بل واحيانا كنا نرتمى فى الحقول . . ننبطح ارضا بين الحشائش الطويلة ونسد آذاننا ونظل ننتظر وننتظر . . .

وها هى القنابل تتساقط . . الأولى والثانية والثالثة ، تزلزل الكوخ ، ثم تمرق طائراتنا فوق القرية من جديد لترتفع عاليا .

وصاحت جاليا ، ثم جلست القرفصاء وسدّت اذنيها :

– آه . . يا أعزائى ! . .

لقد كانت تلك المرأة التى جلست القرفصاء خوفا من اصوات الطائرات هى صاحبة المقر الرئيسى للفدائيين فى تلك المنطقة . فعبر مسكن جاليا كورنييينكو كان يمر التيار الأعظم من جنود الجيش الأحمر الهاربين من الأسر او الخارجين من الحصار . وكانت كاتيا قد عرفت ان زوج جاليا قد استشهد فى اول ايام الحرب وان اثنين من اولادها قد توفيا مصابين بالدوسنتاريا اثناء الاحتلال . وكانت تلك الحركة العفوية التى ندت عن جاليا تعبيرا عن شىء يتسم بالسذاجة البالغة والانسانية المتفجرة . . . الانبطاح ارضا والبحث عن ملاذ ، ولو بسد الأذنين ، بعيدا عن الخطر . واندفعت كاتيا نحوها تحتضنها ، تقول لها بنبرة تعكس عواطفها :

– لا تخافى . . لا تخافى !

ورفعت جاليا وجهها الهادئ الذى تغطيه الشامات داكنة اللون تقول ضاحكة :

– اننى لست خائفة . أوليس ذلك من سمات النسوة ؟ !

قضت يكاتيرينا بافلوفنا فى هذا الكوخ طيلة يومها . وقد تطلب الأمر التمسك بضبط النفس ، وملازمة المكان حتى حلول المساء ، حيث كانت تواقة للخروج لملاقاة قواتنـــا . وظلت طوال اليوم طائراتنا من طراز «ايل» ترافقها مقاتلاتنا تدك تحصينات العدو المقامة امام القرية . وكان عدد «الايل» قليلا ، ربما لا يزيد عن مجموعتين كل منها تتكون من ثلاث طائرات ، وتقـــوم بالانقضاض مرتين او ثلاث ، لتنطلق تتزود بالذخيرة والوقود عائدة من جديد . وظـــل الحال على هذا النحو منذ تلك اللحظة التى استيقظت فيها كاتيا على وقع قذائفها وحتى حلول المساء .

وقد دارت طوال اليوم فى سماء القرية المعارك الجويـــة بين مقاتلاتنا وطائرات «الميسير» الألمانية . وكان يترامى الى الأسماع عاليا هدير محركات القاذفات السوفييتيـــة التى تحلق على ارتفاع شاهق فى طريقها الى حدود دفاعات الألمان البعيدة . ولربما كانت تقصف دفاعاتهم على نهر ديركول الذى يصب فى الدونيتس الى جوار قاعدة فصيـــل ميتياكينسكى وحيث توجـــد هناك عربـــة ايفان فيدوروفيتش «جازيك» التى جرى اخفاؤها داخل سرداب طينى .

ومرقت عدة مرات طوال النهار طائرات الهجوم الالمانية ، التى القت قنابلها فى مكان ما ، قريبا من نهير كاميشنايا ، وحيث كانت المدفعية الثقيلة تطلق نيرانها .

وذات مرة أطلقت المدفعية نيرانها فى غير انتظام على المنطقة القريبة من التحصينات الألمانية ، حيث يمتد الطريق الذى يتوجب على يكاتيرينا بافلوفنا قطعه . وتعالت النيران وكأنما من مسافة بعيدة ، ثم راحت تقترب شيئا فشيا ، لتبلغ ذروتها ثم تخفت فجأة . وبدأت عند المساء تستعر من جديد ، حيث بدأت الدانات تنفجر على مسافة قريبة جدا من القرية . وعلى مدى بضع دقائق أخذت المدافع الألمانية ترد على النيران بنيران مستمرة جعلت من الصعب تبادل الحديث داخل الكوخ .

وتبادلت يكاتيرينا بافلوفنا وجاليا النظرات التى تحمل كثيرا من المعانى . ولم يكن هناك سوى الصغير ساشكو الذى راح يحدق النظر فى الفراغ القائم قبالته على نحو مبهم .

وقد دفعت هذه المعارك وقصف المدفعية سكان القريـــة الى الاحتماء بمنازلهم والالتجاء الى الأقبية ، وخلّصت يكاتيرينا بافلوفنا من فضول الزوّار . أما الجنود الألمان وعلى ما يبدو ، فقـــد كانوا مشغولين بأمرهم المباشر . وبدت القرية أشبـــه بالمهجورة ، لا يسكنها سوى ثلاثتهم فى هذا الكوخ . . امراتان وصبى .

وكلما دنت تلك اللحظة الحاسمة وربما القاضية ، حين كان يتوجب على كاتيا الرحيل ، كلما غدا من الصعب عليها تمالك روعها . وراحت تسهب فى سؤال جاليا حول تفاصيل الطريق الذى يجب ان تقطعه ، وهل يمكن أن يوجد من يدلها عليه ، بينما كانت جاليا ترد عليها :

– لا داعى للقلق . . استريحى فسوف تقلقين فيما بعد كثيرا .

ربما لم تكن جاليا نفسها تعرف شيئا ، تعرب عن اشفاقها عليها مما كان يزيد من حدة قلق كاتيا . بيد انه لو كان ثمة غريب دخل الى الكوخ فى تلك اللحظة ليتبادل حديثا مع كاتيا ، لم يكن ليقدر على اكتشاف ما تعانيه من قلق واضطراب .

أسدل المساء ستائره ، وانتهت طائرات «الايل» من عزف آخر موسيقاها ، وهدأت الرشاشات المضادة للطائرات . وساد الصمت

المكان . بيد أن الهدوء لم يكن ليخيم هناك بعيدا فى ذلك الفضاء الرحب حيث يوجد من يواصل حياة العمل والكفاح . وهبط ساشكو بقدميه من على الأريكة الى حذائه الشتوى الذى كان يرتديه كذلك نهارا واقترب نحو الباب وراح يرتدى فى صمت معطفا فرائيا مرقعا غير نظيف ، وان كان يبدو أنه كان ابيض ذات يوم .

وذكرت جاليا :

– لقد حان وقت الرحيل يا فيرا . انها اللحظة المناسبة ، حيث انهم هؤلاء الملاعين ، سوف يخلدون الآن الى الراحة بعض الشىء . كما ويحتمل أن يجىء بعض جيراننا لزيارتنا . ومن الأفضل الا يراك أحد .

وكان من الصعب تمييز قسمات وجهها فى تلك الظلمة ، كما وكان صوتها يعلو مبحوحا .

وتساءلت كاتيا فيما تعتريها بعض امارات القلق والغموض :

– الى أين يزمع الصبى ؟

وذكرت جاليا على عجل ، فيما راحت تهرول هنا وهناك تساعد كاتيا وابنها فى ارتداء ملابسهما :

– لا بأس . . لا بأس . .

وتوقفت نظرات كاتيا لحظة من الزمن على وجه ساشكو الشاحب فيما تجتاحها مشاعر الأمومة . آه . . لقد كان ذلك هو الدليل الشهير الذى استمر طيلة خمسة اشهر من الاحتلال الألمانى يرافق عبر كل عمق تحصينات العدو الأفراد والجماعات ، والفصائل . . المئات وربما الآلاف من اناسنا ! هذا بينما لم يرفع الصبى عينيه الى كاتيا . كان يواصل ارتداءه لمعطفه الفرائى القديم ، تعنى كل ايماءاته وحركاته وكأنما يود أن يقول : «لقد كان امامك كثير من الوقت كى تتأمليني ، الا أنك لم تكونى تتوقعين ذلك . ولذا فمن الأفضل الا تضايقينى الآن» .

– انتظرا بعض الوقت ، وسوف اخرج لاستطلاع الطريق ثم اشير لكما .

ثم ساعدت جاليا يكاتيرينا بافلوفنا على ان تجد يديها كمى المعطف وعدلت مخلاتها على ظهرها ثم مضت تقول :

– هيا نتوادع حيث لن يكون لدينا وقت . فلينعم الله عليك بالسعادة !

وتبادلا القبلات ، لتخرج جاليا ، فيما وقفت كاتيا غير مندهشة ازاء كون الأم لم تقبل ابنها بل ولم تودعه . فقد كفت عن ابداء دهشتها ازاء اى شىء . كما وكانت تدرك ان كلمتى «لقد تعودا» غير كافيتين لتفسير ذلك الموقف . فلم تكن هى نفسها لتستطيع الصبر قبالة ابنها ، ولغمرته بقبلاتها واحضانها ، لو كان قدره قد حتم عليه الخروج فى مثل هذه المهمة المحفوفة بالهلاك . بيد انها كانت تدرك كذلك أن جاليا تتصرف على خير نحو ومن المؤكد انها لو كانت تصرفت على النقيض من ذلك لكان ساشكو قد تخلص من احضانها ورقتها ، لأن ذلك يمكن ان يضر به من حيث يمكن ان يضعف من عزائمه فى تلك اللحظات .

كانت كاتيا تشعر ببعض الحرج من وجودها مع الصبى على انفراد . فقد كانت تشعر بأن كل ما يمكن ان تقوله سوف يبدو متسما بطابع النفاق والتكلف . لكنها ورغما عن ذلك لم تستطع الامساك عن ذلك وذكرت فى نبرة عملية هادئة :

– لا داعى لذهابك معى بعيدا . عليك فقط ان تشير لى الى الطريق بين هذه التحصينات ، اذ اننى اعرف الطريق فيما بعد .

ولم يرد ساشكو ، كما ولم يرفع ناظريه اليها . وفى تلك اللحظة انفرج الباب قليلا لتهمس الأم :

– هيا . . لا يوجد احد . . .

كانت الليلة هادئة غائمة ، الا انها لم تكن باردة كثيرا ، وحالكة الظلمة ، حيث كان القمر ساطعا فيما وراء غلالات ضباب الشتاء تعكس الثلوج ما تسرب من اشعته .

وسار ساشكو يغطى راسه بسدارة قديمة رثة يكبر حجمها عن حجم راسه ، دون قفاز ، ينتعل حذاء شتويا ، يمضى قدما الى الحقول دون أن يلتفت يمنة او يسرة . ويبدو انه كان على يقين من ان امه لن تخدعه . فما دامت قد ذكرت «لا يوجد احد» فان ذلك يعنى بالفعل انه «لا يوجد احد» .

وكانت سلسلة التلال المتشابكة ، التى كان عليهما عبورها ، تمتد من الشمال الى الجنوب تفصل ما بين نهر ديركول ورافده

كاميشنايا . وكانت القرية كائنة فى تلك المنطقة المنخفضة الواقعة بين هضبتين صغيرتين تمتدان نحو ديركول وتضيعان فى البرارى . وقد توجه ساشكو الى الحقول مباشرة بعيدا عن القرية لعبور احدى هاتين الهضبتين . وفهمت كاتيا سر اختيار ساشكو لهذا الاتجاه ، فمهما كان ارتفاع الهضبة منخفضا فقد كان يستحيل رؤيتهما من ورائها ، وقد أدركت ذلك بالفعل بعد أن عبراها . وما أن اجتازا تلك الهضبة حتى انحرف ساشكو بمحاذاتها نحو الشرق ليسيرا متعامدين مع سلسلة التلال التى تقع عندها التحصينات الألمانية .

ومنذ تلك اللحظة التى بدآ فيها رحلتهما لم يلتفت ساشكو مرة واحدة ليرى ما اذا كانت رفيقته تتبعه . وراحت كاتيا السير فى اثره دون اعتراض . وكانا يسيران عبر وهدة منخفضة تغطيها جذامات قليلة برزت من تحت ثلج خفيف كانت أشبه بموقع القرية . وشأن الليلة الماضية تعالت جلبة القوات الالمانية التى كانت تتراجع عبر الطرق الرئيسية فى مكان ما الى الشمال والى الجنوب . كما وندر تعالى أصوات المدافع وان كانت قد غدت أكثر شدة وكثرة جنوب شرقى ميلليروفو . وهناك ، على مسافة بعيدة جدا ، ربما فوق نهير كاميشنايا ظهرت أضواء صواريخ الاشارة الالمانية . ولما كانت المسافة نائية جدا فقد اتسمت تلك الاضواء بالشحوب ، وغدت غير قادرة على تبديد تلك الظلمة الخفيفة التى سادت مكانهما . ولو كانت هذه الاضواء فى مكان ما فوق احد التلال القريبة من ساشكو وكاتيا ، لكانا قد ظهرا واضحين كالشمس .

وكانت الثلوج اللينة تهبط تحت اقدامهما دونما جلبة ، فيما يتعالى وقع حذائيهما الشتويين المخشخشين على الجذامات والتفت ساشكو يشير الى كاتيا بالاقتراب . وحين اقتربت منه ، جلس القرفصاء واشار اليها أن تفعل نفس الشىء . واقتعدت الثلوج فى معطفها الفرائى . وسرعان ما أشار ساشكو باصبعه اليها ثم الى نفسه ورسم على الثلوج خطا فى اتجاه الشرق . وكان كما معطفه يغطيان معصميه ، ليشمرهما ويشرع فى تكويم الثلوج مشكلا تلا مرتفعا بعرض ذلك الخط الذى رسمه . وفهمت كاتيا أنه رسم خط سيرهما والحاجز الذى يتوجب عليهما اجتيازه . ثم رفع حفنتين من ثلوج ذلك التل الوهمى كل منهما من احد جانبيه وكانما يشق ممرين

عبره ، واشار باصابعه الى النقاط المحصنة على جانبى الممرين ثم رسم خطا يعبر الممر الاول ، ثم الثانى . وادركت كاتيا انه يشير الى وجود احتمالين لطريقهما .

وضحكت كاتيا حين تذكرت مقولة سوفوروف * : ينبغى على كل جندى ادراك المناورة التى سوف يقوم بها . فقد كان ذلك السوفوروف البالغ من العمر عشر سنة يرى كاتيا جنديه الوحيد . واومأت برأسها بما يعنى أنها فهمت «مناورتها» ، ثم انطلقا فى طريقهما .

وقاما بمناورة التفاف فى اتجاه الشمال الشرقى ، وحتى وصلا حاجزا من الاسلاك الشائكة الكثيفة . واشار ساشكو الى كاتيا بالانبطاح ارضا ، بينما راح يواصل طريقه بمحاذاة الأسلاك الشائكة . وسرعان ما غاب عن أنظارها .

وامتد امام ناظرى كاتيا خط حواجز الاسلاك الشائكة والذى يتكون من حوالى اثنى عشر صفا . وكان القدم قد بلغ بالخط درجة أن علا الصدأ اسلاكه التى تحسستها كاتيا بيديها . ولم تكن طائرات «ايل» قد تركت اية آثار فى هذا المكان . ومن المؤكد ان يكون الالمان قد اقاموا هذا الخط من الحواجز حماية للتل من هجمات الفدائيين من اتجاه المؤخرة ، والذى يقع اليوم بعيدا عن التحصينات الرئيسية .

لم تكن كاتيا قد عاشت معاناة الترقب والانتظار منذ مدة طويلة . فقد مضى من الزمن ساعة ثم اخرى بينما لا يزال الصبى غائبا . بيد انها ولسبب لا تدريه لم تكن قلقة بشأنه ، هو الصبى المقاتل الذى يمكن الاعتماد عليه .

ولبثت راقدة مكانها فترة طويلة من الزمن ، لدرجة ان البرودة بدأت تتسلل الى جسدها . وراحت تتململ على جنبيها ، لتفقد الصبر فى نهاية الأمر وتستوى جالسة مكانها . كلا . . فليدنها سوفوروف الصغير ، لكنه ما دام قد تركها وحدها لهذه المدة الطويلة ، فانها سوف تحاول استطلاع المنطقة فيما حولها ، وذلك على أقل تقدير .

---

* الكسندر سوفوروف (١٧٣٠–١٨٠٠) قائد عسكرى روسى عظيم ، واحد كبار مؤسسى الفنون الحربية الروسية . **المترجم** .

وما دام الصبى قد سار على قدميه وليس زحفا ، فليس ثمة مانع يحول دون أن تقف لتتمشى قليلا محدودبة القامة .

وما كادت تبتعد لمسافة تقرب من خمسين مترا ، حتى وقع نظرها على شىء جعل الرجفة تملك أوصالها ، من فرط المفاجأة السارة . فقد شاهدت حفرة ناتجة عن انفجار دانة منذ مدة قريبة ، كانت أعماقها الطينية قد تناثرت على الثلوج هنا وهناك . نعم لقد كانت هذه الحفرة نتيجة انفجار دانة وليست قنبلة القت بها احدى الطائرات . وكان من الممكن معرفة ذلك من وضع الحفرة وناتج الانفجار – فى اتجاه واحد أساسا ، وهو نفس الاتجاه الذى قدم منه ساشكو وكاتيا . كما وكان واضحا أن ساشكو قد لحظ ذلك ايضا ، حيث أنه تفحصها قبل أن يواصل سيره ذلك الامر الذى كانت تؤكده آثار اقدامه .

وراحت كاتيا تجيل النظر الى الثلوج فيما حولها بحثا عن حفر اخرى . ولم يقع نظرها على شىء ، فلم تكن هناك حفر اخرى ، أو على اقل تقدير فى المنطقة القريبة منها . وتملكتها مشاعر الاضطراب والقلق والتى لا يمكن للمرء تخيلها . . فقد كانت تلك الحفرة نتيجة انفجار دانة سوفييتية . الا أنها لم تكن نتيجة انفجار دانة مدفعية ثقيلة طويلة المدى . فلم يكن ناتج الحفر هذا سوى اثر انفجار قذيفة مدفع متوسط المدى ، مما يعنى ان قواتنا كانت تطلق نيرانها من مسافة قريبة . ولربما كان ذلك اثرا واحدا من آثار قصف المدفعية الشديد الذى تعالى دويه الى اسماع ثلاثتهم بكوخ جاليا قبيل المساء .

ان قواتنا قريبة ! انهم قريبون ! باية كلمات يمكن التعبير عن مشاعر تلك المرأة التى عاشت خمسة اشهر بعيدة عن أطفالها تخوض نضالا رهيبا مستمرا ، لا يفارقها أمل مشاهدة ذلك **الانسان** المضرج بالدماء يعود فى معطفه العسكرى الى أرضنا الحبيبة التى دنستها اقدام الاعداء ليستقبلها بالأحضان ؟ وكم كانت روحها تواقة للقاء ذلك **الانسان** الذى كان فى تلك اللحظة أقرب اليها من زوجها وشقيقها !

وتناهى الى سمعها وقع كاد يسمع لحذاء شتوى على الثلوج ، ليقترب منها ساشكو . ولم تلحظ للوهلة الاولى ان الاوحال وليست

الثلوج قد غطت صدر معطفه وركبتيه وحذاءه . وكان الصبى يسير وقد وضع يده اليسرى فى كمه الأيمن واليمنى فى كمه الأيسر الى جوار المعصمين مما كان يعنى أنه قد قطع مسافة طويلة زحفا ، وتسللت البرودة الى أوصاله . واخذت تتامل وجهه فى نهم تستطلع منه ما جاء به من أخبار . بيد ان قسمات وجهه التى اختفت تحت غطاء راسه الكبير الذى تدلت حافتاه على اذنيه ، كانت جامدة لا تعبر عن شىء . فلم يفعل شيئا سوى أن خلص معصميه من كميه مشيرا بالنفى . . «يستحيل علينا المرور من هنا» .

وصرعتها هذه الاشارة . ونظر الصبى الى الحفرة ثم الى يكاتيرينا بافلوفنا ، لتلتقى نظراتهما ، ولتعلو الابتسامة شفتيه فجاة . من المؤكد ان تكون هذه الحفرة قد أثارت لديه فيما سبق نفس انطباعاتها بهذا الصدد . لقد ادرك الصبى كل ما يعتلج فى نفس يكاتيرينا بافلوفنا ، وكانت ابتسامته تعنى : «لا بأس . . يستحيل المرور من هنا ، لكننا سوف نمر من مكان آخر» .

وبدات علاقاتهما تدخل مرحلة جديدة ، فقد صار كل منهما يفهم الآخر . ولم يكونا ، كما فى السابق ، يتبادلان اى حديث ، الا ان اواصر الصداقة صارت تربطهما .

لقد تخيلته كيف راح يزحف على الارض المتجمدة متكئا على يديه الرقيقتين العاريتين . بيد أن الصبى لم يسمح لنفسه بالراحة دقيقة واحدة . واشار الى كاتيا كى تتبعه ، ليتقدمها فى الاتجاه الآخر ، من حيث جاء .

وكان من الصعب تحديد كنه المشاعر التى اجتاحت كاتيا ازاء ذلك الصبى . لقد كانت مشاعر الرفاقية والثقة والطاعة والاحترام ، لكنها وفى نفس الوقت مشاعر الأمومة . لقد كانت مزيجا من كل تلك المشاعر مجتمعة .

ولم تساله عما حال دون مرورهما ، ولم يدر بخلدها لحظة واحدة أنه عائد الى البيت ، بل يتخذ طريق الالتفاف نحو الممر الثانى عبر التحصينات . ولم تعرض عليه قفازها كيلا تتجمد يداه من البرد ، لأنها كانت تعرف أنه لن يقبل .

وبعد برهة من الوقت انحرفا من جديد نحو الشمال ، ثم نحو الشمال الشرقى ليصلا من جديد الى حواجز الاسلاك الشائكة ، ملتفة

حول التل الثانى . وذهب ساشكو وحده بينما لبثت كاتيا تنتظره طويلا ، وحتى ظهر فى النهاية ملطخا بالأوحال أكثر من ذى قبل ، تغطى سدارة رأسه اذنيه ، بينما كان يضع راحتيه فى كميه ، كما فى السابق . وكانت كاتيا قد افترشت الثلج فى انتظاره . ودنا بوجهه الى وجهها وغمز لها باحدى عينيه ثم ابتسم .

وعرضت عليه رغما عن توقعاتها ، قفازها الا انه رفض تناوله .

وقد اتضح لها ان ما كانت تتصوره أصعب الأمور ، بدا فى الواقع وكما يحدث دائما فى الحياة ، أبسط مما يمكن ان يتوقعه المرء . حقا ، انها وببساطة ، لم تلحظ كيف قطعا طريقهما بين نقطتين محصنتين . لقد كان ذلك أبسط ما صادفته خلال رحلتها هذه . ولم تدرك سوى فيما بعد سر بساطة ذلك الأمر . كما وانها لم تستطع تذكر ما اذا كانا قد استغرقا وقتا طويلا فى سيرهما ، ثم فى زحفهما . انها لم تدرك سوى أن الأرض كانت قد قلبت راسا على عقب نتيجة قصف طائرات «ايل» ، وقد فطنت الى ذلك لأن معطفها الفرائى وحذاءها وقفازها كانت حين وصلت برفقة ساشكو الى الحقول ، ملطخة بالاوحال ، شان دليلها .

استمرا طويلا فيما بعد فى سيرهما عبر الحقول التى انتشرت بها الهضاب وغطتها الثلوج البيضاء ، وحتى توقف ساشكو اخيرا ثم التفت الى الوراء ينتظر كاتيا . ثم همس قائلا وهو يشير بيده :

– هذا هو الطريق . هل ترينه ؟

واشار اليها كيف تصل الى الطريق الترابى الذى يربط ما بين القرية التى خرجا منها والنجع الذى يمر طريقها عبره . وادركت انها وصلت الى تلك المنطقة التى تقل بها التحصينات الالمانية ، حسبما جاء بخريطة ايفان فيدوروفيتش ، لكنها وحسب تعبيره يمكن أن تشهد فى غمرة انسحاب الالمان افظع الأمور . اذ أن الوحدات المنسحبة المشتتة يمكن أن تتمسك فى هذه المنطقة بخطوط تحصينات مؤقتة تخوض منها معارك المؤخرة . كما ويمكن فيها ان يصادف المرء وحدة فرعية المانية منسحبة او جنديا غدا وحيدا بمحض الصدفة . علاوة على أن اية من النقاط الآهلة بالسكان يمكن أن تصبح فجاة الحد الأمامى لدفاعات الالمان . وقد كان ايفان فيدوروفيتش يعتبر هذا الجزء من الطريق أخطر مراحله .

بيد أنه واذا ما اغفلنا التحركات غير المنظمة للوحدات المنسحبة على الطرق الرئيسية واستمرار القصف عند جنوب شرقى ميلليروفو ، لم يكن ثمة ما يشير الى الوضع الذى وصفه ايفان فيدوروفيتش .

واسدل ساشكو يده قائلا :

– مع السلامة !

وهنا طغت مشاعر الأمومة تجاهه على كل ما عداها . لقد راودتها رغبة حمله على يديها وضمه الى صدرها ، لتظل على هذا الحال طويلا طويلا ، تخفيه عن العالم اجمع . بيد أن ذلك كان يمكن أن يسيئ تماما الى علاقتهما .

وخلعت قفازها لتمد يدها اليه قائلة :

– وداعا . . اشكرك .

وعاد الصبى يقول :

– مع السلامة .

وتساءلت كاتيا وقد انفرجت شفتاها عن ظل ابتسامة :

– لقد نسيت أن أسالك . لماذا استحال علينا المرور من هناك ؟

وتجهم وجه ساشكو ليقول :

– كان الفاشيست يدفنون موتاهم . . . حفروا هناك حفرة . . . كبيرة ، كبيرة .

وارتسمت على وجهه ابتسامة تنم عن مدى نضجه .

ظلت كاتيا تسير فيما تلتفت خلفها برهة من الوقت حتى تستطيع التمتع برؤية الصبى اكبر فترة ممكنة . بيد أن ساشكو لم يلتفت مرة واحدة ليحتويه الظلام .

وهنا وقع ما زلزل كيانها ، وظل عالقا بذكراها مدى الحياة . فقد كانت كاتيا قد قطعت مسافة لا تزيد عن مائتى متر ، فيما اخذت تتصور فى مخيلتها أنها سوف تصل الى الطريق ما بين لحظة واخرى . لكنها ما كادت تصعد الهضبة حتى وقع ناظراها على دبابة ضخمة تحتل موقعها وراءها ، تمتد ماسورة مدفعها الطويلة تعترض طريقها . وفجاة تحرك ذلك الظل الغريب الغامض الداكن اللون فوق برج الدبابة والذى وقع ناظراها عليه قبل اى شىء

آخر ، لتكتشف فيه جنديا يقف فى كوتها المفتوحة ، تغطى رأسه خوذة مضلعة .

ووجه الجندى رشاشه اليها بسرعة بدا معها وكانه كان فى انتظارها ، ليقول فى صوت غاية فى الهدوء :

– قف .

لقد ندت هذه الصيحة بصوت هادئ ، وعال فى نفس الوقت ، تحمل صيغة الأمر ، والنبرة المهذبة كذلك حيث كان يتعامل مع امراة . لكن الأهم من كل ذلك أنه نطقها بروسية سليمة .

ولم تستطع كاتيا التفوه بحرف واحد ، لتنهمر الدموع غزيرة من عينيها .

الفصل الخامس والخمسون

كانت الدبابتان اللتان وصلت اليهما يكاتيرينا بافلوفنا مقدمة مفرزة مدرعات امامية . وقد كانت الدبابة الثانية تختفى فيما وراء الهضبة الكائنة على الجانب الآخر من الطريق ، مما جعلها تغيب عن انظارها . اما العسكرى الذى استوقفها فلم يكن سوى قائد الدبابة وقائد الدورية ، وذلك امر كان يصعب عليها تمييزه لأنه كان فى ملابس القتال العادية . وقد عرفت كاتيا كل تلك المعلومات فيما بعد .

وامرها القائد بالتقدم فيما قفز من مكانه بالدبابة ، ليتبعه جندى آخر . وريثما كان القائد يستوضح شخصيتها ، راحت هى تتمعن النظر الى وجهه ، حيث شاهدته ما يزال فى ريعان شبابه ، نال منه التعب والانهاك كثيرا ، ويبدو أن النوم لم يمس منذ فترة طويلة جفنيه اللذين كانا يهبطان على عينيه رغما عنه ليرفعهما بصعوبة بالغة .

وأخذت كاتيا تشرح له هويتها ومقصدها . وكانت قسمات وجه الضابط تعبر عن تصديقه وربما عدم تصديقه لكل ما تقوله . بيد ان كاتيا لم تلحظ تلك التعبيرات التى ارتسمت على وجهه ، حيث كانت لا ترى قبالتها سوى ذلك الوجه المنهك والجفنين اللذين اضناهما السهاد ، لتدور الدموع فى مآقيها .

وظهر فى خضم تلك الظلمة جندى وصل على متن موتوسيكل ، وتوقف الى جوار الدبابة يسأل بصوت عادى :

– ماذا حدث ؟

وأدركت كاتيا من ذلك السؤال أنه قد جرى استدعاء ذلك الجندى بسببها . فقد تعودت طيلة تلك الاشهر الخمسة التى عاشتها فى الاراضى المحتلة على ملاحظة توافه الأمور التى لا يعيرها المرء أدنى اهمية فى الايام العادية . كيف استدعى الجندى ؟ انه لم يكن ليصل هكذا سريعا لو كان جندى الدبابة اتصل لاسلكيا بتلك النقطة التى كان موجودا بها .

وفى تلك اللحظات وصل قائد الدبابة الثانية ، ليلقى بنظرة سريعة إلى كاتيا ، ثم ينتحى جانبا برفقة الضابط الآخر وراكب الموتوسيكل ، ليتناقشوا فيما بينهم برهة من الوقت ، اندفع الاخير بعدها على متن موتوسيكله لتحتويه الظلمة .

وتقدم القائدان نحو كاتيا ، ليسالها اقدمهما عما اذا كانت تحمل اية وثائق . وذكرت كاتيا أنها لا تملك حق ابراز الوثائق التى تحملها سوى الى القيادة العليا .

ولبث ثلاثتهم يقفون فى صمت برهة من الوقت ، وحتى راح الضابط الثانى وهو شاب يصغر كثيرا عن الأول ، يتساءل بصوته الأجش :

– أين عبرت الخطوط الألمانية ؟ هل هى جيدة التحصينات ؟

وذكرت كاتيا كل ما عرفته عن هذه التحصينات وشرحت لهما كيف عبرت تلك الخطوط برفقة صبى فى العاشرة من عمره . كما وذكرت لهما كيف دفن الألمان موتاهم ، وحدثتهما عن الحفرة التى أحدثتها القذيفة السوفيتية .

وصاح الضابط الثانى ينظر الى الأكبر وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة طفولية :

– أو هوه . . هل ترى أين سقطت احداها ؟

ولم تدرك كاتيا سوى فى هذه اللحظة ان قصف المدفعية الذى كان يتعالى تارة ، ثم يخفت أخرى طوال ذلك النهار ثم قبيل حلول المساء حين كانت ما تزال فى كوخ جاليا ، كان نيران دبابات المفرزة الأمامية التى كانت تهاجم تحصينات العدو .

ومنذ تلك اللحظة غدت علاقة الضابطين بكاتيا أكثر ودا . وبلغ بها الأمر أن تجاسرت على سؤال قائد المفرزة الأمامية عن كيف استدعى راكب الموتوسيكل . وذكر القائد أنه استدعى باشارة ضوئية نتيجة اضاءة لمبة صغيرة فى مؤخرة الدبابة .

وبينما كانوا يتحادثون ، وصل راكب الموتوسيكل على متن موتوسيكل آخر ذى عربة جانبية ، ليؤدى التحية العسكرية لكاتيا مما كان يعنى أنه يعتبرها شخصا على قدر كبير من الأهمية ، وليس مجرد انسانا من ذوينا .

وقد راحت كاتيا تعيش منذ تلك اللحظة التى استقلت فيها تلك العربة احساسا جديدا تماما ، ظلت تعيشه ولبضعة أيام بعد وصولها الى ذويها . وقد خمنت أنها وصلت الى وحدة مدرعات فرعية تقدمت الى الأراضى التى ما زال العدو يسيطر عليها . بيد أنها لم تعد تعير قوى العدو أية اهمية ، حيث أصبح العدو وكل حياتها التى عاشتها طيلة تلك الأشهر الخمسة ، وكافة العقبات التى واجهتها فى طريقها ، فى طى النسيان ، تكمن بعيدا بعيدا فى وعيها .

وقد حملها ذلك الخط المعنوى العظيم بعيدا عن كل ما كان يحيط بها . وراح يعانقها ذلك العالم الذى يحفل باولئك الذين يعيشون نفس مشاعرها ومعاناتها وطابع تفكيرها ويشاطرونها وجهات نظرها . وقد كان رحبا ، بما يجعله بالمقارنة مع ذلك العالم الذى كانت تعيشه حتى هذه اللحظة مترامى الأطراف لا نهاية له . كانت تستطيع السفر على متن ذلك الموتوسيكل يوما آخر وسنة اخرى ، حيث يحيط بها نفس ذلك العالم الذى لا حاجة لها فيه الى التخفى والكذب وبذل الجهود المعنوية والجسمانية غير الطبيعية . لقد غدت كاتيا من جديد ، كاتيا الحقيقية والى الأبد .

كانت الرياح الباردة تلسع وجهها ، أما روحها فقد كانت تتاجج بتلك المشاعر التى يمكن أن تدفعها الى ان يعلو صوتها بالغناء .

ولم يستمر طريقهما يوما ، أو حتى ساعة ، بل فترة لا تزيد عن دقيقتين خفض بعدهما راكب الموتوسيكل من سرعته لينحرف الى كوبرى صغير غطته الثلوج يعلو نهيرا ربما تكون مياهه قد

نضبت صيفا . وفى ذلك المنخفض ذى الجانبين المنحدرين والذى يشكل مجرى النهير شاهدت كاتيا ما يقرب من عشر دبابات وبعض عربات النقل التى امتدت على طول الطريق . وقد اتخذ مكانه بالعربات والى جانبها رماة الرشاشات السوفييت من وحدات المشاة الآلية ، وهم رماة رشاشات عاديون يرتدون سستراتهم المبطنة بالقطن تغطى رؤوسهم الطواقى الفرائية الشتوية .

وفى ذلك المكان كانوا ينتظرون كاتيا . فما كاد الموتوسيكل يعبر الكوبرى الصغير ، حتى تقدم نحوها اثنان من جنود المدرعات فى زيهما يساعدانها على الهبوط من مكانها .

– معذرة ايتها الرفيقة . . .

ونطق جندى المدرعات المسن بعد تادية التحية العسكرية ، ينادى كاتيا بلقب تلك المدرسة القادمة من تشير وحسبما جاء فى الوثيقة المزورة ، ثم مضى يقول :

– معذرة ، حيث ينبغى على تنفيذ هذه الشكليات .

والقى بضوء بطاريته يتفقد هويتها التى ناولها اياها فيما بعد . ثم التفت الى زميله الآخر الذى كان وجهه قد خط بندبة طويلة من جبينه وجسر انفه حتى خده الايسر . وكانت الندبة ما تزال طرية قد اندملت لتوها .

– تمام ايها الرفيق النقيب !

– هل تشعرين بالبرد ؟

تساءل النقيب الذى ادركت كاتيا انها تقف ازاء قائد مفرزة الدبابات استنادا الى نبرته الرقيقة المهذبة والذى يبدو متواضعا . ثم مضى يقول وهو يمد يده الثقيلة فى تردد الى ما وراء ظهره يتناول الزمزمية التى تدلت من كتفه ، يفتح غطاءها :

– لا وقت لدينا لاتاحة فرصة الاستمتاع بالدفء ، اذ يجب علينا الرحيل . وعلى اى حال . . ان لم تكونى تانفين . . .

وتناولت كاتيا الزمزمية فى صمت بكلتا يديها لتفرغ فى جوفها جرعة كبيرة .

– شكرا .

– يمكنك المزيد !

– كلا . . شكرا .

وذكر النقيب ضاحكا :

– ثمة تعليمات بنقلك فورا الى اركان الفيلق فى دبابة . اذ اننا وان كنا قد قضينا على العدو فى هذا الطريق الا أن المنطقة غير مأمونة .

وتساءلت كاتيا فيما تشعر بوقع نيران جرعة الكحول المخلوط بالمياه :

– كيف عرفتم لقبى ؟

– ينتظرونك هناك .

هذا يعنى ان كل ذلك من اعداد ايفان فيدوروفيتش ، من اعداد حبيبها فانيا ! وبدات الحرارة تتسلل الى اوصالها .

واضطرت كاتيا الى الحديث مرة اخرى عن كل ما تعرفه حول التحصينات الكائنة امام القرية . وكانت تخمن ان الدبابات سوف تقوم الآن بالاستيلاء على تلك المرتفعات . وكان ذلك حقا ، فريثما كانوا يساعدونها فى الصعود الى برج الدبابة للهبوط الى داخلها البارد ، والتى ادركت ضخامة حجمها حين اصبحت على مقربة مباشرة منها ، حتى دارت محركات الدبابات فيما حولها وعلا هديرها بينما اندفع رماة الرشاشات الى عرباتهم .

وكان طاقم الدبابة التى كان عليها استقلالها فى طريقها ، يتكون من اربعة افراد ، لكل منهم مكانه . وقد قام هؤلاء بافساح مكان لجلوس يكاتيرينا بافلوفنا فى قاع الدبابة الى جوار قدمى قائدها لضيق المكان . ولم يكن هناك سوى سائق الدبابة قد سلم من الاصابة .

كان قائد الدبابة مصابا فى راسه ، التى لفها بضمادة علت طبقة عريضة من القطن جعلت من الصعب عليه ارتداء خوذته ، وليغطيها بطاقية فرائية عسكرية عادية . كما وكانت ذراعه مصابة ، تدلت من حمالتها . وقد كان فى حركة لا ارادية يحاول تجنيبها اية صدمة ، يتجعد وجهه حين يمسها شىء .

وكان شان بقية افراد الطاقم لا يود على الاطلاق العودة الى المؤخرة وترك رفاقه ، ولذا فقد عاملوا كاتيا فى البداية ببرود بوصفها المسؤولة عن ذلك . وكما اتضح فيما بعد كان قائد الدبابة وسائقها من الطاقم الأساسى . اما الشخصان الآخران فقد

نقلا اليها ، على الرغم من مقاومتهما الشديدة ، من دبابتين اخريين ليحل محلهما اثنان سليمان من طاقم هذه الدبابة . وقد حدثت فى تلك اللحظة التى جرى فيها نقل كاتيا الى الدبابة ، بين قائد الدبابة والنقيب مشادة كلامية بسيطة ، التى وان كانت غير ظاهرة من نبرات الرجلين التى اتسمت بالتادب الشديد ، فقد عكستها تسمات وجهيهما الواضحة . بيد ان النقيب ذا الندب الذى غطى وجهه ولم يلتئم بعد اصر على موقفه . فقد استغل رحيل كاتيا حتى يخلص المفرزة من الجرحى .

بيد أن الدبابة ما كادت تتحرك من مكانها ، ليرى طاقمها امراة شابة تستقلها برفقتهم حتى تغيرت معاملتهم لها . فقد اتضح لهم ان كاتيا عبرت توا تلك التحصينات التى كان يجب على مفرزة المدرعات الاستيلاء عليها . ودبت الحركة والنشاط فى نفوس افراد طاقم الدبابة ، الذين كانوا فى مقتبل العمر يصغرون كاتيا بخمسة او سبعة اعوام .

وسمح قائد الدبابة بفتح «الجبهة الثانية» ، وهى علبة اللحوم الامريكية المحفوظة التى كانوا يطلقون عليها هذه التسمية . وفتح جندى الرماية والاشارة «الجبهة الثانية» فى لحظة واحدة ، وقام بتقطيع الخبز كسرا كبيرة ، وقدم القائد بيده اليسرى زمزميته الى كاتيا . ورفضت كاتيا الزمزمية ، الا انها وبشهية طيبة تناولت الخبز واللحم المحفوظ . وراح افراد الطاقم يتناولون جرعات الشراب من زمزمية القائد الواحد تلو الآخر . وساد الدبابة جو العلاقات الودية .

وكانت الدبابة تجد فى السير باقصى قدر تستطيعه ، تهز كاتيا يمنة ويسرة . وفجاة هبط جندى الرماية الذى كان يقف فى كوته المفتوحة يهمس تلامس شفتاه اذن القائد :

– ايها الرفيق الملازم اول . . الا تسمعنى ؟

وسال قائد الدبابة بصوته الأجش فيما يمس بقدمه كتف السائق :

– هل بدأوا ؟

واوقف السائق الدبابة ، ليعلو فى فترة الصمت الذى خيم

عليهم ، قصف المدفعية ، يملأ أرجاء الليل ، يتناهى الى اسماعهم من تلك الجهة التى جاءت منها كاتيا .

وذكر الرامى بارتياح وقد أطل برأسه مرة أخرى من كوته :

– أو هوه . . لا يملك الفاشيست صواريخ اشارة . كما وتسير قواتنا على خير ما يرام . اننى أرى نيران مدافعها . .

– افسح لى مكانا . .

وتبادل الملازم أول مكانه مع الرامى ليطل برأسه التى تغطيها الضمادات ، بعد أن أخرجها فى حرص . وطالما كان منهمكا فى النظر ، راح بقية أفراد الطاقم ، وقد تناسوا وجود كاتيا يناقشون كافة التوقعات حول سير القتال ، معبرين من جديد عن أسفهم لعدم وجودهم هناك .

وعاد القائد ، يهبط برأسه فى حرص عبر الكوة ، الى مكانه داخل الدبابة وقد ارتسمت على وجهه امارات الالم . بيد أنه لم يتناسى وجود كاتيا وأمر بالكف فورا عن ذلك الحديث . ومع ذلك فقد أدركت كاتيا من قسمات وجهه مدى معاناته بسبب عدم اشتراكه فى المعركة . كما واضطر الى السماح للجميع على التوالى بالنظر الى ما يجرى هناك قبل أن يأمر باستئناف السير .

وبوجه عام ، فقد ساءت معنوياتهم جميعا . بيد أن يكاتيرينا بافلوفنا كانت امرأة نابهة ، سرعان ما راحت تسهب فى اسئلتها الى افراد الطاقم حول الشؤون القتالية . وقد كان صرير الدبابة عاليا لدرجة كان يصعب معها الحديث بنبرة عادية ، وليعلو صراخ الجميع . واجبتهم الذكريات من جديد . وكونت يكاتيرينا بافلوفنا من احاديثهم أول صورة تقريبية عن العمليات القتالية فى تلك المنطقة التى وصلت اليها .

لقد عبرت وحدات المدرعات السوفيتية خط السكة الحديدية فورونيج – روستوف عند القطاع الكبير بين روسوش وميلليريفو وطردوا الألمان من خطهم الدفاعى على نهير كاميشنايا ، ليصلوا الى شمالى منطقة قرية نوفوماركوفكا عند أعالى نهر ديركول . وعجلت الوحدات الالمانية المنسحبة بتحويل الجزء الفاصل بين كاميشنايا وديركول ، بما فيه تلك الهضاب التى استطاعت كاتيا المرور الى جوارها ، الى خط دفاعى أمامى . وكان الخط الجديد يمر عبر

ليماريفكا وبيلوفودسك وجورودیشى ، تلك الأماكن التى نشطت فيها فصائل الفدائيين بقيادة ايفان فيدوروفيتش وحتى نهر الدونيتس حيث توجد قاعدة فصيلة ميتياكينسكى . ولما كانت كاتيا تعرف جيدا تلك الأماكن ، فقد أدركت الآن مدى حجم الضربة التى وجهتها القوات السوفيتية . كما وفهمت فى نفس الوقت كل تلك الصعاب التى تواجه قواتنا . فقد كان عليها اجتياز الضفاف المحصنة لأنهار ديركول ويفسوج وايدار وبوروفايا ، وخط السكة الحديدية ستاروبيلسك – ستانيتشنولوجانسكايا وأخيرا نهر الدونيتس نفسه .

وكانت مفرزة المدرعات المتقدمة التى وصلت اليها كاتيا قد انفصلت يومين كاملين عن وحدتها التى كانت تتبعها على مسافة خمسة عشر كيلومترا . وقد قامت المفرزة فى طريقها نحو الاتجاه الغربى بسحق كافة نقاط مقاومة العدو التى صادفتها ، واحتلت بعض القرى والنجوع ، بما فيها تلك القرية التى كان من المفروض أن تصل اليها كاتيا وفقا لتعليمات ايفان فيدوروفيتش .

أما الدبابة التى كانت تستقلها كاتيا فقد شاركت نهارا ضمن المفرزة المتقدمة فى مهاجمة تلك الهضاب . واذ اصطدمت المفرزة فجأة بأحد تحصينات العدو ، فتحت نيران مدافعها ورشاشاتها ، تستميل الى اتجاهها كل نيران العدو . وقد أصيبت الدبابة فى ذلك الهجوم وجرح قائدها فى رأسه وذراعه .

وقد ابتعد الجميع عن موقع المعركة ، وذلك أمر أصبح غير قابل للتغيير لدرجة أن الانهاك والنوم راحا يغالبان كل افراد الطاقم عدا سائق الدبابة وكاتيا ، شأن ما يحدث للمقاتلين الذين ابتعدوا عن ساحة القتال لتناول قسط من الراحة . وكانت كاتيا تحس بالعطف والشفقة عليهم وشعور الحنان اليهم .

وهكذا تجاوزوا عددا من النقاط الآهلة بالسكان . وفجأة ، التفت سائق الدبابة الى كاتيا ليصيح :

– قواتنا قادمة !

وخرج السائق عن الطريق ، لينحرف نحو الحقول ويوقف الدبابة .

كانت الليلة قد ابتعدت كثيرا عن بدايتها ، يخيم عليها صمت

مطبق لا تقطعه سوى أصوات المعارك القريبة والبعيدة ، والتى تعودت عليها آذان المقاتلين . وفى خضم ذلك الهدوء تعالى رويدا رويدا يقترب اكثر فاكثر هدير وصرير الكتل المعدنية التى تسير فى اتجاههم . واشار السائق بمصابيح دبابته التى جرى تعتيمها . وبارح الدبابة قائدها ورامى الرشاش ، بينما وقفت كاتيا مفرودة القوام تطل من كوة البرج .

ومرق راكبو الموتوسيكلات الى جوارهم ، وتبدت واضحة الدبابات والعربات المدرعة تقطع الطريق والحقول . وملأ هدير محركاتها كل ارجاء الليل . وصمت كاتيا اذنيها بقفازها فوق المنديل الذى عصبت به رأسها . وتهادت الدبابات تصر جنازيرها وتعلو اصوات غازاتها العادمة ، الى جوارهم ضخمة ثقيلة بمدافعها داكنة اللون ، تشكل انطباعا رهيبا هائلا تزيد ظلمة الليل من حدته .

وتوقفت عربة مدرعة صغيرة الى جوار دبابتهم الوحيدة ، ليهبط منها اثنان يرتديان معطفيهما العسكريين . ولبثا يتحادثان برهة من الوقت مع قائد الدبابة يصيح كل منهم فى اذن الآخر فيما تندر نظراتهم الى كاتيا التى وقفت فى برج الدبابة . واستقل الشخصان فى زيهما العسكرى العربة المدرعة من جديد لتندفع تنهب البرارى متجاوزة رتل الدبابات .

وكانت حركة الدبابات تتناوب مع حركة عربات النقل والمشاة الآلية . وكانت العربات والدبابات تتهادى على الطريق ، بينما كان رماة الرشاشات ينظرون فى اتجاه الدبابة التى تقف وحيدة بالبرارى ، تحتل برجها امرأة تنظر اليهم فيما تغطى اذنيها بقفازها .

وقد اذهلت كاتيا حركة الكتل الحديدية الثقيلة والجماهير البشرية التى بدت فى حلكة الظلام وكأنما تمازجت فيما بينها . ومن المؤكد ان يكون شعور جديد لم تستطع التخلص منه طويلا قد امتزج منذ تلك اللحظة بشعور التحرر الداخلى الذى كان يراودها . وبدا لها ان شخصا آخر وليست هى ، يرى كل ذلك ، مما استطاعت معه ان ترى شخصيتها بعينى ذلك الآخر ، وكأنما تعيش حلما . وقد شعرت لأول مرة فى حياتها بأنها قد اقلعت بعيدا عن

ذلك العالم الذى اقتحم روحها بقوة هائلة . ولبثت فترة طويلة تبحث عن نفسها فى خضم تلك الوجوه والوقائع والاحاديث ، واخيرا المفاهيم البشرية التى وجدت فيما بينها الجديد ، وكذلك القديم الذى فارق ذاكرتها منذ زمن بعيد .

وبمثل تلك القوة الهائلة اجتاحتها رغبة مشاهدة ايفان فيدوروفيتش والشعور بقربه منها . وقد كان قلقها عليه مشوبا بالألم والمعاناة . وكانت مشاعر حبها له وشوقها اليه تجرح قلبها ، وتقض مضاجعها ولاسيما انها نسيت البكاء منذ زمن طويل .

وقد كان الجيش الأحمر الذى التقت يكاتيرينا بافلوفنا به ، جيشا يعلم أنه جيش مظفر .

فبعد عام ونصف من القتال لم ينضب معين ذلك الجيش المظفر وحسب ، بل وظهر امام ناظرى يكاتيرينا بافلوفنا يملك قدرة عسكرية تفوق قدرة العدو ، حتى فى تلك الايام التى ستظل حبيسة الذكريات أبد الدهر ، حين كان العدو مسلحا بكل ما يمكن ان تجود به افضل مصانع اوروبا المحتلة ، يدوس كل ما يصادفه ، يذرع بلا رحمة برارى الدونيتس الحامية . بيد ان اكثر ما هز كيان كاتيا ، كانوا اولئك الذين قادتهم الاقدار فى طريقها . لقد كانوا اناسا من نمط جديد . انهم لم يستوعبوا قدرة المعدات الجديدة وحسب ، بل وبدوا بانماطهم الروحية وكأنما انتقلوا الى طبقة جديدة سامية من طبقات التاريخ الانسانى .

وقد بدا مؤلما لكاتيا احيانا انهم قد سبقوها لدرجة انها لن تستطيع اللحاق بهم ابدا .

وجاءت الدبابة بطاقمها «المشترك» وبقيادة الملازم اول المصاب فى رأسه وذراعه ، تحمل كاتيا الى اركان لواء الدبابات الذى صادفهم اثناء رحلتهم . ولم يكن هذا المكان وعلى وجه العموم بمقر اركان ، حيث لم يكن هناك سوى قائد اللواء برفقة مجموعة العمليات . وكان هؤلاء قد استقروا بنجع اصيب كثيرا فى المعركة مع العدو فى وقت لم يتعد صباح الأمس .

وفى البيت الوحيد الذى سلم من الدمار استقبلها عقيد شاب متوقد العينين ذو وجه كساه السهاد سمرة ، شأن كافة افراد الاركان الذين قطعوا الطريق برفقته . واعتذر لأنه لا يستطيع

استقبالها على نحو افضل ، حيث عرج الى هذا المكان لبرهة قليلة ، وسوف يواصل طريقه الآن . ومع ذلك فقد عرض عليها الانتظار فى ذلك المكان والنوم بعض الوقت . وتحدث قائلا :

– سرعان ما سوف يصل الى هنا نسقنا الثانى ، لتجدى من يرعاك ويهتم بشئونك .

وكان المنزل قد جرت تدفئته لدرجة ان الجو غدا حارا . وارغم الضباط كاتيا على خلع معطفها والاستمتاع بدفء المكان .

وعلى الرغم من الدمار الشديد الذى لحق بالنجع فقد كان سكانه كثيرين ، غالبيتهم من النساء والاطفال والمسنين . وقد فرح هؤلاء كثيرا بمقدم الجنود السوفييت ، وشعروا بالبهجة اذ ان هؤلاء الجنود من رجال المدرعات بالذات . وراح السكان يحتشدون فى كل مكان يظهر فيه العسكريون ولاسيما القادة . واخذ جنود الاشارة يمدون فى ذلك البيت وما جاوره من بيوت شبه مهدمة اسلاك التليفون ، يعدون كل ما يلزم القيادة وشؤونها الادارية .

وشربت كاتيا بعض الشاى . وكان شايا حقيقيا . وبعد نصف ساعة اوصلتها عربة القائد البرمائية المغلقة الى اركان الفيلق . ولم يرافقها فى هذه المرة سوى رقيب من رماة الرشاشات . وها هما وجها الملازم اول قائد الدبابة ذى الراس التى تغطيها الضمادات ، والعقيد الأسمر ذى العينين المتوقدتين وغيرهما من عشرات الأوجه تختفى من ذاكرة كاتيا .

كان الصقيع شديدا فى ذلك الصباح ، والضباب يكسو المنطقة بأسرها . بيد أن الشمس كانت تلوح بعيدا فى مكان ما خلف ذلك الضباب ، تقصدها كاتيا مباشرة على متن تلك العربة .

وقد سارت العربة عبر طريق كبير ، تصادف القوات السائرة فى الاتجاه المعاكس . ولو لم تكن تلك العربة البرمائية قد راحت تنحرف كثيرا الى تلك البرارى المغطاة بالثلوج الخفيفة ، لما استطاعت كاتيا الوصول هكذا سريعا الى اركان الفيلق . وسرعان ما خاضت العربة البرمائية مياه نهير كاميشنايا الضحلة شديدة العكر ، التى كانت تسحب فى تيارها الثلوج الخفيفة والجليد

والرمال التى اثارتها الدبابات والمدافع التى عبرتها فى كثير من الاماكن .

وانقشع الضباب بعض الشىء ، لتعلو الشمس الافق على مسافة منخفضة ، غير ساطعة بكل قوتها بعد لتتيح للمرء النظر اليها . وقد شاهدت كاتيا على امتداد ضفتى النهر التحصينات الالمانية التى احتلتها اليوم قواتنا . وكانت الارض فيما حولها تحمل آثار انفجارات القذائف وتحركات الدبابات وعربات الجر التى كانت تسحب المدافع الثقيلة الى مواقع جديدة .

اصبحت الحركة فيما وراء النهر اكثر صعوبة لغزارة القوات التى راحت تتحرك نحو الجنوب الغربى ، وتدفق سيل الأسرى من الجيوش المحتلة الذى يتوجه فى الاتجاه المعاكس ، افواجا كبيرة واحيانا جماعات صغيرة . وقد صار هؤلاء يثقلون الخطى فى معاطفهم العسكرية المحترقة غير حليقى الوجوه تعلوهم القاذورات، يقطعون الطرق التى اثير غبارها ، او يشقون البرارى ، يجثم على كواهلهم عار الهزيمة والأسر .

وقد كانت الاراضى التى يسيرون عبرها تحمل آثار الدمار والخراب الرهيبة نتيجة افعالهم نفسهم . وبدت السهوب المثمرة التى كانت تاتى بالغلال والحبوب على مدى قرون باكملها ، وقد اضناها العذاب والآلام فيما ظهرت آثار الحرائق فى القرى التى تداعت مساكنها وبدا معظمها اطلالا . وكانت تنتشر هنا وهناك هياكل الدبابات التى اندلعت بها النيران وعربات النقل المحطمة ، وماسورة مدفع اعطب ، او جناح طائرة اسقطت يحمل علامة الصليب المعقوف الأسود . كما وتناثرت جثث جنود الأعداء المتجمدة بالبرارى وفى عرض الطريق مباشرة ، فلم يكن ثمة آخرون او وقت يكفلون رفعها ، فيما كانت الدبابات والمدافع الثقيلة تزحف فوقها لتحولها الى خليط رهيب .

ولم يعر اهتماما الى جثث الأعداء اولئك الذين كانوا يسيرون فى ارتال المهاجمين ، يستقلون الدبابات وعربات النقل ، اولئك الذين اضناهم التعب والهمتهم تقلبات المعارك ، البطولية والقاسية والتى تستمر بلا انقطاع حوالى عشرة ايام . ولم تكن

هناك سوى كاتيا التى اخذت تنظر اليها احيانا فى عدم اكتراث مشوب بالتقزز .

اما المعركة ، احدى اكبر المعارك فى التاريخ ، والتى اعتبرت احدى حلقات سلسلة المعارك الخالدة التى ادت الى تحطيم القوات الهتلرية عند ستالينجراد ، فقد اخذت تتطور بنجاح كبير نحو الجنوب الغربى . ووسط الضباب الذى بدا يتلاشى تدريجيا كانت تندلع المعارك الجوية تارة هنا ، واخرى هناك ، وتدك المدفعية الثقيلة كل ارجاء البرارى ، فيما كانت تبدو فى كل مكان يصل اليه البصر صور الارتال الضخمة من القوات والمعدات والمواد الغذائية والذخيرة ، تلك الارتال التى رافقت العمليات العسكرية الكبيرة .

وعند منتصف النهار الذى كان غاية فى الوضوح ، ان لم نأخذ فى حسباننا دخان الحرائق الذى راح يتلاشى فى خضم تبخرات الضباب، وصلت كاتيا الى مقر اركان فيلق الحرس للدبابات . ولم يكن المكان اركانا حقيقيا بل مقر قيادة مؤقت لقائد الفيلق استقر فى مبنى حجرى لاحدى محطات السكة الحديدية شمالى ميلليروفو ، سلم صدفة من الدمار . اما المستعمرة التابعة للمحطة فقد تحولت الى انقاض . بيد ان المكان شان كل المناطق المحررة ، كان يعكس للوهلة الاولى التمازج المدهش بين العمليات العسكرية المستمرة وعودة الحياة المدنية السوفييتية .

وكان اول من وقعت عليه عينا كاتيا بين العسكريين بمقر القيادة شخص اعاد الى ذاكرتها على الفور تلك الحياة السلمية وايفان فيدوروفيتش وكل اسرتها وعملها ، كمدرسة ، ثم النشاط المتواضع للتعليم العام .

واندفعت الى ذلك الشخص تعانقه صائحة :

– اندريه يفيموفيتش ! يا عزيزى !

لقد كان احد قادة فدائيى اوكرانيا ، والذى قام منذ ما يزيد عن خمسة اشهر بتوجيه ارشاداته وتعليماته الى ايفان فيدوروفيتش قبيل نزوله الى العمل السرى .

وذكر الجنرال النحيف الذى يبدو اصغر من سنه فيما ينظر اليها بعينيه الرماديتين اللتين تتوقدان ذكاء تحت اهدابه الطويلة :

– فلتعانقينا جميعا !

وشاهدت كاتيا وجه الجنرال الاسمر صارم القسمات ، والذى حلقه بعناية ، بينما بدا الشيب يخط فوديه قليلا ، لتدفن وجهها بين يديها وتميل براسها الذى عصبته بمنديل ريفى داكن اللون . ولبثت تقف هكذا فى معطفها الفرائى وحذائها الشتوى بين اولئك العسكريين مفرودى القوام ، وهى تغطى وجهها بيديها .

وذكر اندريه يفيموفيتش والابتسامة ترتسم على شفتيه :

– هاكم قد احرجتم المراة !

وضحك الضباط .

ولمس الجنرال كتفها بيده الرقيقة قائلا :

– معذرة .

ورفعت يديها من على وجهها ، فيما تالقت عيناها ، لتقول :

– لا باس . . لا باس !

وساعدها الجنرال فى خلع معطفها الفرائى .

وقد كان قائد الفيلق شأن معظم القادة العصريين انذاك فى سن صغير لا يتناسب مع وظيفته ورتبته . وعلى الرغم من ذلك الموقف الذى يعيشه فى تلك اللحظة فقد كان طبيعى التصرفات هادئا ، لبقا عمليا محبا للمزاح الفظ وان كان مهذبا فى ذات الوقت . هذا وقد كان الهدوء والنشاط والتادب والنظافة هى السمات العامة التى تميز بها العسكريون المحيطون به .

وبينما كانوا يفكون شفرة رسالة ايفان فيدوروفيتش وضع الجنرال بحرص وفوق الخريطة العسكرية الكبيرة المفروشة على المائدة الورقة الخفيفة التى تمثل خريطة مقاطعة فوروشيلوفجراد فى خطوط غاية فى الدقة ، كما فعل ايفان فيدوروفيتش فى حضرة كاتيا . وكم كان صعبا على المرء تخيل أن ذلك حدث الليلة قبل الماضية فقط !

ومسح الجنرال على الورقة باصابعه الرقيقة وقال بارتياح ظاهر :

– يا له من عمل رائع . . يا للشيطان !

ثم صاح فجاة :

– انهم يحصنون ضفاف ميوس من جديد . انظر يا اندريه يفيموفيتش . .

ومال اندريه يفيموفيتش نحو الخريطة لتبدو على وجهه القوى

وبشكل واضح التجاعيد التى اظهرته اكبر من سنه . واقترب الآخرون كذلك من الورقة الصغيرة التى استقرت فوق الخريطة العسكرية .

وذكر الجنرال فيما ينظر من تحت اهدابه الطويلة فى مرح الى اندريه يفيموفيتش :

– اننا وبوجه عام لن نصطدم بهم هناك فى ميوس . لكن هل تعرفون ماذا يعنى ذلك ؟ انهم ليسوا اغبياء الى هذا الحد . . فهم يدركون ضرورة الرحيل عن شمال القوقاز وكوبان !

وضحك الجنرال ، بينما علت الحمرة وجه كاتيا ، حيث توافقت كلمات الجنرال مع تصورات ايفان فدوروفيتش .

– والآن فلننظر الى الجديد فى هذه الورقة . .

وتناول الجنرال العدسة التى استقرت فوق الخريطة العسكرية وراح يتمعن العلامات والدوائر التى رسمها ايفان فيدوروفيتش فى دقة متناهية على مثل هذه الورقة الرقيقة ، ليمضى قائلا :

– هذا معروف . . هذا معروف ، هكذا . . هكذا .

لقد كان يفسر معانى علامات ايفان فيدوروفيتش بدون تلك الشروح التى لم يكن قد جرى فك شفرتها بعد ، ثم مضى يخاطب فى نبرة مشوبة بالسخرية الخفيفة ، العقيد رئيس اركان الفيلق ، ضخم البنية اسود الشارب قائلا :

– هذا يعنى ان رجلنا فاسيلى بروخوروفيتش ليس سيئا ، بينما تقولون «استطلاعنا غير جيد . . استطلاعنا غير جيد» .

وسارع احد العسكريين ، بدين البنية ربع القامة ، صليع الراس ذو وجه تندر فيه شعيرات حاجبيه ، يقول فى دهاء عكسته عيناه الناصعتان المفعمتان حيوية ، قبل ان يجيب العقيد :

– لقد جاءتنا هذه المعلومات يا ايها الرفيق قائد الفيلق ، من نفس المصدر .

لقد كان المتكلم فاسيلى بروخوروفيتش ، رئيس استطلاع الفيلق .

وذكر الجنرال فى نبرة تنم عن خيبة امل :

– بينما كنت اعتقد انكم قد جئتم بها بانفسكم .

وانفجر الضباط ضاحكين بيد ان فاسيلى بروخورفيتش لم يعر

اهتماما لا الى ملاحظة قائد الفيلق الساخرة ، ولا الى ضحكات رفاقه فى الخدمة ، اذ بدا وكانما تعود على ذلك . وقال فى هدوء :

– فلتنظر ايها الرفيق الجنرال الى هذه المعلومات ، بشان المنطقة امام ديركول . اوليست معلومات ناقصة ! اننا نملك اكثر منها .

وشعرت كاتيا ان ملاحظة فاسيلى بروخوروفيتش تنال من اهمية المعلومات التى جمعها ايفان فيدوروفيتش ، والتى قطعت من اجلها كل ذلك الطريق . وذكرت فى صوت حاد :

– لقد طلب منى الرفيق الذى سلم الىّ هذه المعلومات ، ان ابلغكم بان كل المعلومات الجديدة المتعلقة بانسحاب العدو سوف يبعث بها مستقبلا ، واعتقد انه يقوم بذلك الآن . اما عن هذه الخريطة فهى تعطى صورة كاملة للوضع فى المقاطعة .

وذكر الجنرال :

– هذا صحيح .

– انها لازمة اكثر للرفيق فاتوتين ، وسوف نقوم بارسالها اليه . اما نحن فسوف نستفيد مما يخصنا .

ولم تستطع يكاتيرينا بافلوفنا سوى فى وقت متاخر من الليل ان تجد الفرصة لتتحدث مع اندريه يفيموفيتش عن كل ما يعتلج بنفسها .

ولم يجلسا بل وقفا فى غرفة مقفرة وان كان الدفء يسودها على ضوء مصابيح الزيت الالمانية التى غنموها ، لتتساءل كاتيا :

– كيف جئت الى هنا يا عزيزي اندريه يفيموفيتش ؟

– وماذا يدعوك الى الدهشة ؟ اولم ندخل اراضى اوكرانيا ! انها ارضنا على الرغم من انها لا تزال صغيرة المساحة ! ان الحكومة تعود الى الارض الحبيبة لارساء النظم السوفييتية . – ثم ضحك اندريه يفيموفيتش ، ليعود الصبا الى وجهه الذى كسته الغضون الدقيقة ليمضى قائلا :

– ان قواتنا وكما تعلمين تنسق مع فدائيى اوكرانيا . فكيف العمل هنا بدوننا ؟

وتامل كاتيا من قمة راسها حتى اخمص قدميها فيما تلالات عيناه ، الا ان امارات الصرامة كست وجهه فجاة :

– اود توفير الفرصة كى تستمتعين بقسط من الراحة على ان نتحادث فى الامر غدا . انك انسانة تتسم بالبسالة وقوة التحمل !

وارتبك بعض الشىء الا ان عينيه ظلتا تحدقان فى كاتيا يمضى قائلا :

– ونحن نود ان نبعث بك ثانية الى فوروشيلوفجراد نفسها ، اذ اننا فى حاجة الى الكثير الذى ليست هناك سواك قادرا على معرفته .

ثم صمت برهة قليلة ليقول بصوت هادىء مشوب بالتساؤل :

– وبالطبع ان كنت قد ارهقت تماما . . .

بيد ان كاتيا قاطعته ليتوقف عن حديثه . فقد كان قلبها مفعما بمشاعر الفخر والشكر . وراحت تقول بصعوبة بالغة :

– شكرا ! شكرا يا اندريه يفيموفيتش . . لا داعى للحديث اكثر من هذا .

وتالق وجهها الأسمر ذو القسمات الواضحة الذى ظللته خصلات شعرها الأصفر لتقول فى اضطراب :

– ليس ثمة ما يسعدنى اكثر مما قلتم . وطلبى الوحيد هو ان ترسلونى غدا ، وارجو عدم توجيهى الى الادارة السياسية للجبهة ، فلست فى حاجة الى الراحة !

واستغرق اندريه يفيموفيتش فى التفكير برهة ، وهز راسه ثم ابتسم قائلا :

– اننا لسنا فى عجلة من الامر . سوف نسوى خطوطنا بعض الشىء ، ونقوى مواقعنا . اذ انه من غير الممكن الاستيلاء من الحركة على ديركول ، ومن باب اولى الدونيتس . كما ان ميلليروفو وكامينسك يعطلاننا . اما انت . . فهناك ما يمكن الادلاء به فى الادارة السياسية . وهكذا لسنا فى عجلة من الامر بعد . سوف نبعث بك بعد يومين ، او ثلاثة .

وصاحت كاتيا ، فيما تدفقت الدماء الى قلبها من الحب والأسى :

– آه . . ولماذا لا يمكننى ذلك غدا ؟

ووصلت يكاتيرينا بافلوفنا فى مساء اليوم الثالث الى تلك القرية المعروفة لتدلف من جديد الى كوخ جاليا ، فى نفس معطفها الفرائى ومنديل راسها الداكن تحمل نفس الهوية الدالة على انها مدرسة من تشير .

وقد كانت قواتنا قد فرضت سيطرتها على تلك القرية . بيد ان المرتفعات الكائنة فى الاتجاهين الشمالى والجنوبى كانت ما تزال تحت سيطرة العدو . وكان خط التحصينات الالمانية يمر عبر الفاصل الكائن بين نهيرى كاميشنايا وديركول وعمقا نحو الغرب ، وكذلك بطول ديركول نفسه .

وقاد كاتيا الصغير ساشكو ، نفس الصبى الصموت الدقيق ، تحت جنح الليل عبر نفس الطريق الذى كان قد صحبها فيه العجوز فوما قبل ذلك ، لتصل الى نفس المنزل المنعزل الذى جلست فيه برفقة ايفان فيدوروفيتش يوم ادلى اليها بنصائحه قبيل الرحيل .

وهناك ابلغها احد اولئك الكثيرين الذين يحملون لقب كورنيينكو بان ايفان فيدوروفتش حى معافى يعلم بوصولها ، الا انه لا يملك فرصة لرؤيتها .

وراحت كاتيا تقطع الطريق ليل نهار ، لا تخلد الى الراحة اكثر من ساعتين او ثلاث يوميا ، لتصل فى النهاية حتى مارفا كورنيينكو . وهناك اذهلها سماعها لنبأ استشهاد صديقتها ماشا شوبينا .

فقد اكتشف الالمان مقر التنظيم السرى فى النقطة الطبية بقرية اوسبينسك . واستطاعت الشقيقتان كروتوفا اللتان حذرهما احد الوطنيين العاملين فى الشرطة ، الرحيل فى الوقت المناسب وابلاغ منظمات العمل السرى المرتبطة بهما بنبأ اكتشاف امر المقر . بيد أن خبر اكتشاف امر المقر لم يبلغ مارفا كورنيينكو الا بعد ان اتخذت ماشا طريقها الى اوسبينسك .

ولم تسفر محاولة اللحاق بماشا عن اية نتيجة ، لتقع فى قبضة رجال الشرطة هناك فى اوسبينسك حيث اذاقوها كل صنوف التعذيب . وقد تم التوصل عن طريق شخص موثوق به ، الى معرفة ان ماشا شوبينا انكرت حتى النهاية وجود اية صلة تربطها بالعمل السرى ، ولم تش بأى احد .

وكان نبأ مفجعا ! بيد أن كاتيا لم تكن تملك حق الانغماس فى الحزن حتى توفر قواها لتنفيذ المهمة المنوطة بها .

وها هى تصل بعد يومين الى فوروشيلوفجراد .

الفصل السادس والخمسون

كان كل انسان يعيش فى الاراضى المحتلة ، ومهما بلغ جهله بالامور العسكرية يدرك أن نهاية الهتلريين قد حانت .

وقد ادرك سكان تلك المناطق البعيدة عن الجبهة ، مثل كراسنودون ، هذه الحقيقة استنادا بالدرجة الاولى الى فرار شركاء الهتلريين الصغار ، شركائهم فى السلب والنهب . . . المرتزقة المجريين ، والايطاليين وفلول جيش أنطونيسكو * .

وكان الضباط والجنود الرومانيون يفرون بكل الطرق دون عربات او مدفعية . كانوا يواصلون فرارهم ليل نهار فى عرباتهم التى تجرها خيول اضناها البرد ، وسيرا على الأقدام فىمعاطفهم العسكرية التى احترقت اطرافها واغطية الرؤوس الشتوية المصنوعة من فراء الماعز او طواقيهم العسكرية ، وقد تجمدت وجناتهم التى لفوها بالمناشف والملابس الداخلية النسائية الصوفية .

وتوقفت احدى العربات الى جوار فناء بيت آل كوشيفوى ، ليغادرها ضابط سبق ان زار ذلك المكان ، ويدلف الى البيت فى سرعة . وتبعه الخادم يحمل حقيبة الضابط الكبيرة ، وحقيبته الشخصية الصغيرة ، وقد مال برقبته حتى يخفى أذنه التى تجمدت .

وكان الضابط متورم اللثة وبدون شارات كتفه الذهبية ودخل المطبخ على عجل ليدفىء يديه الى جوار الموقد .

وسأله الخال كوليا :

– هيه . . كيف الحال ؟

ويصعب علينا القول ان الضابط حرك مقدمة أنفه ، حيث كان غير قادر على تحريك أنفه المتجمد ، الا انه جعل قسمات وجهه قريبة الشبه من هتلر . وقد ساعده فى ذلك شاربه القصير ونظرات عينيه التى تتسم بالجنون . واذ شب على اطرافه راح يقلد هتلر وكانما يود تصوير عملية الفرار ، دون ان تعلو الابتسامة وجهه مما يعنى انه لم يكن يمزح .

* انطونيسكو رئيس الحكومة الملكية فى رومانيا وقائد الجيش فى الحرب العالمية الثانية . **المترجم** .

وذكر الخادم فى نبرة رقيقة ، فيما ينظر شزرا الى الضابط بما ينم عن حذر ويغمز للخال كوليا :

– هيا ندخل غرفة ربة البيت .

وهناك استمتعا بالدفء وتناولا بعض الطعام . وما كادا يبارحان المنزل بحقيبتيهما ، حتى رفعت الجدة بوازع مفاجئ بطانية فراش يلينا نيكولايفنا ، لتكتشف ضياع ملاءتى السرير .

واعترت الجدة مشاعر الغضب لدرجة انها بدت اكثر شبابا ، لتندفع فى اثر الضيفين وراحت تصيح عند بوابة المنزل ، ليدرك الضابط أنه سوف يصبح ما بين لحظة واخرى هدفا لفضيحة نسائية . وهنا أمر خادمه بفتح الحقيبة الصغيرة حيث كانت قد استقرت بالفعل احدى الملاءتين . واختطفتها الجدة لتصيح :

– وأين الثانية ؟

ودار الخادم بعينيه فى غضب فى اتجاه سيده ، الذى سارع بتناول حقيبته ، يستقل عربته . وهكذا حمل معه الملاءة الى رومانيا ، ان لم يكن قد استفاد منها أحد الفدائيين ، اوكرانى او مولدافى ارسل الى العالم الآخر سليل الرومان القدماء برفقة خادمه .

تنجح فى بعض الاحيان العمليات القتالية التى تتسم بالمغامرة والخطورة ، اكثر من مثيلاتها التى تجرى الاعداد لها بكل دقة وحذر . وذلك أمر يعود بالدرجة الاولى الى عامل المفاجأة . بيد أن اكبر العمليات يمكن ان تفشل فى بعض الاحيان بسبب هفوة واحدة .

ففى مساء ٣٠ ديسمبر شاهد سيريوجكا وفاليا اللذان كانا يسيران بصحبة بعض الرفاق فى طريقهم الى النادى عربة نقل المانية تقف الى جوار أحد المنازل محملة بالاكياس ، دون حراسة ودون سائق .

ودلف سيريوجكا وفاليا الى العربة يتحسسان الاكياس . لقد كانت فيها على ما يبدو هدايا العام الجديد . وكانت بعض الثلوج قد تساقطتها فيما قبل ، ليغدو الجو باردا ، والضياء منتشرا . وكانت حركة الناس لم تنقطع بعد ، ومن ذلك فقد غامرا بالقاء بعض

الأكياس من العربة ، والتى أودعها الرفاق الأفنيـــــة والاكواخ المجاورة .

واقترح جينيا موشكوف – مدير النادى ، وفانيا زيمنوخوف – المشرف الفنى على الصبية بعد انصراف الآخرين نقل تلك الاكياس الى النادى ، حيث يوجد مختلف الاقبية المعزولة .

كانت تعلو بالشتائم الأصوات المخمورة للجنود الالمان الذين احتشدوا الى جوار العربة ، ولاسيما عن عريف يرتدى معطفا فرائيا وحذاءا شتويا ، بينما وقفت صاحبة البيت دون معطف تؤكد كونها غير مسؤولة عن ذلك . وكان الالمان يدركون أنها ليست مذنبة ، ليستقلوا فى نهاية الامر سيارتهم ينحرفون بها فى اتجاه الوهدة نحو مركز الشرطة .

ونقل الشباب الأكياس الى النادى حيث أودعوها القبو .

وفى الصباح قرر فانيا زيمنوخوف وموشكوف حين التقيـــا فى النادى ، ببيع جزء من تلك الاكياس ، ولاسيما السجائر فى السوق ، اليوم وقبيل حلول العام الجديد ، حيث كانت المنظمة فى حاجـــة الى النقود . وقد أيد ذلك الاقتراح ستاخوفيتش الذى كان بالنادى بمحض الصدفة .

ولم يكن الاتجار سرا فى البضائع الالمانية البسيطة ظاهرة غير عادية بالسوق ، فقد كان يمارسها وبالدرجة الاولى الجنود الالمان الذين كانوا يقايضون السجائر والتبغ والشموع والبنزين ، بالفودكا والملابس الصوفية والمواد الغذائية . وكانت المنتجات الالمانية تباع من شخص لآخر ، على مسمع ومرأى من رجال الشرطة الذين كانوا يتغاضون عن ذلك . وقد كان موشكوف يملك شبكة واسعة من الصبية الجائلين الذين كانوا يبيعون السجائر عن طيب خاطر لقاء نسبة معينة .

بيد أن الشرطة فى ذلك اليوم ، وبعد أن فتشت المنازل القريبة من مكان اختفاء الهدايا ولم تجد شيئا ، راحت تراقب عملية البيع والشراء فى السوق . وقد استطـاع رئيس الشرطة سوليكوفسكى بنفسه الامساك بأحد الصبية الذين كانوا يتجرون فى السجائر .

وعند الاستجواب اعترف الصبى بانه اخذ هذه السجائر من أحد الرجال لقاء الخبز . بيد أن ذلك الصبى كان من اولئك الصبية

الجائلين الذين كانوا قد تعرضوا فى حياتهم للضرب أكثر من مرة ، علاوة على أنه قد جرت تربيتـــه فى اطار لا يسمح له بالوشاية برفاقه . وقد أودعوا الصبى الذى ضرب وذرف من الدمع الكثير ، الزنزانة حتى المساء .

وقد ربط الضابط بريوكنر الذى أبلغه فى عداد أمور أخرى سوليكوفسكى رئيس الشرطة بالقبض على الصبى الذى كان يبيع السجائر الالمانية ، ربط بين هذه الفعلة وبين سرقة الهدايا من عربة النقل وأعلن عن رغبته فى استجوابه بنفسه .

وفى وقت متأخر من المساء ، جرى ايقاظ الصبى الذى استسلم للنعاس فى زنزانته ، واقتياده الى غرفة الضابط بريوكنر حيث مثل بين اثنين من كبار رجال الشرطة . . رئيس الشرطة والمترجم .

وتمسك الصبى بموقفه .

وهنا احتد الضابط بريوكنـــر وأمسك بأذن الصبى وراح يجرجره فى الردهة .

وظهر الصبى فى الزنزانة التى وقع ناظراه بها على اريكتين خشبيتين غارقتين فى الدمـــاء وحيث تدلت الحبال من السقف ، واستقرت على المائدة الطويلة غير المطلية ، القضبان والمخارز والسياط التى صنعت من الاسلاك الكهربائية ، وبلطة ، وحيث اشتعلت النيران فى الموقد الحديدى ؛ وظهرت الدلاء المملوءة بالمياه فى زاوية المكـان الذى شاهد الصبى فى ارضيته بالوعتين شأن بالوعات الحمامات .

وجلس يدخن على مقعد خشبى الى جوار المائدة شرطى المانى بدين صليع يضع على عينيه نظارة ذات اطار ناصع ، يرتدى زيه الاسود ، ذو يدين كبيرتين علتهما الحمرة والشعر الاصفر .

وما أن نظر الصبى اليه حتى أصابه الذهول ، واعترف بانه اخذ هذه السجائر من موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش .

وفى نفس اليوم التقت فى السوق فيريكوفا احدى فتيات حى «بيرفومايسكى» ، بصديقتها لياداسكايا التى كانت تدرس معهـــا ذات يوم ، والتى لم تكن قد رأتها منذ بداية الحرب ، حيث جرى نقل أبيها لياداسكى للعمل بمستعمرة كراسنودون .

ويمكننا القول أنهما كانتا صديقتين ، حيث نشأت كل منهما

على اساس التركيز حول المنفعة الشخصية وهو ما يتعارض مع مفهوم الصداقة . الا انهما كانتا تفهمان بعضهما البعض بمجرد الاشارة ، ذواتى مصلحة مشتركة ، تستفيد كل منهما من الاخرى . ومنذ سنى صباهما استقتا من والديهما ومن اولئك الناس الذين كانوا يتعاملون معهم ، تلك الفكرة حول العالم التى تؤكد ان كل البشر لا يسعى الا من اجل مصلحة شخصية ، وان هدف الانسان ووظيفته يكمنان فى نضاله من اجل تفويت الفرصة على الآخرين ، واقتناصها بما يعود عليه بالنفع .

وكانت فيريكوفا وليادسكايا تقومان بمختلف النشاطات الاجتماعية فى المدرسة ، تتشدقان ببساطة وحرية بتلك الكلمات التى تعنى كافة المفاهيم الاجتماعية والاخلاقية . بيد انهما كانتا على يقين من ان هذه الواجبات ، وكل تلك الكلمات بل والمعارف التى يتلقيانها بالمدرسة ابتدعها البشر للتستر على مساعيهم من اجل المصلحة الشخصية والتسلق على ظهور الآخرين .

وقد اعترتهما مشاعر الارتياح الشديد حين رات كل منهما الأخرى ، وان لم يبد على قسمات وجهيهما ما ينم عن حيوية او نشاط . ومدت كل منهما يدها تدسها فى يد الاخرى . . فيريكوفا قصيرة القامة ترتدى غطاء راس فرائى ، تتدلى ضفيرتاها على ياقة معطفها الصوفى ، وليادسكايا فارعة القامة ، شقراء الشعر ، بارزة عظام الوجه ، يغطى الطلاء اظافرها . وانتحتا جانبا بعيدا عن زحمة السوق كى تتبادلا الاحاديث .

وذكرت ليادسكايا :

— فليذهب هؤلاء الالمان . . اى منقذين هؤلاء . . يتشدقون بالثقافة ، فيما هم يحاولون التهام ما لذ وطاب ، وكذلك اللهو على حساب الآخرين . . كلا لقد كنت اتصورهم على النقيض من ذلك . وانت . . اين تعملين ؟

— فى مكتب اعداد اللحوم السابق .

وهنا اتسم وجه فيريكوفا بامارات الغضب والأسى . لقد صادفت اخيرا ذلك الشخص الذى يستطيع ادانة الالمان من وجهة نظر سليمة . ومضت تقول :

— لكنهم لا يدفعون سوى مائتى جرام من الخبز . يا لحماقتهم !

انهم لا يقدرون اولئك الذين تقدموا لخدمتهم طواعية . لقد خيبوا املى فيهم !

وذكرت ليادسكايا :

— اما انا ومنذ الوهلة الاولى وجدت الامر غير مجد . ولذا فلم اذهب لخدمتهم . وقد عشت فى بداية الامر على نحو طيب . كانت لدينا فى البداية جماعة مرحة ، وكنت استند اليها فى تجوالى بالعزب والنجوع استبدل مختلف الاشياء . بيد ان احدى الفتيات ولأسباب شخصية وشت بى ، لأننى لم اسجل نفسى فى مكتب العمل . الا اننى لم اهتم بذلك . . فقد كان مفوض مكتب العمل لدينا انسانا مسنا يدعو الى الضحك ، ويبدو انه ليس المانيا ، حيث كان يدعى لارينجى على ما يبدو ، لهوت معه بعض الوقت حتى راح يحضر لى بنفسه فيما بعد الكحول والسجائر . اما فيما بعد فقد مرض ليحل محلـــه شاب اهوج ، ارسلنى على الفور للعمل بالمناجم . وانت تعلمين ان العمل هناك ليس بالشىء الهين . ولذا فقد جئت الى هنا ، بحثا عن فرصة افضل بمكتب العمل . اليست لديك واسطة هناك ؟

ومطت فيريكوفا شفتيها بما ينم عن جموح .

— اتظنيننى فى حاجة اليهـم ؟ اننى اصارحك القول . . من الأفضل ان يكون المرء على علاقـة بالعسكريين حيث يقيم الفرد منهم بصفة موقتـــة ، وسوف يرحل ان عاجلا او آجلا ، ولست ملزمة حياله بشىء . كما وانهم ليسوا بخلاء . . حيث يعلم كل منهم انه قد يقتل غدا ، ولا يضن بشىء فى سبيل اللهو . ويمكنك زيارتنا عندما تستطيعين .

— كيف لى ذلك . ان مسافة ثمانية عشر كيلومترا تفصل ما بين المستعمرة والمدينـــة ، علاوة على تلك المسافة التى يجب قطعها حتى حيكم «بيرفومايسك» .

— هل اصبح هذا الحى حينا فقط منذ مدة بعيدة ؟ وعلى اى حال فلتزورينا ، لنعرف اخبارك . وثمة ما استطيع عرضه عليك ، بل وقد اعطيك شيئا . هل تفهمين ؟ ونحن فى انتظارك !

ومدت فيريكوفا اليها راحتها الصغيرة فى عدم اكتراث .

وعند المساء سلمت احدى الجارات اللاتى زرن مكتب العمل

فى ذلك اليوم ، سلمت فيريكوفا رسالة صغيرة ، كتبت فيها لياديسكايا «أن موظفى مكتب العمل لديكم اكثر حماقة من اولئك الذين يعملون عندنا بالمستعمرة» وانها لم توفق فى شىء وسوف تعود الى بيتها «محطمة تماما» .

وفى ليلة راس السنة جرى بحى «بيرفومايكا» شان الاحياء الاخرى بالمدينة تفتيش عفوى لبعض المنازل . ووجدت الشرطة تلك الرسالة لدى فيريكوفا ، حيث كانت قد دستها فى غير اكتراث بين الكراسات المدرسية القديمة . ولم يبذل المحقق كوليشوف الذى اشرف على عملية التفتيش اى جهد لتعترف فيريكوفا بلقب صديقتها ، مع اضافات لا معقولة جاءت بها تحت وقع الخوف ، حول ميولها المعادية للالمان .

واخذ كوليشوف تلك الرسالة وطلب من فيريكوفا المرور عليه بمركز الشرطة بعد عيد راس السنة .

كان سيريوجكا اول من عرف بنبأ القبض على موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش . وهرول قاصدا اوليج بعد ان ابلغ ذلك شقيقتيه ناديا وداشا وصديقه فيتكا لوكيانتشينكو ، وقد وجد هناك فاليا وشقيقتى ايفانتسوفا . فقد كانوا يتجمعون صباح كل يوم فى ضيافة اوليج ، حيث يتولى توزيع مهام اليوم عليهم .

وكان اوليج والخال كوليا قد التقطا وسجلا الليلة الماضية بلاغ مكتب الاعلام السوفييتى حول نتائج هجوم الجيش الاحمر فى منطقة ستالينجراد الذى استمر ستة اسابيع ، وحول تطويق مجموعة الجيوش الالمانية عند ستالينجراد فى حلقة مزدوجة .

وقد اندفعت الفتيات نحو سيريوجكا ، يضحكن ويجذبنه من يديه ، يبلغنه ذلك النبأ . وعلى الرغم من قوة سيريوجكا البدنية ، فقد اختلجت شفتاه حين تفوه بذلك النبأ الرهيب .

وجلس اوليج برهة من الوقت وقد علا الشحوب وجهه وتشابكت اصابعه ، بينما غطت التجاعيد جبينه . ثم نهض من مكانه فيما اتسمت قسمات وجهه بالنشاط والحيوية ليقول فى هدوء :

– اسمعن ايتها الفتيات . فلتتصلن بتوركينيتش وأوليانا . ولتحذّرن كل الشباب الذين تربطهم صلة قريبة بالقيادة بغية

اخفاء كل ما لديهم ، واحراق ما لا يستطيعون اخفاءه . ابلغنهم اننا سوف نخطرهم بعد حوالى ساعتين بما يجب عمله . فلتحذرن اهاليكم . . ولا تنسوا ام ليوبا – فقد كانت ليوبكا فى فوروشيلوفجراد . أما انا فسوف اعود بعد قليل .

وارتدى سيريوجكا كذلك سترته المبطنة بالقطن ، وطاقيته الخفيفة التى كان يرتديها على الرغم من الصقيع الشديد .

وتساءل اوليج :

– الى اين انت ذاهب ؟

وتضرجت وجنتا فاليا خجلا ، فقد تخيلته يعتزم مرافقتها . واجاب سيريوجكا :

– سأراقب الطريق حتى يجتمع الباقون .

وشعر الجميع للمرة الاولى بان ما حدث مع فانيا وموشكوف وستاخوفيتش يمكن ان يحدث معهم فى اى وقت ، بل وربما فى تلك اللحظة .

وخرجت الفتيات بعد ان اتفقن الى اى من الآخرين سوف تذهب كل منهن . واوقف سيريوجكا فاليا بالفناء ، ليقول لها :

– فلتكونى حذرة . ان لم تجدينا هنا ، فلتذهبى الى ناتاليا الكسييفنا بالمستشفى . وسوف اجىء اليك هناك ، فلن ارحل دونك .

واومات فاليا براسها وهرولت تقصد توركينيتش .

وقصد اوليج فى خطوات حاول ان تكون عادية ، بولينا جيورجيفنا التى كانت تقطن منزلا باحد الشوارع القريبة من مكتب العمل . وقد وجد اوليج بولينا جيورجيفنا لحظة دخوله تمارس عملا لا علاقة له بالمقاومة ، فقد كانت تنظف البطاطس ، وتلقى بها الى الاناء الذى يتصاعد منه البخار فوق الموقد . وقد امتقع وجه تلك المراة التى كانت تتسم دائما بالهدوء والقدرة على ضبط النفس ، حين ابلغها اوليج بنبأ القبض على رفاقه . وسقط السكين من يدها ، ولبثت برهة من الوقت غير قادرة على التفوه بكلمة واحدة . بيد انها تمالكت روعها فيما بعد .

وقد كان اليوم عطلة ، اول ايام السنة الجديدة . وليس جيدا ان تذهب الى منزل فيليب بيتروفيتش فى وضح النهار ، وبعد ان

كانت قد حملت اليه الحليب صباحا . بيد ان التأجيل كان كذلك مستحيلا ، فقد كانت الساعات ، بل والدقائق يمكن ان تعنى الكثير .

واسهبت بولينا جيورجيفنا ، على الرغم من علمها بكل شئون «الحرس الفتى» فى سؤال اوليج عما اذا كان يعلم احد من المعتقلين عن علاقته وتوركينيتش بلجنة المنطقة . وكان الجميع يعلمون بالطبع ان ثمة علاقة تقوم بطبيعة الحال ، الا انه لم يكن اى منهم يعلم مع من بالذات تقوم هذه العلاقة . وقد كان موشكوف على اتصال بلجنة المنطقة ، الا انه كان انسانا يعتمد عليه تماما . كما وكان زيمنوخوف على اتصال باللجنة عن طريق بولينا جيورجيفنا التى كانت تعرفه جيد المعرفة لدرجة انه لم تراود خاطرها اية فكرة حول احتمال ان يشى بها .

وكان الامر السيىء هو ان ستاخوفيتش كان يعرف الكثير جدا عن «الحرس الفتى» . وقد وصفه اوليج بانه شخص شريف ، لكنه ضعيف الارادة .

وتركت بولينا جيورجيفنا اوليج فى منزلها واوصته بما يجب ان يرد به اذا ما جاء غريب لزيارتها . ويمكن تخيل كم كانت تلك الساعة من الزمن طويلة بالنسبة لأوليج . ولحسن حظه فلم يات اى احد الى البيت . ولم تكن هناك سوى اصوات الجيران فيما وراء الجدار .

وعادت بولينا جيورجيفنا اخيرا ، وقد اكسب الصقيع وجهها حيوية . ويبدو ان فيليب بيتروفيتش وجد ما يبعث فى نفسها الأمل .

ورفعت المنديل الذى كانت تعصب به راسها وفكت ازرار معطفها وهبطت تجلس على مقعد خشبى قبالة اوليج تقول له :

– فلتسمعنى . طلب منى ابلاغك بضرورة الاحتفاظ بروح معنوية عالية . كما وطلب ان يبارح المدينة ، ودون توان . . كل اعضاء القيادة ، ومن هم قريبون منها او من المعتقلين . فلتتركوا لقيادة المنظمة اثنين او ثلاثة من الموثوق فيهم ، وليكن رئيسهم على اتصال بى ، ولترحلوا . . . اذا ما كان احدكم يستطيع الاختفاء فى القرية او فى المدن الاخرى ، فليفعل ذلك . كما وينصح اعضاء

القيادة والقريبين منهم بالرحيل الى المناطق الشمالية ، الى ما خلف الدونيتس من حيث يمكن عبور خط الجبهة او انتظار قواتنا هناك .

وهمّ اوليج يسأل ، الا انها قاطعته قائلة :

– انتظر ليس ذلك كل ما لدى . فقد طلب منى اعطاءك عنوانا ، ولتصغ الى بانتباه . – وهنا اتسم وجه بولينا جيورجيفنا بالجمود لتمضى قائلة : – انك لا تملك حق ابلاغ هذا العنوان الا الى توركينيتش . كما ولا يملك حق الاستفادة منه احد غيركما . – واستطردت تقول فيما تمعن النظر الى اوليج : – يستحيل ابلاغ الآخرين به ، مهما كانت درجة قرابة ومعزة الصبية ، او . . الفتيات منكما . هل فهمت ؟

وفطن اوليج الى من تقصده بذلك .

ولبث يجلس مكانه بعض الوقت وقد هبط براسه الى ما بين كتفيه ، وبدت التجاعيد تغطى جبينه مثل الكبار . وتساءل بصوت هادئ :

– هل نحن انا وتوركينيتش ملزمان بالذهاب الى هذا العنوان ؟

– كلا . . بالطبع لا . بيد ان ذلك العنوان هو اضمن الاماكن ، حيث انهم هناك لن يخفوكما وحسب ، بل وسوف يوكلون اليكما بعض المهام .

وشاهدت بولينا جيورجيفنا وجه اوليج الذى عكست قسماته مدى النضال الرهيب الذى يتاجج بداخله . بيد انه توجه بسؤال يتباين عن ذلك الذى كانت تتوقعه منه :

– وماذا عن المعتقلين ؟ كيف لنا الرحيل حتى بدون محاولة تقديم العون اليهم ؟

وذكرت بولينا جيورجيفنا فى صرامة مفاجأة :

– لن تستطيعوا الآن ، وعلى اى حال ، تقديم العون لهم . وسوف تبذل لجنة المنطقة كل ما فى وسعها لمعاونتهم . كما وسوف نستفيد من بقية شبابكم الذين سوف يبقون هنا . من ذا الذى ترشحونه رئيسا ؟

وبعد برهة من التفكير ذكر اوليج :

– سيبقى اناتولى بوبوف . واذا ما حدث شيء له ، فسوف يحل محله كوليا سومسكوى . هل تعرفينه ؟

والتزما الصمت برهة من الزمن . ولما كان واجبا عليه الرحيل ، فقد سالته بولينا جيورجيفنا بصوت هادىء :

– الى اى مكان سوف تذهب ؟

وقد وجهت اليه ذلك السؤال فى هذه اللحظة بوصفها امراة غير غريبة تحبه وكل اسرته . وادرك مدى القلق الذى يجتاحها . واكفهر وجه اوليج وعلا الأسى قسماته لدرجة انها اسفت على توجيه مثل ذلك السؤال .

واجاب اوليج بصعوبة بالغة :

– بولينا جيورجيفنا ! انك تعلمين السبب الذى ليجعلنى لا استطيع استخدام ذلك العنوان .

نعم . . لقد كانت تعلم .. نينا ! . . انه لم يكن قادرا على ترك نينا .وذكر اوليج :

– سوف نحاول سوية عبور خط الجبهة . وداعا .

وتعانقا .

وريثما كان اوليج غائبا ، وصل الى مسكنه فانيا توركينيتش ، ثم وبعد برهة قصيرة ، وبدون اى استدعاء ستيوبا سافونوف وسيرجى ليفاشوف ، ثم جاء بعدهما جورا اروتيونيانتس الذى وصل بدون اوسموخين . فقد اتم فولوديا صباح اليوم اول يناير عامه الثامن عشر ، واهدته شقيقته ليودميلا زوجين من الجوارب الصوفية كانت قد صنعتهما خصيصا لهذه المناسبة ، ليرحلا سويا الى جدهما بالقرية .

وارسل توركينيتش الصبية لمراقبة كل الطرق المفضية الى المنزل .

وبدا توركينيتش وسيريوجكا الاجتماع دون انتظار اوليانا التى كانت تقطن على مسافة بعيدة .

ماذا عليهم ان يفعلوا ؟ – كان هذا السؤال هو الوحيد المطروح عليهم ، وينبغى ايجاد اجابة له ، وعلى وجه السرعة . وكانا يدركان ان القضية لا تتوقف وحسب على مصير الرفاق المعتقلين ، بل وعلى مصير المنظمة بأسرها . هل يجب انتظار ما

سوف تسفر عنه الاحداث ؟ كلا . . اذ انه قد يقبض عليهم فى اية لحظة . الاختفاء ؟ ليس ثمة مكان يمكن اللجوء اليه ، حيث يعرفهم الجميع اينما حلوا .

وعادت فاليا ، ثم وصلت اوليانا برفقة اوليا ايفانتسوفا ونينا التى صادفتهما فى طريقها . وذكرت نينا ان رجال الشرطة الالمان يتولون حراسة النادى ولا يسمحون لأحد بدخوله ، كما ويعلم الجميع بنبأ القبض على ادارة النادى ، والعثور فى قبوه على هدايا راس السنة التى فقدها الالمان .

وافصح توركينيتش ونينا عن احتمال ان يكون ذلك الامر هو السبب الرئيسى للقبض على الشباب . ومهما كان هذا الامر عصيبا ، الا انه لا يعنى سقوط المنظمة .

وذكر توركينيتش بما عرف عنه من ثقة :

– ان الشباب لن يشوا باحد .

وهنا دخل اوليج ، ليجلس الى المائدة دون ان يقول شيئا ، ينم وجهه عن امارات الاستغراق فى التفكير . ثم دعا توركينيتش الى غرفة الجدة ، حيث ذكر اوليج العنوان الذى تحدثت عنه بولينا جيورجيفنا وتبادلا الحديث بعض الوقت ثم خرجا الى الفتيات وسيريوجكا الذين كانوا ينتظرونهما فيما يخيم عليهم صمت رهيب . ونظر الجميع الى اوليج نظرة التساؤل ، وبما يعكس آمالهم وآلامهم .

وكست الصرامة قسمات وجه اوليج حين راح يقول فيما يرنو الى الجميع بعينين تتسمان بالجسارة والوضوح :

– لا يجب علينا ان نعلق آمالا حول احتمال مصادفة نهاية طيبة للوضع . ومهما كان ذلك عصيبا ، ومهما كان ذلك رهيبا يجب علينا التخلى عن فكرة امكانية البقاء هنا حتى وصول الجيش الاحمر ، وتقديم العون اليه ، بل وعن كل ما كنا نود تنفيذه غدا . والا فسوف نهلك ونقضى على كل رجالنا .

كان يتحدث فى نبرة تتسم بضبط النفس ، بينما كان الآخرون يستمعون اليه جامدين شاحبين . ثم مضى يقول :

– ان الالمان يبحثون عنا منذ بضعة اشهر . وهم يعرفون بوجودنا . لقد اصابوا قلب المنظمة . – واكد قائلا : – انهم

حتى وان لم يكونوا يعرفون ، او سوف يعرفون شيئا غير موضوع الهدايا ، فسوف يلقوا القبض علينا جميعا ، وعلى كل من اجتمع حول النادى ، الى جانب عشرات الابرياء . فما العمل ؟ — وصمت هنيهة مضى بعدها يقول : — الرحيل . . مبارحة المدينة . نعم . . يجب علينا الافتراق ، وليس علينا جميعا بطبيعة الحال . وأعتقد ان الفشل لن يمس شباب مستعمرة كراسنودون ، وكذلك حى بيرفومايسك . ولذا فهم قادرون على العمل .

ونظر فجاة الى اوليانا بمنتهى الجدية ليضيف :

— ما عدا اوليانا ، فهى بوصفها عضوا بالقيادة يمكن ان تسقط فى اية لحظة . لقد ناضلنا بشرف ، ونملك حق التفرق ونحن على يقين من اننا قمنا بواجبنا . لقد فقدنا ثلاثة رفاق منهم افضل الفاضلين — فانيا زيمنوخوف . غير اننا ملزمون بالتفرق دون ان تخور قوانا وتهبط قدراتنا المعنوية . لقد بذلنا كل ما كان بوسعنا .

ولزم الصمت . ولم يكن ثمة من اراد او استطاع الحديث اكثر من ذلك .

خمسة اشهر باكملها ساروا جنبا الى جنب . . . خمسة اشهر باكملها كانوا فيها كل يوم تحت سطوة الالمان ، وبما يصحب ذلك من آلام جسدية ومعنوية وبما يتطلب من جهود تبذل ليس مجرد يوما من ايام الاسبوع . . . خمسة اشهر باكملها . . كيف مرت تلك الايام ! فكم شاهدوا من اعمال سامية ورهيبة ، طيبة وشريرة ، وكم بذلوا اثناءها من جهود ناصعة رائعة لصالح القضية المشتركة ، وكم من الاحساسات والمشاعر التى حملها كل منهم للآخر ! لقد اصبح اليوم فقط واضحا ماذا تعنى منظمة «الحرس الفتى» ، وكم هم مدينون لها ! وها هم ملزمون بتركها !

وانخرطت الفتيات فاليا ونينا واوليا فى بكاء خافت . وجلست اوليانا فى هدوء ظاهرى ، بينما تالقت عيناها بضوء قوى يوحى بالرهبة . اما سيريوجكا فقد استند بوجهه الى المائدة ومط شفتيه المتورمتين وراح يرسم باظافره نقوشا على المفرش . ولزم توركينيتش الصمت فيما يحدق فى الفراغ القائم بعينيه الناصعتين، بينما عكست شفتاه دقيقتا المعالم الصرامة وقوة الارادة .

وسال اوليج :

— هل ثمة آراء اخرى ؟

ولم تكن هناك آراء اخرى ، الا ان اوليانا ذكرت :

— لست ارى داعيا لرحيلى اليوم . اننا شباب بيرفومايسك لم نكن على ارتباط كبير بالنادى . اننى سانتظر فقد استطيع العمل فيما بعد . كما وسوف التزم بالحذر .

وتاملها اوليج بنظرة غاية فى الجدية ثم قال :

— يجب عليك الرحيل !

وفجاة تحدث سيريوجكا الذى كان قد التزم الصمت طوال اجتماعهم :

— يجب عليها حتما الرحيل !

وعادت اوليانا تقول :

— اننى سوف اكون حريصة .

وفى صعوبة بالغة استقر الراى فيما بينهم ، ودون ان ينظر كل منهم الى الآخر ، على تسليم مقاليد الامور الى ثلاثى للقيادة يتكون من اناتولى بوبوف ، وسومسكوى واوليانا اذا لم ترحل . واذا ما عادت ليوبا وكان فى وسعها البقاء ، فسوف تكون رابعتهم . وجرى اتخاذ هذا القرار : يجب على الجميع الرحيل باكبر سرعة ممكنة . وذكر اوليج انه لن يرحل والفتيات مراسلات الاتصال حتى القيام بتحذير الجميع والاتصال ببوبوف وسومسكوى . بيد انه ينبغى على كل اعضاء القيادة والقريبين منهم عدم قضاء الليلة فى منازلهم .

وجرى استدعاء جورا وسيرجى ليفاشوف وستيوبا سافونوف حيث ابلغوهم بقرار القيادة .

ثم راحوا يتوادعون . . وتقدمت اوليانا نحو اوليج ليتعانقا . وذكر اوليج بتاتاته المعهودة :

— شكرا . . شكرا لأنك كنت وما زلت موجودة !

ومسحت شعره براحة يدها فى رقة .

بيد ان اوليج وحين بدات الفتيات تتوادعن مع اوليانا ، لم يستطع تماسك اعصابه ليخرج الى الفناء ، وليتبعه سيريوجكا .

ولبثا واقفين سوية فى الصقيع دون معاطف ، تحت اشعة شمس ١٩٤٣ التى كانت تعشى الابصار .

وساله اوليج بصوت خافت :

– هل فهمت كل شىء ؟

واوما سيريوجكا براسه .

– لقد انتهى كل شىء . قد يضعف ستاخوفيتش هناك . . . اوليس كذلك ؟

– نعم . . لكن ليس طيبا الحديث عن ذلك . ليس طيبا ان يفقد المرء ثقته فى الآخرين قبل ان تكون لديه البراهين . لربما يكون الآن يذوق صنوف التعذيب ، بينما نحن طلقاء .

ولزم كلاهما الصمت برهة ليتساءل سيريوجكا بعدها :

– الى اين تنوى الرحيل ؟

– سوف احاول عبور خط الجبهة .

– وانا كذلك . . . فلنحاول سوية ؟

– طبعا . . لكن نينا واوليا سوف تذهبان معى .

وذكر سيريوجكا :

– واعتقد ان فاليا سوف تذهب كذلك معنا .

وتقدم سيرجى ليفاشوف يودع توركينيتش بوجه مكفهر تعلو قسماته امارات الحيرة . وذكر توركينيتش فيما ينظر اليه فى تمعن :

– انتظر . . ماذا ستفعل ؟

واجاب ليفاشوف فى تجهم :

– سوف ابقى الى حين .

وذكر توركينيتش بصوت هادىء :

– انها حماقة ، فلن تستطيع تقديم العون اليها او الدفاع عنها . كما وانهم سوف يعتقلونك قبل ان تعود هى . علاوة على انها فتاة تتميز بالمهارة فاما ان تلوذ بالفرار او تخدعهم .

وذكر ليفاشوف :

– لن ارحل .

وذكر توركينيتش بحدة :

– سوف تذهب الى قواتنا عبر خط الجبهة . اننى لم انح بعد ، واصدر امرى اليك بذلك .

وصمت ليفاشوف .

ودلف اوليج الى الداخل ليواجهه توركينيتش يساله :

– هيه أيها الرفيق القوميسار . . هل ستعبر خط الجبهة ؟ هل هذا قرارك النهائى ؟

وقد كان توركينيتش غير راض عن ان اوليج رفض استخدام ذلك العنوان الذى سلم الى كليهما ، لكنه لم ير ضرورة لاقناعه بالعكس . وحين علم بان تعداد المجموعة التى سوف تعبر خط الجبهة خمسة افراد ، هز راسه قائلا :

– جماعة كبيرة . . حسنا . الى اللقاء فسوف نلتقى جميعنا هنا فى صفوف الجيش الأحمر .

وامسك كل منهما بيدى الآخر يدنو منه ليقبله . الا ان توركينيتش افلت يديه فجاة واشاح بهما وهرول الى الخارج ، ليتبعه سيرجى ليفاشوف بعد ان قبل اوليج .

قرر ستيوبا سافونوف التوجه الى اقاربه فى كامينسك ، للاقامة عندهم وحتى وصول الجيش الاحمر . اما جورا فقد كان يعانى اضطرابا نفسيا داخليا لم يستطع الافصاح عنه لأى من اصدقائه . بيد انه كان يدرك استحالة بقائه . فمن المؤكد انه سوف يكون مضطرا رغما عن كل شىء للرحيل الى نوفوتشيركاسك حيث يعيش عمه الذى لم يصل اليه يوم سافر قاصدا اياه برفقة فانيا زيمنوخوف . وهنا تذكر جورا رحلتهما ، لتترقرق الدموع فى مآقيه ويخرج الى الشارع .

ولبثوا مجتمعين برهة من الوقت . . اوليج وسيريوجكا وفتيات الاتصال الثلاث . كما وتقرر انه لا داعى لعودة سيريوجكا الى منزله ، وعلى اوليا تحذير اهله عن طريق فيتيا لوكيانتشينكو . ثم انطلقت فاليا ونينا واوليا لابلاغ من ينبغى اخطاره بالقرار المتخذ ، اما سيريوجكا فقد ارتدى سترته وخرج لمراقبة الشارع . فقد كان يدرك ضرورة بقاء اوليج وحده مع اسرته . وفى نفس الوقت وحين جرت هذه الاجتماعات فى غرفة الطعام وغرفة الجدة



كانت اسرة اوليج قد عرفت بنبأ القبض على زيمنوخوف والآخرين وادركت ان الصبية مجتمعون لهذا السبب .

وقد كانت هناك بالمنزل اسلحة واقمشة حمراء للاعلام ومنشورات ، قامت يلينا نيكولايفنا والخال كوليا باخفاء بعضها واحراق البعض الآخر . اما جهاز الراديو فقد دفنه الخال كوليا فى القبو تحت المطبخ ، وسوى الارضية التى وضع فوقها برميل الكرنب المخلل .

وبعد ان تم القيام بكل ذلك تجمع افراد الاسرة بغرفة الخال كوليا يتابعون بوحى العادة والحتمية تصرفات ابن مارينا الصغير البالغ من العمر ثلاثة سنوات ، ينتظرون كما المحكوم عليهم ما سوف يسفر عنه ذلك الاجتماع .

وصفق الباب خلف آخر الرفاق الذين بارحوا المكان ، ليدلف اوليج الى الغرفة . والتفت الجميع نحوه ، حيث كانت امارات الصراع النفسى والنشاط قد فارقت وجهه ، كما فارقته كذلك تلك الامارات الطفولية التى كانت ترتسم عليه لتحل محلها علامات الحزن والأسى . وذكر اوليج :

– ماما . . وانت يا جدتى العزيزة . . وانت يا كوليا ويا مارينا . . – وهنا وضع يده الكبيرة على رأس الطفل الذى صار يصرخ محتضنا قدمه : – اننى مرغم على مفارقتكم . ساعدونى فى جمع حاجياتى . . ولنجلس قبيل الرحيل برهة كما فعلنا ذات يوم . . منذ مدة بعيدة .

وارتسمت على شفتيه وعينيه ظلال ابتسامة رقيقة بعيدة .

ونهض الجميع واحاطوا به .

ها هما يدا الأم تعملان وتجدان ! تحومان كما الطائر ، تعدان ارق الملابس الرقيقة ، حين لم يكن ثمة من يرتديها بعد ، وحين كان يعلن عن نفسه فى احشائها بما يجعلها تحس بضرباته الرقيقة التى تجعل وجيب قلبها يتوقف . تعملان ليخرج الى نزهته الاولى ، تدثرانه حين يأخذ طريقه الى المدرسة ثم من اجل رحيله الاول ، ومن اجل رحلته البعيدة . وها هى حياتها : فراق ولقاء . . لحظات نادرة مفعمة بالسعادة ، كثيرة مشوبة بالآلام . تعملان فى سبيله

طالما يحدوها الأمل ، بل وتعملان حين تفقد هذا الأمل ، تلفه لتودعه مثواه الاخير .

وقد كان ثمة ما يفعله كل من الحاضرين . فقد راح يتفحص الخال كوليا مختلف الاوراق . واضطروا الى احراق مفكرته . واودع احدهم بطاقة الكومسومول وبعض البطاقات الموقتة لعضوية الكومسومول بطانة سترته . واصلحوا من حال بعض ملابسه الداخلية ، ووضعوا كل حاجياته فى كيس : اغذية وصابون وفرشة اسنان وابرة وخيوط سوداء وبيضاء . كما ووجدوا غطاء راس فرائى قديم يصلح لسيريوجكا تيولينين . كما اودعوا كيسا آخر المواد الغذائية ليحمله سيريوجكا . فقد كان عدد الراحلين خمسة .

بيد انهم لم يستطيعوا الجلوس قبيل الرحيل كما كانوا يفعلون ذات يوم . وكان سيريوجكا ما بين آت وذاهب ، كما وعادت الفتيات الثلاثة : فاليا ونينا واوليا . وها هو المساء يسدل ستائره ، ليحين ميعاد الوداع .

لم يذرف الدمع احد . وراحت الجدة فيرا تصلح من حال الجميع . . تسوى سترة احدهم ، وتعدل حقيبة الآخر . ثم اخذت تضم كلا منهم ثم تدفعه فى اضطراب ، اما اوليج فقد احتضنته طويلا وقد استندت بذقنها الى غطاء راسه الفرائى .

وامسك اوليج بيد امه ، يقودها الى الغرفة الاخرى ، ثم قال :

– سامحينى يا امى !

وهرولت الأم خارجة الى الفناء ليصفع الصقيع وجهها وقدميها ، تقف الى ان خرج الصبية ، يتناهى صرير الثلوج تحت اقدامهم الى سمعها دون ان ترفع ناظريها نحوهم ، وحتى ابتلع السكون ذلك الصرير . ولبثت تقف هكذا طويلا تحت السماء الداكنة المرصعة بالنجوم .

وعند الفجر سمعت يلينا نيكولايفنا التى لم يغمض لها جفن طوال الليل صوت طرقات على الباب . وسارعت بارتداء فستانها متسائلة :

– من الطارق ؟

كانوا اربعة . . رئيس الشرطة سوليكوفسكى وضابط الصف فينبونج برفقة جنديين آخرين . وسالوا عن اوليج لتجيبهم يلينا

نيكولايفنا بانه رحل يجول القرى لاستبدال الملابس بالمـــواد الغذائية .

وقام هؤلاء بتفتيش المسكن والقوا القبض على جميع ساكنيه ، حتى الجدة فيرا ومارينا وصغيرها البالغ من العمر ثلاثة اعوام . واستطاعت الجدة بصعوبة بالغة ان تطلب من الجيران رعايـــة المنزل فى غيابهم .

وفى السجن اودعوهم زنزانات مختلفة . وجرى ايداع مارينا وطفلها زنزانة غصت بالنسوة اللاتى لم تكن ثمة علاقة تربطهن بمنظمة «الحرس الفتى» . بيد انها كانت تضم ماريا اندرييفنـا بورتس ، وفينيا شقيقة سيريوجكا تيولينين التى كانت تعيش وحدها بمعزل عن اسرتها . وقد عرفت مارينا منها انه قد جرى ايضا اعتقال الوالدين الكسندرا فاسيليفنا ، و«الجد» المقعد بعكازه ، اما الشقيقتان ناديا وداشـــا فقد اسعفهما الوقت للرحيل فى وقت سابق .

الفصل السابع والخمسون

جرى اعتقال فانيا زيمنوخوف عند الفجر . وقد كان يعتـــزم الرحيل لزيارة كلافا فى نيجنى الكسندروفسك ، ولذا فقد نهض فى الهزيع الاخير من الليل ، وتناول بعض الخبز ثم ارتدى معطفه وغطاء راسه الشتوى وخرج الى الشارع .

كان الأفق ناصعا للغاية ، تظلله هالة الفجر الصفراء ، تعلو غلالات وردية رمادية تمازجت مع السماء ذات اللون الشاحب . وقد استقرت فوق المدينة بعض السحب ما بين وردية وصفراء . ولم يكن فانيا يرى كل ذلك ، الا انه كان يذكر منذ طفولته فجر الشتاء لتبدو امارات السعادة على وجهه الذى غابت عنه نظارتـــه والتى اودعها جيبه الداخلى حتى لا يكسوها الندى . وهكذا ، وبهذا الوجه الذى ارتسمت امارات الغبطة عليه صادف اولئك الاربعة الذين كانوا فى طريقهم اليه قريبا من بيته ، والذين لم يكن قد ادرك هويتهم بعد . . ثلاثة من رجال الشرطة الالمان يرافقهم كوليشوف محقق الشرطة الجديد .

وقد عرفهم فانيا حين صاروا على مقربة منه ، كما وفطن من

سؤال كوليشوف الى انهم جاؤوا للقبض عليه . وفى تلك اللحظة شانه فى كل اللحظات الحاسمة فى حياته ، غدا باردا متماسكا ليجيب على سؤال كوليشوف الذى كان قد وجهه اليه :

– نعم . . انا .

وذكر كوليشوف :

– لقد سقطت اخيرا .

وذكر فانيا :

– سوف اخبر اهلى .

لكنه كان يعلم انهم لن يسمحوا له بدخول منزله واستدار ليطرق اقرب النوافذ اليه، يخبط بقبضته اطار النافذة وليس زجاجها.

وفى نفس تلك اللحظة امسك رجل الشرطـــة وكوليشوف بيديه ليقوم الاخير بتحسس جيوب معطفه ، وجيوب سروالـــه دون ان يرفع المعطف .

وانفرجت الضلفة العليا للنافذة ، لتطل منها شقيقته ، الا ان فانيا لم يستطع تبين ملامح وجهها ، ليقول لها :

– فلتبلغى بابا وماما بان الشرطة قد جاءت لاستدعائى ، فلا داعى للقلق ، حيث سرعان ما سوف اعود .

وابتسم كوليشوف سخرية ، وهز راسه ثم ارتقى مدخـــل المنزل برفقة احد الجنود الالمان ، حيث كان ينبغى عليهما تفتيش المنزل . اما الرقيب والجندى الالمانيان الآخران فقد اقتادا فانيا عبر ممر ضيق داسته الاقدام وسط الثلوج الى جوار المنـــازل الكائنة بذلك الشارع المقفر . واضطر الرقيب والجندى خوض الثلوج على جانبى الممر بينما افسحاه لفانيا الذى تقدمهما .

ودفعوا بفانيا فى معطفه وغطاء راسه وحذائه الرث الى زنزانة صغيرة مظلمة غطى الصقيع جدرانها ، ذات ارضية زلقة ليبقـى وحيدا بداخلها بعد ان غلقا بابها بمفتاح .

وتسلل ضوء الصباح بالكاد الى داخل الزنزانة من تحـــت سقفها ، وحيث لم تكن هناك اسرة او ارائك خشبية ، فيمـــا تصاعدت رائحة حادة من دلو فى زاوية الغرفة .

وهاجمته الهواجس والافكار تراوده بشان سبـــب القبض عليه . . . او قد عرفوا شيئا عن نشاطه ، او ربما بغية التحقق

من بعض الشكوك ، اويكون وشى به أحد ، وكذلك بشأن والديه وكلافا ورفاقه . بيد أنه استجمع قواه وكانما يود أن يقول : «اهدأ يافانيا . . تمالك روعك يا صديقى» ، ليصل الى نتيجة مفادها . . «فلتصبر وسوف تتضح الأمور» .

ودس فانيا يديه اللتين تجمدتا فى جيبى معطفه ومال الى الحائط يسند رأسه اليه ليظل هكذا واقفا فترة طويلة لم يدر مدتها ، قد تكون بضع ساعات ، بما اتسم به من صبر .

وتعالى دبيب خطوات ثقيلة لعدة اشخاص او شخص واحد كانوا يذرعون الردهة من اقصاها الى اقصاها ، يصفقون ابواب الزنزانات . كما وتناهت الى اسماعه اصوات بشرية ترامت من بعيد ، وعن قريب .

ثم تعالى وقع اقدام توقفت الى جوار زنزانته ، ليتساءل صوت أجش :

– أفى هذه الزنزانة ؟ فليذهب الى الضابط !

وقد بارح صاحب الصوت المكان ليصر المفتاح فى قفل الباب .

وابتعد فانيا عن الجدار ودار برأسه . ودلف الى الداخل جندى المانى ، غير ذلك الذى رافقه ، قد يكون مناوب الردهة ، يحمل مفتاح القفل ، وشرطى لم يكن غريبا على فانيا لأنه كان قد تعرف فى ذلك الوقت على كافة رجال الشرطة . وجرى اقتياده الى غرفة بريوكنر ، حيث شاهد فى حراسة شرطى آخر أحد الصبية الذين ارسلهم لبيع السجائر .

والقى على فانيا بنظرة ، ذلك الصبى ضامر الوجه ، قذره ، ثم هز كتفيه واغترف بأنفه جرعة كبيرة من الهواء .

وشعر فانيا ببعض الارتياح . لكنه ورغما عن كل شىء سوف يكون مضطرا لانكار كل شىء ، اذ أنه ولئن اعترف بسرقته للهدايا بغية كسب بعض المال فسوف يطلبون منه الوشاية بشركائه . كلا . . يجب عليه العزوف عن التفكير فى ان الامر يمكن ان ينتهى على خير .

وخرج الكاتب الالمانى من مكتب بريوكنر وتنحى جانبا فيما يسند بابه .

ودفعه الشرطى نحو الباب على عجل وقد ارتسمت على وجهه امارات الخوف ، قائلا :

– ادخل . . ادخل .

كما ودفع الشرطى الآخر الصبى الصغير ، ممسكا بقذاله . ودلف فانيا والصبى الى المكتب فى لحظة واحدة ، ليصفق الباب من خلفهما . ورفع فانيا غطاء رأسه .

كان يوجد بالمكتب بضعة اشخاص ، عرف فانيا فيهم الضابط بريوكنر الذى جلس الى المكتب وقد تدلت ثنيات رقبته على ياقة سترته ، يبحلق فى فانيا بعينيه المستديرتين كعينى البومة .

– تقدم قليلا ! كم غدا هادئا . . .

هذا ما نطق به بصوته الأجش وكانما صدر عن قماش يتمزق ، سوليكوفسكى الذى تقدم جانب مكتب الضابط يمسك فى يده الضخمة بسوط مجدول .

أما المحقق كوليشوف الذى كان يتقدم المكتب من الجانب الآخر فقد مد يده ليمسك بالصبى الصغير من تحت ابطه يدفعه نحو المكتب .

وتساءل مبتسما فى هدوء وهو يغمز فى اتجاه فانيا :

– هو ؟

واجاب الصبى بالكاد وهو يشهق ليجمد مكانه :

– نعم .

ونظر كوليشوف فى ارتياح ظاهر الى الضابط ثم الى سوليكوفسكى . ومال المترجم الذى وقف الى الناحية الاخرى للمكتب يشرح للضابط ما حدث هنا . وقد عرف فانيا فيه شوركا ريباند الذى كان يعرفه جيد المعرفة شأن كل سكان كراسنودون .

ونظر سوليكوفسكى الى فانيا بعينيه الضيقتين الغائرتين عميقا داخل عظام وجنتيه ، وكانما تظهران من وراء الجبال ، ليتساءل :

– هل فهمت ؟ هيا . . حدّث السيد الضابط عن شركائك . تكلم ! بسرعة !

وذكر فانيا بصوته الأجش فيما يتأمله بعينيه :

– لست أدرى عم تتحدث .

وخاطب سوليكوفسكى كوليشوف قائلا فى دهشة وامتعاض :

– هل ترى ؟ هيه ! هذا هو التعليم الذى منحته اياه السلطة السوفييتية .

أما الصبى فقد نظر فى خوف الى فانيا اثناء حديثه وهز كتفيه وكانما اصابته البرودة .

وذكر كوليشوف يلوم فانيا فى هدوء :

– ألا تخجل من نفسك ؟ فلتشفق على الصبى الذى يتعذب بسببك . فلتنظر الى ذلك الموجود هنا ؟

والتفت فانيا الى حيث اشارت نظرة كوليشوف ، ليقع نظره على كيس بجوار الجدار ، تبدو منه الهدايا التى تبعثر جزء منها على الأرض .

وذكر فانيا فيما راح يبدو هادئا اكثر فاكثر :

– لست أدرى ما علاقتى بذلك . كما واننى ارى هذا الصبى للمرة الاولى .

ويبدو ان بريوكنر الذى كان شوركا ريباند يترجم له كل ما يقول ، قد اصابه الملل ، ليلقى بنظرة خاطفة على ريباند فيما يتمتم ببعض الكلمات . والتزم كوليشوف الصمت فى اذعان . بينما فرد سوليكوفسكى قوامه واسدل يديه الى جانبيه .

وذكر شوركا ريباند فى برود وهو ينظر الى جانب فانيا :

– السيد الضابط يطلب منك الحديث عن كم مرة قمت فيها بالسطو على السيارات وباى هدف ومن هم شركاؤك ، وماذا فعلوا . . وكل شىء آخر .

وذكر فانيا :

– كيف لى ان اسطو على السيارات ، فى حين اننى ضعيف النظر ، وانت تعلم ذلك .

– ارجو ان تجيب السيد الضابط .

بيد ان السيد الضابط لم يكن ، على ما يبدو ، فى حاجة الى ايضاحات ، ليقول مشيرا باصابعه :

– سلموه الى فينبونج !

وتغير كل شىء فى لحظة واحدة . اذ امسك سوليكوفسكى بيده الضخمة فانيا من ياقته يهزه فى غضب ، يجره الى قاعة الاستقبال وادار وجهه ليضربه بسوطه «ذهابا وايابا» بكل قوة . وغطت

الخطوط الحمراء وجه فانيا . وقد اصابت احدى الضربات زاوية عينه اليسرى لتبدأ فى الانتفاخ على الفور . وامسك الشرطى الذى جاء به ، بياقته وراح بمساعدة سوليكوفسكى يجرجرانه بالردهة فيما يدفعانه ويضربانه بركبهما .

وكان يجلس بالغرفة التى دفعاه اليها صف الضابط فينبونج وجنديان من فرقة الاس اس ، يدخنون فيما تعلو امارات الارهاق وجوههم .

وصاح سوليكوفسكى بصوت صفيرى رهيب وقد امسك بوجه فانيا بيده الكبيرة ، حيث بدت واضحة اصابعه ذات الأظافر الحديدية :

– ان لم تعترف ايها السافل وعلى الفور باسماء شركائك . . .

واذ فرغ الجنديان من تدخين سيجارتيهما والقيا بعقبيهما الى الارض ليفركاهما بكعبيهما قاما وعلى نحو هادئ وبارع بتجريد فانيا من معطفه وكل ملابسه ، والقيا به على الاريكة الخشبية الملطخة بالدماء .

وعلى مهل تناول فينبونج بيده الحمراء التى غطاها الشعر الأصفر سوطين مجدولين من الاسلاك الكهربائية ، ناول احدهما سوليكوفسكى بينما احتفظ بالثانى لنفسه . وراحا يضربانه بالتناوب على جسده العارى بينما كان الجنديان يمسكان به من قدميه ورأسه . وانبثقت الدماء من جسد فانيا بعد اولى الضربات .

وما كادا يكيلان الضربات لفانيا حتى اقسم على عدم فتح فمه ، لا اجابة عن سؤال ولا تعبيرا عن شعور بالألم .

وهكذا ظل على هذه الحال طوال تلك الفترة التى كانا يضربانه فيها وقد كانا يتوقفان من آن لآخر برهة من الوقت ليتساءل سوليكوفسكى :

– هل ثبت الى رشدك ؟

وكان فانيا يرقد صامتا دون ان يرفع وجهه ليستأنفا ضربه من جديد .

هذا وكان موشكوف قد نال نفس المصير على نفس الأريكة الخشبية منذ نصف ساعة مضت . الا انه شأن فانيا نفى اية علاقة تربطه بحادث سرقة الهدايا .

اما ستاخوفيتش الذى كان يعيش بعيدا فى اطراف المدينة ، فقد القى القبض عليه بعدهما .

وقد كان ستاخوفيتش مثل كل الشباب على شاكلته ، والذين يتخذون الاعتزاز بالنفس اساسا لكل تصرفاتهم بالحياة ، يمكن ان يصمد على اى نحو ، بل وكان يستطيع القيام بعمل بطولى يتسم بالمغامرة على مراى من الآخرين ولاسيما اذا كانوا من معارفه او من ذوى الثقل المعنوى . بيد انه كان يجبن حين يواجه المخاطر او المصاعب وجها لوجه .

لقد فقد نفسه فى تلك اللحظة التى قبض عليه فيها . بيد انه كان يتمتع بذلك الذكاء الذى يكمن فى القدرة على ايجاد عشرات ومئات الحجج المعنوية توا لتبرير موقفه .

وقد ادرك ستاخوفيتش على الفور حين ووجه بالصبى ، ان هدايا راس السنة هى القرينة الوحيدة ضده وضد رفاقه الذين لا يمكن ان يفلتوا من نفس مصيره . وقد راودته توا فكرة تحويل كل ذلك الامر الى قضية سرقة عادية ارتكبها ثلاثتهم ، والاعتراف صراحة وذرف الدموع بسبب العوز الشديد والجوع وقطع الوعود بشان الكسب مستقبلا من عمل شريف . وبنفس هذا الاخلاص اوجز ذلك الأمر فى حضرة بريوكنر والآخرين مما جعلهم يدركون جوهر ذلك الماثل امامهم . وقد راحوا يكيلون له الضربات فى نفس المكتب ، يطالبونه بكشف شركائه الآخرين . اولم يكن ثلاثتهم بالامس فى النادى ، مما يعنى انهم لم يكونوا قادرين على تفريغ السيارة !

ولحسن حظه حان موعد غداء بريوكنر ومساعده بالدر ، ليتركاه حتى المساء .

وفى المساء عاملوه بلطف قائلين انهم سوف يفرجون عنه ان افصح عن اسماء سارقى الهدايا . وذكر ان ثلاثتهم هم الذين قاموا بذلك . وعندئذ جرى تسليمه الى فريق فينبونج حيث راحوا يعذبونه وحتى نطق بلقب تيولينين . اما عن الآخرين فقد ذكر انه لم يتعرف عليهم فى حلكة الظلام .

لم يكن ذلك المأسوف عليه يعرف انه بالاعتراف على تيولينين ، يكون قد ورط نفسه فى خضم من التعذيب الرهيب حيث ان اولئك

الذين وقع فى ايديهم كانوا يعلمون ضرورة مواصلة كسر ارادته حتى النهاية فى هذه اللحظة بالذات التى اعلن فيها عن ضعفه .

كانوا يعذبونه حتى يغمى عليه ، ويصبون عليه المياه الى ان يفيق ليواصلوا تعذيبه . وهكذا حتى فقد قبيل مطلع الصباح كل السمات الانسانية ليركع طلبا للصفح والغفران . . انه لم يكن يستحق كل ذلك التعذيب . لقد كان مجرد اداة فى ايدى آخرين ، ويجب ان يتحملوا هم لا هو ، مسئولية ذلك ! وهكذا وشى بقيادة «الحرس الفتى» وبمراسلات الاتصال ، الا انه لم يذكر اسم اوليانا جروموفا ، لسبب مجهول . فقد ومضت بمخيلته سريعا عيناها السوداوان الرائعتان ، ليغفل ذكر اسمها .

وفى نفس تلك الايام جيئ بليادسكايا من مستعمرة كراسنودون الى مركز الشرطة ، حيث جرت مواجهتها بفيريكوفا . وكانت كل منهما تعتبر الاخرى مسئولة عما حدث ، توجه لها فى حضرة بالدر الرصين وكوليشوف الفكيه اقذع اشكال السباب شان تاجرات الاسواق الفاحشات .

وقد صاحت ليادسكايا التى تضرجت وجنتاها لدرجة لم يعد يظهر معها النمش على وجهها بارز العظام ، تقول :

– معذرة اولم تكونى مرشدة طلائع !

وردت عليها فيريكوفا وقد كورت قبضتها وبرزت ضفيرتاها ، تقول :

– ان كل سكان بيرفومايسكى يذكرون كيف كنت تجمعين اشتراكات جمعيات اصدقاء الطيران .

وكادتا ان تشتبكا فى عراك ، الا ان الحاضرين حالوا دون ذلك واودعوهما رهن السجن يوما . ثم قاموا باستدعائهما كل على حدة لاستجوابهما فى غرفة بريوكنر . وامسك كوليشوف بيد فيريكوفا ثم بيد ليادسكايا على نفس النحو ، يهمس اليهما بنفس الجملة :

– هل ستصورين نفسك ملاكا ؟ فلتتحدثى عن اسماء المنظمة !

وراحت فيريكوفا ، ثم ليادسكايا فيما بعد ، تذرفان الدمع تقسمان بانهما ليستا عضوين فى المنظمة وحسب ، بل وكانتا طيلة حياتهما تكرهان البلاشفة ، كما كان البلاشفة يكرهونهما ، وذكرتا اسماء كافة اعضاء الكومسومول وكل مشاهير الشباب الذين

بقوا فى بيرفومايسكى وفى مستعمرة كراسنودون . وكانتا تعرفان جيد المعرفة رفاقهما فى المدرسة وفى مقر الاقامة ، ومن منهم كان يمارس النشاط الاجتماعى ، وكذلك ميول كل منهم . وافصحت كل منهما عن اسماء حوالى عشرين من اولئك الذين يعكسون بدقة دائرة اعضاء الشباب المرتبطين «بالحرس الفتى» .

وذكر المساعد بالدر لكل منهما فيما يدور بعينيه بشكل محموم ، بانه لا يثق فى عدم انتمائهما للمنظمة ، وانه ملزم بتسليمهما كى يكيلوا لهما اقسى صنوف التعذيب على قدم المساواة مع اولئك المجرمين الذين وشيتا بهم . بيد انه مشفق عليهما ، ويعرض عليهما مخرجا لأمرهما ..

وجرى الافراج عن فيريكوفا وليادسكايا فى وقت واحد ، وكانت كل منهما تجهل ، وان كانت تتوقع ، ان الاخرى لم تخرج بشرف . وقد جرى تخصيص راتب شهرى لكل منهما يقدر بثلاثة وعشرين ماركا . ودست كل منهما فى يد الأخرى يدها الخشبية وكأنما لم يحدث فيما بينهما شىء .

وذكرت فيريكوفا :

– لقد نجونا بثمن بخس . تعالى لزيارتنا وقتما تسمح ظروفك .

واجابت ليادسكايا :

– لقد كان الثمن بخسا حقا ، ولسوف ازورك يوما .

وافترقتا .

الفصل الثامن والخمسون

جرت عملية الاعتقالات وفق سمة غريبة ، حيث كانت اخبارها تنتشر على الفور فى كل ارجاء المدينة . كانوا يعتقلون فى البداية اهالى اعضاء القيادة الذين بارحوا المدينة ، ثم اهالى اروتيونيانتس وسافونوف وليفاشوف ، اى اولئك القريبين من القيادة والذين رحلوا ايضا عن المدينة .

وفجاة قاموا بالقاء القبض على توسيا ماشينكو ، وعلى بعض اعضاء «الحرس الفتى» . لكن ما السر فى اختيار هؤلاء بالذات ؟

لم يكن بوسع احد من الباقين خارج نطاق الاعتقالات ان يتوقع ان تكون الاعتقالات الجديدة وما شابها من مد وجزر ، متوقفة على اعترافات ستاخوفيتش الرهيبة . فقد كانوا يسمحون له بتناول قسط من الراحة عقب كل اسم جديد يشى به ، ليشرعوا فى تعذيبه مرة اخرى ليعود فيشى بآخرين .

بيد انه لم يجر اعتقال اى من رجال منظمة العمل السرى التى يتزعمها ليوتيكوف وباراكوف على الرغم من مرور بضعة ايام منذ القبض على موشكوف وزيمنوخوف وستاخوفيتش . وظل كل شىء على حاله فى السابق فى الورش المركزية .

وفى الرابع من يناير خرج الى عمله فولوديا اوسموخين الذى قضى الايام الثلاثة الاولى من العام الجديد لدى جده بالقرية . وكان قد عرف منذ مساء الأمس من امه بانباء الاعتقالات وبتعليمات قيادة «الحرس الفتى» . بيد انه رفض الرحيل رغما عن ذلك .

وقد ذكر لأمه التى لم يكن ثمة سبب يجعله يخفى عنها أموره اليوم :

– ان الشباب لن يشوا بنا .

وقد كانت هناك كثير من الاسباب التى كمنت وراء رفض فولوديا الرحيل عن المدينة . لقد كان يصعب عليه الرحيل وترك امه وشقيقته ، ولاسيما حين تذكر انهما لم ترحلا آنذاك يوم كان مريضا . بيد ان السبب الرئيسى كان يرجع الى انه ونظرا لعدم حضوره الاجتماع الذى جرى بمسكن اوليج ، لم يكن يقدر الخطر الذى يهدده وحسب ، بل وكان يعتبر أن القيادة تعجلت فى اتخاذ هذا القرار . كما وقد كان الصبية الثلاثة المعتقلون من اقرب الناس اليه علاوة على ثقته الكبيرة بهم . وبزغت فى اعماق نفس فولوديا (انى شان فاسكا بوسلاى) مخططات انقاذ رفاقه ، والتى كان كل منها اكثر خرافة من الآخر .

بيد أن فولوديا ما كاد يصل الى الورش حتى استدعاه ليوتيكوف الى مكتبه متذرعا بسبب ما . وقد كان فيليب بيتروفيتش يعزه كثيرا ، حيث كان اقرب الشباب الآخرين اليه ، الى جانب علاقته القديمة باهله . ولم تكن الخبرة والعقل فقط بل والقلب كذلك هى تلك العوامل التى اوحت الى الرجل بوجود خطر رهيب يهدد تلميذه وصديقه الصغير . وعرض فيليب بيتروفيتش على فولوديا الرحيل

فورا ، ورفض حتى سماع اية تفسيرات بهذا الشأن . وقد كان قاسيا صارما فى ذلك حيث كان ما قاله امرا وليس مجرد نصيحة .

بيد أن الوقت كان متاخرا . فلم يسعفه الوقت للتفكير فى موعد ومقصد الرحيل ، حيث جرى اعتقاله فى مكان عمله بالورش .

وكانت جهود السفاحين الذين كانـــوا يسومون ستاخوفيتش العذاب ، تستهدف ليس فقط معرفة كافة اعضاء «الحرس الفتى» ، بل والعثور على ذلك الخيط الذى يفضى الى منظمة البلاشفة للعمل السرى بالمدينة . فقد كانت المعلومات الكثيرة ، بل واى منطق عادى توحى لكبار وصغار رجال الشرطة بأن الشباب يعمل تحت اشراف الكبار ، وان مركز المؤامرة فى كراسنودون يكمن فى منظمة البلاشفة للعمل السرى .

بيد أن ستاخوفيتش لم يكن يعرف حقا طريقة اتصال اوليج بلجنة المنطقة ، ولم يكن قادرا سوى على تاكيد وجود مثل هذه الصلة . وحين راحوا يستنطقونه من كان من الكبار اكثر زائرى مسكن آل كوشيفوى ، ذكر بعد أن استعاد فى ذاكرته كل الأسماء ، لقب سوكولوفا .

وقد كان ستاخوفيتش يصادف للحقيقة كثيرا بولينا جيورجيفنا فى مسكن آل كوشيفوى ايام نشاطه كعضو بالقيادة ثم وفيما بعد حين كان يزور اوليج لأمور خاصة بالمنظمة . ولم يكن فيما سبق يربط ما بين وجودها ونشاط «الحرس الفتى» ، لكنه تذكر اليوم أن اوليج كان ينفرد احيانا ببولينا جيورجيفنا حيث يتبادل معها الحديث همسا ، مما جعله يفصح عن اسمها .

وافضت الخيوط عن سوكولوفا بالدرجة الاولى الى ليوتيكوف ذلك الانسان الصموت الغامض الصارم . وقد خيل الى بريوكنر انه ليس من قبيل الصدفة ان يعمل المعتقلان موشكوف واوسموخين فى ورشة ليوتيكوف . وجرى تجميع كافة المعلومات بشأن تاريخ حياته وكل وقائع التخريب والحوادث فى الورش المركزية .

وفى فجر الخامس من يناير جاءت بولينا جيورجيفنا وكعادتها ، الى فيليب بيتروفيتش تحمل له الحليب ، لتغادره وقد حملت معها تحت بلوزتها منشورا كتبه فيليب بيتروفيتش تحت توقيع «الحرس الفتى» . ولم يشر المنشور باى شىء عن اعتقالات الاعضاء ، حيث

كان فيليب بيتروفيتش يود اثبات ان العدو لم يصب مركز المنظمة ، اذ ان «الحرس الفتى» ما تزال موجودة تمارس نشاطها .

وفى المساء عندما عاد من عمله وجد زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا وابنته رايا تجلسان بالمطبخ لدى بيلاجيا ايلينيتشنا ، حيث جاءتا من النجع لزيارته . ويالها من سعادة حقة ! واستبدل فيليب بيتروفيتش ملابسه بأخرى نظيفة وارتدى قميصا ابيض ورباط عنق أزرق تشوبه خطوط رمادية وحلة كانت بيلاجيا ايلينيتشنا قد تولت تنظيفها . وجلس فى هذه الحلة النظيفة هادئا طيبا رزينا مع أقرب الناس اليه ، يمزح وكان شيئا لم يحدث .

فهل كان يعرف أن خطر الهلاك قد راح يحوم حوله ايضا ؟ كلا . . لم يكن يعرف ، ولم يكن ليستطيع معرفة ذلك . بيد انه كان يفترض دائما هذا الاحتمال ، يستعد دائما لمواجهته ، كما وصار يشعر فى الآونة الاخيرة أن درجة الخطر قد تزايدت .

وراح الملازم الصموت شفيديه حين تلم به نوبة الغضب الشديد ، يتهم باراكوف بالتخريب . ومن يستطيع تقديم الدليل على أن الالمانى لم يكن يملك بعد القرينة الدالة على ذلك ؟

فمنذ بضعة ايام انطلقت اربع عربات محملة بالفحم الى القرى المجاورة لاستبداله بالخبز حسبما ادعوا . وكان نقل الفحم من داخل الورش انتهاكا فظا «للنظام الجديد» لم يسبق له مثيل . بيد أن باراكوف وفيليب بيتروفيتش لم يجدا آنذاك اى حل آخر ، كما ولم يكونا يملكان حق الانتظار ، حيث كانت الاسلحة الخاصة بمجموعة كراسنودون للفدائيين ذات الصلة بفصيل ميتياكينسكى موجودة تحت ذلك الفحم . ومن ذا الذى كان يستطيع أن يكفل بقاء هذه العملية الجريئة طى الكتمان ؟

وقد ألقى العدو القبض على اعضاء «الحرس الفتى» الواحد تلو الآخر . ومن كان يستطيع معرفة الاسباب الحقيقية التى ادت الى سقوط حلقات باكملها من هذه المنظمة ؟

كان العجوز فيليب بيتروفيتش يدرك ويشعر بكل هذا . بيد انه لم يكن يملك ما يدفعه الى التراجع وما يعينه عليه . فقد كانت روحه الهادرة بعيدة عن هذا المكان تحوم هناك عبر الانهار والبرارى ، وعبر الثلوج والصقيع برفقة جيش التحرير العظيم .

وكان كل حديثه مع ابنته وزوجته مهما تشعب ، يعود ليشير الى هجوم قواتنا الضخم . فكيف له ان يترك موقعه فى تلك اللحظة التى تتطلب تضافر جهود الجميع ، استنادا الى مجرد افتراضات لم تثبت ؟ لقد بقيت أسابيع معدودات ، ولربما ايام قلائل حين يستطيع فى نهاية الأمر ان ينفض من على كاهله عبء التظاهر والتصنع الذى اثقله ، ليفصح للآخرين عن وجهه الحقيقى ! أما اذا لم يسعفه مصيره للعيش حتى ذلك اليوم المضىء الناصع ، فسوف يبقى اناس يواصلون العمل بدونه وحتى النهاية . وقد جرى منذ ذلك الحديث المشهود فى مكتب باراكوف تشكيل اللجنة الثانية «الاحتياطية» للمنطقة من اناس شرفاء مخلصين جرى ابلاغهم بكل الاتصالات واطلاعهم على عناوين المراكز .

وهكذا كان يجلس فيليب بيتروفيتش انيق الملبس مرحا ، يبدو اكثر طيبة وحبا للحديث عن ذى قبل . وراحت الابنة ترنو الى ابيها بعينين تتسمان بالمرح . أما زوجته يفدوكيا فيدوتوفنا التى قطعت معه شوطا طويلا من الحياة ، وتستطيع أن تدرك ابسط التقلبات التى تطرأ عليه ، كانت تتامله فى قلق وخوف وتساؤل وكانما تود ان تقول : «انك ترتدى اليوم افضل الملابس ، وتبدو امرح من اى وقت مضى . . وهذا ما لا يروق لى !» .

واستغل فيليب بيتروفيتش لحظة انصراف زوجته الى المطبخ لتنهمك فى حديث نسائى مع بيلاجيا ايلينيتشنا ، ليقص على ابنته رغما عن كل شىء انباء اعتقال بعض اعضاء «الحرس الفتى» . وكانت رايا قد بلغت الثالثة عشرة من العمر منذ قليل ، وعرفت بوجود «الحرس الفتى» ، وخمنت حقيقة عمل والدها ، وراحت تحلم بانها سوف تساعده الا انها لم تجرؤ على طلب ذلك منه .

وذكر فيليب بيتروفيتش فى صوت خافت :

– عليكما عدم الجلوس هنا طويلا ، فلن أستبقيكما لقضاء الليل . كما وسوف يتحتم عليكما العودة عبر البرارى ، ولن يراكما احد ليلا . ولتقولى لأمك ان ذلك أمر افضل .

ثم اضاف الوالد ضاحكا :

– فلست قادرا على ان اشرح لها سر ذلك .

وتساءلت رايا وقد امتقع وجهها :

– هل ثمة خطر يتهددك ؟

واجاب فيليب بيتروفيتش فى هدوء :

– ليس هناك شىء محدد . أما عن الخطر فهو قائم دائما ، كما وقد تعودت على وجوده ، حيث منحت حياتى لقاء ذلك واود ان تكونى على شاكلتى .

واستغرقت الابنة فى التفكير برهة من الوقت ثم احاطت بيديها الرقيقتين عنق والدها ومالت بوجهها الى وجهه . ودلفت الأم الى الداخل لتنظر فى استغراب اليهما على هذا النحو . وصار فيليب بيتروفيتش يطلب من زوجته وابنته الرحيل فيما ينتقى لذلك اكثر العبارات مرحا وفكاهة . وكانت الأسرة قد تجمعت مرارا اثناء فترة الاحتلال . ولذا فقد تعودت يفدوكيا فيدوتوفنا على أن زوجها يغدو صارما حين تصبح الأمور العائلية عالقا يحول دونه وعمله ، ولم تكن قادرة على تبين صحة موقفها من خطئه ، لتنزل على ارادته حتى حين كانت تشعر بالأسف والألم .

وشاهدت يفدوكيا فيدوتوفنا زوجها فى هذه المرة ، وكانما بعينين جديدتين فى سترته جيدة الكى التى احتفظت برونقهـــا ، واستقرت تلف جسده الكبير ، لتندفع اليه فجاة تطبع قبلاتها على وجهه الحليق بشكل جيد وان كانت شعيراته ما تزال تعلن عن نفسها ، وحتى على رباط عنقه ومالت برأسها على صدره . واعترت الرجفة أسفل وجهه لينحى زوجته جيدا فى رفق ، فيما يقول بعض الكلمات الضاحكة . وترقرقت الدموع فى مآقى الابنة لتلتفت الى الخلف تجذب امها من كميها .

وفى تلك الليلة جرى اعتقال بولينا جيورجيفنا ، وفى صباح السادس من ينايـــر جرى القاء القبض على فيليب بيتروفيتش وباراكوف فى مقر عملهما ، وليس فى بيتيهما . كما وجرى القاء القبض على بعض العشرات من عمال الورش . ولم يكن العدو فى حاجة الى قرائن كما كان يتوقع فيليب بيتروفيتش حيث أن كثيرا من المعتقلين لم يكونوا على ادنى صلة بالمنظمة .

ولم يجر القبض على توليا الملقب «بالرعد» لا فى ذلك اليوم الذى جرى فيه اعتقال فولوديا ،ولا فى يوم الاعتقالات الجماعية التى



عمت الورش . وما كاد ينتهى من عمله حتى ذهب الى يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا اللتين كانتا قد عرفتا بما حدث .

وصاحت يليزافيتا الكسييفنا فى قمة يأس الأم :

– ماذا تفعل بنفسك ؟ انك تودى بنفسك الى التهلكة ! عليك الرحيل فورا .

واجاب توليا فى هدوء :

– لن اذهب . وماذا سوف يجدى الرحيل ؟

واشاح بيده التى كان يمسك بها غطاء رأسه الفرائى .

كلا انه لم يكن قادرا على الرحيل طالما أودعوا فولوديا السجن .

وراحت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا تقنعانه بالبقاء لقضاء الليل ، الا انه رفض ذلك . ورحل الى فيتكا لوكيانتشينكو للتشاور معه بشأن ما يجب عمله للافراج عن رفاقهما المعتقلين . واتخذ طريقه ليلا ، بعيدا وكعادته ، عن نقاط الشرطة . وكم كان يشعر بنفسه وحيدا فى مدينته الحبيبة حيث غاب عنه فولوديا ، وزيمنوخوف وموشكوف وجورا اروتيونيانتس وآخرون . وراحت مشاعر الياس والرغبة فى الثأر تتمازج فى روحه .

وفى وقت مبكر من الصباح تعالت طرقات قوية لباب مسكن آل أوسموخين . وهبت يليزافيتا الكسييفنا بما عرف عنها من جسارة تفتح الباب دون أن تسأل عن الطارق . وكادت تتراجع الى الوراء حين وجدت نفسها حيال توليا أورلوف الذى تجمدت أطرافه ، وضمر وجهه لدرجة غدا معها التعرف عليه من ضروب المستحيل ، وانتفخت عيناه اللتان راحتا تشعان نارا .

وقال فيما يمد يده الى يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا بورقة مجعدة :

– فلتقرآ !

وريثما انهمكتا فى القراءة واصل حديثه يقول فى حمية :

– كلا ، استطيع ان اقول لكما كل الحقيقة ، بل وملزم بقول الحقيقة كلها . لقد تسلم فيتيا هذه الورقة من أحد الجرحى العسكريين ، كان قد آواه فى بيته ذات يوم . وقمنا بنسخ هذا المنشور ورحنا نلصقه فى كل أرجاء المدينة طوال الليل ، وبتكليف

من لجنة الحزب بالمنطقة . كما وراحت العشرات من الناس تلصقه كذلك . وها هى المدينة بأسرها وكل النجوع والقرى تطالع اليوم هذا المنشور .

وقد كان توليا يتحدث بحماس بالغ دون ان يستطيع الكف عن حديثه نظرا لأنه كان يظن نفسه لم يدل بعد بأهم شىء .

بيد أن يليزفيتا الكسييفنا وليوسيا لم تكونا تعيرانه اسماعهما حيث انهمكتا فى قراءة المنشور :

«يا مواطنى كراسنودون ! يا أيها العمال والفلاحون والموظفون! يا كل المواطنين السوفييت ! يا أيها الاخوة والأخوات !

لقد حطم جيشنا الأحمر القوى قوات العدو التى راحت تلوذ بالفرار ! ان هذا العدو يقوم شأن الحيوان الجريح الذى ألم به الغضب بالقبض على الابرياء يسومهم أقسى صنوف التعذيب . فليذكر هؤلاء الانذال أننا موجودون هنا ! وسوف يدفعون حياتهم الوضيعة لقاء كل نقطة دم يريقونها من دماء المواطن السوفييتى . فلترتعد فرائص الاعداء . ان ثارنا لقريب ! فلتنزلوا عقابكم بالعدو . فلتدمروه ! الدم بالدم ! والموت بالموت !

قواتنا قادمة ! قواتنا قادمة ! قواتنا قادمة !

لجنة حزب البلاشفة لمنطقة كراسنودون للعمل السرى» .

الفصل التاسع والخمسون

لم تقض أوليانا الليالى الاولى التى أعقبت موجة الاعتقالات فى منزلها . بيد أن هذه الموجة وكما تنبأ أوليج ، لم تمس «بيرفومايكا» ومستعمرة «كراسنودون» . ولذا عادت اوليانا ثانية الى بيتها .

واذ استيقظت اوليانا فى فراشها ، بعد عدة ليالى قضتها حسبما اقتضى الحال ، راحت مدفوعة برغبة خفية لالهاء نفسها عن التفكير فى امور عصيبة ، تمارس الشئون المنزلية من كنس واعداد للفطور . وقد نهضت الأم من فراشها لتجلس الى المائدة وقد أضاء مقدم الابنة كل أسارير وجهها . اما الأب فكان مكتئبا صموتا . وطوال الايام التى غابت فيها أوليانا عن المنزل ولم تكن لتظهر الا لساعة او

بعض ساعات لرؤية ذويها او لأخذ ما قد تحتاج اليه ، لم يكن لماتفى ماكسيموفيتش ولماترينا سافيليفنا حديث سوى عن موجة الاعتقالات التى عمت المدينة ، فيما يحاول كل منهما تفادى النظر الى وجه الآخر .

وحاولت اوليانا التحدث حول موضوعات مختلفة لا معنى لها ، بينما راحت الأم تحاول مبادلتها اطراف الحديث . الا ان ذلك كان مصطنعا لدرجة انهما كفتا عن مواصلته . بل ولم تلحظ اوليانا انها جمعت الاطباق من على المائدة وغسلتها وجففتها .

وخرج الأب بعد الافطار لتصريف شئونه .

اما اوليانا فقد وقفت الى النافذة تدير ظهرها الى الأم ، ترتدى فستانا ازرق به نقط بيضاء كانت تهوى دائما ارتدائه بالمنزل . واستقرت ضفيرتاها المتموجتان الكثتان على ظهرها ، طويلتين بلغتا خصرها اللدن القوى ، كما تسلل ضوء الشمس القوى عبر زجاج النافذة الذى بدأت الثلوج تنقشع من عليه ، ليداعب شعرها المتموج المتطاير .

وقفت اوليانا تنظر عبر النافذة الى البرارى وتغنى . وكانت قد انقطعت عن الغناء منذ حل الالمان . اما الأم فكانت ترتق بعض الملابس وهى نصف راقدة بالفراش . كانت الدهشة تملؤها وهى تعير سمعها الى الابنة ، حتى انها أرجأت ما كان يشغلها . كانت الابنة تترنم بكلمات ما لا تعرفها الأم ، وبصوت صادر من الاعماق :

كم كان عمر نضالك قصيرا . . . كم كان شريفا . .
نضالك باسم مجد الارض الحبيبة . . .

ولم تكن ماترينا سافيليفنا قد سمعت هذه الكلمات ابدا قبل ذلك . لقد كان ثمة ألم وحزن فى غناء الابنة .

وسوف ينهض المنتقم الجبار
وسوف يكون اقوى الاقوياء . . .

وتوقفت اوليانا عن الغناء ، بينما لم تبرح مكانها عند النافذة تواصل النظر الى البرارى .

وسألتها الأم :

– اية اغنية كنت تترنمين بها ؟

واجابتها اوليانا دون أن تلتفت اليها :

– كلمات خطرت ببالى . . لا اذكرها !

وفى هذه اللحظة انفتح الباب لتمرق منه الى الحجرة شقيقة اوليانا الكبرى وهى تلهث . وكانت اكثر بدانة من اوليانا ، وردية الوجه شقراء اشبه بأبيها ، الا ان الشحوب علا وجهها فى تلك اللحظة .

وهمست كما لو كان يمكن سماعها من مسكن بوبوف :

– لقد وصلت الشرطة الى آل بوبوف !

والتفتت اوليانا لتقول بصوت هادئ دون أن يبدو عليها اية امارات تغيرها :

– هكذا الامر ! من الأفضل الابتعاد عنها !

وتقدمت الى الباب وارتدت معطفها على مهل وألقت بمنديل على راسها .

بيد انها فى تلك اللحظة سمعت وقع أقدام ثقيلة تخطو عبر الباب ، لتجفل الى الوراء قليلا تستند الى ستارة ملونة كانت تغطى الملابس الشتوية ، واستدارت بوجهها الى الباب .

وهكذا التصقت صورة وجهها ابد الدهر فى ذاكرة الأم ، تتصور هذه الستارة الملونة . بدا وجهها وقد اصابت الرجفة انفها وتدلت رموشها الطويلة على ما يبدو فى محاولة لاطفاء النيران المنبعثة من عينيها ، بينما استقر المنديل الابيض يتدلى على كتفيها ، حيث لم تكن قد شرعت فى لفه حول راسها .

ودلف الى الغرفة سوليكوفسكى رئيس الشرطة والرقيب فينبونج برفقة جندى يحمل بندقية .

وقال سوليكوفسكى :

– آه . . هذه هى . . انها هى جميلتنا !

واستطرد يقول وهو يلتهم بنظره قوامها الفارع وقد ارتدت معطفها ومنديلها هذا يتدلى على كتفيها لم يعصب بعد :

– الم يسعفك الوقت ؟ أوه . . هوه !

وهمست الأم وهى تحاول النهوض من فراشها :

– آه يا اعزائى ! يا أحبائى !

ورمتها اوليانا بنظرة غاضبة على حين غرة ، مما جعل الأم تتوقف عن متابعة الحديث ، بينما اخذ فكها الأسفل يختلج رعشة .

وبدأ تفتيش المنزل ، واندفع الأب نحو الباب ، الا ان الجندى حال دون ذلك .

وكان المحقق كوليشوف يتولى فى هذه اللحظة مهمة التفتيش فى بيت اناتولى .

كان اناتولى يقف وسط الغرفة ، مفتوح المعطف لا يغطى رأسه شىء ، بينما امسك الجندى الالمانى بيديه من الخلف . وراح الشرطى يصيح فى تايسيا بروكوفيفنا :

– أعطينى حبلا . . هيا !

واجابته تايسيا بروكوفيفنا ، فارعة القوام وقد كسا احمرار الغضب وجهها :

– هل اصابتك لوثة . . هل يمكن ان اعطيك حبلا لتقيد به ابنى الحبيب ؟

وقال اناتولى وقد انتفخت اوداجه :

– اعطيه يا امى حبلا حتى لا يعوى . انهم ستة افراد . . وكيف لهم ان يقتادوا واحدا دون أن يقيدوه !

وانخرطت تايسيا بروكوفيفنا فى البكاء وخرجت من الغرفة لتعود بعد قليل ، وتلقى حبلا عند اقدام الابن .

وتم ايداع اوليانا فى زنزانة عامة كبيرة ، حيث كانت تجلس مارينا وابنها الصغير ، وماريا اندرييفنا بورتس ، وفينيا – شقيقة تيولينين ؛ ومن «الحرس الفتى» كانت هناك آنيا سوبوفا من جماعة ستاخوفيتش ، وهى فتاة شقراء ضعيفة ، ممتلئة النهدين ، ضربوها ضربا مبرحا جعلها لا تستطيع الرقاد الا بالكاد . وقد أخلوا الزنزانة من الغرباء ، لتمتلئ بفتيات «بيرفومايكا» – مايا بيجليفانوفا ، ساشا بونداريفا ، شورا دوبروفينا ، وبنتا العم ليليا وتونيا ايفانيخينا وغيرهن . . .

ولم تكن هناك اية اسرة او كنب ، مما جعل الفتيات والنسوة يفترشن الارض . وكانت الزنزانة مكتظة لدرجة بدأ الجليد يذوب فيها ويقطر ماء من السقف .

وكانت الزنزانة المجاورة كبيرة كذلك ، تدل كل الشواهد على انها مخصصة للصبية ، المقبوض عليهم . وراحت اوليانا تدق الحائط تسأل عمن هناك . وجاءها رمز مورزه يسألها من هناك عن

نفسها . وأعلنت اوليانا شخصيتها . وكان اناتولى هو الذى يجيبها من وراء الحائط . وكانت الزنزانة المجاورة تضم غالبية صبية حى «بيرفومايكا» : فيكتور بيتروف وبوريا جلافان وراجوزين وجينيا شيبيليوف ، وفاسيا شقيق ساشا بونداريفا حيث جرى القبض عليهما سويا . ولما كان الامر كذلك ، فقد احسّت الفتيات بالدفء لوجود صبية الحى الى جوارهن .

واعترفت تونيا ايفانيخينا وهى تواجه الفتيات ذوات الاقدام الطويلة والقسمات الطفولية الكبيرة واللاتى جلسن الى جوارها :

– اننى خائفة جدا من التعذيب ! اننى بالطبع ، استطيع الموت دون ان أنبس ببنت شفة ، كل ما هنالك اننى خائفة جدا . . .

وقالت ساشا بونداريفا :

– لا داعى للخوف ! فقواتنا قريبة منا ، بل ومن المحتمل ان نلوذ بالفرار .

وفجأة تدخلت مايا فى الحديث تقول :

– انكن ايتها الفتيات لا تعرفن الديالكتيك !

الا ان الفتيات انفجرن بالضحك بالرغم من كل ما كان يجيش بصدورهن ، حيث لم يكن يتصورن سماع هذه الكلمات فى السجن .

واستطردت مايا تقول دون أن تفقد السيطرة على نفسها :

– يمكن بالطبع التعود على اية آلام !

وعند المساء خيم الهدوء على السجن . كان يتدلى من السقف مصباح كهربائى تحيط به اسلاك مضفرة يلقى باشعته الباهتة الى وسط الحجرة بينما غرقت اركانها فى ظلام حالك . وكان يصل الى الاسماع احيانا صياح بالالمانية ودبيب اقدام تهرول الى جوار العنابر . واحيانا كان هناك من يدق بأقدامه الممر ، وتتعالى قرقعة سلاح . وذات مرة استيقظ الجميـــع على صياح بربرى رهيب – وكان هذا صياح رجل ، مما جعل الرهبة تزداد حدة .

ودقت اوليانا الحائط تسأل الصبية :

«أهذا الصياح فى عنبركم ؟»

وجاءها الرد :

«لا . . انه من عنبر الكبار» – هكذا كان الكود الداخلى الذى اطلقوه على رجال العمل السرى الكبار .

واستمعت الفتيات الى اصوات اقدام تنبئ عن اقتياد أحد نزلاء العنبر المجاور . وعلى التو دق فيكتور الحائط :

«اوليانا . . اوليانا» . . .

واجابته اوليانا .

«اننى فيكتور . . لقد اقتادوا توليا» .

وفجاة تصورت اوليانا وجه اناتولى وعينيه الجادتين اللتين كانتا تشعان دائما بريق السعادة ، واصابتها الرجفة حين تخيلت ما سوف يحل به . بيد انه فى تلك اللحظة دار مفتاح فى قفل الباب لينفتح ، ويدوى صوت ينادى :

– جروموفا ! . .

وهذا ما وعته ذاكرتها . . ظلت برهة من الوقت فى حجرة استقبال سوليكوفسكى . كان هناك من يتلقى الضربات فى حجرة المكتب . وفى حجرة الاستقبال كانت زوجة سوليكوفسكى ذات الشعر المجعد الباهت والعينين الناعستين تجلس على الاريكة فى انتظار زوجها تمسك فى يدها بصرة وبجانبها جلست بنت صغيرة ذات نفس الشعر والعينين وتقضم فطيرة محشوة بمربى التفاح . وانفتح الباب ليخرج منه فانيا زيمنوخوف وقد انتفخ وجهه بحيث يصعب على المرء معرفته . وكاد فانيا يصطدم بأوليانا التى كادت هى الاخرى تصيح .

بعد ذلك وقفت الى جوار سوليكوفسكى امام الضابط بريوكنر الذى سالها فى لامبالاة ، تؤكد انها ليست المرة الاولى له فى هذا الموقف ، عن امر ما . وقد ترجم هذا السؤال شوركا ريباند الذى راقصته فى النادى قبل الحرب وحاول آنذاك التقرب اليها ، بينما يتظاهر فى هذه اللحظة بانه لا يعرفها . بيد انها لم تعر ما ترجمه لها انتباها ، لانها كانت قبل القبض عليها قد اعدت ما سوف تقوله حين تواجه مثل هذا الموقف . وبوجه جامد التعبيرات باردها ذكرت ما يلى :

– اننى لن اجيب على اية اسئلة لاننى لا اعترف لكم بحق محاكمتى . افعلوا ما شئتم بى ، لكنكم لن تستمعوا الى اكثر مما قلته لكم . . .

لكن الضابط بريوكنر ، الذى ربما يكون قد استمع الى كثير

من مثل هذه الكلمات فى غضون تلك الايام ، لم يغضب واشاح بيده قائلا :

– الى فينبونج ! . .

كان الالم فظيعا ، لكنه لم يكن الم التعذيب – فقد كانت قادرة على تحمل ابشع صنوف التعذيب ، بل ولم تع ذاكرتها كيف كانوا يضربونها – كان رهيبا حين اندفعوا اليها يحاولون تجريدها من ملابسها ، واضطرت حتى تتخلص من ايديهم لأن تخلع ملابسها بنفسها امامهم . . .

وفى طريق العودة الى زنزانتها ، شاهدت اناتولى بوبوف محمولا على الايدى وقد تدلت راسه الشقراء ويداه حتى وصلتا الارض ، بينما سالت الدماء من جانب فمه .

كانت اوليانا تذكر ضرورة السيطرة على نفسها حين تعود الى الزنزانة ، وربما كانت قد فعلت ذلك . دلفت الى الزنزانة ، بينما صاح الشرطى المرافق لها :

– ايفانيخينا انطونينا ! . .

والتقت اوليانا وتونيا عند الباب ، وقد نظرت اليها الأخيرة بعينين ملؤهما الرعب . وانغلق الباب ليضم اوليانا داخل الزنزانة . بيد انه فى ذلك الوقت تعالى صوت طفل ، لا صوت تونيا ، مدويا فى كل ارجاء السجن .

وصاحت ماريا اندرييفنا بورتس :

– لقد اقتادوا ابنتى الصغرى !

واندفعت كما النمرة الى الباب تدقه وتصيح :

– لوسيا . . لقد امسكوا بك يا عزيزتى ! اتركوها ! . . اتركوها ! . .

واستيقظ طفل مارينا الصغير وراح يبكى .

الفصل الستون

فى تلك الايام كانت ليوبكا تشاهد فى فوروشيلوفجراد وفى كامينسك وفى روفينكى ، بل وقامت ذات مرة بزيارة ميلليروفو المحاصرة . وتزايدت دائرة معارفها من الضباط لدرجة كبيرة . وكانت

تملأ جيوبها الهدايا من البسكويت والحلوى والشيكولاته ، التى كانت تقدمها لاول عابر بنفس راضية .

كانت تدور على شفا الهاوية ببسالة بالغة وعدم اكتراث ترتسم على شفتيها ابتسامة طفولية ، ذات عينين ضيقتين زرقاوين تتألقان فى بعض الأحيان بشىء من القسوة .

وقد اتصلت ثانية بذلك الانسان الذى كان رئيسها المباشر ، اثناء رحلتها فى هذه المرة الى فوروشيلوفجراد ، والذى ابلغها ان الالمان قد زادوا من أعمال العنف فى المدينة . ولقد كان يقوم بتغيير مسكنه كل يوم تقريبا . لم يكن قد اغتسل منذ مدة طويلة ، غير حليق الذقن ، يكسو الاحمرار عينيه من السهر ، الا أنه كان مضطربا من جراء سماعه لانباء الاحداث على الجبهة . كان فى حاجة الى معلومات حول احتياطيات الالمان وحـــول الامدادات وبعض الوحدات ، وباختصار كان فى حاجة الى سيل من المعلومات .

واضطرت ليوبكا الى الاتصال ثانية بعقيد الامدادات . وحلت لحظة راودتها فيها مشاعر استحالة الخروج من هذا المازق . فقد كانت كل ادارة الامداد والتموين برئاسة ذلك العقيد خامل الوجه متهدل الوجنتين ، تغادر فوروشيلوفجراد بسرعة لا مثيل لها . ولذا فقد صار العقيد كلما اسرف فى الشراب كلما يبدو اكثر برودة وتجمدا ، بينما تملكت مشاعر اليأس الضباط الآخرين . ولم تكن ليوبكا لتستطيع التملص وانقاذ نفسها من براثنهم لو لم يكونوا كثيرى العدد . فقد كان كل منهم يعترض طريق الآخر ، كما وكانوا يتشاجرون ويتخاصمون ، لتبلغ هى فى نهاية الامر المسكن الذى كانت تقطنه فى ضيافة تلك الفتاة الصغيرة وامها . هذا وقد حملت ليوبكا علبة مربى حلوة المذاق كان قد اهداها اياها ملازم كان لا يزال يحدوه بعض الأمل بشأنها .

خلعت ليوبكا ملابسها وخلدت الى الفراش البارد فى غرفة غير مدفأة ذات سقف عال . وفى تلك اللحظة تعالت طرقات الباب قوية . ورفعت ليوبكا رأسها . كما استيقظت الفتاة الصغيرة وأمها بالغرفة المجاورة . كان ثمة من يطرق الباب بقوة وكأنما يبغى تحطيمه . وقفزت ليوبكا من الفراش وطرحت الغطاء بعيدا – حيث كان البرد قد اضطرها الى النوم فى صديريتها ، وجوربها الطويل – ودست قدميها

فى الحذاء وارتدت فستانها على عجل . كان الظلام الدامس يسود الغرفة . وسألت صاحبة المسكن وهى تقف فى المدخل عن الطارق . واجابتها اصوات تتسم بالجفاء – لقد كانوا الألمان . وراحت ليوبكا تفكر فى السبب الذى دعا هؤلاء الضباط المخمورون للبحث عنها ، وفقدت السيطرة على نفسها تماما . ولم تكد تفرغ من التفكير فى ماذا عساها أن تفعل حتى دلف الى الغرفة ثلاثـــة اشخاص يدقون ارضيتها ، ووجه أحدهم الى ليوبكا ضوء بطاريته وهو يصيح بالالمانية :

– الضوء !

وعرفت ليوبكا فيه الملازم .

نعم لقد كان هو برفقة اثنين من رجال الشرطة . كان وجهه يتقد غضبا وهو يتفقد ليوبكا ممسكا فى يده بالمصباح الذى ناولته اياه صاحبة المسكن . وسلم الملازم المصباح الى أحد مرافقيه ولطم وجه ليوبكا بقوة بالغة . وراح يعبث باصابعه فى ادوات الزينة البسيطة يبعثرها على المنضدة المجاورة للفراش كما لو كان يبحث عن شىء . ووقعت الهارمونيكا التى كان يغطيها منديل الى الأرض ، ليدوس عليها الملازم بكعبه يحطمها بعناد بالغ .

وقام رجلا الشرطة بتفتيش المسكن ، بينما رحل الملازم . وادركت ليوبكا انه ليس هو الذى رافق الرجلين ، بل كانا هما اللذان اكتشفاها عن طريقه ، وبدا شىء ما يسقط فى مكان ما . . لكن ما هو هذا الشىء ؟ هذا ما لم تستطع معرفته !

وارتدت صاحبة المسكن وكذلك الفتاة ملابسهما وراحتا تتابعان عملية التفتيش فيما ترتجفان بردا . وبقول ادق كانت السيدة هى التى تراقب عملية التفتيش بينما راحت الفتاة تتأمل ليوبكا فى فضول واهتمام بالغ . وفى اللحظة الاخيرة اخذت ليوبكا تضم الفتاة الى صدرها وتقبلها بحرارة فى خدها الجامد .

واقتاد رجلا الشرطة ليوبكا الى مركز شرطة فوروشيلوفجراد . وبحث احد الرؤساء هناك وثائقها وراح يسألها عن طريق مترجم ، عما اذا كانت هى حقا ليوبوف شيفتسوفا وفى اية مدينة تقطن . وقد حضر هذا الاستجواب شخص ما لم تتبين ليوبكا وجهه ، حيث كان يجلس فى زاوية الغرفة . لم يستقر الصبى فى مكانه طوال

الوقت . وصادر المسئولون حقيبة ليوبكا وكل فساتينها وحاجياتها ، عدا بعض الاشياء البسيطة ، وعلبة مربى ، ومنديل كبير ملون كانت تلف به احيانا رقبتها ، والذى طلبت منهم تسليمه اليها حتى تجمع فيه كل ما تبقى لها .

وهكذا ظهرت فى فستانها الملون تحمل فى يدها تلك الصرة التى احتوت ما تبقى لديها من ادوات زينة وعلبة المربى ، فى زنزانة شباب بيرفومايسكى .

وفتح الشرطى باب العنبر ودفع بها الى الداخل وهو يقول :

– استقبلوا فنانة فوروشيلوفجراد !

وراحت ليوبكا التى كسا الصقيع وجنتيها حمرة تتأمل بعينيها اللتين زرتهما الجالسين فى الزنزانة ليقع ناظراها على اوليانا ومارينا وطفلها وساشا بونداريفا وكل صديقاتها . واسدلت يديها التى كانت تمسك باحداهما صرة حاجياتها ، لتفارق الحمرة وجنتيها اللتين كساهما شحوب شديد .

وشهدت الفترة التى سبقت اقتياد ليوبكا الى سجن كراسنودون اعتقال الكثيرين من الكبار ومن اعضاء «الحرس الفتى» على حد سواء ، وكذلك اقاربهم لدرجة ايداع بعضهم مع اطفالهم ممرات السجن ، علاوة على انه كان من المفروض اعتقال كل اعضاء مجموعة مستعمرة كراسنودون .

وتتابعت بالمدينة موجات الاعتقالات والتى توقفت كذلك على اعترافات ستاخوفيتش العفوية . واذ غدا مثل الحيوان الذى خارت قواه تحت وقع التعذيب راح يشترى بضع ساعات من الراحة لقاء الوشاية برفاقه ، بيد ان كل خيانة جديدة كانت تجر عليه عذابا جديدا . فقد كان يتذكر تارة ان صديقا لتيولينين ، لم يعرف لقبه وان كان يذكر ملامحه وانه يسكن حى شنغهاى ، ليحكى تارة اخرى كل قصة كوفاليف وبيروجوك .

وفجأة يتذكر ستاخوفيتش ان ثمة صديقا لأوسموخين يدعى توليا أورلوف . وها هما فولوديا الذى انهكه التعذيب وتوليا الجسور يواجه كل منهما الآخر فى مكتب بالدر .

ذكر توليا بصوت هادئ :

– كلا ، اننى اراه للمرة الأولى .

اما فولوديا فقد ذكر :

– كلا ، اننى لا اعرفه على الاطلاق .

ويتذكر ستاخوفيتش ان فتاة يحبها زيمنوخوف تسكن نيجنى الكسندروفسك . وبعد بضعة ايام يشهد مكتب بريوكنر زيمنوخوف الذى صار بعيد الشبه عن صورته الحقيقية ، وكلافا ذات العينين الحولاوين التى قالت بصوت يسمع بالكاد :

– كلا . . لقد كنا ندرس سويا ذات يوم . اما ومنذ بداية الحرب فلم اره ، حيث انتقلت للاقامة بالنجع .

اما زيمنوخوف فلم يرد البتة .

واودعت الشرطة كل مجموعة مستعمرة كراسنودون السجن المحلى للمستعمرة . ولم تكن ليادسكايا التى وشت بالمجموعة تعرف دور كل اعضائها ، لكنها كانت تعرف وعلى سبيل المثال ان ثمة علاقة تربط ما بين ليدا أندروسوفا وكوليا سومسكوى ، وكذلك بحب ليدا له .

وها هم يوسعون ضربا ليدا أندروسوفا ، تلك الفتاة الجميلة ذات الذقن المدبب والاشبه بالثعلبة بالسيور التى انتزعوها من البنادق ، يطلبون منها الحديث عن نشاط سومسكوى بالمنظمة . اما ليدا فقد راحت تحصى الضربات بصوت عال دون أن تفصح عن اى شىء .

وقد جرى ايداع الكبار مكانا منعزلا عن الصغار لتحاشى تاثيرهم عليهم ، وحرصوا على الا يحدث اى اتصال فيما بينهم .

بيد ان النهاية الحتمية سوف تاتى بـــلا ريب حتى لنشاط الجلادين الاجرامى الوحشى .

ولم يقتصر انكار امر الانتماء الى المنظمة والوشاية بالرفاق على كل البلاشفة الجسورين الصامدين وحسب ، بل وسلك نفس السبيل كل المعتقلين من اعضاء «الحرس الفتى» . وقد كان الصمود والذى لم يشهد التاريخ مثله لحوالى مائـــة من الفتيان والفتيات الذين كانوا أقرب فى اعمارهم الى الاطفال هو ما ميزهم بين غيرهم من الابرياء المعتقلين ، وبين اقاربهم وذويهم . وشرع الالمان فى محاولة للتخفيف من اوضاعهم يفرجون تدريجيا عن كل من اعتقل بمحض الصدفة ، وعن اولئك الاقارب الذين جرى ايداعهم السجن

كرهائن . وهكذا جرى الافراج عن اقارب كوشيفوى وتيولينين واروتيونيانتس وآخرين . وجرى كذلك الافراج عن ماريا اندرييفنا بورتس والصغيرة ليوسيا التى اخلى سبيلها قبلها بيوم واحد . ولم تتاكد ماريا اندرييفنا من أن احساسها الامومى لم يخدعها حين عرفت بان صغيرتها رهينة السجن الا بعد عودتها الى بيتها ، فيما ذرفت كثيرا من الدمع . والآن لم تبق فى ايدى الجلادين غير جماعة رجال العمل السرى الكبار برئاسة ليوتيكوف وباراكوف واعضاء منظمة «الحرس الفتى» .

وكان اقارب المعتقلين يحتشدون امام مبنى السجن منذ مطلع الصبح وحتى يحل المساء يتخاطفون ايادى رجال الشرطة والجنود الالمان الداخلين او الخارجين يطلبون منهم معرفة خبر او تسليم بعض الماكولات . وكانوا يفرقونهم ليحتشدوا من جديد ، وقد ضاعف عددهم المارة وكذلك الفضوليون . وكانت تاوهات وصياح المعذبين تتعالى فى بعض الاحيان عبر الجدران الخشبية ، مما جعلهم يلجاون الى تشغيل الحاكى بغية خنقها . وكانت المدينة تموج قلقة كما المحمومة ، فلم يكن ثمة انسان واحد لم يذهب الى مبنى السجن فى تلك الايام ، ومما اضطر بريوكنر الى اصدار تعليماته بالسماح بتسليم ما يبعث به الاهل الى المعتقلين . وهكذا استطاع فيليب بيتروفيتش وباراكوف معرفة ان لجنة المنطقة التى شكلاها موجودة وتعمل ، وتبحث عن السبل الرامية الى اخلاء سبيل «الكبـــار» و«الصغار» .

ومهما كانت حياة الشباب المتباينة مع نواميس الطبيعة ، فى غياهب اكثر سجون الاحتلال الالمانى وحشية ، فقد قبعوا بين جدرانه طيلة اسبوعين ، ليظهر نمطهم الفريد من حياة السجون الحافلة بمثل ذلك التعسف الرهيب والعبث باجساد وارواح الفتيان والفتيات ، وليروحوا يعيشون كل العلاقات الانسانية المفعمة بالحب والصداقة بل وبضروب التسلية .

واقتعدت ليوبا وسط الزنزانة تفك ضرتها قائلة :

– هل تردن مربى أيتها الفتيات ؟ ياله من أحمق ! لقد دهس احمر الشفاه . وكيف العمل الآن بلا هارمونيكا ؟

وذكرت شوركا دوبروفينا :

– فلتنتظرى ، حتى يعزفون على أوتار ظهرك ، وعندئذ سوف تفقدين الرغبة فى نفخ الهارمونيكا .

– انك لا تعرفين ليوبكا ! هل تظنين أننى سوف أبكى او التزم الصمت حين يضربوننى ؟ اننى سوف امطرهم بوابل من الشتائم والصياح ... هكذا : «آه . . آآه . . آه . يا ايها الحمقى ! لماذا تضربون ليوبكا ؟» .

وانفجرت الفتيات فى الضحك .

وذكرت ليليا ايفانيخينا :

– حقا أيتها الفتيات . فلماذا نشكو هناك ؟ ومن يعيش اليوم حالا أفضل ؟ ان اهالينا يتعذبون اكثر . ان المساكين لا يعرفون اى شىء عنا . علاوة على ما قد يتحملونه مستقبلا .

ويبدو أن تلك الفتاة الشقراء ذات الوجه المستدير ، كانت قد تعودت على حياة معسكرات الاعتقال ، فلم تشك من شىء ، وراحت تهتم بكل الآخرين ، لتغدو الملاك الحارس لكل الزنزانة .

وعند المساء جرى استدعاء ليوبكا الى مكتب بريوكنـــر للتحقيق . ولم يكن ذلك الاستجواب عاديا ، حيث حضره كل رؤساء الشرطة . ولم يوسعوها ضربا ، بل وكانوا رقيقين معها غاية الرقة . أما ليوبكا التى تمالكت روعها تماما ، وجهلت ما يعرفونه عنها ، فقد راحت بحكم مخالطتها السابقة للالمان تمعن فى الدلال وتضحك معربة عن جهلها بم يريدونه . وقد لمحوا لها بأن من مصلحتها تسليمهم جهاز الارسال وكذلك الشفرة .

وقد كان ذلك مجرد افتراض لم يملكوا عليه الدليل ، الا انهم لم يكونوا يشكون فى ان هذه هى الحقيقة . فقد كان يكفيهم معرفة انتماء ليوبكا للمنظمة لادراك طابع تنقلاتها وتجوالها بالمدن وكثرة مخالطتها للالمان . وقد كانت المخابرات الالمانية تملك المعلومات التى تؤكد وجود عدة اجهزة ارسال تعمل سرا بالمقاطعة . كما وان الشاب الذى حضر استجواب ليوبكـــا فى شرطـــة فوروشيلوفجراد ، وكان أحد اصدقاء بوركا دوبينسكى ، صديقها اثناء دراسات اللاسلكى ، اكد كون ليوبكا قد حضرت تلـــك الدراسات السرية .

وابلغوا ليوبكا بضرورة التفكير فى الأمر وبأن الاعتراف من مصلحتها ، ثم اعادوها الى الزنزانة .

وكانت امها قد بعثت اليها بكيس عامر بالماكولات ، لتقتعد الارض وهى تضع الكيس بين ركبتيها ، تتناول منه بعض الخبز المجفف والبيض وتترنم فيما تهز راسها :

ليوبا ، يا عزيزتى . . ليوبا يا صغيرتى
انى لست قادرة على اطعامك

وذكرت تخاطب الشرطى الذى جاء اليها بالكيس :

– فلتبلغ ماما بان ليوبكا حية معافية ، وانها تطلب المزيد من حساء الكرنب .

ثم التفتت الى الفتيات تصيح :

– ايتها الفتيات . . . هيا !

وفى نهاية الامر جاؤوا بها الى فينبونج الذى اوسعها ضربا . بيد انها كانت عند وعدها . . فقد علا صوتها بوابل من الشتائم ليبلغ ليس فقط كل ارجاء السجن بل وكل الفضاء المحيط به :

– يا ايها الأحمق ! يا ايها الأحمق الاقرع . . يا ابن الكلب !

وقد كانت تلك ارق الشتائم التى كافات بها فينبونج .

اما وفى المرة التالية حين انهال فينبونج عليها فى حضرة بريوكنر وسوليكوفسكى بسوطه المجدول ، لم تستطع ليوبكا الامساك عن ذرف الدمع على الرغم من كل محاولاتها وعضها لشفتيها . وعادت الى الزنزانة لتنبطح على الارض فى صمت وقد اتكأت بوجهها على يديها حتى لا يرى الآخرون وجهها .

وجلست فى زاوية الغرفة اوليانا التى ارتدت بلوزة فاتح اللون من الصوف ارسلها اليها ذووها ، والتى كانت تتناسب مع لون شعرها وعينيها الاسود . وقد راحت عيناها تتالقان فيما كانت تحكى للفتيات اللاتى احطن بها قصة «سر دير القديسة ماجدولين» . وها هى قد اعتادت على ان تقص عليهن يوميا حكاية ما ، تستانفها فى اليوم التالى . وهكذا استمعت الفتيات الى «ذبابة الخيل» و«بيت من الجليد» و«الملكة مارجو» .

وكان باب الزنزانة قد ترك مفتوحا بغرض التهوية ، بينما كان

احد رجال الشرطة الروس يجلس قبالته على مقعد خشبى صغير يصغى الى قصة «سر الدير» .

واستوت ليوبكا جالسة بعد ان نالت قسطا من الراحة ، فيما كانت تصغى دون اهتمام الى حكاية اوليانا ، ثم انتقلت بنظراتها الى مايا بيجليفانوفا التى افترشت الارض طيلة ايام كاملة . فقد ابلغتهم فيريكوفا ان مايا كانت ذات وقت سكرتيرة خلية الكومسومول بالمدرسة ، ليروحوا يسومونها العذاب اكثر من الآخرين . وعندما شاهدت ليوبكا مايا على هذا الحال ، راحت مشاعر الانتقام تتاجج فى اعماقها تبحث عن مخرج .

وبصوت خافت نادت صديقتها التى احاطت مع زميلاتها اوليانا :

– ساشا . . ساشا . ما عسى فتياننا قد التزموا الصمت .

– حقا . . .

– او يكونوا قد فقدوا شجاعتهم ؟

واجابت ساشا :

– انت تعلمين انهم يتعرضون للتعذيب اكثر منا .

وتنهدت ساشا بوندريفا ، تلك الفتاة ذات الصوت والتصرفات الصبيانية ، والتى بدات معالم انوثتها تتكشف فجاة فى السجن ، وبدت وكانما هى خجلة من كونها قد ظهرت متاخرة هكذا .

واعترى النشاط ليوبكا لتقول :

– هيا نبعث فيهم بعض النشاط . فلنرسم لهم الآن رسوما كاريكاتورية .

وتناولت ليوبكا فى سرعة ورقة وقلما نصفه احمر ونصفه الآخر ازرق ، لترقد هى وساشا كل تواجه الاخرى ، تفكران همسا فى موضوع الكاريكاتير . ثم تعالت ضحكاتهما وراحت كل منهما تنتزع القلم من يد الاخرى ، ليصورا شابا نحيفا هزيلا ذا انف ضخم ، ومطتا راسه الى أسفل حتى تقوست قامته ولامس انفه الارض . وقد رسمتا الشاب باللون الأزرق وتركتا وجهه ابيض ، اما انفه فقد لونتاه بالأحمر وكتبتا أسفل الصورة :

ما للحزن يا شباب يلم بكم
ما للحزن يظهر على انوفكم

وانتهت اوليانا من قصتها ، لتنهض الفتيات تفرد كل منهن قوامها ، وتنصرف الى مكانها فى ارجاء الزنزانة . وقد التفت البعض الى ليوبكا وساشا اللتين ناولتاهن الرسم الكاريكاتورى فراحت كل منهن تنظر اليه وتضحك .

– يا لهذه الموهبة المدفونة !

– وكيف لنا تسليم هذه الصورة اليهم ؟

وتناولت ليوبكا الورقة ثم توجهت نحو الباب ، لتنادى الشرطى فى نبرة مشوبة بالتحدى .

– دافيدوف ! فلتسلم الشباب صورتهم .

واجاب الشرطى فى تجهم :

– ومن اين لكن الورقة والقلم ؟ اقسم بأننى سوف ابلغ الرئيس حتى يقوم بتفتيشكن .

وكان شوركا ريباند يمر عبر الردهة ليقع نظره على ليوبكا الى جوار باب الزنزانة ، فيقول مداعبا اياها :

– هيه كيف الحال يا ليوبكـــا ؟ هـــل سوف نذهب الى فوروشيلوفجراد فى القريب العاجل ؟

– اننى لن اذهب معك ... كلا . . سوف اذهب ان سلمت الشباب تلك الصورة التى رسمناها لهم .

ونظر ريباند الى الرسم الكاريكاتورى لترتسم الابتسامة على وجهه ناتئ العظام ، ثم دسه فى يد دافيدوف قائلا فى عدم اكتراث :

– سلمه . . ليس ثمة شىء يذكر .

ثم واصل طريقه .

وقام دافيدوف الذى كان يعرف العلاقة القريبة التى تربط بين الرئيس وريباند ، وشأن كل رجال الشرطة الذين يتملقونه ، يفتح فى صمت باب زنزانة الصبية ليرمى الى داخلها بالورقة . وتعالت اصوات ضحكات من هناك اعقبها بعد برهة قصيرة طرق للجدار .

– لقد خيل اليكن ايتها الفتيات . ان سكان منزلنا يسلكون السلوك القويم ... انا فاسيا بونداريف . . تحياتى الى شقيقتى العزيزة .

وتناولت ساشا اناء زجاجيا كانت الأم بعثت اليها فيه حليبا ، وهرولت الى الجدار تطرقه :

– فاسيا . . هل تسمعنى ؟

ثم وضعت قاع الاناء على الجدار ، لتدنو بشفتيها من حوافيه ، وتترنم باغنية «سوليكو» التى كان يحبها شقيقها .

لكنها ما كادت تشرع بالغناء حتى تحولت كافة الكلمات الى تذكرة للماضى مما جعل صوتها يختنق . ودنت ليليا منها تمسح على يدها وتقول بصوتها المفعم هدوء وطيبة :

– لا داعى . . لا داعى . فلتهدئى روعك ...

وذكرت ساشا فيما تضحك بعصبية :

– اننى اكره شخصيا انسياب تلك القطرات المالحة عـــلى الخدود .

وتعالى صوت سوليكوفسكى الاجش ينادى بالردهة :

– ستاخوفيتش !

وعلقت أوليانا على ذلك قائلة :

– ها هى البداية !

وصفق الشرطى الباب مغلقا اياه بالمفتاح .

وذكرت ليليا :

– من الافضل الا نعيرهم اسماعنا . انك تعلمين يا اوليانا ما احبه . فلتنشدى قصيدة «الشيطان الحزين» كما فعلت آنذاك . هل تذكرين ؟

وبدأت اوليانا فيما ترفع يدها :

من هم الناس . . ما هى الاقدار والاعمال
لقد مضت . . كما سوف تمضى .
والامل قائم . . والقضاء العادل على الابواب
قادم ليغفر . . وقادم ايضا ليدين !
ولكن حزنى سوف يبقى هنا . .
ولن تحين له ثانى ، نهاية
يبقى لينساب كما الافعى تارة ،
ليضج ويضطرم كما اللهيب اخرى ،
وليجثم ثقيلا كما الصخر ثالثة . .
بيد ان قبر الاشواق بلا رجاء
سوف يظل قائما بلا فناء . .

وكم ترددت تلك الأبيات فى اعماق الفتيات وكانمـــا تود

اعلانهن : «انها حولكن وحول اشواقكن التى لم تولد بعد واحلامكن التى وئدت» .

وانشدت اوليانا كذلك تلك الابيات التى جرى الحديث فيها عن الملاك الذى حمل روح تمارا الآثمة . وذكرت تونيا ايفانيخينا :

– هل رايتن ! لقد انقذها الملاك على الرغم من كل شىء . وهذا شىء طيب .

وذكرت اوليانا وقد تالقت عيناها فى حدة كما كانت منذ برهة :

– كلا . . كلا ! اننى افضل الرحيل مع الشيطان . فلقد ثار حتى ضد العالم كله .

وذكرت ليوبكا فجاة فيما تشع عيناها رغبة :

– وماذا فى ذلك ! ليس ثمة من سوف يستطيع قهر شعبنا ! هل يوجد مثل هذا الشعب فى العالم اجمع ؟ من ذا الذى يتمتع بمثل هذه الروح الطيبة مثل شعبنا ؟ من كان يمكنه تحمل كل هذا ؟ قد نلقى حتفنا ، لكن ذلك امر لا يرهبنى . نعم ان ذلك امر لا ارهبه على الأطلاق .

واضافت تقول بنبرتها القوية التى دفعت الرجفة الى جسدها :

– اننى اود . . اننى اريد تسوية حسابى معهم . . مع هؤلاء ! هل لنا ان نغنى ! اعتقد ان شعبنا هناك ، فى الارض الحرة قد وضع كثيرا من الاغانى الجديدة طيلة تلك الفترة ! لقد مضى علينا ستة اشهر نرزح تحت نير الالمان ، وكانما كنا حبيسى القبور . . لا اغانى ولا ضحك بل تاوهات ودماء ودموع .

وصاحت ساشا بونداريفا تقول فيما تشيح بيدها الرقيقة السمراء :

– اننا سوف نغنى الآن وليذهب هؤلاء الى اسفل السافلين . . .

ها هم الجنود والقوات
تتقدم عبر الاودية والروابى . .

ونهضت الفتيات ليحطز بساشا ريرددن معا تلك الاغنية التى انسابت فى كل ارجاء السجن . وتعالت الى اسماعهن اصوات الشباب فى الزنزانة المجاورة تترنم بنفس الاغنية .

وانفرج باب الزنزانة فى جلبة ليهمس الشرطى الذى علت امارات الغضب والخوف وجهه ، فى فحيح عال :

– هل اصابتكن لوثة ! فلتلزمن الصمت .

لن تخمد اليوم جذوة المجد
لن تخبو ابد الدهر . .
وسوف يجىء الفدائيون
الى المدن محررين

وصفق الشرطى الباب ليهرول سريعا .

وتعالى بعد برهة قصيرة دبيب خطوات ثقيلة وظهر عند الباب الضابط بريوكنر بكرشه المتهدل تغطى وجهه الاصفر الداكن الاكياس الدهنية ، فيما استقرت ثنايا رقبته السميكة على ياقة سترته ، ممسكا بسيجار مشتعل فى يده المرتجفة :

– ثبات ! الصمت !

ندا هذان الامران عنه بالالمانية فى قوة تصم الآذان وكانما الانفجار .

كما النيران الداعية . . .
وليالى سباسك . . ليالى الهجوم
ونهار فالاتشايف . . نهار الهجوم .

وهكذا لم تكف الفتيات عن الغناء .

واقتحم رجال وجنود الشرطة الزنزانات . وشهدت زنزانة الشباب عراكا ، وتراجعت الفتيات الى جدران زنزانتهن .

اما ليوبكا التى ظلت تقف وحدها وسط الزنزانة فقد وضعت يديها على جانبى خصرها ، ثم تقدمت مباشرة نحو بريوكنر تدق الارض بكعبيها فى قوة وقد توقدت عيناها اللتان راحتا تحدقان فى لا شىء .

– أوه . . يا ابنة الطاعون !

قالها بريوكنر وقد غص حلقه ، ثم امسك بيده الكبيرة ليوبكا ليلوى ذراعها ويقودها الى خارج الزنزانة .

وكشرت ليوبكا عن اسنانها ومالت فى سرعة براسها لتغرز اسنانها فى يده الكبيرة ذات الجلد الاصفر .

– يا للعنة !

زار بها بريوكنر وراح يضرب رأسها بقبضة يده الاخرى بينما لم تترك ليوبكا يده .

وانتزع الجنود ليوبكا بصعوبة بالغة بعيدا وراحوا بمساعدة بريوكنر نفسه الذى اخذ يلوح بقبضته فى الهواء ، يجرجرونها عبر الردهة .

وامسك الجنود بها لينزل بريوكنر وصف الضابط فينبونج بسوطيهما المجدولين من الاسلاك الكهربائية على جسدها الذى غطته آثار الضربات التى لم تكن قد التأمت بعد . وعضت ليوبكا على شفتيها دون أن تند بشىء . وفجأة ترامى الى اذنيها صوت محركات يحوم فوق الزنزانة . وقد عرفت ماهية ذلك الصوت ليتأجج قلبها فرحة جعلتها تصيح :

– يا اولاد الكلاب ! هيه ! اضربوا . . اضربوا . فهاكم قواتنا تسمعكم صوتها .

لقد اقتحم الزنزانة ازيز محركات الطائرات ، ليتوقف بريوكنر وفينبونج عن تعذيب ليوبكا . وسارع احد ما باطفاء الانوار . كما وترك الجنود ليوبكا التى راحت تضرب بكعبيها فى ضراوة حيث لم تكن قادرة على التحرك فوق الاريكة المضرجة بالدماء ، بينما يعلو صوتها بالسباب :

– آه ايها الجبناء ! يا ايها الملاعين ! لقد حانت ساعتكم يا أسفل السافلين !

وهزت جدران السجن الخشبية موجات هدير الطائرات التى راحت تقصف المدينة .

ومنذ ذلك اليوم شهدت حياة اعضاء «الحرس الفتى» داخل السجن ذلك الانعطاف الذى جعلهم لا ينكرون انتماءهم للمنظمة وينخرطون فى النضال صراحة ضد جلاديهم . كانوا يغلظون القول لهم ، يسخرون منهم ، يتغنون بالاناشيد الثورية داخل السجن يرقصون ، ويضجون حين يقتادوا احدهم الى التعذيب .

وقد اصبح العذاب الذى راحوا يكيلونه لهم اليوم قاسيا لا يتخيله عقل بشرى ، ولا يتصوره الضمير والوعى الانسانى .

الفصل الحادى والستون

قاد اوليج وهو اكثر الآخرين اطلاعا على التحركات بالجبهة ، المجموعة فى اتجاه الشمال تقريبا ، وحتى يستطيع فى مكان ما بمنطقة جوندوروفسكايا عبور الدونيتس الشمالى الذى تجمدت مياهه والوصول الى محطة جلوبوكايا على خطة السكة الحديدية فورونيج – روستوف .

وراحت المجموعة تسير الليل باكمله ودون ان يبارح مخيلتها الرفاق والاقارب ودون ان ينبس احدهم ببنت شفة .

وعند الفجر كانت المجموعة قد عبرت الدونيتس بعد ان التفت حول محطة جوندوروفسكايا دون عقبات ومضت تقطع الطريق العسكرى الممهد قاصدة نجع دوبوفى بحثا عن مسكن ما يقيها شر البرد والجوع .

وكانت الرياح قد هدأت وبزغت الشمس فى الافق تغمر الارض باشعتها الدافئة ، بينما كانت البرارى بوهادها وتلالها ناصعة البياض . اما ثلوج الطريق الممهد فقد بدأت فى ذوبانها ، فيما ظهرت اطراف القنوات ، وتعالى البخار وفاحت رائحة الارض .

وكانت انظار الرفاق تقع فى طريقهم احيانا ، وهناك على الطرق البعيدة والجانبية احيانا اخرى ، ولا سيما حين يعتلون التلال ، على فلول وحدات المشاة الالمانية والمدفعية وقوات الخدمات والامدادات التى نجت من حلقة الحصار العظيمة عند ستالينجراد ، والتى جرى تحطيمها فى معارك اخرى . لقد كانوا المانا لا يشبهون اولئك الذين كانوا يقطعون تلك الطرق على متن آلاف اللوريات منذ خمسة اشهر ونصف . لقد كانوا يسيرون فى معاطفهم الرثة يلفون رؤوسهم واقدامهم كيفما اتفق لهم اتقاء للبرد ، غير حليقى الذقون تغطى الاوساخ وجوههم وايديهم السمراء ليخيل للمرء انهم خارجون على التو من احدى مداخن الافران .

وذات مرة التقى الشباب فى طريقهم بمجموعة من الجنود الايطاليين تتخذ طريقها من الشرق نحو الغرب ، تسير غالبية افرادها بلا سلاح ، ومن يحمله منها كان يضعه متدليا من كتفه وقد تدلت فوهته الى الارض كما العصا . وقد كان بينهم ضابط يرتدى

سترته الصيفية يغطى راسه بقبعة اشبه بالطاقية مالت جانبا ، يلفها بسروال طفل ، اعتلى جحشا صغيرا بلا سرج ، يكاد يحرث الارض بساقيه اللتين تدلتا على جانبى الجحش . وكم كان منظره مضحكا ، يرمز الى اشياء كثيرة ، ذلك الضابط بمخاطه الذى تجمد تحت انفه ، ساكن البلاد الحارة فى ثلوج روسيا ، مما جعل الشباب يلتفتون اليه ويضحكون .

كان كثير من المواطنين العزل يقطعون الطريق بعد ان حالت الحرب دونهم ودون منازلهم واوطانهم . ولم يعر احد انتباهه الى شابين وثلاث فتيات كانوا يسيرون فى نفس الطريق الذى غطته الثلوج يحملون متاعهم .

وكان ذلك امرا يرفع من معنوياتهم ، وكانت جسارة الشباب التى لا تدرك ابعاد الخطر تجعلهم يتصورون انفسهم فى الناحية الاخرى من الجبهة .

وحرك السير الدماء فى اطراف نينا التى ارتدت حذاء شتويا طويلا وغطاء راس تدلت من تحته خصلات شعرها الكث على ياقة معطفها الدافئ . ولم يحول اوليج نظره عنها ، ليبتسم كل منهما للآخر حين التقت عيناهما . اما سيريوجكا وفاليا فقد شغلهما اللعب بالثلوج وراح كل منهما يحاول اللحاق بالآخر ليتركا الركب خلفهما بمسافة كبيرة . اما اوليا اكبر المجموعة سنا فقد كانت ترتدى ملابس داكنة اللون ، هادئة صموتة تنظر اليهم كالام المتسامحة . وقضى افراد هذه المجموعة فى نجع دوبوفى بعض اليوم يتساءلون عن اخبار الجبهة . ونصحهم احد العجزة – انسان قعيد فقد يده من المؤكد انه كان من «المحاصرين» ، بمواصلة السير شمالا الى قرية دياتشكينو .

وفى تلك القرية وفى العزب المجاورة لها قضت المجموعة بضعة ايام وسط وحدات المؤخرة الالمانية المختلطة والناس الذين اختبأوا فى اقبية المنازل . وها هم على مقربة مباشرة من خط الجبهة التى تعالى دوى مدافعها ، وتوهجت ليلا نيرانها . كانت الطائرات تقصف مؤخرة الالمان ، ويبدو ان الجبهة اخذت تتراجع تحت ضغط القوات السوفييتية ، حيث ان القوات الالمانية راحت تتقهقر فى طريقها الى الغرب .

كان كل جندى عابر ينظر اليهم شزرا ، بينما خاف الناس السماح لهم بالدخول دون ان يتحققوا من شخصياتهم وكان خطيرا ليس فقط المرور عبر الجبهة بل والبقاء فى مكانهم ذلك . وفى احد الاكواخ ، تركتهم صاحبة المسكن التى كانت تنظر اليهم بغير مودة ، وارتدت ملابسها وخرجت ليلا . وايقظ اوليج الذى لم يكن نائما رفاقه ليغادروا المسكن الى البرارى . وضايقتهم الرياح التى كانت تهب منذ الامس ، ولم يكن هناك مكان يلتجئون اليه . ولم يسبق لهم ابدا ان راودهم الاحساس بانهم عاجزون منسيون كما شعروا فى ذلك الحين . وحينئذ شرعت اوليا وهى اكبرهم سنا ، تقول دون ان تنظر اليهم ، وتحجب الرياح بكمها عن خدها :

– لا تغضبوا مما سوف اقوله ! اننا لن نتمكن من عبور الجبهة ونحن مجموعة هكذا . ومن المؤكد انه من الصعب جدا على الفتاة او المراة عبور الجبهة – وهنا نظرت الى اوليج وسيريوجا فى انتظار اعتراضهما ، بيد انهما التزما الصمت حيث كان ذلك حقيقة واقعة . واستطردت اوليا تقول فى حزم :

– اننا يجب علينا نحن الفتيات اعفاء رفاقنا الصبية ! يمكن لنينا ان تعترض ، بيد ان امك قد اوكلت الىّ الاشراف عليك . اننا سوف نذهب الى قرية فوكينو ، حيث تعيش صديقتى منذ ايام المعهد ، والتى سوف تاوينا وعندها ننتظر قواتنا .

ولاول مرة لم يجد اوليج ما يقوله ، بينما التزم سيريوجكا وفاليا الصمت .

وقالت نينا وهى على وشك البكاء :

– لماذا اعترض ؟ لا . . اننى لن اعترض !

وهكذا وقف الخمسة صامتين وقد انتابتهم الحسرة ، لا يملكون جراة اتخاذ الخطوة الاخيرة . وعندئذ قال اوليج :

– ان اوليا على حق . لماذا تعريض الفتيات للمخاطرة ، اذا كان لديهن حل آخر اكثر بساطة . كما انه سوف يكون الامر لنا اكثر سهولة . هذا حقا .

واستطرد يقول وقد اصابته اللعثمة :

– اذ . . ذ . . ذ . . هبن . . !

وعانق اوليا الكبيرة . ثم اقترب من نينا ، ليدير الجميع لهما

ظهورهم . واحتضنته نينا بعنف وراحت تغمر وجهه بقبلاتها . واحتضنها اوليج وقبلها فى شفتيها ، وراح يهمس فى اذنيها بسعادة بالغة :

– هـ . . هل تذكرين يوم رحت اتعقبك ا . . ا . . اطلب منك قبلة فى خدك . . . هـ . . هل تذكرين كيف كنت اقـول لك . .» فى خدك . . فقط . . فـ . . فقط فى خدك !» وهاقـد حانت هذه اللحظة لنتبادل القبلات . . هل تـ . . تذكرين ؟

وهمست تجيبه :

– اننى اذكر . . اذكر كل شىء ، بل اذكر اكثر مما تتصوره . . اننى سوف اظل اذكرك . . اننى سوف انتظرك .

وقبلها مرة اخرى ثم تركها .

واذ ابتعدت عنهما اوليا ونينا لمسافة قليلة ناديا هما ثم سرعان ما اختفيا عن الانظار بعيدا ، لا اثر لهما ولا صوت سوى صوت الرياح الثلجية تمسح الجليد .

وسأل اوليج فاليا وسيريوجكا :

– وماذا سوف تفعلان ؟

واجاب سيريوجكا بلهجة تنم عن اسف :

– اننا سوف نحاول سوية رغما عن كل شىء ! سوف نسير بمحاذاة الجبهة ، ربما نجد مكانا نتسلل منه . وانت ماذا سوف تفعل ؟

وقال اوليج :

– اننى سوف احاول ذلك هنا فى ذلك المكان ، حيث اعرف هذه المنطقة على كل حال .

وخيمت لحظة صمت كئيب عليهم مرة اخرى .

واذ ادرك اوليج كل ما يجول بخاطر سيريوجكا قال يخاطبه :

– يا صديقى العزيز ، لا تخجل . . ولا تيأس . . هيه . . ؟

واحتضنت فاليا اوليج بعنف . اما سيريوجكا الذى لم يكن يحب الرقة ، مد يده يصافح اوليج ، ثم ربت بكفه على كتفه ، وتركه ومضى . واسرعت فاليا الخطى تلحق به .

كان ذلك فى السابع من يناير .

بيد انهما لم يستطيعا ايضا عبور الجبهة سوية . فقد راحا

يسيران من قرية لاخرى حتى وصلا الى كامينسك . وكانا يقولان انهما اشقاء تخلفا عن الاسرة فى منطقة المعارك فى الدون الاوسط . وكان الناس يشفقون عليهما ، ويفرشون لهما على الارض كى يقضيا الليل بينما كانا ينامان متعانقين كاشقاء فى محنة ليواصلا المضى فى طريقهما عند طلوع الصباح . وكانت فاليا تطلب عبور الجبهة من اى منطقة ، الا ان سيريوجكا كان واقعى التفكير ، راح يرفض ذلك .

وفى النهاية ادركت فاليا ان سيريوجكا لن يحاول عبور الجبهة طالما ترافقه . فقد كان قادرا على عبور الجبهة من اية منطقة ، الا انه كان يخاف عليها . وحينئذ قالت له :

– اننى استطيع الاقامة فى اى مكان هنا فى القرية ، والانتظار حتى يمر خط الجبهة بهذه المنطقة .

بيد انه لم يكن يريد حتى سماع ذلك .

ومع ذلك فقد استطاعت ان تخدعه . لقد كانت تعطيه زمام القيادة منذ التعارف ، وقد تجلى ذلك بصفة خاصة حين بقيا وحدهما . لكنها كانت تأخذه منه فيما يخص امورهما الشخصية ، ولم يكن يلاحظ ذلك ويسير وفق ما تهوى . وهذا ما حدث حين قالت له انه يمكنه الوصول الى احدى وحدات الجيش الاحمر يخبرها بان ثمة شباب يلقون حتفهم فى كراسنودون ، ومرافقتها لانقاذ هؤلاء الشباب ، وبالتالى انقاذها . واستطردت تقول :

– اننى سوف انتظرك على مقربة من ذلك المكان .

وادرك التعب فاليا فنامت نوما عميقا ، وحين استيقظت قبيل الفجر لم تجد لسيريوجكا اثرا . لقد اشفق عليها ولم يوقظها كى يتوادعا . . لتبقى وحيدة .

سوف تظل يلينا نيكولايفنا تذكر ابد الدهر ليلة الثانى عشر من يناير قارسة البرودة . كان كل اعضاء الاسرة قد خلدوا الى مخادعهم حين طرق النافذة طرقا خفيفا شخص ما ادركت يلينـــا نيكولايفنا هويته على الفور .

وسقط اوليج بخدين قد جمدهما البرد الى الكرسى من تأثير

التعب ودون ان يخلع غطاء راسه . واستيقظ الجميع ، واشعلت الجدة المصباح ووضعته تحت المنضدة حتى لا يتسلل الضوء الى الخارج : فقد كانت الشرطة تزورهم عدة مرات فى اليوم الواحد . وجلس اوليج تكشفه اشعة المصباح المنبعثة من اسفل ، يرتدى غطاء الراس الشتوى وقد كساه الصقيع ، وبدت على عظام وجنتيه بقع سوداء . لقد غدا نحيفا عن ذى قبل .

لقد حاول مرارا عبور الجبهة ، الا انه لم يكن يعرف النظام العصرى للنيران وتمركز الوحدات والجماعات فى الدفاع . كما كان كبير الحجم يرتدى ملابس داكنة تجعله ملحوظا لو حاول الزحف على الثلوج . كما انه لم يكف ابدا عن التفكير فى رفاقه الذين تركهم فى المدينة . وفى نهاية الامر اقنع نفسه بامكانية التسلـــل الى المدينة ، بعد برهة من الوقت .

وتساءل :

– ماذا حل بزيمنوخوف ؟

واجابت الام وهى تتحاشى النظر اليه :

– نفس الشئ . .

وخلعت الام عنه غطاء راسه وسترته . ولم يكن هناك ما يمكن تسخين الشاى عليه . كما وراح الاقارب يجولون بانظارهم خشية ان يدركه رجال الشرطة بينهم .

وتساءل عن احوال اوليانا ، الا ان الجميع التزموا الصمت وحتى اجابت الام بصوت خافت :

– لقد قبضوا على اوليانا !

– وماذا عن لوبا ؟

– قبضوا ايضا عليها .

وتغيرت ملامح وجهه ، وصمت قليلا ثم تساءل :

– وماذا عن الاحوال فى كراسنودون ؟

وكان من الصعب تعذيبه على مراحل ، ولذا تحدث الخال كوليا يقول :

– من الاسهل ذكر اسماء من لم يقبض عليهم بعد . .

وراح يتحدث عن القبض على مجموعة كبيرة من عمال الورش المركزيـــة وعلى ليوتيكوف وباراكوف . والآن ليس هناك فى

كراسنودون من يشك فى ان هذين الرجلين كانا من رجالنا الذين جرى الابقاء عليهم فى مؤخرة الالمان للقيام بواجبات خاصة .

ونكّس اوليج راسه ولم يسأل عن شىء اكثر من ذلك .

واذ تشاور الحاضرون فى امر اوليج ، قرروا ارساله الى اقارب مارينا فى القرية فورا ، وقبل ان ينبلج الصباح . واخذ الخال كوليا على عاتقه تنفيذ هذه المهمة .

وراحا يسيران عبر الطريق المؤدى الى روفينكى ، عبر البرارى القفرة المكشوفة ، والثلوج الغارقة فى ضوء النجوم الازرق الباهت . وبالرغم من ان اوليج لم ياخذ قسطه من الراحة بعد ايام الترحال الطويلة وكثيرا ما دون طعام او شراب ، وبعد كل ما سمعه من اخبار سيئة بالمنزل ، كان ما يزال ممسكا بزمام نفسه ، وراح يسأل الخال كوليا حول كل تفاصيل سقوط «الحرس الفتى» والقبض على ليوتيكوف وباراكوف . كما اخذ يقص عليه مغامراته .

ولم يلحظا نهاية المنحدر التدريجى وكيف بلغا اعلى نقطة فيه وراحا يهبطان التل على مسافة خمسين مترا تقريبا من القرية الكبيرة التى احتواها الظلام .

وقال الخال كوليا :

– علينا فى البداية الالتفاف حول القرية .

وتركا الطريق وتحركا تجاه الطرف الشمالى للقرية على مسافة خمسين مترا تقريبا بعيدا عنها – كانت الثلوج غزيرة فى الاماكن التى تكومت فيها فقط .

وعبرا احد الطرق الجانبية المؤدية الى القرية فى الوقت الذى خرج فيه لملاقاتهما بعض الاشباح . وكان هؤلاء يهرولون ويصيحون بالالمانية باصوات مبحوحة .

وانتحى كل من الخال كوليا واوليج جانبا دون اتفاق مسبق .

وكان اوليج يشعر بالانهاك الشديد وعدم القدرة على مواصلة الجرى ، بينما يوجد من يلاحقه . ولذا استجمع آخر قواه الا ان قدمه زلت فهوى الى الارض . وانكبوا عليه وقيدوا يديه الى خلف ظهره . اما الخال كوليا فقد راح يلاحقه اثنان يطلقان مسدسيهما فى اثره . وبعد برهة من الوقت رجع هذان الاثنان وهما يسبان ويسخران ، حيث لم يستطيعا الامساك به .

واقتيد اوليج الى منزل كبير ، من المؤكد انه كان مقـــرا للمجلس المحلى بينما يشغله اليوم مكتب العمدة . وكان هناك بعض رجال الشرطة يرقدون على الارض يفترشون القش . وادرك اوليج انه قد اقتيد الى مركز الشرطة . وكان هناك على المائدة جهاز تليفون ميدانى يغطيه غلاف داكن اللون .

ورفع العريف شريط المصباح وراح يفتش اوليج وهو يرغى ويزبد . واذ لم يجد معه ما يدعو الى الريبة ، نزع سترته وراح يتحسسها شبرا شبرا . راح يفعل ذلك باصابعه الكبيرة العريضة المفلطحة عند الاظافر ، وبشكل ماهر محنك . وهكذا وصلت هذه الاصابع الى غلاف بطاقة الكومسومول . وادرك اوليج ان كل شىء قد انتهى .

وراح العريف يصيح فى سماعة التليفون بصوت مبحوح بينما غطى بيده بطاقة الكومسومول واستمارات بطاقات الكومسومول المؤقتة الموضوعة على المائدة . ثم اعاد السماعة الى موضعها وادلى بشىء ما الى الجندى الذى اقتاد اوليج .

وفقط فى مساء اليوم التالى وصل اوليج برفقة العريف والجندى الذى حل محل الحوذى الى مقر الشرطة فى مدينة روفينكى ، ليتسلمه هناك الجندى المناوب .

وجلس اوليج وحيدا فى الزنزانة يحتضن ركبتيه . كان وجهه ، اذا ما تيسر لك رؤيته ، يتسم بامارات الهدوء والصرامة . لم تفارقه الافكار والخواطر حول نينا وامه وحول الطريقة التى سقط بها فى غباء ، طوال الفترة التى امضاها فى مكتب العمدة والتى قطع فيها الطريق الى المدينة . هذا بينما فارقته كل هذه الافكار الآن . ولم يكن يفكر ايضا فيما ينتظره ، حيث كان يدرك ذلك . لقد كان هادئا صارما لانه كان يضع خطا تحت كل حياته غير الطويلة .

«فليكن عمرى ستة عشر عاما . ليس ذنبى ان تغدو حياتى قصيرة هكذا ... ماذا يمكن ان يرهبنى ؟ الموت ؟ التعذيب ؟ اننى قادر على تحمل ذلك ... اننى بطبيعة الحال اود ان اموت بحيث تظل ذكراى عالقة بقلوب الناس . لكن فلاموت مغمورا لا يعرفنى احد ... وماذا فى ذلك . . فهكذا اليوم تموت الملايين مفعمة بالقوة وحب الحياة . فيم يمكن تانيب نفسى ؟ اننى لم اكذب ولم ابحث

عن طريق سهل للحياة . ربما كنت هوائى الطبع بعض الاحيان ضعيفا لطيبة قلبى الزائدة عن الحد . . اوه يا عزيزى اوليج . . ان ذلك ليس ذنبا كبيرا لامرئ فى السادسة عشرة من عمره . اننى لم اذق حتى طعم كل السعادة التى كانت متاحة امامى . ورغما عن كل ذلك فاننى سعيد . لاننى لم اتزلف الى احد كالدود . . لقد ناضلت وكانت ماما تنادينى دائما . . «يا ايها النسر» . . اننى سوف اكون موضع ثقتها وثقة الرفاق الآخرين . وليكن موتى نقيا نقاء حياتى — اننى لن اشعر بالحرج فى ان اقول لك ذلك . . انك سوف تموت ميتة مشرفة ، يا عزيزى اوليج ...» .

وانبسطت اسارير وجهه ، وافترش الارض الزلقة المتجمـــدة ساندا راسه الى غطائه الشتوى ليغط فى نوم عميق . وفتح عينيه ليجد ان هناك من يقف الى راسه . فقد حل الصباح .

وكان ذلك عجوز ربعة ذو انف ضخم وعينين كبيرتين دامعتين يغطى النمش وجهه يرتدى معطفا قوزاقيا وكابا بولنديا يكاد يغطى راسه الكبيرة ذات الشعر الاحمر ، يقف الى الباب يكاد يسده .

وجلس اوليج يحدق فيه فى دهشة :

— لقد كنت اظن كوشيفوى على خلاف ما ارى . . وها هو الآن ماثلا امامى . . ثعبان . . حيـــة رقطاء ! من المؤسف ان الجستابو هو الذى سوف يتولى امرك ، والا كنت قد فعلت ذلك هنا بنفسى . اننى لا اضرب الا فى الاحوال الطارئة . هاك تمثل قبالتى . . هيه ! ان شهرتك قد جابت الافاق شان دوبروفسكى . ولا ريب فى ان تكون قد قرات رواية بوشكين هذه . يا ايهـــا الثعبان ! — ومال العجوز نحو اوليج وزر احدى عينيه الدامعتين فيما تعالت منه رائحة الفودكا ، ليهمس فى غموض : — لعلك تفكر فى السبب الذى دعانى الى زيارتك هكذا مبكرا . — وغمز بعينيه بما ينم عن ثقة وابهام : — اننى مسؤول اليوم عن ترحيل مجموعة الى هناك ... — ودار باصبعه ثم رفعه مشيرا الى السماء — وقد جئت بحلاق ، حيث يقص لهم شعورهم دائما قبل تنفيذ ذلك — ثم فرد قوامه وصاح فيما يرفع ابهامه عاليا — بشكل مهذب ! اما انت فسوف يجرى ارسالك الى الجستابو . ولا احسدك حظـــك . اوريفوار !

ورفع اصبعه المنتفخ ليشير به الى مقدمة كابه محييا وخرج ليصفق احد الجنود فى اثره باب الزنزانة .

وعندما نقل اوليج الى العنبر العام ، حيث كان هناك اناس آخرون من اقصى الاقاصى لا يعرفهم ، عرف ان من كان يخاطبه هو اورلوف رئيس شرطة روفنكى ، واحد ضباط عصابة دينيكين (ايام الحرب الاهلية) سفاح رهيب يجيد فن التعذيب .

وبعد ساعتين او ثلاث اقتيد لاستجوابه ، وقد قام بذلك رجال الجستابو وحدهم حتى المترجم كان عريقا المانيا .

كانت الحجرة التى تم فيها استجوابه غاصة بضباط الشرطة الالمان الذين راحوا فى حب استطلاع بالغ ودهشة يحدقون النظر فيه ، بل وكان بعضهم يقف امامه باعين مفتوحة دهشة كما لو كانوا ينظرون الى وجه انسان غاية فى الاهمية . ولم يكن ادراكه الطفولى فى كثير من الاحيان يسمح له بتصور الى اى مدى ذاعت شهرة «الحرس الفتى» ، وكيف تحول هو الى شخصية اسطورية بفضل اقوال ستاخوفيتش واولئك الذين لم يستطيعوا فترة طويلة القبض عليه . وكان يستجوبه المانى لين البنية كما لو كان بدون عظام ، ذو وجه اضفت عليه منظرا خارقا للعادة ، نصف الدوائر البنفسجية تحت عينيه القابعتين اسفل جفنيه السمراوين ، وعظام وجنتيه الملوية لتمتزج بخديه النحيفين ، بحيث بدا انه من غير الممكن ان يصادف المرء مثل هذا الشخص الا فى كابوس يزوره ليلا .

وردا على طلب حول ضرورة التحدث عن كل نشاط منظمة «الحرس الفتى» والارشاد عن كل اعضائها والمتعاملين معها اجاب اوليج :

– لقد كنت اشرف على «الحرس الفتى» وحدى ، واننى مسئول عن كل ما فعله اعضاء هذه الجماعة بناء على تعليماتى . . . اننى يمكننى الحديث عن نشاط الحرس الفتى اذا ما حوكمت محاكمة علنية . بيد انه من غير المجدى للجماعة الحديث عن نشاطها امام اولئك الذين يقتلون الابرياء – وصمت بعض الوقت ورمى الضباط بنظرة تتسم بالهدوء ثم استطرد يقول : نعم . . انكم اموات ايضا . .

ورغما عن ذلك تساءل الالمانى ، الذى يشبه الاموات حقا ، عن

شىء ما ليجيبه اوليج قائلا :

– ان كلماتى هذه ، هى آخر ما عندى – وهبط باهدابه .

القى اوليج بعد ذلك فى غياهب سجون الجستابو ، لتبدأ حياة لا يقدر انسان لا على تحملها بل ولا يستطيع تصورها اى امرئ ذى روح .

بيد ان اوليج تحمل هذه الحياة حتى نهاية الشهر ، ولئن كانوا لم يقتلوه فلم يكن ذلك الا لانهم كانوا فى انتظار قومندان المقاطعة الميجور جنرال كلير الذى كان تواقا لاستجواب قادة هذه المنظمة بنفسه ، وللتصرف فى مصائرهم . ولم يكن اوليج يدرى ان فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف قد احضر هنا ايضا الى جستابو روفنكى كى يقوم قومندان المقاطعة باستجوابه . كما ان الاعداء لم يستطيعوا اكتشاف حقيقة رئاسة ليوتيكوف لمنظمة بلاشفة كراسنودون ، الا انهم كانوا يشعرون ويدركون انه اهم من فى حوزتهم من معتقلين .

الفصل الثانى والستون

كانت الرشاشات الثلاثة تطلق نيرانها من ثلاث نقاط كما من زوايا المثلث ، فى اتجاه الوهدة الواقعة بين التلال الشبيهة بسرج الجمل ذى السنمين . وكانت الرصاصات تخترق الثلوج المختلطة بالطين مدوية يعلو ازيزها . بيد ان سيريوجكا كان قد وصل الجانب الآخر من الوهدة لتختطفه الايادى القوية وتجذبه الى الخندق .

وقال رقيب شاب ذو عينين كبيرتين بلهجة اهل كورسك :

– ألست خجولا من ذلك ؟ ما هذا ؟ ! انك شاب روسى . . فهل هددوك ام وعدوك ؟ !

واجاب سيريوجكا وهو يضحك فى عصبية :

– اننى مواطنكم . . ابنكم ؛ معى وثائقى فى «باطنة» السترة . ارجو مقابلة القائد فلدى الهام من الاخبار .

وقف رئيس اركان الفرقة وسيريوجكا امام القائد فى الكوخ الوحيد السليم الواقع على مقربة من السكة الحديد . وكانت هذه القرية عامرة بنباتات الاقاصيا قبل ان تدمرها الطائرات والمدفعية ؛



وحيث اليوم مركز قيادة الفرقة ، وفيها ايضا كان ممنوعا على العربات والوحدات التنقل والحركة . اما الكوخ والقرية كلها فكان يسودها الهدوء التام ، اذا ما لم ناخذ فى اعتبارنا بطبيعة الحال هدير المعركة الدائرة بعيدا فى الجنوب خلف التلال .

وتحدث رئيس الاركان الشاب ذو الشعر الاجعد :

– اننى لا احكم على اساس المستندات ، بل على اساس ما يقوله . ان الصبى يعلم كل شىء . . الارض المحيطة ، ومواقع النيران ، بل وحتى نقاط النيران فى المربعات ٢٧ و٢٨ و١٧ . . – ونقاط اخرى ذكرها – وكثير من هذه المعلومات يتفق وما جاءت به قوات الاستطلاع ، وقد قام بتدقيق بعضها . وبالمناسبة ان الشاطئ عامر بالحفر المضادة للدبابات . هل تذكرون ؟

وكان رئيس الاركان يرتدى سترة حملت رتبته ينفخ الهواء من جانب شفتيه حيث كان يشعر بآلام الاسنان .

وتفحص قائد الفرقة بطاقة الكومسومول الخاصة بسيريوجكا ، وكلمات مخطوطة باليد على استمارة بدائية الطباعة ، يذيلها امضاء كل من القائد توركينيتش والقوميسار كاشوك . وكانت هذه البطاقة تفيد ان سيرجى تيولينين احد اعضاء قيادة منظمة «الحرس الفتى» السرية فى مدينة كراسنودون . ومدّ يده بعد ذلك بالبطاقتين يعطيهما لا لرئيس الاركان الذى سلمهما له ، بل الى سيريوجكا ، بينما راحت عيناه تتفحصاه بسذاجة من قمة راسه الى اخمص قدمه ، قائلا :

– هكذا . . .

وتقلص وجه رئيس الاركان من الالم ، واستنشق الهواء باحد جانبى فمه وقال :

– ان لديه اخبارا هامة لا يود الافضاء بها الا لكم .

وتحدث سيريوجكا عن نشاط «الحرس الفتى» وذكر لهما تصوراته عن ضرورة تدخل الفرقة لتخليص الصبية حبيسى السجون .

واذ استمع رئيس الاركان الى الخطة التكتيكية للفرقة فى حركتها الى كراسنودون ، فغر فاه عن ابتسامة ، الا انه سرعان ما انّ من الالم فى هدوء ووضع يده على خدّه . بيد ان القائد لم يبتسم ،

ربما لانه لم يكن يعتبر تحرك الفرقة الى كراسنودون امرا مستحيلا ، ثم سأل :

– هل تعرف كامينسك ؟

– اعرفها . لكن ليس من هذه الجهة . . بل من الجهة الاخرى . . من حيث اتيت .

– فيدورينكو !

صاح القائد بصوت جعل الاطباق تصدر صوتا فى مكان ما . لم يكن هناك فى الغرفة سواهما ، الا ان فيدورينكو ظهر فى ذات اللحظة كما لو كانت الارض قد انشقت عنه ليقف امام القائد يدق كعبيه بشكل اثار ضحك الجميع .

– تمام ! فيدورينكو .

– عليك بصرف حذاء للصبى . هذا اولا . . ؛ ثانيا . . اطعامه . ثم عليك ان تدعه يخلد الى الراحة فى مكان دافئ حتى احتاج اليه .

– تمام . . صرف الحذاء . . تمام . . اطعام الصبى . . تمام . . النوم حتى تحتاجون اليه .

ورفع القائد اصبعه محذرا :

– فى مكان دافئ ! وماذا عن الحمام ؟

–سوف اعده ايها الرفيق الجنرال .

– تفضل . .

وخرج سيريوجكا والرقيب فيدورينكو الذى احتضنه من كتفيه بشكل ينم عن الود .

وقال القائد مبتسما :

– ان القائد العام سوف يحضر .

وعلق رئيس الاركان وقد بشّ وجهه ناسيا للحظة الم الاسنان :

– هل هذا صحيح ؟

واستطرد قائد الفرقة يقول وابتسامة عريضة تعلو وجهه :

– سوف نضطر الى الانتقال الى الملجا . اصدر اوامرك لتجهيز المكان بالتدفئة ، والا فسوف تعاقبك «البقجة» .

كان ما يزال نائما القائد العام للجيش الذى اطلق عليه قائد

الفرقة «البقجة» ذلك اللقب المحبب لدى الجنود . كان نائما فى مركز قيادته الكائن لا فى بيت او فى اى نقطة آهلة بالسكان ، بل فى ملجأ المانى قديم وسط الدغلة . وبالرغم من تقدم هجوم الجيش بمعدلات سريعة فان القائد ظل متمسكا بالمبدأ القائل بعدم الاقامة فى النقاط الآهلة بالسكان ، بل بضرورة الاقامة فى الملاجئ الالمانية . وفى الحالات التى وجدت فيها هذه الملاجئ مدمرة كان يأمر بحفر ملاجئ جديدة له ولكل الاركان كما يحدث فى الايام الاولى للحرب . وقد راح يتمسك بهذا المبدأ بعد ان لقى عددا ليس بالقليل من رفاقه كبار القادة حتفهم اثناء القصف الجوى المعادى . وكان هؤلاء لا يعيرون اهتماما لحفر الملاجئ .

وكان القائد العام للجيش قائدا للفرقة التى وصل اليها سيريوجا تيولينين ، وذلك منذ مدة غير بعيدة . وكانت هذه الفرقة هى نفسها التى كان من المفروض منذ ستة اشهر ان ينسق معها فصيل الانصار الذى يراسه ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو . اما قائد الجيش ، وقائد الفرقة سابقا ، هو نفس الجنرال الذى اتفق معه ايفان فيدوروفيتش بنفسه فى مبنى لجنة منطقة كراسنودون والذى اشتهر ببسالته فى الدفاع عن فوروشيلوفجراد ثم عن كامينسك ، وفى معارك المؤخرة التى دارت بشكل رائع اثناء الانسحاب الشهير فى يوليو واغسطس ١٩٤٢ .

وكان لقب القائد الذى ورثه عن ابيه وجده لقبا شائعا بين الفلاحين . وقد تميّز هذا اللقب بعد تلك المعارك ليغدو اكثر شهرة عن القاب القادة العسكريين الآخرين وتحفظه ذاكرة سكان شمال الدونيتس واواسط الدون . والآن وعلى مدى شهرين من المعارك التى دارت فى الجبهة الجنوبية الغربية ، غدا اللقب معروفا للبلاد بأسرها ، مثله مثل القاب القادة العسكريين الامجاد فى ملحمة ستالينجراد العظيمة . وكانت «البقجة» هى لقبه الجديد ، الذى لم يكن يشك فيه .

وكان هذا اللقب يتفق ومظهره من الناحية الشكلية . فقد كان قصيرا عريض المنكبين ذا صدر واسع ووجه ممتلئ قوى الملامح بسيط كأوجه الروس . وكان رغما عن هذا المظهر خفيف الحركة سريعها ، ذا عينين صغيرتين تشعان ذكاء ومرحا ، مفعما بالنشاط

والحيوية . بيد ان لقب «البقجة» لم يطلق عليه بسبب هذا المظهر .

وقد اقتضت الظروف ان يهاجم نفس تلك الاماكن التى انسحب منها فى يوليو واغسطس . وبالرغم من قسوة المعارك فى تلك الاماكن الخالدة ، فقد انطلق بعيدا عن العدو آنذاك فى اتجاه لم يعثر له العدو على اثر .

واذ التحم بقوام الوحدات التى شكلت فيما بعد الجبهة الجنوبية الغربية ، اختفى معهم «تحت الارض» ، ولم يغادروا جميعا المكان حتى خفت حدة هجوم العدو وتكسرت على صلابتهم الحديدية . وعندما حانت اللحظة المناسبة خرج من تحت الارض وتراس اولا هذه الفرقة ثم الجيش واخذ يطارد العدو ويأسر الآلاف منه ويغنم مئات المدافع ملتفا حول وحدات العدو المشتتة ليتركها فى المؤخرة ، يقف اليوم فى الدون ، وغدا فى تشير . . ثم مرة اخرى فى الدونيتس وهكذا .

وآنذاك وفى لحظات مرحة فى حياة الجنود ولد ذلك اللقب «البقجة» • الذى غدا يعرف به . كما وكان شبيها فى تصرفاته بتلك «البقجة» التى راحت تتدحرج متقدمة .

وصل سيريوجكا الى القوات السوفييتية فى تلك الايام التى شهدت انعطافا هائلا ، فى منتصف يناير حين بدات حركة الهجوم الكاسح على جبهات فورونيج ، والدون والجنوبية الغربية ، والجنوبية وشمال القوقاز ، وما وراء القوقاز وفولخوف ولينينجراد ، تلك الحركة التى اسفرت عن تحطيم واسر القوات الالمانية الفاشية المحاصرة بالقرب من ستالينجراد ، وعن كسر حصار لينينجراد الذى دام ما يزيد عن عامين ، وعن تحرير مدن مثل فورونيج وكورسك وخاركوف وكراسنودار وروستوف ونوفوتشيركاسك وفوروشيلوفجراد فى مدة شهر ونصف الشهر فقط .

لقد وصل سيريوجكا الى القوات السوفييتية فى يناير حين بدا هجوم الدبابات الكاسح على دفاعات الالمان عند خطوط انهار

• البقجة – «كولوبوك» من الفولكلور الروسى . قصة رغيف اعد على شكل بقجة ، قطع الغابة وحده متحديا رغبات وحوشها فى التهامه ليصل الى غايته سليما . **المترجم** .

ديركول وايدار واوسكول – وهى الروافد الشمالية للدونيتس ، وحين تم القضاء على مقاومة الحامية الالمانية فى ميلليروفو المحاصرة عند قطاع السكة الحديد كامينسك – كانتيميروفكا . كما كان قد تم قبل ذلك بيومين احتلال محطة جلوبوكايا حيث راحت وحداتنا تستعد لعبور الدونيتس الشمالى .

وكان قائد الجيش ما يزال نائما ، بينما راح قائد الفرقة يتبادل الحديث مع سيريوجكا . وقد كان شأن كافة القادة يعد كل الامور الهامة الخاصة بادارة قواته ليلا حين يخلد للنوم كل اولئك الذين لا علاقة لهم بتلك المسائل ، حتى لا يزعجونه ، وكى يكون بعيدا عن كل الامور اليومية العادية الخاصة بحياة قواته . بيد ان الرقيب اول ميشين ذا القوام الفارع كما بطرس الاول ، والذى كان يعمل فى خدمة الجنرال فى نفس الموقع الذى كان يشغله فيدورينكو بجانب قائد الفرقة ، راح ينظر الى ساعة اليد التى آلت اليه كغنيمة ، فى انتظار الوقت الملائم لايقاظ القائد .

وكان من المفروض على القائد الذى لم يكن يأخذ قسطه الكامل من النوم دائما ، الاستيقاظ اليوم مبكرا على غير العادة . وحسبما اقتضت الظروف ، وذلك يحدث كثيرا فى الحروب ، كان على الفرقة التى دافعت عن كامينسك تحت قيادته فى يوليو ، ان تحررهـــا اليوم . وللحقيقة لم يكن هناك فيها كثير من «المتقدمين فى السن» . فقد كان قائدها آنذاك قائدا للفوج قبل ان يرقى الى رتبة الجنرال . وقد كان امثاله من «كبار السن» ما يزالون ضباطا ، بل ومقاتلين الا ان ذلك كان نادرا : فقد كانت تسعة اعشار الفرقة من الامدادات التى وصلت اليها قبيل الهجوم على اواسط الدون .

واذ نظر الرقيب اول ميشين الى ساعته للمرة الاخيرة تقدم الى الرف الذى كان ينام عليه الجنرال . وقد كان ذلك رفا بالمعنى الحرفى للكلمة ، حيث كان الجنرال يخاف الرطوبة ولذا كانوا يجهزون له مثل هذا الرف كما فى عربات القطارات .

وراح ميشين ، كالعادة ، يهز الجنرال بشدة فى البداية ، وكان ينام على جنبه وقد ارتسمت امارات الطفولة على وجهه الكبير مما ينبئ عن راحة الضمير . بيد ان ذلك لم يكن بالطبع بالامر الذى يوقظه من نومه العميق ، بل مجرد اعداد لما سوف يفعله ميشين

بعد ذلك . لقد دس يده تحت جنب الجنرال ، بينما احتضنه باليد الاخرى من تحت ابطه وزاح يرفع برفق وبحرص جسده كما يُرفع الطفل .

وفى الحال استيقظ الجنرال الذى كان ينام مرتديا الروب ، ووقع نظره على ميشين بوضوح ينم عن حالة لا تشير ابدا الى انه كان نائما .

– شكرا لك !

قالها وقفز بخفة مفاجئة من على الرف وسوّى شعره وجلس على المقعد وهو ينظر حوله بحثا عن الحلاق . ودفع ميشين الحذاء تحت قدم الجنرال .

كان الحلاق يرتدى حذاء ضخما ومريلة بيضاء فوق السترة يقف فى جزء الملجأ الذى كان مفردا للمطبخ يعد صابون الحلاقة . وكما النسمة الخفيفة وجده الجنرال واقفا الى جانبه يضع له المنشفة خلف ياقة الروب ، وراح على التو يغطى بالصابون وجهه الذى طالت شعيراته بشكل كث .

ولم يمض من الوقت سوى ربع ساعة حتى كان الجنرال فى كامل هيئته يجلس الى المائدة يتصفح الاوراق الموضوعة فى ملف من الجلد المبطن بالجوخ الاحمر والتى يقدمها له مساعده ، بينما كان ميشين يقدم له الافطار . وكانت اولى هذه الاوراق تنبئ باستيلاء قواتنا على ميلليروفو ، الا ان ذلك لم يكن خبرا جديدا للجنرال ، حيث كان متاكدا من انها حتما ستسقط اما فى المساء او عند الصباح . بعد ذلك كانت بقية الاوراق تتحدث عن امور عادية .

– يا للشيطان . . فليدعوا هذا السكّر طالما ملكوه . . . انهم يطلبون منح سافرونوف ميدالية «لقاء البسالة» . اننا سنطلب منحه وسام «الراية الحمراء» ! انهم يعتقدون هناك ان الميداليات للجنود ، اما الاوسمة فقاصرة على الضباط ! . . الم يجر اعدامه بعد ؟ انها ليست محكمة عسكرية ميدانية بل هيئة تحرير مجلة اطفال ! يجب تنفيذ حكم الاعدام والا فسوف تقدمهم للمحاكمة ! . . آه . . يا للشيطان ! «يطلبون ان ندعوهم لتنفيذ تبديـــل القوات . .» اننى وعلى الرغم من كونى جنديا سابقا ، الا اننى

لا استطيع القول ان ذلك اسلوب جيد . قل لكليبيكوف الذى وقع هذه الورقة دون الاطلاع على مضمونها ، كى يطالعها من جديد ويصحح ما جاء بها من اخطاء بقلم ازرق او احمر ويجىء الىّ بنفسه بها . . . كلا . . كلا . . لقد اتيت الى اليوم بخليط عجيب .

ثم توقف الجنرال ليتحول الى تناول افطاره قائلا :

– كفى . . كفى . يمكن لما تبقى ان ينتظر .

كان القائد على وشك الانتهاء من احتساء القهوة حين وقف يحمل فى يده الملف الى جوار المكتب الجنرال قصير القامة ، قوى البنية ذو الجبهة البيضاء العريضة التى تبدو اكبر من حجمها نظرا لصلعه على ما يبدو ، والشعر الابيض المقصوص عند فوديه والذى كان يبدو هادئا منضبطا غير متكلف . وكانت هيئته شبيهة بهيئة العالم اكثر منها شبيهة بهيئة العسكريين . ودعاه القائد للجلوس .

وكان رئيس الاركان قد جاء باوراق اكثر اهمية من تلك التى قدمها مساعده الى القائد . بيد انه وقبل ان يشرع فى العمل ناول القائد والابتسامة ترتسم على وجهه آخر عدد من اعداد جريدة صدرت فى موسكو وحملتها الطائرات الى اركان الجبهة صباح اليوم لتوزيعها على اركان الجيوش .

كانت الجريدة تسجل على صفحاتها قائمة باسماء الذين تمت مكافاتهم وترقياتهم من الضباط والجنرالات ، وفيما بينهم اولئك الذين طلب لهم ذلك من قوام جيشه .

وطالع القائد باهتمام بالغ يتسم به عادة العسكريون ، وبسرعة وصوت عال القائمة ، تصادفه اسماء اناس عرفهم اثناء دراسته فى الاكاديمية او اثناء الحرب الوطنية ، وينظر من آن لآخر الى رئيس الاركان تارة فى دهشة واخرى فى تشكك وثالثة بشكل ينم عن فرح طفولى – وذلك عندما يتعلق الامر بافراد من جيشه .

كانت القائمة تضم اسم قائد الفرقة التى كان يراسها «البقجة» والتى كانت تضم ايضا رئيس الاركان الحالى . وكان هذا القائد الذى كوفئ مرارا ، يكافا هذه المرة لبطولة قام بها منذ مدة طويلة ، واستغرقت اجراءات مكافآته وقتا طويلا ، وحتى وصلت الى الصحافة اخيرا .

وقال القائد :

– ليس هذا هو الوقت المناسب لمعرفة ذلك النبأ ، حيث يتحتم عليه اليوم الاستيلاء على كامينسك ولعله لا يخلد الى الهدوء !

وذكر رئيس الاركان والابتسامة ترتسم على شفتيه :

– على العكس فسوف تحفزه المكافاة !

– نحن نعلم نقاط ضعفكم . اننى سوف ازوره اليوم واقدم له التهنئة . وسوف ابعث الى تشوفيرين ببرقية تهنئة ؛ والى خارتشينكو كذلك . اما كوكوليوف فيجب ان نبعث اليه بشىء رقيق انسانى وليس كلمات رسمية . اننى سعيد من اجله ، سعيد حقا . لقد ظننته غير قادر على اصلاح الحال بعد اخفاقه فى فيازما .

ثم اضاف القائد فجاة :

– وماذا عن شارات الكتف ؟

واجاب رئيس الاركان والابتسامة ترتسم ثانية على شفتيه :

– فى الطريق .

وكان خبر تعميم شارات الكتف بالنسبة للضباط والجنود وكذلك الجنرالات قد نشر منذ زمن قريب وغدا حديث كل رجال القوات المسلحة .

كما كان يكفى لانتشار خبر زيارة القائد العام فى كل ارجاء الفرقة ان يبلغ به قائد الفرقة رئيس اركانه . فلقد كان هذا الخبر يطير حتى ذلك الذى يتخندق وسط الثلوج التى اختلطت بالتراب فى البرارى المكشوفة على شاطئ الدونيتس ، حيث بدا واضحا الشاطئ الايمن المنحدر ومبانى مدينة كامينسك حيث كان الدخان يتصاعد فى كثير من الاماكن ، وكذلك ظلال طائرات الهجوم التى كانت تقصف المدينة الغارقة فى الضباب .

كان يود رؤيته بل ويود اكثر ان يراه كل من مر بطريقة القائد العام عند النسق الثانى للفرقة فى عربته ، حيث استقبله القائد ليترجلا يسيران تجاه نقطة القيادة ، اولئك الذين تفرقوا ما بين فرادى ومجموعات متكاملة من المقاتلين والضباط . كان الجميع يدقون بكعوب احذيتهم ترتسم على وجوهم امارات الجراة والبسالة

والافتخار ، والابتسامات المرحبة وكذلك ما يعنى جدهم وعدم تقاعسهم .

وقال القائد العام محاولا ان يكشف مناورة قائد الفرقة :

– فلتعترفوا انكم لم تنزلوا الى الخنادق الا منذ ساعة . . ان جدران هذه الملاجئ لم تحمل بعد رائحتكم .

– حقا . . لقد نزلنا منذ ساعتين . ولن نخرج منها ما لم نحرر على كامينسك .

قالها قائد الفرقة وهو يقف فى احترام امام القائد العام ، ترتسم على عينيه امارات الدهاء ، وبشفتين تسجلان هدوءه وثقته بنفسه يقول فى نفسه : «اننى هنا الآمر فى فرقتى واعلم ما يمكن ان توبخنى بشانه ، اما ذلك ، فهو من توافه الامور» .

هنا القائد العام بالوسام قائد الفرقة الذى انتهز الفرصة السانحة وقال غير عابئ كما يبدو :

– ما دمنا لم نبدأ بعد فى العمل . . يوجد على مقربة من هذا المكان حمام فى القرية لم تصبه مدافع الاعداء ، ونحن نستخدمه . واعتقد انكم ايها الجنرال لم تستحموا منذ زمن بعيد !

واجاب الجنرال بمنتهى الجدية :

– احقا تقول ؟ وهل هذا الحمام جاهز ؟

– فيدورينكو !

اتضح ان الحمام لن يغدو جاهزا الا عند المساء . ورمى قائد الفرقة فيدورينكو بنظرة تعنى انه سوف يلقى جزاء ذلك .

– عند المساء – راح القائد العام يفكر عما اذا كان من الممكن تاجيل شىء والغاء آخر ، لكنه تذكر على الفور شيئا آخر ، ليقول :

– يتحتم علينا تاجيل ذلك الى لقاء آخر .

واعد قائد الفرقة بناء على نصيحة من رئيس اركان الجيش الذى كان يعتبر شخصية عسكرية فذة لا مثيل لها فى كل الجيش ، خطة الاستيلاء على كامينسك وراح يعرض هذه الخطة على القائد العام . استمع القائد العام اليه واعترض معلنا عدم الرضى :

– هنا مثلث : النهر ، والسكة الحديدية ، وضاحية المدينة . . وكل ذلك جيد التحصين .

– لقد اعلنت عن مخاوفى ، الا ان ايفان ايفانوفيتش اشار بحق . . .

كان ايفان ايفانوفيتش هذا هو رئيس اركان الجيش .

وشرع القائد العام يقول دون الاشارة الى ايفان ايفانوفيتش بلباقة شديدة :

– انك سوف تعبر النهر ولن تجد مكانا للانتشار بعد ذلك . وسوف تواجه بالعدو يضربك بمجرد الاقتراب منه .

بيد ان قائد الفرقة كان يدرك ان شخصية ايفان ايفانوفيتش تعزز موقفه ، وراح يؤكد ثانية :

– ان ايفان ايفانوفيتش يقول ان العدو لا يستطيع توقع الضربة من هذا الاتجاه ، وسوف يظن ذلك تهويشا ، وهذا ما تؤكده وحدات استطلاعنا .

– حالما تخترقون المدينة من هذا الاتجاه سيستقبلونكم ببوابل من الرصاص فى الشوارع ومن المحطة .

– ايفان ايفانوفيتش . . .

ادرك القائد العام انهم لن يتقدموا ، مالم يزح العقبة المتمثلة فى شخصية ايفان ايفانوفيتش ، فقال :

– لقد اخطا ايفان ايفانوفيتش .

بعد ذلك راحت يده تتحرك فى خفة على الخريطة ، تدور حول الارض التى سيتم عليها الالتفاف حول المدينة واقتحامها من مكان آخر تماما .

وتذكر قائد الفرقة ذلك الصبى الذى وصل عند الصباح بعد ان عبر الجبهة قادما من ضواحى المدينة التى حدد القائد العام عندها اتجاه الضربة الرئيسية . وهكذا فجاة وعى راسه خطة اقتحام المدينة دونما جهد او صعوبة .

ومع حلول الليل كانت اركان الفرقة قد فرغت من تقرير كل ما يتطلب تقريره وحسمه ، وبعثت به الى الافواج . وانطلق القادة يقصدون الحمام الذى سلم صدفة فى المكان المجاور الذى كان موقعا لقرية صغيرة .

وفى الساعة الخامسة صباحا خرج قائد الفرقة ونائبه للشئون السياسية لتفقد الافواج ودرجة استعدادها .

كان خندق الرائد كونونينكو قائد الفوج عامرا بالحركة طوال الليل ، حيث منه كانت تصدر الاوامر والتعليمات حتى المستوى الادنى حول شتى المهام البسيطة الصغيرة والتى تعتبر حاسمة فى جوهر الامر .

وبالرغم من ان الاوامر والتعليمات الواضحة شملت كل الامور راح قائد الفرقة باسلوب تعليمى غير عاد وصبر واناة يكرر كل ما قيل قبل ذلك ، ويراجع ما قام به الرائد كونونينكو .

وكان الرائد كونونينكو قائدا شابا وعسكريا قحا ذا وجه نحيل يشع نشاطا وجسارة ونبرة صوت هادئة ، يجلس مرتديا معطفه القصير المحشو بالقطن وسرواله القطنى ايضا . ولم يكن يرتدى معطفه الشتوى الثقيل حتى يغدو خفيف الحركة . وكان كونونينكو ينصت الى القائد فى صبر ودون اهتمام شديد ، حيث كان يعرف ما يقال ، ويجيب بانه قد فعل ما يوصى به قائده .

ويا له من فوج كان ذلك الفوج الذى حل سيريوجكا ضيفا عليه . لقد عاد ثانية عبر ذلك الطريق من اول اركان الفرقة حتى قائد السرية حيث تسلم رشاشا وقنبلتين يدويتين وجرى الحاقه بقوام مجموعة الاقتحام التى كان يجب ان تكون اول من يهاجم مزلقان السكة الحديدية بالقرب من كامينسك .

راحت عاصفة ثلجية دافئة تهب طوال الايام الاخيرة على المنطقة المكشوفة المجاورة لكامينسك والعامرة بالتلال وحيث تنـــدر الشجيرات ، ثم حملت الريح القادمة من الجنوب الضباب ليسود المنطقة . وبدات الثلوج الخفيفة فى المنطقة المكشوفة تذوب لتغمر الاوحال الاراضى والطرق .

كانت المدفعية والطائرات قد شددت قصفها للقرى والعزب على جانبى نهر الدونيتس ، حتى لم يبق منها شىء . كان المقاتلون قد تمركزوا فى الملاجئ القديمة والحفر والخيام بل وفى الهواء الطلق ، ودونما نيران يشعلونها للتدفئة .

وطوال اليوم الذى سبق الاقتحام كانت محط انظارهم على الضفة الاخرى من النهر تلك المدينة الكبيرة نسبيا والغارقة فى الضباب ، بشوارعها المقفرة المتقاطعة ومداخن المصانع التى سلمت من القصف وابراج الكنائس المحطمة وقد كان المرء يستطيع بعينه المجردة

رؤية نقاط الالمان المحصنة على التلال المحيطة بالمدينة وضواحيها .

وكانت المشاعر الغامضة المعقدة تجتاح نفس المرء السوفييتى الذى ارتدى المعطف العسكرى ، قبيل المعركة من اجل تحرير مثل هذه المدينة . كان يتاجج باعماقه شعور الحماس المعنوى حيث يقوم هو الانسان ذو المعطف العسكرى بالهجوم وتحرير ما يخصه ويمتلكه . كما كان يعانى مشاعر الاشفاق تجاه المدينة وسكانها ، تجاه الامهات والاطفال المختبئين فى اقبية المنازل الباردة والملاجئ الرطبة ، وكذلك الحقد على العدو الذى سوف يستميت ، كما هو معروف ، فى المقاومة بقوة باذلا اقصى الجهود خوفا من العقاب الذى سوف ينزل به واحساسا بوقع تلك الجرائم التى ارتكبها . كما وكان المقاتلون السوفييت يعيشون كذلك حالة معنوية تتارجح بين الاحساس بالموت الذى يتهددهم ، وجسامة المهمة الملقاة على كواهلهم . وكم من القلوب التى تضنيها المشاعر الطبيعية التى تعرب عن الخوف ! بيد انه لم يكن هناك احد من المقاتلين افصح عن مثل هذه المشاعر ، حيث كانوا جميعا مرحين يتبادلون النكات فى شىء من التوتر .

وكان المقاتلون يقولون :

– ما دام «البقجة» قد تولى هذا الامر فسوف يتقدم حتما .

كانوا يقولون ذلك وكانما سوف يتقدم «البقجة» وحده ، وليسوا هم انفسهم .

وكان يترأس مجموعة الاقتحام التى انضم اليها سيريوجكا ، نفس ذلك الرقيب الذى استقبله حين تعدى خط الجبهة . وقد كان رجلا قصير القامة نشط الحركة يتسم بالمرح ، ذا وجه كثير التجاعيد وعينين كبيرتين زرقاوين تلمعان دائما لتبدوان وكانهما تغيران لونهما باستمرار . وكان لقبه كايوتكين .

وتساءل الرقيب مرة اخرى ، بنبرة تجمـــع ما بين السرور والتشكك :

– هل انت من كراسنودون حقا ؟

وساله سيريوجكا :

– وماذا فى الامر . . هل زرت تلك المدينة فيما سبق ؟

وذكر كايوتكين فى شىء من الحزن :

– لقد كان لى صديق هناك . . فتاة ، رحلت منذ مدة عنها . وكنت قد تعرفت عليها فى الطريق . وكم كانت فتاة عظيمة . كنت قد عبرت كراسنودون . . كما ودافعت عن كامينسك فيما قبل . هذا وقد استشهد البعض واسر البعض الآخر من اولئك الذين دافعوا عن المدينة ، وها انذا فيها من جديد . هل سمعت تلك الابيات ؟

وراح ينشد فيما تعلو امارات الجدية وجهه :

اصيب فى المعارك كثيرا
والتامت جراحه دون ان تترك اثرا كبيرا
ووقع فى الحصار مرات ثلاث
وخرج ظافرا دون ان يمس
وبالرغم من ان الوضع كان عصيبا
فقد ظل دون ان يصاب
رغم الرصاص والنيران
رغم القنابل والاهوال
وكم قطعت طريقى هذا . .
كم قطعته مع الارتال
بعضنا «مشتت»
وبعضنا صريع . . .

وذكر كايوتكين ضاحكا فيما يغمز بعينه لسيريوجكا :

– لقد كتبها عن امثالى * .

وهكذا مضى نهار ليحل ليل . وريثما كان قائد الفرقة يشرح للرائد كونونينكو مهمته من جديد ، كان المقاتلون الذين سوف يضلعون بتنفيذها ، يغطون فى نومهم . كما وكان سيريوجكا يغط فى نومه كذلك .

وفى السادسة صباحا ايقظهم جنود الخدمات اليومية . وتناول المقاتلون قليلا من الفودكا وبعض حساء اللحوم المخلوط بالحنطة ، وما شاء لهم من عصيدة الدخن . وتحت ستار الضباب ، والمنخفضات والشجيرات راحوا يتقاطرون على خطوط الابتداء التى سوف يشنون منها هجومهم .

* بعض ابيات من قصيدة «فاسيلى تيوركين» عن المحارب السوفييتى للشاعر السوفييتى الكبير الكسندر تفاردوفسكى (١٩١٠–١٩٧١) . المترجم .

وبدات الثلوج تذوب تحت اقدام المقاتلين وتختلط بالاتربة . كما وكانت الرؤية غير واضحة لما يبعد اكثر من مائتى متر . وبدات المدفعية الثقيلة تطلق قذائفها ، بينما كانت المجموعات الاخيرة من المقاتلين تتوافد الى شاطئ الدونيتس لتنبطح ارضا فى تلك الاوحال ، خليط الثلوج بالاتربة . وكانت المدافع تطلق نيرانها بانتظام ، بيد ان عددها كان كبيرا لدرجة ان اصوات الطلقات وانفجارات الدانات اختلطت فيما بينها فى هدير متصل .

وانبطح سيريوجكا ارضا الى جوار كايوتكين ، ليرى من مكانه تلك الكرات النارية ذات الاذناب الحمراء التى تشق الضباب عبر النهر ، الى يمينهما وفوقهما ، ويسمع حفيفها وكذلك الانفجارات الحادة على الناحية الاخرى من النهر ، ودوى الانفجارات البعيدة هناك بالمدينة . وقد راحت هذه الاصوات تبعث الحماس فى نفس وفى نفوس غيره من المقاتلين .

وكان الالمان يطلقون نيرانهم نحو تلك الاماكن التى يعتقدون وجود حشود المشاة بها . وكانت طلقات مدفع الهاون ذى المواسير الست تنطلق فى بعض الاحيان من داخل المدينة ، ليعلن كايوتكين بحذر :

– لقد بدأ يعلن عن نفسه .

وفجأة تعالت من وراء ظهر سيريوجكا ، اصوات النيران التى راحت تتزايد شيئا فشيئا ، تنتشر فى ارجاء الافق . كما وبدأت تعلن عن نفسها فوق رؤوس المقاتلين الدفقات النيرانية الرهيبة التى لفتها غلالات الدخان الكثيفة تغطى كل ضفة النهر المواجهة لهم .

وذكر كايوتكين فيما يعد نفسه للوثوب ، وتعلو امارات الصرامة وجهه الذى غطته التجاعيد :

– لقد بدأت الكاتيوشا تعزف الحانها . وسيقتحم الآن المشاة . . وعندئذ . . .

ولم تكن النيران من خلفهم قد انقطعت بعد ، كما وكانت الانفجارات ما تزال تدوى على الشاطئ الآخر حين شاهد سيريوجكا الذى لم يكن قد سمع ما اذا كان الامر قد صدر ام لا ، كايوتكين يهب من مكانه ليجرى الى الامام ، مما جعله يقفز من خندقه ليندفع فوق جليد النهر .

وراح الجميع يركضون فوق الجليد ، وخيل اليهم ان الصمت مطبق على المكان . بينما كان الواقع يؤكد ان النيران راحت تستهدفهم من الشاطئ الآخر ليتساقط البعض فوق الجليد . وتصاعدت موجات الدخان الاسمر المشوبة برائحة الكبريت تدثر اولئك الذين انطلقوا يشقون غلالات الضباب . بيد ان الاحساس بأن كل شيء كان وسوف يكون على ما يرام ، كان يراود جميع المقاتلين .

واستعاد وعيه سيريوجكا الذى غرق فى ذلك الهدوء الذى خيم فجأة ، حين وجد نفسه ممددا الى جوار كايوتكين فى حفرة الضفة الاخرى للنهر لا يزال الدخان يتصاعد منها . وقد كانت قسمات وجه كايوتكين تتسم بالصرامة الرهيبة حين راح يطلق نيران رشاشه نحو الامام . ووقع نظر سيريوجكا على ماسورة رشاش يطلق نيرانه من حفرة لا تبعد اكثر من خمسين قدما ، ليركز نيرانه ايضا عليه . ولم يكن رامى ذلك الرشاش يرى سيريوجكا او كايوتكين ، بل كان نظره متجها نحو مكان بعيد ، مما جعل نيرانهما تخرسه على الفور .

وكانت المدينة لا تزال بعيدة تنبسط على اليمين من المقاتلين ، لا يوجهون منها اليهم النيران وصاروا يبتعدون منها شيئا فشيئا الى اعماق البرارى . وبعد برهة طويلة من الوقت فقط بدات القذائف الموجهة من المدينة تنهال على البرارى فى طريق حركتهم .

وبدات نيران الرشاشات تستقبلهم عند تلك النجوع التى حجبها الضباب عن الانظار والتى كان سيريوجكا يعرفها جيدا . وانطبع المقاتلون ارضا ، ولبثوا طويلا على هذا الحال وحتى بلغتهم المدافع الخفيفة التى راحت تصلى النجوع بنيرانها . واخيرا اقتحم المقاتلون تلك النجوع برفقة المدافع التى راح يدفعها جنود المدفعية الاقوياء المرحون . وهناك سرعان ما ظهر قائد الكتيبة وبدا جنود الاشارة يمدون اسلاكهم فى قبو منزل حجرى اصابته القذائف .

وهكذا نجح كل شيء وحتى بداية التقدم نحو المزلقان ، الذى كان يعتبر النقطة الاخيرة فى عمليتهم الصغيرة . ولو صاحبت الدبابات تلك القوات لكانت قد وصلت تلك النقطة منذ زمن بعيد .

الا انه كان قد جرى عدم استخدامها لان جليد نهر الدونيتس لم يكن ليتحملها .

والآن بدا المقاتلون هجومهم فى حلكة الظلام . واضطر قائد الكتيبة التى تراس بنفسه هذه العملية الى بدء الهجوم مع جنوده الذين كانوا الى جواره بمجرد ان فتح العدو نيرانه ، وقبل ان تصله القوات الرئيسية التى كانت فى طريقها اليه . واقتحم المقاتلون ذلك النجع ، وتوغلت مجموعة كايوتكين بعيدا حيث اشتبكت فى معركة باحد الشوارع من اجل مبنى المدرسة .

وفتح العدو نيرانه القوية من داخل المدرسة ، ليكف سيريوجكا عن اطلاق نيرانه ويدس وجهه فى الاوحال . فقد اصابت الرصاصة ذراعه اليسرى فيما فوق المرفق ، بيد انها لم تصب عظامه ، ولذا فلم يشعر بالالم فى حينه . وحين رفع راسه اخيرا لم يجد احدا الى جواره .

وفى مثل هذه الحالة كان ينبغى عليه اعتقاد ان رفاقه لم يتحملوا نيران العدو التى اضطرتهم الى الانسحاب فى اتجاه قواتهم . بيد ان سيريوجكا لم يكن يملك الخبرة بعد ، حيث خيل اليه انهم قد لقوا حتفهم ، ليجتاحه الرعب . وراح يزحف نحو ناصية المبنى يصيخ السمع الى ما حوله . وهرول المانيان الى جواره . وتعالت الى اسماعه اصوات الجنود الالمان الى يمينه ويساره وخلفه . كما وتوقف تبادل اطلاق النيران فى هذا المكان ، لكنه كان ما يزال جاريا عند الضواحى التى سرعان ما توقف عندها كذلك .

وهناك بعيدا فوق المدينة بدا الضياء مغمورا بغلالات الدخان الكثيف الاسود ، لا يصل الى ارجاء السماء ، وتعالى دوى يصم الآذان .

ورقد سيريوجكا الجريح وحده فى تلك الاوحال الباردة بالنجع الذى يسيطر الالمان عليه .

الفصل الثالث والستون

يا صديقى ! يا صديقى العزيز !.. اننى ابدا اكثر صفحات قصتى لوعة واسى ، لأجد نفسى مدفوعا نحو التفكير فيك .

آه ، لو كنت تعرف مدى الاضطراب الذى كان يجتاحنى فى تلك

الايام البعيدة من طفولتى ، يوم انطلقنا للدراسة سوية بالمدينة ! لقد كان يفصلنا ما يزيد عن خمسين كيلومترا . وحين كنت ابارح بيتى ، كانت مشاعر الخوف تدور باعماقى خشية الا اراك ، حيث تكون قد رحلت ... ذلك لاننا لم نلتق الصيف باكمله !

لقد كان يقض مضاجعى احتمال وقوع تلك الكارثة فى تلك اللحظات التى كان ينئ فيها جوادنا المنهك يجر عربتنا فى اتجاه قريتكم ، بينما اعتلى متنها الى جوار ابى . لقد كنت اقفز من مكانى بالعربة قبل أن تصل الى كوخكم ، ابحث عنك فى مخزن الدريس الذى كنت دائما تهوى النوم فيه على كومة الدريس ، وحيث ان لم اجدك هناك ، فان ذلك سوف يعنى رحيلك دونى . لكن هل فعلت ذلك مرة واحدة ؟ هل رحلت بدونى ؟ اننى على يقين من أنك كنت تفضل التأخر عن المدرسة ، على الا تذهب وحدك . لم يكن جفن يغمض لنا حتى مطلع الفجر ، فيما كنا نعتلى كومة الدريس ، تتدلى اقدامنا العارية من عليها نثرثر ونضحك . وكانت رائحة الدريس تملأ المكان ، فيما صارت اشعة شمس الخريف التى اطلت من وراء الغابة تستقر على وجهينا ليدرك كل منا آنذاك كيف تغير الآخر على مدى ذلك الصيف الماضى .

اننى اذكر كيف حدث ذات مرة أن شمرنا نحن الشبان عن سيقاننا لنخوض النهر ، حتى بلغت مياهه الخضراء ركبتنا لتعترف لى آنذاك انك غارق فى الحب . ولم تكن هذه الفتاة تعجبنى ، الا اننى ذكرت لك :

– انك العاشق ولست أنا ! فلتصحبك السعادة !

وانفجرت ضاحكا لتجيبنى :

– الحقيقة أننا نستطيع قطع العلاقة حتى نحول دون ارتكاب المرء لفعلة سيئة ، لكن هل يمكن للآخرين ادلاء النصيحة فيما يخص الحب ؟ وكم يحدث كثيرا أن يتدخل أقرب الناس ، يدلون بنصائحهم فيما يتعلق بالحب ، يقربون ويباعدون بين المحبين ، وينقلون اليك ما هو سيئ عمن تحب . آه لو كانوا يعرفون مدى الضرر الذى يلحقونه بمثل تلك التصرفات ، ومدى الاساءة التى يسممون بها اطهر اللحظات التى لا تتكرر فى حياتنا امثالها !..

كما واذكر حين جاء ذلك الذى لا اود الاشارة الى اسمه ، ذلك ن . وراح يثرثر فى غير اكتراث حول شئون اصدقائه فيما ترتسم ابتسامة السخرية على شفتيه : «هذا موله فى حب فلانة ، انه يتذلل فى حضرتها ، بينما هى قذرة الأظافر . . لكن فليظل هذا سرا بيننا ... اما ذلك وانتم تعرفونه فقد شرب امس حتى الثمالة اثناء كان فى ضيافة آخرين، ولدرجة انه راح يتقيأ . . لكن فليظل هذا سرا بيننا ... اما هذا فيسير دائما رث الثياب ، متظاهرا بالفقر ، بينما هو فى حقيقة الأمر بخيل ، وذلك امر اعرفه جيدا . انه لا يخجل من احتساء البيرة على حساب الآخرين ... لكن فليظل هذا سرا بيننا ...»

لقد نظرت اليه آنذاك قائلا :

– فلتسمع يا ن . فلتغرب عنا . . وبأسرع ما يمكن . .

وقد اعترت الدهشة ن . آنذاك ليتساءل :

– كيف اغرب عنكم ؟

– فلتغرب عنا . . وببساطة . اى امر يمكن ان يكون احقر من ذلك الذى لا يستطيع الحديث عن الآخرين وجها لوجه ، حيث انه لم يقو على مواجهتهم يوما ؟ بل وهل هناك أحط من الشاب الذى لا همّ له الا الثرثرة ؟ !

وكم كان اعجابى بك كثيرا ! لقد كنت افكر فى نفس الشىء الا اننى ربما كنت غير قادر على الافصاح عن ذلك بمثل هذه الحدة .

بيد أن افضل ما علق بذاكرتى كان ذلك الصيف الذى تأكدت فيه حين كنت لا أزال بعيدا عنك انه لا طريق آخر امامى سوى الانضمام الى صفوف الكومسومول ...

وها نحن نلتقى كعادتنا فى الخريف وعلى نفس كومة الدريس . لقد شعرت بأنك مرتبك مستغرب بعض الشىء ، بينما كنت اعانى نفس المشاعر تجاهك . لقد كنا نجلس كما فى صبانا ، تتدلى اقدامنا العارية من على كومة الدريس دون أن ينبس احدنا ببنت شفة ، وحتى قطعت ذلك الصمت قائلا :

– قد لا تفهمنى ، بل ربما تدينننى لأننى اتخذت قرارى دون التشاور معك . بيد اننى ادركت حين قضيت الصيف وحدى هنا ،

انه ليس ثمة طريق اخر امامى . ولذا فقد قررت الانضمام الى الكومسومول .

وقلت لك كى امتحن مدى قوة صداقتنا :

– سوف تكون ملتزما بواجبات جديدة ، ومرتبطا باصدقاء جدد . . فما عساى انا ؟

واجبت آنذاك فى اسى :

– حقا . . ان ذلك الأمر سوف يكون . اننى ادرك بطبيعة الحال ان هذا الأمر يتوقف على الضمير ، لكن كم يكون عظيما لو انضممت انت كذلك الى الكومسومول !

وعندئذ كففت عن تعذيبك ، حيث راح كل منا يحدق فى عينى الآخر وحتى انفجرنا ضاحكين .

قد يكون حديثنا الآخر اعذب الأحاديث التى تبادلناها فى مخزن الدريس العامر بذلك الدجاج وتلك الشمس التى كانت تطل علينا من وراء اشجار الحور ، وحين اقسمنا باننا لن نحيد عن الطريق الذى اخترناه ، وباننا سوف نبقى اوفياء لصداقتنا .

الصداقة ! كم من البشر فى هذا العالم ينطقون هذه الكلمة فيما يعنون بها مجرد حديث ودى حول زجاجة نبيذ ، والتسامح ازاء ضعف كل منهم ! فاية علاقـــة تلك التى تربط ذلـــك بالصداقة ؟ . .

كلا . . لقد كنا نتجادل فى كثير من المناسبات ، ولم يكن اى منا يراف بعزة النفس . نعم لقد كان كل منا يصطدم بالآخر حين يظهر الخلاف فيما بيننا . هذا بينما كانت صداقتنا تزداد وتنمو وتصبح اكثر عمقا وارجح ثقلا .

وكم كنت ابدو كثيرا غير عادل بالنسبة لك ، بيد اننى حين كنت ادرك خطئى ، لم اكن احاول التملص من مسئوليتى ازاء ذلك الخطا . وللحقيقة اننى لم اكن قادرا آنذاك ، وفى مثل تلك الحالات ، الا على الاعتراف بالخطا . بينما كنت تجيبنى :

– هون عليك . . ذلك امر لا يجدى . وما دمت قد ادركت ، فلتنس . . وهذا يحدث كثيرا . انه الصراع !

كما وكنت تعتنى بى افضل من اطيب وارق الممرضات ، بل وقد يكون افضل من امى لانك كنت خشنا لاعاطفيا .

واليوم يجىء ذلك اليوم الذى اتحدث فيه عن فقدانى لك . . لقد كان هذا منذ زمن بعيد ، يبدو لى انه لم يحدث اثناء الحرب الماضية بل فى الحرب الحالية . لقد رحت اجرك بعيدا عن البحيرة عبر القصف ، فيما كان دمك ينزف على يدى ، والشمس تلقى باشعتها الحارقة ، وحيث لم يكن على ما اعتقد قد بقى من الأحياء احد على الشاطئ . فلقد انهالت النيران قوية فوق ذلك المكان الضيق العامر بالقصف . لقد سحبتك لأننى لم اكن اتخيلك تفارق حياتنا . وها انت تفترش القش ، ما تزال فى وعيك ، بيد ان شفتيك كانتا جافتين فيما رحت تقول :

– اود ان اشرب . . اعطنى ماء !

غير انه لم يكن بالمنطقة ماء ، ولم اكن احمل وعاء او زمزمية حتى استطيع الذهاب الى البحيرة من أجل الماء . وعندئذ قلت لى :

– فلتخلع عنى حذائى بحرص . انه ما يزال متينا .

وقد ادركت ما تقصده . وخلعت عنك حذاءك العسكرى الكبير الذى قطع كثيرا من الطرق . فكم من الأيام قضيناها سويا فى الطريق دون ان يسعفنا الوقت لتغيير لفائف اقدامنا غير اننى ذهبت بهذا الحذاء الى البحيرة ، ثم بدات زحفى فيما كان الظما يعذبنى كذلك . وقد كان يستحيل التفكير فى امكانية رى الظما تحت هذا الوابل من النيران . وقد استطعت باعجوبة بالغة ملء الحذاء بالماء والعودة به اليك زحفا .

بيد اننى وحين عدت اليك وجدتك قد فارقت الحياة ، فيما كانت امارات الراحة تبدو على وجهك . ولأول مرة اراك ضخـــم البنية . ولم يكن عبثا ان يخلطوا بيننا . وانهمرت الدموع غزيرة من عينى . وشعرت بالظما الشديد لأدنو من حذائك ، اشرب حتى الثمالة الكأس المرة لصداقة الجندية ، بينما اذرف الدمع . . .

راحت فاليا تهيم من نجع لآخر بمحاذاة خط الجبهة ، تقضى ليلتها فى بعض الأحيان بالبرارى ودون ان تشعر ببرد او خوف منهكة ، جائعة ، تجمدت اطرافها . وكانت موجات الالمان المنسحبين تضطرها شيئا فشيئا الى الاقتراب من مدينتها الحبيبة .

لقد صارت تهيم يوما واثنين وسبعة دون أن تدرى سببا لذلك . ربما كان يحدوها أمل عبور الجبهة ، الا أنها بدأت تصدق ما أوحت به نفسها الى سيريوجكا . وما الذى يمنعه حقا من العودة اليها مع احدى وحدات الجيش الأحمر ؟ لقد ذكر : «اننى سوف أعود حتما» . ولم يسبق له أن حنث بوعد .

وقد وجدت فاليا لنفسها مأوى فى أحد النجوع الكائنة على مسافة خمسة عشر كيلومترا من مدينة كامينسك التى دارت بشوارعها فى نفس الليلة رحى المعركة ، وحيث تصاعدت أعمدة الدخان الأسمر التى غمرها وهج الحرائق ، وظهرت واضحة لعشرات الكيلومترات . ولم يكن بالنجع ألمان ، ولذا فقد ظلت فاليا شأن كل السكان ، ساهرة تنظر الى اللهيب المتصاعد . فثمة شىء جعلها تنتظر وترقب .

وفى حوالى الحادية عشرة صباحا علم سكان النجع بنبأ دخول قوات الجيش الأحمر مدينة كامينسك ، وبأن المعركة تدور بشوارع المدينة ، وكذلك بانحسار الألمان عن الجزء الأعظم منها . وهذا يعنى انه سرعان ما سوف يعود الى هنا أسوأ أنواع الأعداء ، أى العدو الذى حطمته المعركة . وحملت فاليا كيسها الذى ألقت به صاحبة البيت كسرة خبز شفقة عليها ، ورحلت عن النجع .

وراحت تسير على غير هدى . وكانت الثلوج ما تزال تذوب بيد ان الرياح كانت قد غيرت اتجاهها وغدت أكثر برودة ، وانقشع الضباب وراحت الغيوم الثلجية غير محددة الأطر تغطى صفحة السماء . وتوقفت فاليا فى منتصف الطريق ، طويلا طويلا ، بقامتها النحيفة وكيسها الذى حملته على ظهرها بينما صارت الرياح الباردة الرطبة تتلاعب بخصلات شعرها . ثم اتخذت طريقها الذى غمرته مياه الثلوج قاصدة كراسنودون .

وفى ذلك الحين كان سيريوجكا أعزل السلاح يطرق نافذة أول كوخ من الجانب الآخر لهذا النجع ، بينما أسدل يده الجريحة يلفها كمه المضرج بالدماء .

كلا . . لم تشأ الأقدار أن يلقى سيريوجكا حتفه هذه المرة . لقد ظل طويلا ممددا على تلك الثلوج غير النظيفة وسط ذلك النجع القريب من المزلقان وحتى تمالك الألمان روعهم . وقد كان

من المستحيل توقع هجوم القوات السوفييتية على النجع فى نفس تلك الليلة . ولذا فقد كان ينبغى عليه الانسحاب فى اتجاه الجبهة . وكان يرتدى ثيابا مدنية ، ويمكنه دفن سلاحه فى ذلك المكان . هذا علاوة على أن هذه المرة ليست الأولى التى سوف يحاول فيها اختراق مواقع العدو !

كانت الظلمة لم تنقشع بعد حين راح يجرجر يده الجريحة فى صعوبة بالغة يزحف عبر السكة الحديدية . وفى مثل هذا الوقت تنهض ربة البيت النشيطة ، تشعل الضوء قبيل مطلع الفجر . بيد أن ربات البيوت النشيطات كذلك يجلسن اليوم مع أطفالهن فى أقبية المنازل .

وزحف سيريوجكا بعيدا عن خط السكة الحديدية بمسافة مائة متر ثم انتصب واقفا يجد فى السير وحتى وصل النجع .

وقامت احدى الفتيات ، كانت قد جاءت على التو بدلو ماء ، بتضميد ذراعه بقطعة قماش قديمة ، وغسلت له كمه المضرج بالدماء . وكان أصحاب الكوخ يخشون قدوم الألمان ، ولذا فلم يقدموا له الطعام الساخن بل اكتفوا باعطائه بعض الطعام زادا له فى طريقه .

أما سيريوجكا الذى لم يذق طعم النوم طوال الليل فقد راح يذرع النجوع المحاذية لخط الجبهة بحثا عن فاليا .

وشأن طقس البرارى بدأ الجو فى التحول نحو برودة الشتاء . وبدأت الثلوج تتساقط ، ليعقبها صقيع شديد . . . وفى أواخر شهر يناير وجدت فينيا شقيقة سيريوجكا التى كانت تعيش وحدها برفقة أسرتها ، حين عادت من السوق باب مسكنها مغلقا . وتساءل ابنها الأكبر من الداخل :

— ماما . . هل قادمة وحدك ؟

كان سيريوجكا يجلس الى المائدة وقد اتكأ عليها باحد مرفقيه ، بينما تدلت يده الجريحة الى جواره . لقد كان نحيف القامة بطبيعته الا انه غدا اليوم أكثر نحافة ، وتقوس ظهره ، ولم تبق سوى عينيه اللتين استقبلتا شقيقته بنفس الحيوية والنشاط السابقين .

وأخبرته فينيا بأنباء القبض على بعض عمال الورش المركزية

وحول ان الجزء الأعظم من اعضاء «الحرس الفتى» رهين السجون . كما وكانت قد عرفت من مارينا خبر اعتقال كوشيفوى كذلك .

ولبث سيريوجكا جالسا فى صمت ، بينما كانت عيناه تتألقان ، وحتى ذكر أخيرا :

– اننى سوف ارحل ، فلا داعى للقلق !

فقد كان يشعر بأن فينيا قلقة عليه وعلى اولادها فى آن واحد . وضمدت شقيقته جراحه ، والبسته فستانا ، لتجمع كل ما كان يرتديه فى صرة ، وعندما خيم المساء راحت ترافقه الى بيته .

وكان الحرمان الذى قاساه والده فى السجن قد اثر عليه كثيرا لدرجة انه غدا طريح الفراش طوال الوقت تقريبا . اما امه فقد كانت ما تزال متماسكة . كما وكانت شقيقتاه داشا ونادیا غير موجودتين ، حيث كانتا قد رحلتا الى مكان ما فى اتجاه الجبهة .

وراح سيريوجكا يتساءل ما اذا كانوا قد سمعوا شيئا بشأن فاليا بورتس .

وقد قربت تلك الفترة ما بين اهالى المعتقلين من اعضـــاء «الحرس الفتى» ، الا ان ماريا اندرييفنا لم تقل شيئا لوالـــدة سيريوجكا عن ابنتها .

وسأل سيريوجكا فى تجهم :

– او ليست موجودة هناك ؟

كلا . . ان فاليا لم تودع السجن ، وهذا ما كانوا يرجونه .

وخلع سيريوجكا ثيابه ليخلد الى النوم لأول مرة منذ شهر باكمله فى فراش نظيف . . فى فراشه .

وكان مصباح الزيت يرسل اشعته من فوق المائدة ، فيما ظل كل شىء على حاله منذ ايام طفولته ، الا انه لم يكن يرى شيئا من ذلك . فقد كان والده يرقد بالغرفة المجاورة ، يسعل بقوة تهز جدران الغرفة ؛ بينما كان سيريوجكا يتصور ان الهدوء الذى يسود الغرفة أمر غير طبيعى ، فلم يكن هناك وجود لشقيقتيه بما يعنيه ذلك من جلبة وحركة ، بل كان ابن شقيقته الصغير يزحف على ارضية غرفة الجد يتمتم بكلمات غير مفهومة .

وخرجت الأم لقضاء بعض الأمور . وجاءت جارتهم ، وهى امرأة فى مقتبل العمر لتدلف الى غرفة الجد . وكانت قد أكثرت فى الآونة

الأخيرة من التردد على هذا المنزل ، يوميا تقريبا . ولم يكن والدا سيريوجكا لسذاجتهما وطيبة قلبيهما يفكران ابدا فى علة هذه الزيارات المتكررة . وقد دخلت تلك المرأة وتبادلت حديثا قصيرا مع «الجد» .

وراح الطفل يزحف ، ثم التقط شيئا ما وواصل زحفه فى اتجاه غرفة سيريوجكا مناديا:

– خالى . . خالى !

ورمت الجارة الغرفة بنظرة سريعة حيث شاهدت سيريوجكا ، ولتتبادل بضع كلمات اخرى مع «الجد» ثم تنصرف .

وتململ سيريوجكا فى فراشه قليلا ثم كف عن الحركة .

وكان الوالدان قد خلدا الى النوم ، بينما خيم الهدوء والظلمة على المنزل فى حين لم يكن سيريوجكا قد نام بعد ، يئن تحت وطأة الحزن .

وفجأة تعالى قرع عنيف للباب المفضى الى الفناء :

– افتح ! . .

ومنذ ثانية واحدة مضت كان يخيل للمرء ان تلك القوة العارمة وحب الحياة اللذين صاحباه طوال حلكه وترحاله ، قد غادراه الى الأبد ، ليبدو محطما منهكا . بيد انه وفى نفس اللحظة التى تعالى فيها ذلك الطرق ، عادت اليه ليونته ومرونته ليقفز فى خفة من فراشه ويقترب من النافذة يرفع زاوية ستارة تعتيمها . وبدا كل شىء ناصع البياض فى الخارج ، يدثره ضياء القمر . ولم يكن قوام الجندى الألمانى برشاشه الذى أمسك به فى وضع الاستعداد الى جوار النافذة ، يبدو وكأنه قد رسم وحده على صفحة الثلوج ، بل وبدا كذلك ظله وعلى نفس النحو .

واستيقظ الأب والأم يتبادلان فى خوف بعض الكلمات التى شابها النعاس ، ثم التزما الصمت ينصتان الى طرق الباب . وارتدى سيريوجكا بيد واحدة وكما تعود اخيرا ، سرواله وقميصه وانتعل حذاءه الذى تسلمه فى الجيش الأحمر ، الا انه لم يستطع احكام رباطه الجلدى وخرج الى الغرفة التى كان ينام بها ابوه وامه .

وذكر فى هدوء :

– فليفتح احدكما الباب . ولا داعى لاشعال الضوء .

وبدا الكوخ وكأنما سوف تتداعى جدرانه تحت وقع تلك الضربات .

وراحت الام تذرع الغرفة ذهابا وايابا ، وقد فقدت السيطرة على نفسها تماما . اما الأب فقد نهض من فراشه فى هدوء ، مما جعل سيريوجكا يشعر انه غدا عاجزا عن الحركة ، حيث اثقلته كل تلك الهموم . وقال بصوت رقيق :

– لا خيار امامنا . ونحن مضطرون الى فتح الباب .

وادرك سيريوجكا ان والده يبكى .

وخرج الأب الى الردهة يدق ارضيتها بعكازه وهو يقول :

– سنفتح . . سنفتح !

وانزلق سيريوجكا فى خفة فى اثر والده .

وهرولت الأم الى الردهة ، حيث حركت شيئا معدنيا من مكانه ، لتفوح رائحة الصقيع وعلى ما يبدو . وفتح الأب باب المدخل وانتحى جانبا فيما ظل ممسكا به .

ودلف الى الداخل ثلاثة اشباح لفها الظلام ، الواحد تلو الآخر ، من تلك الزاوية التى تسلل منها ضوء القمر . واغلق آخرهم الباب من خلفه ، ولتغمر المدخل اشعة مصباح كهربائى كبير ووقع الضوء فى البداية على الأم التى كانت تقف الى جوار الباب المفضى الى البناية الملحقة بالمنزل – زريبة الأبقار . وقد شاهد سيريوجكا من مكانه الذى خيمت عليه الظلمة ، الباب الذى انزلق ترباسه مفتوحا بعض الشىء ، وفطن الى أن امه قد فتحته خصيصا من اجله . بيد ان اشعة المصباح الكهربائى استقرت فى تلك اللحظة على الأب وسيريوجكا الذى اختفى وراءه . . حيث لم يكن يظنهم سوف يسلطون اضواء مصباحهم على الردهة ، وكان يحدوه امل الانزلاق الى الفناء حين يدلفون الى داخل الغرفة .

وامسك به جنديان من يديه ، لتعلن آلام ذراعه عن نفسها فى صيحة اطلقها . وصارا يجرجرانه الى داخل الغرفة .

وصرخ سوليكوفسكى فى الأم :

– فلتشعلى الضوء . ما لك تقفين هكذا كما الأميرة !

وارتجفت يدا الأم لتفشل طويلا فى اشعال المصباح ، ليقوم

سوليكوفسكى بنفسه باشعاله من ولاعته . وكان احد جنود الاس اس وفينبونج هما اللذان امسكا بسيريوجكا .

وما كادت الأم تراهم على هذا الحال حتى انفجرت فى البكاء وارتمت تحت اقدامهم . وقد اخذت تزحف على الأرض بقوامها الكبير تتشبث فى الأرض بيديها البضتين اللتين حملتا آثار الكبر . أما الأب فقد لبث واقفا وقد مال بقامته حتى الأرض متكئا على عكازه فيما تعترى الرجفة جسده .

وفرغ سوليكوفسكى من تفتيش المنزل بسرعة ، حيث لم تكن تلك هى المرة الأولى التى يقوم فيها بتفتيش مسكن آل تيولينين . وتناول الجندى من جيب سرواله حبلا وراح يقيد به يدى سيريوجكا خلف ظهره .

– انه ابنى الوحيد . فلتشفقوا علينا . خذوا كل ما نملك . . البقرة ، والملابس .

ويعلم الله وحده كل ما قالته آنذاك . . وما اشد شفقة سيريوجكا عليها ، لدرجة انه خاف التفوه بشىء خشية الانفجار فى البكاء .

وامر فينبونج الجندى باقتياده .

وصارت الأم تحاول الحيلولة دون ذلك الا انه دفعها بقدمه فى تقزز .

ودفع الجندى سيريوجكا ثم تقدمه ، بينما انصرف فينبونج وسوليكوفسكى فى اثرهما . والتفت سيريوجكا يقول :

– وداعا يا ماما . . وداعا يا والدى .

واندفعت الأم نحو فينبونج وراحت تضربه بقبضتيها اللتين كانتا ما تزالان قويتين فيما تصيح :

– يا ايها القتلة . . ان قتلكم ليس كافيا . . فلتنتظروا حالما تجىء قواتنا !

– آه منك . . يبدو انك تريدين العودة من جديد . .

زار سوليكوفسكى بتلك الجملة واخذ يجر ، على الرغم من توسلات «الجد» بصوته المبحوح ، الكسندرا فاسيليفنا الى الشارع فى ردائها الخفيف التى كانت ترتديه دائما أثناء نومها الى الشارع . الا أن «الجد» استطاع بالكاد ان يرمى اليها بمعطفها وشالها .

الفصل الرابع والستون

ولزم سيريوجكا الصمت حين راحوا يضربونه ، ولزمه ايضا حين راح فينبونج يلوى ذراعيه ، يدفعه نحو التعذيب ، ولزمه كذلك متحملا تلك الآلام الرهيبة التى راحت تعلن عنها ذراعه . ولم يصر سيريوجكا على اسنانه الا عندما طعن فينبونج جرحه .

وكم كان مفعما بالحيوية والنشاط لدرجة مذهلة . فقد اودع زنزانة انفرادية ، الا انه سرعان ما اخذ يدق جدرانها ، يحاول معرفة جيرانه بالزنزانتين المجاورتين . وشب على اطرافه يتمعن النظر الى ذلك الشق الكائن تحت السقف وكانما يفكر فى امكانية توسيعه والانزلاق عبره ولو الى فناء السجن . فقد كان على يقين من قدرته على الهرب اذا ما خرج من هذا المكان . وجلس يتذكر مواقع النوافذ فى تلك الغرفة التى جرى بها استجوابه وتعذيبه ، وما اذا كان باب الردهة الذى يفضى الى الفناء مغلقا بالقفل . آه لو لم تكن ذراعه مصابة ! كلا . . انه لم يكن يعتقد بعد فى انه خسر كل شىء . فقد ترامى هدير المدفعية على نهر الدونيتس الى داخل الزنزانات فى تلك الليالى القمرية الباردة .

وفى الصباح جرى مواجهته بفيتكا لوكيانتشينكو .

– كلا . . لقد سمعت انه يسكن الى جوارنا ، الا اننى لم اره قبل ذلك .

هذا ما قاله فيتكا فيما يتحاشى النظر الى سيريوجكا بعينيه المخمليتين الداكنتين ، اللتين لم يتبق له سواهما ينمان عن حياة .

اما سيريوجكا فقد لزم الصمت .

وقادوا فيتكا لوكيانتشينكو الى الخارج ، لتدخل بعد برهة قصيرة ام سيريوجكا برفقة سوليكوفسكى .

وانتزعوا ملابس المراة المسنة ، ام الاثنى عشر طفلا ، ورموا بها الى الاريكة الخشبية المضرجة بالدماء وراحوا يجلدونهـــا بالاسواط المجدولة من الاسلاك الكهربائية على مراى من ابنها .

ولم يدر سيريوجكا وجهه ، بل اخذ ينظر كيف يجلدون امه ، دون أن يقول شيئا .

ثم راحوا يجلدونه على مراى من امه ، دون أن يقول شيئا

كذلك ، ولدرجة أن فينبونج فقد السيطرة على نفسه ليمسك بقضيب حديدى يضرب به مرفق يد سيريوجكا السليمة . وامتقع وجه سيريوجكا وتلالات قطرات العرق على جبينه ليقول :

– والآن . . انتهى كل شىء .

وفى ذلك اليوم جاؤوا الى السجن بكل مجموعة المعتقلين من مستعمرة كراسنودون . وكانت غالبيتهم غير قادرة على السير ، مما جعلهم يجرونهم ممسكين بهم من تحت ابطهم ليلقوا بهم الى تلك الزنزانات المكتظة عن آخرها . وكان كوليا سومسكوى ما يزال قادرا على الحركة ، الا أن احدى عينيه كانت قد فقأت وتورمت . اما توسيا يليسيينكو ، تلك الفتاة المفعمة بحب الحياة والتى صاحت يوم شاهدت الحمامة البيضاء تشق الأجواء الى أعالى السماء ، فلم يكن بامكانها سوى التمدد على بطنها . ذلك لأنه قد جرى اجلاسها فوق موقد ساخن قبيل اقتيادها الى هذا المكان .

وما كاد الجدد يدخلون حتى دلف جندى الشرطة الى زنزانة الفتيات لاقتياد ليوبكا . وكانت كل الفتيات وكذلك ليوبكا على يقين من أنه سوف يجرى اعدامها ، ولذا فقد توادعت معهن قبيل اقتيادها .

بيد انهم لم يعدموها ، بل جرى ارسالها الى روفنكى ، وفقا لطلب الحاكم العسكرى للمقاطعة الميجور جنرال كلير الذى اراد استجوابها بنفسه .

وكان يوم تسليم الماكولات والرسائل الى السجناء ، شديد البرودة يخيم عليه الهدوء الذى تتعالى فيه اصوات البلطة حين تضرب الأخشاب ، والدلو حين يصطدم بالمياه ، ودبيب خطوات المارة ، يحملها الهواء الذى تالق تحت الشمس وضياء الثلوج . وقامت يليزافيتا الكسييفنا وليودميلا ، بربط صرة الماكولات ، وقد كانتا تفعلان ذلك سوية دائما ، وتناول الوسادة التى طلبها فولوديا فى آخر رسالة بعث بها ، وانطلقتا تقطعان الممر الذى مهد عبر الثلوج فى الأرض القفرة تقصدان مبنى السجن المستطيل الذى بدا بجدرانه البيضاء وسقفه الذى غطته الثلوج وكانما تمازج مع ما حوله .

وكانت الأم والابنة على درجة من النحافة جعلتهما قريبتى الشبه ، كل من الأخرى مما غدا معه ممكنا اعتبارهما شقيقتين . كما

وتحولت الأم التى كانت دائما متوقدة الحركة ، حادة التصرفات الى مجرد نسيج من الأوتار العصبية .

وقد ادركت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا ان شيئا غير طيب على وشك الحدوث ، حيث اعلنت عن ذلك نبرات النسوة اللاتى احتشدن الى جوار السجن ، ولأنهن كن يحملن الصرر دون ان تتحرك اى منهن الى بوابته . وقد وقف كعادته عند مدخل السجن حارس المانى يتحاشى النظر الى النسوة ، بينما اعتلى الشرفة شرطى يرتدى معطفا فرائيا اصفر ، الا انه رفض تسلم اية رسائل .

ولم تلتفت يليزافيتا الكسييفنا او ليوسيا الى الواقفات الى جوارهما حيث كن جميعهن يلتقين يوميا فى نفس المكان .

ووقفت أم زيمنوخوف ، وهى عجوز نحيفة صغيرة ، الى جوار درج المبنى تمسك فى يديها صرة ولفة ، تمدهما الى الأمام قائلة :

– فلتسلمه ولو بعض الماكولات . . .

وذكر الشرطى دون ان ينظر اليها :

– لا داعى . . اننا سوف نطعمه بأنفسنا . . .

– لقد طلب ملاءة .

– اننا سوف نصرف له اليوم فراشا طيبا .

وتوجهت يليزافيتا الكسييفنا الى المدخل لتتساءل بصوتها الحاد :

– لماذا لا تتسلمون الرسائل ؟

ولم يجب الشرطى بشىء ، دون ان يعيرها اهتماما .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا فيما تنظر الى النسوة حولها :

– لسنا فى عجلة من امرنا ، وسوف ننتظر حتى يخرج من يجيبنا .

وهكذا ظلت النسوة يقفن امام السجن وحتى تعالى وقع اقدام كثيرة فى الفناء وتقدم من يفتح البوابة . وكانت النسوة تستفدن دائما من تلك الحالات لتوجهن أنظارهن الى النوافذ التى تطل على هذا الجانب من السجن . وقد كن احيانا يستطعن رؤية أولادهن القابعين فى تلك الزنزانات . واندفعت النسوة نحو الجانب الأيسر من البوابة التى خرج منها بعض الجنود تحت امرة الرقيب بولمان لتفرقتهن وطردهن بعيدا .

وتراجعت النسوة ليعدن الى اماكنهن من جديد . كما وعلت اصوات بعضهن وتنحت يليزافيتا الكسييفنا وليوسيا جانبا تراقبان فى صمت ما يجرى .

وذكرت ليوسيا :

– سوف يجرى اعدامهم اليوم .

وذكرت يليزافيتا الكسييفنا بصوت مبحوح اجش فيما تشع عيناها على نحو يتسم بالرهبة :

– لا أطلب من الله سوى شىء واحد . . اننى أطلب منه الا يدعه مهيض الجناحين ، والا تعتريه الرجفة امام هؤلاء الكلاب ، وأن يبصق فى وجوههم .

وفى تلك اللحظات كان أولادهن يعيشون آخر مراحل عذابهم ، واكثرها هولا .

وقد وقف زيمنوخوف فاقد القوى أمام بريوكنر فيما تسيل الدماء على وجهه ، ويميل راسه فى وهن لكنه كان يبذل قواه ليرفعه ، وحتى استطاع فى نهاية الأمر ذلك ليتكلم بعد اربعة اسابيع من الصمت المطبق :

– هيه أوعجزتم عن ذلك ؟ انكم عاجزون ! . . كم من البلدان استوليتم عليها . . وتخليتم عن الشرف والضمير ، ومع ذلك فانتم عاجزون . . انكم لا تملكون القوة .

ثم انفجر ضاحكا .

وفى وقت متأخر من المساء جاء جنديان المانيان الى الزنزانة باوليانا التى امتقع وجهها ، وتدلت ضفيرتاه على الارض والقيا بها الى جوار الحائط .

وتاوهت اوليانا لتنقلب على بطنها ، ثم نادت ايفانيخينا الكبرى :

– ليليتشكا . . فلترفعى بلوزتى . . يلسعنى ظهرى . . .

وتقدمت ليليا التى كانت تتحرك بالكاد ، والتى كانت رغما عن ذلك قد واصلت عنايتها برفيقاتها حتى اللحظة الأخيرة ، ترفع فى حرص بلوزتها المضرجة بالدماء ، لتتراجع الى الوراء فى فزع وتنفجر باكية ، فقد وقع نظرها على نجمة خماسية تلتهب دامية على ظهر اوليانا !

لن ينسى سكان كراسنودون تلك الليلة وحتى يوارى الثرى آخر فرد من ذلك الجيل . كان القمر بدرا يطل ناصعا يعشى الأبصار من مكانه فى كبد السماء . وكانت الرؤية واضحة لمسافة عشرات الكيلومترات ، بينما خيم الصقيع شديـــــدا لا يطاق . وتوهجت الأضواء هناك بالشمال وعلى طول نهر الدونيتس ، وترامى الى الأسماع هدير المعارك الكبيرة والصغيرة تارة قويـــا ، واخرى ضعيفا .

ولم ينم احد من الأقارب فى تلك الليلة ، كما وليس الأقارب وحدهم ، حيث كان الجميع يعلمون انه سوف يجرى اعدام اعضاء «الحرس الفتى» . والتف السكان حول المصابيح الصغيرة ، واحيانا فى ظلمة الليل التى لفت شققهم ومنازلهم الباردة ، بينما كان البعض يهرول الى الفناء ليظل واقفا لفترة طويلة فى ذلك الصقيع يصيخ السمع ، فقد يتناهى اليه صوت ما او هدير محرك او طلقات رصاص .

كما ولم ينم احد فى الزنزانات عدا اولئك الذين كانوا قد فقدوا وعيهم . وقد شاهد آخر اعضاء «الحرس الفتى» الذين اقتيـــدوا للتعذيب ، وصول عمدة المدينة ستاتسينكو . وكان الجميع يعلمون ان العمدة يصل دائما قبيل عمليات الاعدام والتى تتطلب توقيعه على الحكم الخاص بها .

كما وكان المعتقلون بالزنزانات يسمعون هدير المعارك التى تدور رحاها على نهر الدونيتس .

واخذت تدق جدار زنزانة جيرانها الشباب اوليانا ، التى تمددت على جانبها نصف راقدة ، مستندة الى الجدار براسها :

– هل تسمعون يا شباب . . هل تسمعون ؟ تجلدوا . . قواتنا قادمة . انها قادمة رغما عن كل شىء .

وتعالى بالردهة دبيب اقدام الجنود وصفق ابواب الزنزانات . وبدات عملية اخراج المعتقلين الى الردهة ثم الى الشارع عبر المدخل الرئيسى ، وليس عبر الفناء . وبدات الفتيات اللاتى كن يجلسن فى الزنزانة فى معاطفهن وستراتهن تساعد كل منهن الأخرى فى ارتداء غطاء الراس او عصب المناديل . وقامت ليليا بمساعدة انيا سوبوفا ، أما شورا دوبروفينا فقد ساعدت صديقتها الحبيبة مايا .

وكتبت بعض الفتيات آخر الرسائل وقمن باخفائها وسط الملابس المستعملة .

وكانت اوليانا قد تسلمت مع رسالة المرة الماضية الملابس الداخلية النظيفة ولذا فقد بدات اليوم تجمع ملابسها المستعملة فى صرة . الا أن الدموع خنقتها فجاة ، ولدرجة انها لم تستطع التحكم فيها فتناولت ملابسها المضرجة بالدماء وغطت بها وجهها ثم لزمت مكانها فى زاوية الحجرة لتظل بلا حراك بعض الوقت .

وجرى نقلهم الى الأرض المقفرة التى تغمرها اشعة القمر ، واجلسوهم على متن عربتى نقل . وكان اول من ألقى به الى العربة ستاخوفيتش الذى حملوه فاقد الوعى والقوى تماما . ولم يكن كثير من اعضاء «الحرس الفتى» قادرين على السير بأنفسهم . وقد حملوا كذلك الى العربة اناتولى بوبوف الذى كانوا قد قطعوا خف قدمه . كما وقام راجوزين وجينيا شيبيليف بمساعدة فيتيا بيتروف الذى فقأت عيناه . أما فولوديا اوسموخين فقد سار بنفسه مبتور الذراع . وحمل توليا اورلوف وفيتيا لوكيانتشينكو زميلهما فانيا زيمنوخوف . وخرج سيريوجكا تيولينين يسير مترنحا فى اثرهم .

وجرى نقل الصبية فى عربة والفتيات فى العربة الأخرى .

وصفق الجنود حافتى صندوقى العربتين المكتظتين ، ثم تسلقوا ليعتلوا متنهما عبر حوافيها الجانبية ، بينما احتل فينبونج مكانه الى جوار سائق العربة الأولى . وتحركت العربتان تنهبان الطريق عبر الأرض المقفرة الى جوار مبنى مستشفى الأطفال ومدرســـة فوروشيلوف . وكانت العربة الأمامية تحمل الفتيات . وبدات اوليانا وساشا بونداريفا وليليا يغنين :

عذبك الاسر طويلا
لكن استشهادك كان مجيدا . . .

وانضمت الفتيات اليهن ؛ كما وبدا الصبية بالعربة الثانية فى الغناء كذلك ، ليحمل الهواء البارد الساكن غناءهم بعيدا بعيدا .

واتخذت العربتان حين انعطفتا الى يسار آخر البيوت طريقها نحو المنجم رقم ٥ .

واخذ سيريوجكا الذى اتكا بظهره على حافة صندوق العربة



الخلفية يستنشق الهواء البارد فى نهم . وها هما العربتان تتجاوزان المنعطف المفضى الى ضواحى المدينة ، مما يعنى أنهم سرعان ما سوف يتجاوزون الوهدة . كلا . . لقد كان سيريوجكا يدرك انه ليس قادرا على ذلك ، الا أن زميله كوفاليف كان يجثو أمامه على ركبتيه فيما قيدت يداه خلف ظهره . لقد كان ما يزال قويا ولذا قيدوا يديه . ودفعه سيريوجكا برأسه ليلتفت اليه ، وهمس سيريوجكا مومئا برأسه جانبا :

– تولكا . . . الوهدة قريبة .

والقى توليا كوفاليف بنظرة جانبية نحو كتفه وهز يديه المقيدتين . وهبط سيريوجكا يقترب من وثاقه بأسنانه . وقد كان سيريوجكا على حالة من الضعف الشديد جعلته يستند من آن لآخر الى حافة العربة وقد غطت قطرات العرق جبينه . لكنه راح يقاوم وكانما يقاوم فى سبيل بقائه . وها هو الوثاق يفك . وقام كوفاليف بتحريك يديه اللتين ظلتا خلفه كما فى السابق .

وتعالى غناء الصبية والفتيات :

سوف ينهض المنتقم الجبار
وسوف يكون اقوى الاقوياء

وهبطت العربتان الى الوهدة ، وبدأت الأولى تصعد المنحدر الآخر . كما وراح هدير محرك الثانية يعلو فيما تدور عجلاتها بأسرع ما يمكن ودون تقدم يذكر ، وحتى بدأت اخيرا فى صعود ذلك المنحدر . وقفز كوفاليف من العربة وهرب عبر الوهدة .

ومضت أولى لحظات الارتباك لتكون العربة قد غادرت الوهدة ، وليغيب كوفاليف عن الأنظار . ولم يتجاسر الجنود على القفز من العربة حتى لا يهرب المعتقلون الآخرون ، واخذوا يطلقون نيرانهم كيفما اتفق . وما أن سمع فينبونج صوت طلقات الرصاص حتى توقف بعربته الأولى وقفز من مكانه بها وتوقفت العربة الأخرى كذلك . واخذ صوت المخنث فينبونج يعلو بالسباب .

– لقد هرب !.. لقد نجا !

صاحها سيريوجكا بصوته الرقيق فى فرحة هائلة ، ثم اخذ

يطلق اقذع الشتائم التى كان يعرفها . بيد أن هذه الشتائم بدت على لسان سيريوجكا كما القسم المقدس .

وها هو برج المنجم رقم ٥ يبدو مائلا بعد تفجيره .

وبدأ الصبية والفتيات ينشدون «الأممية» .

وجرى انزالهم جميعا الى مبنى الحمام التابع للمنجم ، حيث لبثوا جميعا ينتظرون قدوم بريوكنر وبالدر وستاتسينكو . وشرع رجال الشرطة فى تجريد من كان يرتدى ثيابا جيدة وينتعل أحذية لم تبل بعد ، ليصادرها لنفسه .

واستطاع أعضاء «الحرس الفتى» توديع كل منهم الآخر . كما وتوجهت كلافا كوفاليفا نحو فانيا لتجلس الى جواره وتضع يدها على جبينه ، لتظل معه الى الأبد .

وجرى اقتيادهم فى مجموعات صغيرة ، حيث راحوا يلقون بهم الواحد تلو الآخر الى بئر المنجم . وقام كل من استطاع منهم برفع صوته ببضع كلمات ودّ ان يتركها لهذا العالم .

وقد خشى الألمان الا يكون ذلك نهاية عشرات المعتقلين الذين القوا بهم الى اعماق البئر ، فقاموا بالقاء عربتى ترولى لتستقرا فوقهم تسدان فوهة ذلك البئر . بيد أن الأنين راح يترامى لبضعة أيام من بئر المنجم .

مثل فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف واوليج كوشيفوى قبالة الحاكم العسكرى كلير ، وقد أحكم وثاق معاصمهما . ولم يكونا يعرفان أنهما رهينى سجن واحد فى روفينكى طوال تلك الفترة التى قضياها معا . بيد أنهم جاؤوا بهما اليوم سويا مقيدى الأيدى ، مشدودين احدهما الى الآخر ، لمواجهة كل منهما بالآخر على أمل ارغامهما على الاشارة الى كل شبكة العمل السرى ، وليس فى المنطقة وحسب ، بل وفى المقاطعة بأسرها .

وعن السبب الذى دعاهم الى تقييدهما نقول انهم كانوا يخشونهما مفكوكى الوثاق . كما وكان الأعداء يودون اثبات أنهم يعرفـــون دورهما فى المنظمة .

كانت شعيرات راس فيليب بيتروفيتش التى خطها الشيب قد

التصقت بجبهته المضرجة بالدماء الجافة ، كما والتصقت كذلك بجراحه ثيابه التى تمزقت ، لتسفر كل حركة تند عنه عن آلام رهيبة ، الا انه لم يبد اى شيء من ذلك . وقد جعلته الآلام الفظيعة والجوع اكثر نحافة ، لتبدو واضحة قسمات وجهه المفعمة بالقوة والتى كانت تميزه فى سنى صباه ، وتدل على مدى قدراته المعنوية العظيمة . اما عيناه فقد كانتا كالعادة تتسمان بالهدوء والصرامة .

وقف اوليج وقد اسدل ذراعه المصاب فى وهن ، بوجه لم تتغير ملامحه تقريبا سوى ان الشيب كان يغطى فوديه . وكانت عيناه الكبيرتان اللتان تظللهما الأهداب الذهبية الداكنة ، تنظران على نحو اكثر تألقا مما مضى .

وهكذا لبثا يقفان قبالة الحاكم العسكرى كلير – زعيمان شعبيان ، احدهما شاب والآخر عجوز .

وقام كلير الذى كان قد اغرق فى ارتكاب جرائم القتل ولم يكن يجيد غير ذلك بانزال اقسى صنوف العذاب بهما . بيد انه يجدر بنا القول انهما لم يعودا يشعران بشيء ، حيث تبخرت روحاهما عاليا عاليا الى اسمى درجة يمكن ان تصل اليها روح الانسان العظيمة الخلاقة .

ثم جرت التفرقة فيما بينهما ، حيث اعيد فيليب بيتروفيتش ثانية الى سجن كراسنودون . فلم يكن التحقيق فى مسالة الورش المركزية قد استكمل بعد .

غير ان رفاق العمل السرى لم يستطيعوا تقديم العون للمعتقلين ، وليس فقط لتشديد الحراسة حول السجن ، بل ولأن المدينة كانت قد اكتظت بقوات العدو المنسحبة .

وقد لقى فيليب بيتروفيتش ونيكولاى باراكوف ورفاقهما نفس مصير اعضاء «الحرس الفتى» ، حيث جرى القائهم الى غياهب بئر المنجم رقم ٥ .

اما اوليج كوشيفوى فقد جرى اعدامه رميا بالرصاص فى نهار الحادى والثلاثين من يناير ، والقى بجثته مع جثث الآخرين الذين جرى اعدامهم فى نفس اليوم ، الى حفرة عامة .

هذا وقد ظلوا يعذبون ليوبا شيفتسوفا حتى السابع من فبراير

فى محاولة لمعرفة الشفرة والحصول على جهاز الارسال . كما واستطاعت قبيل اعدامها ارسال رسالة الى امها تقول فيها :

«وداعا يا امى . . ان ابنتك سوف تودع اطيب الثرى» .

وقد راحت ليوبا حين جرى اقتيادها لتنفيذ حكم الاعدام بترديد واحدة من احب الأغانى الى نفسها . .

هناك فى شوارع موسكو الرحبة . .

وقد اراد ضابط الاس اس الذى ساقها لتنفيذ حكم الاعدام فيها أن تجثو على ركبتيها حتى يستقر الرصاص فى ظهرها ، الا انها رفضت ذلك لتواجه الرصاص وجها لوجه .

الفصل الخامس والستون

لم يسمح فيليب بيتروفيتش حين طلب من بولينا جيورجيفنا تسليم العنوان الذى كان من المفروض ان يلجا اليه اوليج وفانيا توركينيتش ، بابلاغهما عمن هو كائن هناك وقد كان ذلك من باب الحذر والحيطة . كما وكان على علم بأن مارفا كورنيينكو التى كانت تقيم هناك سوف تخطر بروتسينكو او زوجته بقدومهما ، وحتى يستطيعا الاستفادة من جهود قائدى «الحرس الفتى» .

وقد كان ابلاغ فيليب بيتروفيتش هذا العنوان السرى للغاية لأوليج وتوركينيتش يعنى ضمنا مدى ثقته فيهما ، وتقديره لهما ، وقلقه على مصيرهما .

بيد أن فانيا ادرك على الفور أن هذا المكان يفضى الى الفدائيين على الرغم من أن بولينا جيورجيفنا لم تشرح لأوليج ماهية ذلك المكان الذى يبعث به وبتوركينيتش اليه .

كان توركينيتش وموشكوف الوحيدين بين اعضاء «الحرس الفتى» اللذين كانا قد بلغا مرحلة النضج والرجولة . وقد عانى كثيرا فانيا توركينيتش شان كافة الرفاق ، من عملية القبض على زملائهم . وقد انصرف بكل روحه الى التفكير فى كيفية انقاذهم . بيد أنه وعلى النقيض من رفاقه كان يرى الأحداث بشكل واقعى . ولذا فقد كان تفكيره بهذا الصدد يتسم بالطابع العملى .

ان اقرب الطرق للافراج عن اصدقائه هو الطريق الذى يفضى الى الفدائيين . وقد كان توركينيتش يعرف أن القوات السوفييتية موجودة فى أراضى مقاطعة فوروشيلوفجراد ، وانها تتقدم ، وكذلك حول الاستعداد للقيام فى كراسنودون بانتفاضة مسلحة . ولم يكن يشك قيد انملة فى انهم سوف يوكلون اليه ، هو الانسان ذو الخبرة العسكرية ، قيادة فصيل او على الأقل ، يوفرون له امكانية تشكيل مثل هذا الفصيل . ولذا وبدون أى تردد لجأ توركينيتش الى ذلك العنوان الذى سلمه اليه أوليج .

ولم ينف توركينيتش احتمال معرفة ادارات ونقاط الشرطة للقبه ، ولذا فلم يخاطر بحمل أية وثائق تدل على هويته . كما وانه لم يكن يملك اية وثائق باسم آخر ، ولم يسعفه الوقت للحصول على مثلها . واتخذ فانيا طريقه نحو الشمال دون اية وثائق . ولما كان معصمه الأيسر يحمل منذ طفولته الحرف الأول من اسمه ، فقد ظل اسمه كما هو ، ليغير لقبه فقط ويصبح : كرابيفين .

كان وضعه عصيبا ، حيث كان قوامه العسكرى المفرود وسنه لا يسمحان له بالاندراج فى زحمة اولئك الذين يستطيعون التنقل من مكان لآخر دون وثائق ودون عمل يمارسونـــه فى المؤخرة الألمانية ، ولا سيما فى تلك المناطق الكائنة على مقربة مباشرة من الجبهة . اما الأعذار التى كان يمكنه أن يسوقها لتبرير موقفه اذا ما وقع فى قبضة الجستابو او الشرطة فقد تصورها على النحو التالى . . لاذ بالفرار بعيدا عن الحمر الذين احتلوا الخوفوى روج بمقاطعة روستوف ، حين داهمت دباباتهم النجع بحيث لم يسعفه الوقت لأخذ ما يثبت هويته معه . بيد أن هذه الأعذار كانت تعنى كذلك حتمية الحاقه بالعمل فى مؤخرة الألمان او ارسالـــه الى المانيا .

وراح فانيا يسير ليل نهار متحاشيا تلك المناطق الآهلـــة بالسكان التى يمكن ، وفقا لتقديراته ، أن يصادف فيها رجال الشرطة ، تارة عبر البرارى واخرى عبر الطرق العامة ، ينتقى اكثر الأماكن بعدا عن الأنظار . وقد كان حين يشعر بنفسه مكشوفا من كافة الجهات ، يلجأ الى النوم نهارا حيث يواصل السير ليلا . كما

وتجمدت أطرافه فى ذلك الحذاء الذى انتعله ، ولا سيما حين كان يضطر الى التوقف عن الحركة ، علاوة على انه لم يكن يتناول طعاما على وجه التقريب . هذا وقد صلبت الآلام المعنوية نفسه . اما عن قدراته الجسمانية ، فقد كان جلدا ذلك الجلد الذى يستطيعه العامل الروسى ، وخاصة اذا كان شابا ، عاش خبرات مدرسة الحرب الوطنية .

وهكذا كان حاله حتى وصل الى مارفا كورنييتكو .

كانت القرية التى تسكنها مارفا ، بل ومنزلها نفسه وكذلك النجوع المجاورة دافيدوفو وماكاروف يار وغيرهما ، تغص بالقوات الألمانية . وكانت التحصينات الدفاعية القوية ترتفع على الشاطئ الأيمن من الدونيتس الشمالى ، كحالها على شاطئه الايسر . وقد فصلت الاستحكامات الدفاعية الألمانية بين الجزئين الشمالى والجنوبى لمقاطعة فوروشيلوفجراد ، ولدرجة أن الاتصال بين مارفا كورنييتكو وايفان فيدوروفيتش غدا مستحيلا تقريبا . كما وانه لم يكن هناك داعى لهذا الاتصال اليوم حتى اذا كان ممكنا . فقد قامت فصائل المناطق الشمالية بالمقاطعة بالتنسيق المباشر مع وحدات الجيش الأحمر ، واخذت تقاتل وفقا لأوامر قادة تلك الوحدات ، وليس تنفيذا لتعليمات ايفان فيدوروفيتش . اما فصائل المناطق الجنوبية التى لم يقترب منها خط الجبهة الا فى منتصف فبراير فقد كانت تقاتل وفقا لما تقتضيه الظروف . ذلك لأن بروتسينكو الذى كانت تفصله عنها عشرات بل ومئات الكيلومترات لم يكن قادرا على تقدير تلك الظروف ، وعلى قيادة تلك الفصائل .

ورحل فصيل بيلوفودسكى الذى كان موجودا به ايفـــان فيدوروفيتش بعيدا عن قاعدته فى قرية جورورديشى ، التى احتلها الألمان . وهكذا اصبح لا يملك قاعدته الدائمة ، ليقوم بالعمل فى مؤخرة الألمان وفقا لتعليمات القيادة السوفييتية . وفقدت مارفا الاتصال بايفان فيدوروفيتش وبزوجها كذلك . كما وفقدت الاتصال بكورنى تيخونوفيتش وبكل رجال فصيل ميتياكينسكى عموما ، حيث كان قد ترك قاعدته أيضا ، ذلك لأن القوات الألمانية استقرت فى منطقة ميتياكينسكايا التى راحت تشيد فيها تحصيناتها . هذا علاوة على أن توركينيتش وصل الى مارفا حين كانت يكاتيرينا بافلوفنا

قد رحلت منذ مدة بعيدة الى فوروشيلوفجراد ، وحيث انقطعت كافة الاتصالات بها .

كما وان لقاء مارفا وتوركينيتش لم يكن ليتم لولا جسارته وفطنته . وقد اسعده الحظ بأن مارفا صدقته على التو ، ودون اية وثائق . فلم تكن لديها اية فرصة للتحقق من كلمات توركينيتش . لقد استقبلت فى عدم اكتراث مصطنع نظرته الهادئة التى تتسم بالجدية التامة . كما ولحظت على التو وجهه النحيف الذى عكست قسماته الانهاك والجسارة ، وكذلك قوامه العسكرى المفرود وسلوكه المتواضع . لقد صدقته كما تصدق النسوة السلافيات . على التو وبدون خطأ . وللحقيقة فلم تبد له على الفور انها تصدق ما يقوله . الا ان ثمة اعجوبة اخرى قد حدثت . فحين اثبتت كونها مارفا كورنييفنكو ، تذكر فانيا موضوع جوردى كورنييفنكو واطلاق سراحه من معسكر الأسرى العسكريين ، والذى كان قد علم به من ايفان زيمنوخوف ومن الذين شاركوا فى تلك العملية ، وسألها ما اذا كانت صلة قرابة تربط فيما بينهما .

وذكرت مارفا وقد تألقت بالحيوية على حين غرة عيناها السوداوان اللتان ما زالتا تحملان امارات الشباب :

– ربما كذلك .

– لقد كان هؤلاء من شبابنا اعضاء «الحرس الفتى» هم الذين قاموا باطلاق سراحه . . .

وراح يقص عليها ما حدث .

وكانت مارفا قد استمعت الى هذه القصة من زوجها اكثر من مرة ، لتفرغ كل ما كان يتأجج من مشاعر العرفان فى قلبها ، قلب المرأة الأم ، تجاه اولئك الشباب الذين لم يكن فى استطاعتها ملاقاتهم ، لتغمر به فانيا كوركينتش . ولم يكن ذلك فى عبارات مجردة أو ايماءات ، بل قامت وببساطة باعطائه عنوان اقاربها فى ضواحى جورووديشى قائلة :

– ان خط الجبهة هناك على مسافة قريبة وسوف يقدمون لك العون هناك لعبوره .

واوما فانيا براسه ، حيث لم يكن يسعى من أجل عبور خط الجبهة ، بل كان يأمل فى الاتصال بالفدائيين الذين ينسقون مع

وحداتنا العسكرية . وقد كان قادرا على العثور عليهم هناك فى ذلك المكان الذى وجهته مارفا اليه .

كانا يتبادلان الحديث وراء التل فى البرارى وليس فى بيت مارفا بالقرية . واخذت الدنيا تظلم وقد ابلغته انها سوف ترسل اليه شخصا يرافقه فى عبور الدونيتس هذه الليلة ، ثم رحلت . ومنعه كبرياؤه وتواضعه عن أن يطلب منها طعاما . الا ان مارفا لم تكن ذلك الشخص الذى يمكن أن ينسى مثل هذه الأمور . وجاء ذلك العجوز قصير القامة الذى تبادل معه ايفان فيدوروفيتش ذات يوم ملابسه ، يحمل الى فانيا بعض الخبز المجفف فى غطاء راسه الشتوى ، وقطعة من الدهن . وراح العجوز الثرثار يهمس موضحا لفانيا انه لن يرافقه عبر الدونيتس لأنه لا يوجد اليوم مثل ذلك الشخص الذى يمكن أن يخاطر بحياته ليس فقط لمرافقة احد الفدائيين ، بل ولعبور النهر بنفسه . بيد انه ، اى العجوز ، سوف يشير له الى الطريق الأقرب والأسهل لعبور الدونيتس . واستطاع توركينيتش عبور الدونيتس ، ليصل بعد بضعة أيام الى قرية تشوجينكا النائية والواقعة على مسافة حوالى ثلاثين كيلومترا جنوبى جورووديشى . وراح يسير فى تلك المناطق التى صادفته فيها كثيرا تحصينات العدو ، ولاحظ بها التحركات الكبيرة للقوات الألمانية . وعرف فانيا من السكان المحليين ان نقطة شرطة غير كبيرة موجودة بالقرية التى كثيرا ما تعبرها الوحدات الألمانية تارة ، والرومانية تارة اخرى . كما وعرف فانيا ان تشوجينكا هى اقرب المناطق الآهلة بالسكان الى قرية فولوشينو التى تحتلها قواتنا ، والكائنة على شاطئ نهير كاميشنايا غير بعيدة عن مصبه فى نهر ديركول . ولذا فقد قرر الوصول الى تلك القرية مهما كلفه ذلك من جهد . وتوقع أن تكون ثمة اتصالات تربط ما بين السكان المحليين وقواتنا .

وهنا لم يكن حظه جيدا ، حيث القت الشرطة القبض عليه . وجرى اقتياده الى مبنى «الادارة الريفية» ، حيث شاهد ما يتعذر وصفه ، من مظاهر الانحطاط الانسانى – عربدة وسكر رجال الشرطة الروس القائمين على خدمة الألمان .

وجردوا توركينيتش من ملابسه ، ليتركوه فى ثيابه الداخلية ،

وقيدوا يديه وقدميه والقوا به الى القبو ذى الجدران التى حملت آثار الصقيع . وقد كان فانيا منهكا واهن القوى بعد تلك الرحلة ، ومعاناته ، وما هز كيانه اخيرا ، لدرجة أنه وعلى الرغم من تلك البرودة الرهيبة التى دفعت الرجفة والقشعريرة الى جسده ، غفا مكانه فوق تلك الحصيرة عفنة الرائحة التى وجدها بعد زحفه على ارضية هذا المكان الحقير .

واستيقظ فانيا على اصوات الغازات العادمة للسيارات والتى تصورها تحت تاثير النوم طلقات رصاص . كما وترامى الى سمعه دوى بعض العربات الكبيرة التى توقفت الى جوار الحائط . واهتزت الأرض فوق راسه ، وبعد برهة قصيرة انفرج باب القبو ليقع نظر فانيا تحت ضوء ذلك الصباح على رماة الرشاشات السوفييت الذين اقتحموا القبو فى ستراتهم المبطنة بالقطن . ووجه الرقيب الذى تقدمهم ضوء مصباحه الكهربائى نحو فانيا .

كانت مجموعتنا للاستطلاع التى اقتحمت القرية على متن ثلاث عربات المانية مدرعة غنمتها من العدو هى التى قامت باطلاق سراح توركينيتش . وقد كان هناك بالقرية علاوة على رجال الشرطة الذين جرى احكام وثاقهم جميعا ، سرية من الجنود الألمان لم يكن تعدادها يزيد عن سبعة مقاتلين وضابط وطباخ . وحين ظهرت العربات الألمانية المدرعة لم يعرها اى اهتمام الطباخ الذى كان يستعد لطهى بعض الطعام ، بل فرد قوامه قليلا ، وعلى اى حال ، استعدادا لاحتمال قدوم القيادة على متنها . أما وبعد بضع دقائق وحين غدا أسيرا ، قام بمنتهى الرغبة بالاشارة الى مكان نوم قائد السرية . واذ تقدم رماة الرشاشات السوفييت على اطراف أصابعه فى حذائه الغريب المصنوع من القش ، غمز بعينيه فى دهاء ووضع اصبعه على شفتيه قائلا «هس !»

وقد اقترح على توركينيتش العودة معهم الملازم أول قائد سرية الاستطلاع التى كان ينبغى عليها العودة الى وحدتها نظرا لنقص الوقود . غير أن فانيا رفض ذلك . وكان ذلك الحديث قد جرى فى تلك الساعة التى احاط فيها السكان المحليون بالعربات المدرعة ، يلاطفون جنود الجيش الأحمر ، يتوسلون اليهم حتى لا يغادروهم . وهنا يتضح أن ثمة شخصا سوف يبقى . . الناس ؟

ها هم ! وسوف يجد غيرهم الكثيرين الذين يتطلبهم الأمر . الاسلحة ؟ سوف يبدأ بتلك التى غنموها من الأسرى الألمان ، ثم يحصل على الباقى بنفسه ! ونرجو تقديم المساعدة فى الاتصال بوحداتنا عند كاميشنايا . . .

وهكذا بدأ فصيل ايفان كرابيفين الفدائى الذى بدأت شهرته تجوب كل ارجاء المقاطعة . وبعد أسبوع واحد كان الفصيل يضم ما يزيد عن أربعين مقاتلا مسلحين باحدث الأسلحة عدا المدافع . واتخذ الفصيل قاعدة له معمل ألبان بقرية الكسندروف ، مدافعا عن منطقة تشمل بضع قرى تقع فى مؤخرة الجبهة الألمانية . وقد فشل الألمان فى تطهير هذه المنطقة من فدائيى ايفان كرابيفين وحتى وصلت قواتنا .

غير أن فانيا لم يستطع انقاذ «الحرس الفتى» . فقد استقر خط الجبهة عند هذا القطاع وحتى العشرين من يناير . كما ولم تعبر القوات السوفييتية الدونيتس الشمالى الا فى فبراير ، علاوة على انه قد عبرته فى البداية تلك الوحدات التى راحت تعمل عند أعالى النهر ، فى منطقة كراسنى ليمان ، وايزيوم ، وبالاكليا .

لم يكن فانيا قد علم بالمصير المأساوى الذى لقيته غالبية زملائه أعضاء «الحرس الفتى» . بيد أنه كلما طالت مدة تأخر رحلته الى كراسنودون ، كلما زادت معاناته الروحية ، وكلما ارتقى فى نظره نحو الأسمى والأطهر والأشرف أولئك الفتيان والفتيات الذين قام معهم بكثير من الأعمال المجيدة والذين منحهم جزءا من قلبه .

وذات مرة ترددت عاملات معمل الألبان فى تنفيذ أحد أوامره ، واعترفن صراحة بأنهن يخشين الألمان . وعندئذ ذكر كرابيفين ، الذى هو ايفان توركينيتش ، بدلا من اعلان غضبه من الفتيات ، وفى نبرة ملؤها الأسى :

— آه . . ايتها الفتيات ! هل فتياتنا هكذا حقا ؟

وقام متناسيا كل شىء ، يحدثهن عن أوليانا جروموفا وعن ليوبا شيفتسوفا وغيرهما . وسكنت الفتيات ، وقد اعتراهن الخجل وان كن فى نفس الوقت وقعن أسرى نظرة عينيه المفاجئة المفعمة

بالسعادة . وتلعثم فانيا على حين غرة ، ليشيح بكلتا يديه ينصرف دون ان يكمل حديثه .

وفى فبراير فقط اقترب من كراسنودون فانيا توركينيتش الذى اندمج بفصيله فى وحدات الجيش الأحمر النظامية ، التى عبرت الدونتس الشمالى فى اثر عدد من المعارك .

وكان سكان كراسنودون قد عاشوا طيلة هذه الفترة كل الكوارث التى كان قد جاء بها الجيش الألمانى الهارب . فقد كانت وحدات الاس اس المنسحبة تنهب وتطرد السكان من اراضيهم وتفجر المناجم والمؤسسات وكل المبانى الضخمة الكائنة بالمدينة وفى كل ارجاء المنطقة .

وقد لقيت ليوبا شيفتسوفا حتفها قبل دخول الجيش الأحمر كراسنودون وفوروشيلوفجراد باسبوع واحد فقط ، حيث كانت الدبابات السوفييتية قد اقتحمت مدينة كراسنودون فى الخامس عشر من فبراير ، لترسى السلطة السوفييتية دعائمها عقب ذلك مباشرة .

وعلى مدى عدة ايام طويلة مضنية وفى حضرة حشد هائل من الناس ، قام عمال المناجم باخراج جثث البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء من بئر المنجم رقم ٥ . وطوال تلك الأيام لم تبارح اماكنهن امهات وزوجات الشهداء ، تستقبل كل منهن جثمان طفلها او زوجها المشوه لتحمله على يديها .

وكانت يلينا نيكولايفنا قد رحلت الى روفينكى فى تلك الأيام التى كان اوليج ما يزال فيها حيا . بيد انها لم تستطع ان تفعل شيئا لابنها . كما ولم يكن يعرف ان امه موجودة الى جواره .

واليوم وفى وجود ام اوليج وكل اقاربه قام سكان مدينة روفينكى باخراج جسدى اوليج وليوبا شيفتسوفا من الحفرتين اللتين ووريا فيهما .

ولقد كان من الصعب معرفة يلينا نيكولايفنا كوشيفايا فى تلك المراة المسنة الصغيرة ذات الوجنتين السمراوين المتهدلتين والعينين اللتين تعبران عن ذلك الأسى العميق الذى يهدم بقوة شديدة اناسا مخلصين ذوى قلوب طيبة . غير انه ولما كانت طوال تلك الأشهر عونا لابنها ، ولا سيما ان استشهاده كان سببا فى تلك الآلام ، فقد جسدت تلك القوى المعنوية التى جعلتها اقوى من

الالم والمعاناة . وبدت وكانما قد تهاوى قبالتها ستار المشاغل اليومية الذى كان يحجب عنها ذلك العالم الكبير الحافل بالنضال والجهود والرغبات البشرية ، لتدلف اليه فى اثر ابنها وتجد نفسها على الطريق الكبير ، طريق الخدمات الاجتماعية .

وفى تلك الأيام اتضحت تفاصيل جريمة اخرى من جرائم الألمان . فقد جرى الكشف عن مقبرة عمال المناجم فى ارض الحديقة العامة . وحين بداوا فى رفع التراب فى محاولة الكشف عنهم وجدوهم ، وقد ظهرت رؤوسهم فى البداية ثم اكتافهم ثم اجسادهم وايادهم . وبين هؤلاء كانت جثث فالكو وشولجا وبيتروف وتلك المراة التى ظهرت تحمل طفلها بين ذراعيها .

وقد جرى دفن جثث اعضاء «الحرس الفتى» والكبار التى جرى استخراجها من بئر المنجم رقم ٥ فى مقبرتين جماعيتين بالحديقة العامة .

وشارك فى مراسم الدفن كل الباقين من اعضاء منظمة البلاشفة للعمل السرى بكراسنودون واعضاء «الحرس الفتى» : ايفان توركينيتش وفاليا بورتس ، وجورا اروتيونيانتس واوليا ونينا ايفانتسوفا ورادیك يوركين وغيرهم .

وحصل توركينيتش على اجازة من وحدته التى بارحت كراسنودون فى اتجاه نهر ميوس كى يتمكن من توديع رفاقه الشهداء .

اما فاليا بورتس فقد تركت ضواحى كامينسك لتعود الى منزلها ، ولتبعث بها ماريا اندرييفنا الى اقاربهما فى فوروشيلوفجراد حيث استقبلت هناك الجيش الأحمر .

ولم يكن على قيد الحياة كذلك سيرجى ليفاشوف الذى لقى حتفه عند محاولته عبور خط الجبهة .

كما واستشهد ستيوبا سافونوف كذلك ، حيث كان موجودا فى ذلك القطاع من مدينة كامينسك الذى كان يسيطر عليه الجيش الأحمر ؛ وشارك فى الليلة الأولى لعملية الاقتحام ضمن قوام احدى الوحدات الفرعية فى المعارك ليلقى حتفه .

اما اناتولى كوفاليف فقد اخفاه احد العمال فى ضواحى المدينة . وقد كان جسده الضخم مصابا بالجروح فى كل مكان لدرجة انها

بدت وكأنما جرح واحد . ولم تكن هناك اية امكانية لتضميد تلك الجروح ، ولذا فقد حمموه بماء دافئ ولفوا جسده بملاءة . وقد لبث كوفاليف مختفيا بهذا المكان بضعة أيام ، الا أن الاستمرار فى ذلك كان أمرا محفوفا بالخطورة ، ولذا فقد رحل قاصدا اقاربه وليعيش فى ذلك الجزء من الدونباس الذى لم يكن قد حرر بعد .

وكان ايفان فيدوروفيتش بروتسينكو يتحرك طوال الوقت مع فصيله ، يتقدم القوات الالمانية المنسحبة يقاتلها بشكل مباشر فى مؤخرتها وحتى احتل الجيش الأحمر فوروشيلوفجراد . وهناك التقى ايفان فيدوروفيتش أخيرا مع زوجته كاتيا لأول مرة بعد فراقهما بالقرب من جورودیشی .

وقامت مجموعة الفدائيين بقيادة كورنى تيخونوفيتش وبتكليف من ايفان فيدوروفيتش باخراج العربة «جازيك» الشهيرة من تحت اطلال المحجر الكائن قريبا من قرية ميتاكينسكايا ، حيث كانت واقفة على اهبة الاستعداد ببنزينها ، بل وبصفيحة احتياطية كذلك ، خالدة مثل تلك الفترة التى صنعت فيها .

واستقل ايفان فيدوروفيتش وكاتيا هذه العربة وحتى كراسنودون . كما وصحبا معهما جوردى كورنييتكو للاقامة قليلا لدى زوجته مارفا . وهناك قامت مارفا بابلاغهم اخبار الألمان فى ايامهم الأخيرة بالقرية .

وقد قامت مارفا قبيل وصول القوات السوفييتية الى القرية بيوم واحد ، وبمرافقة ذلك الجد الذى رافق ذات يوم على عربته اقارب كوشيفوى ، واعطى ملابسه الى ايفان فيدوروفيتش ، بالذهاب الى الادارة الريفية حيث اقام مؤقتا رجال وجنود الشرطة الألمانية الهاربون من وراء الدونيتس . وهناك احتشد الى جوار المبنى كثير من السكان الذين كانوا يودون معرفة ما اذا كانت قوات الجيش الأحمر قريبة أم بعيدة ، بل وللاستمتاع بمنظر هؤلاء الألمان الهاربين .

وريثما كانت مارفا والجد يقفان الى جوار المبنى ، وصل احد رجال الشرطة على متن زلاقة عريضة ، تركها ليتقدم نحو الجد يسأله فى عجلة فيما تدور عيناه اللتان اتسمتا بمظاهر الجنون :

– أين السيد الرئيس ؟

وزر الجد عينيه مجيبا :

– السيد يقال انه سيد ، بينما انت ترى ان الرفاق يجدون فى اثره !

وعلا صوت رجل الشرطة الألمانى بالسباب ، لكنه كان على عجلة من أمره جعلته ينصرف دون ان يضرب الجد .

وهرول رجال الشرطة الى خارج المبنى فيما يمضغون شيئا فى افواههم ، ليعتلوا المزالق مسارعين بالهرب ، وقد تصاعدت الثلوج متطايرة فى اثرهم .

أما فى اليوم التالى فقد دخلت قوات الجيش الأحمر القرية .

وقد وصل ايفان فيدوروفيتش وكاتيا الى كراسنودون لتمجيد ذكرى البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء .

كما وكانت ثمة أمور أخرى تنتظر ايفان فيدوروفيتش ، فقد كان ضروريا الاهتمام باعادة بناء مؤسسة «فحم كراسنودون» ، وبعث المناجم من جديد . وعلاوة على ذلك فقد كان يود بنفسه معرفة تفاصيل استشهاد رجال العمل السرى واعضاء «الحرس الفتى» ، وكذلك مصير جلاديهم .

لقد استطاع سوليكوفسكى وستاتسينكو الهرب مع اسيادهما . أما المحقق كوليشوف فقد تعرف عليه سكان المدينة وجرى احتجازه وتقديمه للمثول أمام القضاء السوفييتى . وقد اتضحت عن طريقه اعترافات ستاخوفيتش والدور الذى لعبته فيريكوفا وليادسكايا فى القضاء على «الحرس الفتى» .

وقد أقسم من بقى حيا من رفاق البلاشفة واعضاء «الحرس الفتى» الشهداء ، عند مقبرتيهم على الانتقام لزملائه . كما وجرى تشييد نصبين مؤقتين عند هاتين المقبرتين يتمثلان فى مسلتين خشبيتين بسيطتين . وقد سجل احد هذين النصبين المقامين عند مقبرة رجال العمل السرى أسماءهم وعلى رأسهم فيليب بيتروفيتش ليوتيكوف وباراكوف ، أما نصب «الحرس الفتى» فقد سجل أسماء كافة اعضائها المقاتلين الذى استشهدوا فى سبيل الوطن .

وها هى اسماؤهم :

أوليج كوشيفوى ، ايفان زيمنوخوف ، أوليانا جروموفا ، سيرجى تيولينين ، ليوبوف شيفتسوفا ، أناتولى بوبوف ، نيكولاى

سومسكوى ، فلاديمير اوسموخين ، اناتولى اورلوف ، سيرجى ليفاشوف ، ستيبان سافونوف ، فيكتور بيتروف ، انطونينا يليسييفنكو ، فيكتور لوكيانتشنكو ، كلافديا كوفاليفا ، مايا بيجليفانوفا ، الكسندرا بونداريفا ، فاسيلى بونداريف ، الكسندرا دوبروفينا ، ليديا اندروسوفا ، انطونينا ماشينكو ، يفجينى موشكوف ، ليليا ايفانيخينا ، انطونينا ايفانيخينا ، بوريس جلافان ، فلاديمير راجوزين ، يفجينى شيبيليف ، انا سوبوفا ، فلاديمير جدانوف ، فاسيلى بيروجوك ، سيميون اوستابينكو ، جينادى لوكاشيف ، انجيلينا ساموشينا ، نينا مينايفا ، ليونيد داديشيف ، الكسندر شيشينكو ، اناتولى نيكولايف ، دميان فومين ، نينا جيراسيموفا ، جيورجى شيرباكوف ، نينا ستارتسيفا ، ناديجدا بيتليا ، فلاديمير كوليكوف ، يفجينيا كيكوفا ، نيكولاى جوكوف ، فلاديمير زاجورويكو ، يورى فيتسينوفسكى ، ميخائيل جريجوريف ، فاسيلى بوريسوف ، نينا كيزيكوفا ، انطونينا دياتشينكو ، نيكولاى ميرونوف ، فاسيلى تكاتشيف ، بافيل بالاجوتا ، دميترى اوجورتسوف ، فيكتور سوبوتين .

١٩٤٣-١٩٤٥-١٩٥١

محتويات

الفصل السادس والثلاثون ٥
الفصل السابع والثلاثون ١٨
الفصل الثامن والثلاثون ٣٤
الفصل التاسع والثلاثون ٤٧
الفصل الاربعون ٥٨
الفصل الحادى والاربعون ٧١
الفصل الثانى والاربعون ٨٥
الفصل الثالث والاربعون ٩٤
الفصل الرابع والاربعون ١٠٤
الفصل الخامس والاربعون ١١٨
الفصل السادس والاربعون ١٣٢
الفصل السابع والاربعون ١٤٥
الفصل الثامن والاربعون ١٥٤
الفصل التاسع والاربعون ١٦٧
الفصل الخمسون ١٧٦
الفصل الحادى والخمسون ١٨٤
الفصل الثانى والخمسون ١٩٩
الفصل الثالث والخمسون ٢٠٧
الفصل الرابع والخمسون ٢٢١
الفصل الخامس والخمسون ٢٣٨
الفصل السادس والخمسون ٢٥٦
الفصل السابع والخمسون ٢٧٤
الفصل الثامن والخمسون ٢٨٢
الفصل التاسع والخمسون ٢٨٩

الفصل الستون ٢٩٥
الفصل الحادى والستون ٣٠٨
الفصل الثانى والستون ٣١٩
الفصل الثالث والستون ٣٣٥
الفصل الخامس والستون ٣٥٥